تغريبة بني هلال

ورحيلهم

إلى بلاد الغرب وحروبهم مع الزناتي خليفة

وما جرى لهم من الحوادث والحروب المخيفة

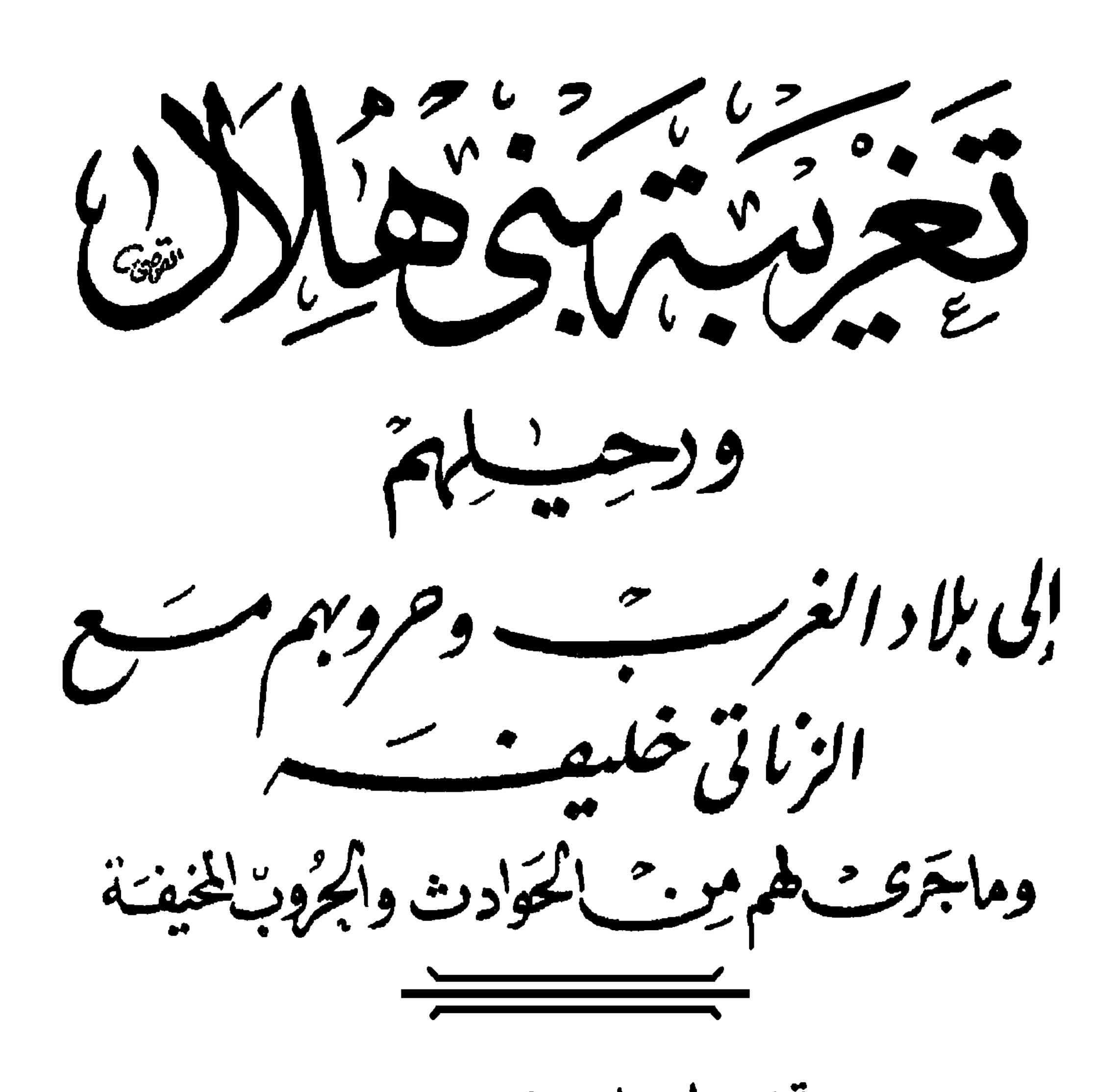
تحتوي على اثني عشر جزءا

يطلب من

مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده

بميدان الأزهر بمصر

تليفون ٤٨٥٨٠



وما جرى لهم من الحوادث والحروب المخيفة

تحتوي على اثني عشر جزءا

يطلب من
مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده
بميدان الأزهر بمصر
تليفون ٤٨٥٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد فلما كانت القصص والنوادر . موضوعة لإفادة الناس وتسلية الخواطر لا سيما قصة بنى هلال وما جرى لهم فى سالف الأجيال من الوقائع والأهوال التى تشيب الأطفال . فقد بادرنا بطبعها من أولها حتى آخرها وذكرنا رحيلهم من بلاد نجد إلى تونس الغرب واستخلاصهم تلك الممالك بالحرب وقتلهم الزناتى خليفة بعد حروب هائلة مخيفة فجاءت سيرة ظريفة مشتملة على نوادر وأخبار طريفة تتلذذ بسماعها النفوس والآذان والله المستعان .

إنه لا يخفى على أهل المعارف والآداب بأن بلاد نجد كانت من أخصب بلاد العرب كثيرة المياه والغدران والسهول والوديان حتى كانت تذكرها شعراء الزمان بالاشعار الحسان وتفضلها على غيرها نظراً لحسن هواها فيها وكانت منازل بنى هلال فى سالف الأجيال وما زالت على رونقها الاول حتى تغير قطرها واضمحل وانقطع عنها الحشيش والنبات وعم البلاد المجاعة من جميع الجهات ولم يبق فيها شىء من المأكولات حتى صارت أهلها تأكل الحيوانات واستمرت المجاعة سبعة سنين وذلك بعد الهجرة بأربع مائة سنة وستين ولما عظمت الأهوال واشتدت المجاعة على بنى هلال واجتمعت منهم المشايخ والشبان وقصدوا مضارب الأمير حسن بن سرحان فدخلوا وسلموا عليه وتمثلوا بين يديه وقالوا له عن فرد لسان إعلم يا ملك الزمان بأن الجوع قد اشتد وانقطعت المأكولات من نجد وإن طال علينا الحال نموت من عدم وجود القوت فإن لم تتدارك الأمر فى الحال انقرضت جميع بنى هلال وفقدت المواشى والأموال (قال الراوى) فلما سمع الأمير حسن هذا الخطاب استعظم المصاب وكان عنده جماعة من السادات الأماجيد والفرسان الصناديد منهم البطل الهمام وليث الآجام الذى شاع ذكره بين الانام وعلا قدره لأنه يطعن الرمح وضرب الحسام أبو زيد فارس الصدام والأمير دياب بن غانم البطل المقدام والقاضى بدير بن فايد السيد الماجد فأخذوا يتذكرون فى هذا الشأن ساعة من الزمان فاستقر من رأيهم على الرحيل من تلك الديار قبل حلول الدمار ثم قال الامير حسن لأكابر القوم قوموا بنا نتنحى ونتفقد أحوال القبيلة فى هذا

وخليك ياطنجير ملقى على الثرى وتأكل عظامك ياسعيد سباع
لأنك غـدرت بحق سيدك وتركتـــه فى ذلة ونزاع
مقال الفتى يحيى مخاصم من طغى فلا بد منا ما تشوف صداع

(قال الراوى) فلما فرغ يحيى من شعره ونظامه وفهم سعيد فحوى كلامه زاد عليه الحال واستعظم ذلك الملك وصاح على بالجلاد يقطع رأس الثلاثة شعراءقصاصاً لهم على ذلك الافتراء فنهض يونس على الأقدام واعتذر إليه بالكلام وقال إن هؤلاء الشعراء من أوباش العربان لأنهم تكلموا بحضرتك مالا يليق من الكلام فإن أردت أن أنشدك أبياتاً ما سمعها قط إنسان إلا استحسنها غاية الإحسان فقال بارك الله فيك انشد وخذ مني ما يرضيك فإن صدرى ضاق وقلبي يحدثني بالفراق فأنشد يونس يقول وعمر السامعين يطول :

قال يونس من فؤاد التهب والدمع من عينى غدا هطالها
هذا كلامى فيك يا أمير الملا الله يعطى نفسنا آمالها
إنى أمير بالحروب مجرب منى تشيب من الحرب ابطالها
ما عدت تنجو يا سعيد العبد لا والروح منك فى حسامى زوالها
عندك فرس أبيض قمالك وقفته فإذا مشيت رن القدم خلخالها
حسناً مليحة ما رأينا مثالها فى اطفها وبظرفها وكمالهـــا
طول الرديني كأنها عود القنا فاقت على كل الناس بجمالها
الشعر منها مثل الليل أسود وعيونها مثـــل الغزلان نحالها
ياحسن الخلخال فوق كعابها الله يرحم عمـــها وخالها
إياك تقربها وتأتى صوتها تزديك فى ضرب جوز نسالها
فكأن روحك ياسعيد بيدها وأما مغامس بالردى خيالها
هى بنت عمه ما يريد خلافها حاشا لمثلك أن يشوف خيالها
إرجع عن الزينات واسمع كلمتى إنى نصوحك لاتكون هزالها
فقال الفتى اسمع ياسعيد أبو زيد قبلك كم ملوك أزالها

(قال الرواى) فلما فرغ يونس من شعره ونظامه فهم سعيد فحوى كلامه وعظم

عليه الأمر وتوقد قلبه بلهيب الجمر وقال لهم قد أحضرناكم يا لئام حتى تطاربونا بالشعر والنظام وتأخذون منى الجوائز والانعام ولكنكم أسأتم الادب وخرجتم عن سنة العرب وتكلمتم بما لا يليق امامى ولا اعتبرتم قدرى ومقامى فلابد من قتلكم على هذا الاخراق وكلام الزور والنفاق ، فلما انتهى من هذا المقال التقاه أبو زيد مثل السبع الآجام وضربه على رأسه بالحسام فقتله فى الحال وأورثه الخيال ثم إنه هجم على باقى العبيد وتبعه مرعى ويحيى ويونس الفرسان الصناديد ولم تكن إلا لحظة من الزمان حتى أنزلوا بهم الهوان ومسحوهم بالسيف الهندوان وبعد ذلك جمع ابو زيد سادات القبيلة والوجوه الكبار وقال لهم ها قد قتلت هذا العبد الغدار وجماعته الأشرار لأنهم قد طغوا وتجبروا فماتوا وانقبروا فلا رحم الله العبد اللئيم والوغد الذميم لأن مراده كان استخلاص المملكة من مغامس هذا اليتيم وأخذ إبنة عمه شاه الريم فرادى الآن اقيمه امير مقام أبيه فما هو رأيكم وماذا تقولون فيه قالوا هو ابن مولانا وقد رضيناه علينا أميراً ونحن جميعاً عبيده وطوع يديه ولا نبخل بأرواحنا عليه فعند ذلك ركب أبو زيد الحصان وركبت معه الأبطال والفرسان والسادات والأعيان وقصد الامير مغامس إلى ذلك المكان ومعهم الطبول والزفوف وهم زائرين صفوف حتى وصلوا اليه فسلموا وتمثلوا بين يديه وأعلمه أبو زيد بواقعة الحال وكيف أنه قتل ذلك العبد المحتال ففرح مغامس بهذا الخبر وزال عنه القلق والضجر ثم أحضره إلى الحلة مع أمه بموكب عظيم ورقوا عليه ابنة عمه شاه الريم وأجلسه على الكرسى مكان أبيه وسارت العرب تمدحه وتهاديه لأنه كان ميت فعاش وتخلص من أيدى أولئك العبيد الاوباش فشكروا أبو زيد ومرعى ويحيى ويونس على ذلك الصنيع وتعجب من ذلك الاتفاق الذى لم يسمع مثله فى التواريخ والجامع وأراد أن يمنعهم عن السفر إلى تونس وأن يبقوا عنده فيزيد فرحه بهم ويستأنس فقال أبو زيد لابد من سفرنا وها أنت أمنت من الخطر ثم قام أبو زيد فى هذه الحالة ثلاثة أيام فى فرح وسرور وغبطة وحبور وبعد ذلك ودع الامير مغامس وسار مع مرعى ويونس قاصدين مدينة تونس وهم يجدون فى قطع الروابى والتلال (قال الراوى) وصلت بنى هلال إلى مكة المشرفة وقلوبهم على زيارة المصطفى

متاهفة وبعد أن زاروا القبر والمقام وأدوا واجبات الوقار والاحترام اجتمعوا في بيت شكر الشريف بن هاشم المنعوت بالشرف والمكارم وهو زوج الجازية أخت الأمير حسن وأعلموه السبب في خروجهم من الوطن فترحب بهم وأكرمهم غاية الإكرام وأقاموا عنده مدة ستة أيام وكانت الجازية من أفراح أهل الدنيا بمشاهدة أبو زيد ومرعى ويحيى ويونس ثم إنهم ركبوا وساروا يقطعوا البرارى والآكام حتى أشرفوا إلى بلاد الاعجام فدخلوا عليها وداروا فى أسواقها وبعد ذلك رحلوا من تلك الديار وأوصلوا سير الليل بسير النهار حتى وصلوا إلى بلاد التركمان فدخلوا على ملكها الغضبان ومدحوه بالقصائد الحسان فأكرمهم غاية الإكرام وأجازهم بنفائس الانعام ومن هناك ركبوا الخيول وجدوا فى قطع البرارى والسهول إلى أن وصلوا إلى عند الخفاجى عامر حاكم بلاد العراق فدخلوا وسلموا عليه وتمثلوا بين يديه فرد عليهم السلام وأجلسهم بجانبه فى صدر المقام وأكرمهم غاية الإكرام ثم إن أبو زيد أخذ يمدح الخفاجى عامر بهذه الأبيات على مسامع الأمراء والسادات :

يقول الأديب قصيد من ألم الحشا ... وعقلى تراه قد غدا محتار
وعينى من كثر البكا قل شوفها ... جرى دمعها فوق الخدود غزار
بكمت وبكائى زمانى وكادنى ... وأصبحت عريانا بغير ستار
يا خفاجى استمع شرح قصتى ... واصغى لقولى مع الاخبار
جئنا أراضينا من المحل والغلا ... سبع سنين تقصف الأعمار
أكلنا الضفادع والجوادين كلها ... وصرنا على وحش الفلا ندار
فصارت أكابرنا وكل قرومنا ... يبكوا ودمعات العيون غزار
فجئنا لنحوك نستظل بظلك ... يا فارس الفرسان يا مغوار
فهذه ترى أحوالنا ومقامنا ... ودمع جرى فوق الخدود غزار

(قال الراوى) فلما انتهى أبو زيد من شعره ونظامه وفهم الخفاجى عامر فحوى كلامه وأجازهم بالجوائز الحسان ثم قدم لهم الطعام فشكروه على هذا الاهتمام وأقاموا عنده ثلاثة أيام فى عز وإكرام ثم ودعوه وجدوا فى قطع البرارى والآكام الشم وكانوا قد تعبوا من مسافة السفر فنزلوا عن خيولهم واستظلوا تحت أغصان الشجر فى بستان

(قال الراوى) وكان أمير المدينة فى تلك الأيام رجلا عالى المقام ممدوحاً من الخاص والعام اسمه الامير بدريس وهو رجل لطيف أنيس وكان له وزير عاقل خبير اسمه الخزاعى وهو صاحب رأى وتدبير فاتفق ذات يوم أنه خرج فى جماعة من القوم قاصد الصيد والقنص فمر بذلك البستان فوجد أبو زيد ومن معه فنهض أبو زيد على الأقدام وقال : أطال الله بقاك وبلغك غاية مناك إننا شعراء أتينا من بلاد الشرق قاصدين الملوك وأكابر الخلق وسمعنا بجودك فقصدناك إلى هذا المكان أملا بالانعام والإحسان لأنك فريد من الزمان وأولى بالمديح والشكران ثم انه عدل الرباب وأنشد هذه الابيات :

قال الأديب بيوت من ألم الحشا	ونيران قلبي زايدات اللهايب
اسمع كلامى يا أمــــير وافهم	وكن لقولى فاهما ثم حاسب
جفتنا أراضينا من المحل والغلا	وحلت بنا بعد السرور متاعب
وبعد ذلك قد دهتنا فوارس	ميتين ألف فوق خيل أصايب
فغاروا علينا يا أمير بجمعهم	وداروا علينا موكبا وكتايب
وساقوا سوق الغنم من بلادنا	وعدنا ندور على بلاد المغارب
فاكرم علينا يا أمير فاننا	صرنا بحال الذل بين الأغارب

(قال الراوى) فلما انتهى أبو زيد من هذا الشعر والنظام شكره الخزامى على هذا الكلام وقال لهم اعلموا ياشعار العرب وأصحاب الفضل والأدب أنى الخزاعي وزير بدريس أمير حلب فاقصدوا نهاراً إلى المدينة وأنا أخلع عليكم الخلع السنية فيزول عنكم العنا وتنالوا القصد والمنى ثم تركهم وساو وبعد أن غاب عنهم وابتعد أرسل أبو زيد والأمير يونس إلى البلد ليأتيهم من المأكل والمشرب لأنهم كانوا فى غاية الجوع والتعب فسار بالعجل وجعل يدور فيها ويتأمل فى أسواقها وحسن مبانيها ثم رجع بالطعام قبل دخول الظلام وأخذ يشرح لأبو زيد عن حسن المدينة وعما شاهد فيها من القلاع الحصينة وبعد ذلك ركب مع جماعته مرعى ويحيى ويونس وجدوا فى قطع البرارى والآكام ومروا بحماه وحمص وطرابلس حتى أشرفوا على مدينة الشام وكان الحاكم عليها فى ذلك الزمان ملك عظيم الشأن اسمه شبيب التبعى ابن مالك بن حسان وساروا ولو كان لهم أجنحة لطاروا إلى أن وصلوا إلى القدس

الشريف مدينة الأنبياء ومحل التبريك والتشريف وأقاموا بها يومين ومنها ساروا إلى غزة ودخلوا على حاكمها السركسى ابن نازب فمدحوه بنفائس الأشعار واعتبرهم غاية الاعتبار وأقاموا عنده عشرة أيام فى إعزاز وإكرام ثم جدوا فى قطع البرارى والقفار والسهول والأوعار حتى وصلوا إلى العريش ودخلوا على حاكمها البردويل ابن راشد فمدحوه بالأشعار والقصائد وأقاموا عنده ثلاثة أيام فى الإكرام ثم ودعوه وجدوا فى قطع البرية حتى وصلوا إلى مصر العديه وتلك الأراضى البهية فقصدوا امام كها القرمند بن متوج ودخلوا عليه ومثلوا بين يديه ومدحوه بنفائس الأشعار فالتقاهم بالترحاب والوقار وأقاموا عنده ثلاثة أيام وساروا قاصدين بلاد الصعيد وبلاد المغارب حتى وصلوا إلى عند القاضى ابن مقرب ودخلوا وسلموا عليه ومثلوا بين يديه ومدحوه بالأشعار فاعتبرهم غاية الاعتبار وأقاموا عنده فى إعزاز وإكرام وكان هذا الرجل من أعلى الناس وأوفاهم عهودا وذماوأندرهم جودا وكرما يكرم الضيوف ويجود بالألوف وهو الذى ذكره العالم النحرير المؤرخ الشهير صاحب العلوم والفنون عبد الرحمن بن خلدون فى كتابه العبر ديوان المبتدأ والخبر وقال انه كان فى الجود أسخى من جعفر وحاتم وسوف يأتى ذكره بعد الآن ونشرح عن مزايا الحسان .

(قال الراوى) وفى الحادى عشر تأهب أبو زيد للسفر فودع القاضى وكل من كان حاضرا وسار مع جماعته يقع لهم كلام .

(قال الراوى) واتفق أن جماعة من شعراء العربان كانوا قصدوا بلاد نجد ومدحوا الأمير حسن بن سرحان بالأشعار الحسان كما جرت العادة فى ذلك الزمان فأجزاهم بالعطايا الجميلة والمواهب الجزيلة وكانت من جملتها جارية من بنات الحى اسمها مى فشكروه على هذا الجميل والاحسان ثم ساروا قاصدين بلاد العرب وتلك الأوطان حتى وصلوا تونس الخضراء ومدحوا الزناتى خليفة وباقى لوزراء فأحسنوا اليهم وأنعموا عليهم ثم باعوا تلك الجارية الظريفة إلى سعدة ابنة الزناتى خليفة وكانت سعدة من أجمل البنات لطيفة الذات قد اتصفت بالأنس والمحاسن وشاع ذكرها فى جميع الأماكن تحب الأدباء وتنقاد الملوك والأمراء ذات أدب وفضل لها معرفة بضرب الرمل فاتفق أنها سألت تلك الجارية ذات يوم عن سبب وقوعها فى أيدى أولئك القوم

فأخبرتها بالقصة وكيف أن الأمير حسن أوهبها لهم على سبيل الهدية فقالت : وهل وجد نظيرى بين نساء العرب فى الحسن والأدب؟ فقالت لهم نعم يا صاحبة الجود والكرم أنه يوجد بين الامم من شبهك فى الظرف والجمال ومكارم الشيم وحسن الخصال وهو بطل الأبطال وزينة الرجال الأمير مرعى ابن مولاى حسن أمير بنى هلال فلما سمعت سعدة هذا الكلام تعلق قلبها بمرعى وهام لأن سمع الآذان تعشق فى الاكثر قبل مشاهدة العيان فقالت سعدة : إذا كان كلامك هو حقيق قومى بنا فى البستان وأنا أضرب هناك الرمل وأنظر أحوال الذين ذكرتهم إلى الآن فان قلبى تعلق بهم غاية التعليق ومرادى أن أعرف أخبارهم على التحقيق ثم أخذتها معها إلى البستان وكان من أحسن المتنزهات وهناك ضربت الرمل وولدت البنات من بطون الامهات حتى تأكد لها ذلك الخبر جهرا وعرفت الأمور التى سوف تجرى وبينهم فى الحديث والكلام أقبل عليهما العلام وكان هذا الرجل من سادات الانام وابن عم الزناتى خليفة ونائبه فى معاملات الاحكام صاحب معرفة وعقل من أخبر الناس فى ضرب الرمل وكان يتردد إلى سعدة فى أغلب الأيام لأنه من جملة الأهل وبنى الأعمام فسلم عليها فردت عليه السلام واستقبلته بالترحاب والإكرام فجلس بقربها وكان قد عرف ما فى قلبها وكان قد ضرب الرمل فى ذلك النهار وظهرت له الاخبار فأعلمها بأفكاره وكشف لها أسراره فطلبت منه أن يكتم ذلك الخبر لا يبوح به لأحد من البشر خوفا عليها من الضرر وقالت له أريد من فضلك يا ابن عمى ومن هو كشف همى وغمى أن تعلمنى متى حضروا هؤلاء القوم فإنى بانتظارهم فى كل يوم فأجابها إلى ذلك الطلب ووعدها بالمساعدة على بلوغ الارب ثم ودعها وصار طالب الصيد والقنص وبقى ثلاثة أيام ثم رجع إلى داره بالسلام .

(قال الراوى) هذا ما كان من سعدة وابن عمها العلام وما وقع بينهما من الحديث والكلام وأما ما كان من البطل الهمام والأسد الضرغام أبو زيد فارس الصدام ومن معه من السادات الكرام فإنهم كانوا قد جدوا فى قطع الروابى والآكام مدة عشرة أيام حتى وصلوا إلى تونس وقت الظلام فباتوا خارج المدينة وفى اليوم التالى صاروا يتأملون فى مبانيها فوجدوها متينة وأبراجها حصينة كثيرة القلاع قوية الدفاع أسوارها

غزيرة وخيراتها كثيرة فجعلوا يدورون حواليها يتبصرون كيف يكون الهجوم عليها فاتفق أنهم دخلوا فى بعض الأيام إلى بستان وكان كفردوس الجنان واستمروا تحت أغصان الشجر وكانوا يقطفون ويأكلون الثمر فبينما هم على تلك الحال إذ أقبل جماعة من الأبطال قد أرسلهم الزناتى ليقبضوا عليهم ويقيدوهم بالأغلال حيث كان بلغه خبرهم من بعض الفرسان بأنهم فى ذلك البستان فداروا بهم من اليمين والشمال فلما نظر أبو زيد تلك الفعال استعد للحروب والقتال وهجم عليهم كالسبع وضرب بالسيف فى ذلك الجمع فقتل منهم عدة رجال وهدهم على الرمال ثم تكاثرت عليه العساكر والجنود وأحاطوا بهم إحاطة الدمالج فى الزنود وقبضوا على مرعى ويحيى ويونس فى الحال وأوثقوهم بالقيود والأغلال ولم يقدروا على أبو زيد فى الحرب والقتال فعند ذلك تقدم إليه الغلام على انفراد وقال له من تكون من العباد وما سبب مجيئكم إلى هذه البلاد فقال أبو زيد إننا شعراء من بلاد الشرق وعادتنا أن نمدح الأمراء وأكابر الخلق وسمعنا بكرم الزناتى خليفة وما خصه الله به من الشمائل اللطيفة فقصدناه من بلاد بعيدة لأجل هذه الغاية الوحيدة وكان وصولنا أمس البلد فبتنا فى هذا المكان من حيث أننا غرباء ولا نعرف أحد إلى أن أشرفتم بجمعكم علينا وأوصلتم أذاكم إلينا ولابد أن نعلم المقصود وأنا اسمى محمود واسم جماعتى شداد وحماد ومسعود فقال له الغلام لقد كذبت فى المقال وتكلمت بكلام المحال ما أنت إلا الأمير أبو زيد صاحب المكر والكيد أمار فاقتلك فهم مرعى ويحيى ويونس وقد أتيتم إلى البلاد لترودوا بلاد تونس وأمر الفرسان بالهجوم عليه فقال امسكوه ولا تؤذوه فانطبقت الفرسان على أبو زيد من اليمين والشمال حتى قبضوا عليه وأخذوه مع باقى أصحابه إلى عند الزناتى المشار إليه وصحبته الغلام المذكور ولان الضرورة أخرجت لتلك الضرورة وذلك لطاعة الزناتى ابن عمه لأنه لا يقدر على مخالفة أمره وحكمه ولما دخلوا تمثلوا بين يديه وقالوا اعلم يامولانا أن هذا العبد الذى حاربنا وهدانا وقتل منا أبطالا وفرسانا فاغتاظ الزناتى وتكدر من هذا الخبر وقال لأبو زيد من تكون من العربان يا أخس السودان قال نحن شعراء نقصد الملوك والأمراء فتمدحهم ونأخذ الإنعام ونحصل على بلوغ المراد وهذا هو دأبنا فى كل عام فسمعنا بكرمك ومحاسن شيمائك فقصدناك من بلاد الغرب طمعا بالفضة والذهب وحيث أننا من

الأعراب ليس لنا فى هذه الناحية أصدقاء ولا أحباب ولاسيما فى تعب وضيق من مشقات الطريق فدخلنا إلى ذلك البستان لنأخذ لأنفسنا راحة يا ملك الزمان ثم نقصد جنابك العالى وباقى السادات والموالى فأحاطت بنا العساكر مع الأهالى وداروا علينا يا مولانا قاصدين قتلنا وأذانا فاقتضى أننا دافعنا عن أنفسنا بقدر الإمكان إلى أننا وقعنا فى قبضة الأسر والهوان وقد عرضنا قصتنا عليك وفوضنا أمرنا إليك فأمر بما تشاء وتريد أيها الملك السعيد فلما سمع الزناتى هذا الكلام فأبدى الضحك والابتسام وقال لهم يا مناحيس ما أنتم إلا جواسيس أتيتم لتدوروا البلاد وتعرفوا أحوال العباد ثم تذهبوا وتأتوا بالعساكر والجمع الوافر فتمتلكوا بلادنا وأراضينا وتتحكمون فينا هو السبب الذى قادكم إلينا وحملكم على القدوم والهجوم علينا فلا بد من قتلكم يا أوغاد على رؤوس الاشهاد جزاء على هذا وتكونوا مأكلا للوحوش الكاسرة (قال الراوى) وكان الزناتى قد وقف على الخبر اليقين من المنجمين ودهاء الرمالين وبعد مفاوضات طويلة مع أرباب المجلس استقر الرأى على شنق أبو زيد ومرعى ويحيى ويونس فأخذ العسكر هؤلاء الأربعة وكانت الناس مجتمعة ولأجل النفاذ بمروا بهم من تحت قصر الأميرة سعدة وكانت فى ذلك الوقت جالسة تتغذى فلما سمعت ضجيج العسكر قامت مع جاريتها لتعلم ما الخبر فطلت الجارية رأسها من الشباك وهى فى حيرة وارتباك فلما أمعنت فيهم النظر اعتراها الهم والكدر وقالت لمولاتها اعلمى يا زينة الدنيا أن هؤلاء الثلاثة مرعى ويحيى ويونس وأما هذا العبد الرابع فهو ليث الوقائع الأمير أبو زيد فارس المعامع فلما سمعت سعدة منها هذا الكلام تبدل نهارها بالظلام لأنها كانت تعلقت بحب مرعى دون باقى الأنام فصاحت على الجلادين والعساكر المحافظين قالت لهم ارجعوا إلى عندى بهؤلاء العرب وإياكم أن تقتلوهم فيحل بكم العطب وانى سأنبهكم على الأثر لأقف على حقيقة الخبر فلما سمعوا كلامها وفهموا قصدها ومرامها أجابوا أمرها بالطوع والامتثال ورجعوا فى عاجل الحال وذلك لما يعهدون من علو منزلتها ونفوذ كلمتها ثم أن سعدة بعد ذلك الخطاب لبست أفخر الثياب وتعطرت بالطيب وسارت عند أبيها فى جماعة من حواشيها وكان أبوها

جالسا فى الديوان ومن حوله الوزراء والأعيان فدخلت وسطت عليه وقبلت يديه فنهض لها على الأقدام واحترمها غاية الاحترام وأجلسها بجانبه فى صدر المقام ثم سألها عن كيفية أحوالها وعن السبب الذى أوجب انزعاج بالها فقالت قد بلغنى من الأعوان بأنك أمرت بشنق جماعة من شعراء العربان باتوا قاصدين جنابك من أبعد مكان طمعا بالأنعام والحصول على بلوغ المرام فما كان جزاءهم إلا القتل والإعدام عوض عن الانعام والاكرام فلما سمعت الكلام انزعج بالى وتغيرت أحوالى لأنى أعلم أن هذا الحال يكون سببا للقيل والقال بين سادات الرجال وينسبونك إلى البخل والغدر ويتكلم فيك زيد وعمرو فأمرت العساكر والمحافظين أن يتوقفوا عن قتل هؤلاء المساكين فيما آتى وأقص هذا الحديث عليك فلما سمع أبوها هذا أعلمها بواقعة الحال وقال لها إن هؤلاء الرجال ما قصدوا هذه الديار والاطلال إلا ليرودوا البلاد ويقفوا على أخبار العباد ثم يذهبوا ويأتوا بالعساكر والاجناد ويستخلصوا بلادنا بالخراب والجلاد وهذا هو السبب يا منتهى الارب وصاحبة الفضل والأدب فقالت إلا الصواب لأنهم يستحقون القتل والعذاب فقالت إذا فعلت ذلك تشينك جميع دول الممالك لأنه لم يثبت عليهم ذنب حتى الآن ولا يوجد عليهم برهان كما ترى يا ملك الزمان وأنا أشور عليك بحسب فكرى أن تحبس هؤلاء الثلاثة شبان فى قصرى ويكون تحت طوعى وأمرى وترسل ذلك العبد إلى بلاده بلا إهمال فى طلب الفدا والمال فان حضر ذلك يصير من الاعتقال وتكون أنت معذور عند جميع الرجال فقال لها وحق الإله الرحيم إنى خائف من هذا العبد اللئيم لأنه فارس شديد وبطل صنديد وأخذا يتنادمان بهذا القصيد :

يقول أبو سعدة الزناتى خليفة ... فعقلى تراه قد غدا محتار

أتونى جواسيس من الشرق عاجه ... لا أمارة أفاضل من فروع كبار

ونزلوا على أرض لنا فى بلادنا ... فسرنا بخيره والامور عسار

وفيهم ترى عبدا كبار شفافه ... له ضرب يقطع صخرها وحجار

أيا نور عينى كيف أفعل بعبدهم ... أأطلقه ثم أحبس الامار

أتتنى سعدا مثل شمسا منيرة ... لها وجه يضوى مثل نور أقمار

وقالت ارفق يا أبى بأوامرك ترى الظلم يخرب كل دار عمار
أيا سعدا كيف العمل فيما جرى أيا عالمة بالكتب والأسرار
أيا سعده قلبي من العبد خايف فعينيه فى وجهه كشعب النار
أيا أبى هذا كان بصاص فى بلاده على كده شوف الناس عيونه كبار
يا سعده قلبى من العبد خايف أشوف شفافه لكثرة القول كبار
أيا أبى هذا كان عشى فى بلاده على كثر ذوق الأكل يرون كبار
أيا أبى هذا كان فران فى بلاده على كثر رق الخبز كفوفه كبار
فامسك جياد القوم واترك عبد هم يخبر إلى سيده بما قد صار
فيحضر لنا مالا ونوقا كثيرة ويأتى بخيل مـــلاح كثار

(قال الراوى) فلما فرغ الزناتى من هذا الشعر والنظام أجاب سعدة إلى ذلك المرام فأخذت الأربعة أنفار وسجنتهم عندها فى الدار على عيون النظار ثم أخذت من الطعام ما يكفيهم جميعا ونزلت اليهم سريعا فاجتمعت بيرعى فى أول الأمر وقالت له كل ولا تخبر أحد بل احفظ ذلك ثم فعلت بيحيى ويونس وقالت ليونس أن يرسل لها أبو زيد فلما حضرت قدمت له شيئا من الطعام فشكرها على هذا الاهتمام ثم أنه قسمه على سبعة أقسام فسألته عن سبب ذلك فقال لها اعلمى يا زينة الملاح وبدر الليل الحالك أنا وجماعتى أربعة وأنت والجارية اثنان على التمام والحصة السابعة سأحرمها بحرام وأرسلها إلى ابنة عمى عاليا فى الظلام وكان أبو زيد يقول هذا الكلام وهو متوقف عن أكل الطعام فقالت له سعدة لماذا لا تتغدى فتنهد من فؤاد متبول وأنشد يقول:

إذا أكلت أنا وجاعت جماعتى فاوعى خالى يضرب الصفائح
إذا جعت أنا وأكلت جماعتى وأحمد ربى وهو كريم مسامح
أيا ست زاد اثنين يكفى ثلاثة ويكفى أربعة ياست والكل راجح
ويكفى خمسة من أجاويد حينا ويكفى استة من هلال السمائح

فضحكت سعدة من كلامه وأعجبها لحوى شعره ونظامه ثم أنه بعد ذلك الكلام أخرجتهم من الحبس وأحضرتهم إلى عندها وقدمت لهم الطعام وأخذت تحادثهم بالكلام وتسألهم عن أحوالهم وعن بلادهم فقال أبو زيد نحن من جملة

الشعراء نقصد الملوك والأمراء فنمدحهم بنفائس الأشعار ونرجع إلى الديار بالدرهم والدينار فقالت انكم لم تعلمونى الحقيق مع أننى عارفة بأحوالكم على التحقيق فأخذت تعلمهم بسفرهم وما جرى لهم فى الطريق والسبب فى قدومهم إلى تلك الديار بهذه القصيدة التى تستحق الاعتبار :

قالت سعدا بنت الأمير يونس	بدمع جرى فوق الخدود غزار
ضربت تحت الرمل عشرين مرة	ومرة بعدها ما شفت الحرف جهار
فعرفتكم وعرفت اسم أميركم	وعرفت أساميكم بلا انكار
إن مسير القوم أمير عامر	حسن بن سرحان أمير جهار
وهذا مرعى وذاك يونس ويحيـى وأنت أبو زيد فارس الاقطار	
قحلت أراضيكم وقد قل خيرها	فجيتم بتونس اتكشفوا الأخبار
فقالوا يا أبو زيد نرضاك رائد	ترود بلاد القيروان عمار
فقلت لهم سمعا وألفين طاعة	أريد ثلاثة من فروع كبار
أريد الفتى مرعى ويحيى ويونس	أمارة أصايل من فروع كبار
فجاءوا ثلاثتهم إليك كأنهم	أسود كواسر طالبين قفار
فمن يوم فارقتم نجد وأرضها	فانى أقتفى منكم الآثار
ركبتم مطايا وسرتم بسرعة	قصدتم مكة والنبى المختار
وجزتم حلب ليلا فى حال سرعة	ووردتم حماة وحمص بوسط نهار
وجئتم بلاد الشام جزتم بلادها	وجئتم إلى القدس الشريف جهار
مررتم على غزه وقطه وغيرها	وبلبيس جزتوها بلا انكار
وجئتم إلى مصر ويعقوب يوسف	مروت على نيل الصعيد مرار
مررتم على الماضى فحيا ركابكم	فرش لكم بيت للضيافة ودار
لكم ميت قافلة سايرين بعجلة	وعشر الليالى كاملة بنهار
ولا بد ما تأتى هلال بن عامر	من الشرق فى جمع غزار
بأربع تسعينات ألوف عديدهم	كذا دل الرمل بالأخبـار

بحرف الألف تأليف عدتكم   أربع تسعينات ألوف راكبين مها
والياء بدت سيل ابن سرحان أبى على   نهجن تلافيها قطار قطـــار
والتاء ترى فى محل نجد وأرضها   سبعة سنين كاملات عســـار
والجيم جيتوا تردوا بلادنا   وتأخذ لقومك صحة الأخبار
والجيم جبرتم غرامى بحبكم   وحبى لمرعى قد كوانى بنار
والخاء خليناك ترجع وتنثنى   تجيب لنـــا مال وما تختار
والدال دل الرمل عندى بأن لى   بأن بـــلاد القيروان ديار
والذال ذر الرمل نملك بلادنا   وتحلونا من أرضنا وديار
والراء رؤيكم تجوا يا سلامه   على أصايل تقطع الأقفـــار
والزاء زلزلت البلاد بأهلها   وكل أمير يخجل الأقمار
والسين سرتم من بلاد بعيدة   قطعتوا الفضا وتسير الأوعار
والشين شديتو المطايا لأرضنا   وكم دار قطعتوها بعقب نهار
والصاد صدقتكم على خبر خاطو   لاعدتم بقاع السجن ياشعار
والضاد ضربتم فى جموع زناتى   وأبى من فعالكم عاد محتار
الطاء طفتوا الأراضى ردتم بلادنا   وأبصرتم البلدان وكل ديار
والظاء وظنى أنكم تملكونا   وقول وظنى هو صحيح جهار
والعين عينى نحو مرعى تطلعت   فأشعل فى قلبى لهيب النار
والغين غاب نجمنا من قبالكم   ونجم أبى واقف عليه غبـــار
والفاء فارقتم لنجد وأهلها   وجئتم الينا اتكشفوا الأخبار
والقاف قابلتم كل معنى كلامكم   وقلتم معانى أطيب الأشعار
والـــلام لميتم رجال لحينا   وجئتم الينا لتملكوا الأقطار
والميم مال الحب فى قلب مرعى   ولولا مرعى ما نظمت أشعار
والنون نلقاكم على خيل سمر   وكل رديني أسمر خطار
والهـــاء همل دمع أصابنى   على شأن مرعى انكويت بنار

والواو ولت خيلنا من رجالكم وتبقى تونس والرجال قفار
والياء يبقى علمكم فوق علمنا باذن الله الواحد القهار
وانى وحق الله ما أخون عهدكم ولو قطعونى بالسيوف بتار

(قال الراوى) فلما فرغ سعده من كلامها شكرها الأمير أبو زيد وجماعته على اهتمامه وباتوا تلك الليلة فى سرور وانشراح ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح أمر الزناتى باحضارهم فلما حضروا قال لأبو زيد إذا أطلقناك إلى أن تأتى جماعتك من الأوطان فكم يوم تغيب عنا وماذا تجيب لنا فقال أغيب ثلاث شهور وأجيب لك أربع ميه الف مدرع مشهور فقال وما هو مرادك من المدرع أيها البطل الصميدع فاخرج الأمير أبو زيد من جيبه قطعة من الفضة الخالص وانتى من الفضة الروابض وقال هذا هو المدرع يازينة الممالك ففرح الزناتى بذلك وقال اذهب بأمان. الأوطان فقال أعطنى عدة حرب وحصان لأن الطريق مخاطرة والأراضى موعرة فأعطاه ما طلب وبعد ذلك ودع الزناتى وذهب وجعل يدور البلاد ويطوف فى المدائن حتى اشرف إلى وادى الغابين وتلك الأماكن فوجدها كثيرة المياه والنبات متسعة البرارى والفلوات تصلح للحرب والقتال ومرعى النوق والجمال ثم صار من هناك إلى قابس ومنها إلى دوس فوجدها أحسن محل لامتلاك تونس وقد تعجب من خيرات البلاد وكثرة ما فيها من الايراد ومشاهدة من البلدان الكثيرة والمياه والبساتين الغزيرة فانشرح خاطره وطابت سرائره.

هذا ما كان من أبو زيد ليث البطاح وأما يحيى ومرعى ويونس فاخذتهم سعده عندها ويبقوا فى سرور وأفراح وبسط وانشراح أما الأمير أبو زيد فبعد أن دار جميع البلاد وعرف السهول والوهاد رجع ليرى أحوال البلاد ولما دخل إلى قصر سعدة فالقاه مطلى بالرصاص وكان الوقت نصف الليل فارعدت الدنيا وبرقت حتى قام الاولاد من نومهم وعادوا يذكرون بلادهم وبكوا بكاء شديداً وصار مرعى ينشد ويقول

يقول الفتى مرعى على فقد أهله وقد لاح لى برق من الشباك
وهيج أشواقى ووجدى ولوعتى أيا برق تجهد ما أحلاك

ياشوق قلبى إلى نجد العدية وربعها   أيا برق نجد هيجتنى بسناك
بلغ سلامى للحبـــايب كلهم   بلغ سلامى يا برق الافلاك
خذ قصتى بنجد وأسرع لاهلها   وبلغ عن مرعى الذى أوصاك
وقل لحسن يامعدن الجود والنخا   يا من عطاك لبدرها وتراك
وقل له مرعى ويحيى ويونس   بحبس الزناتى يا أمير هناك
موكل عليهم يا أمير غواشم   عبيدا جونا عايزين عداك
لولا الصغيرة كانت راحت أرواحنا   وصارت هى ضد الأملاك
وقالت لنا قوموا أطيبوا وأبشروا   يا أمير مرعى ربنا عطاك
يا هل ترى تريدا بوزيد يوصل بلا   دنا ويخبر قومنا إذا صار علاك
أبو زيد لهيك عليا تنشغل   وحاشا عن طريق تردى حاشاك
سألتك يا رحمن يا سامع الدعا   يا من جمع الخلق فى مرعاك
بعيسى بموسى بالنبى محمــد   خلصنا يا من تسجد له الافلاك

(قال الراوى) فلما فرغ مرعى من قصيدته وكان أبوزيد واقف تحت القصر يسمع نشيده ثم نظر الطواشى ففتح له ودخل إلى عندهم وسلم عليهم جميعا فقالوا له أين كنت يا أبوزيد إلى الآن أنت باقى فى تونس ونحن نقاسى أشد الضيق فقال إنى تهت عن الطريق وقد عزمت على السفر وأتيت لوداعكم ثم تقدم وودعهم وأوصى سعيدا بهم ورجوعه اليوم فى أقرب وقت ثم بكى بكاء شديدا وتقدم الأمير مرعى وأشار يودعه ويوصيه بالسلام ويقول:

يقول الفتى مرعى بعين وجيعه   ونيران قلبى زايدات العمايم
قم بالسلامة يا هلالى سلامه   فالله لايريك عمرك غنايم
فاذا وصلت إلى أرضنا وبلادنا   فسلم على أهلى وكل الاكارم
وسلم على أبى حسن الدريدى   وسلم على الزغبى دياب بن غانم
وسلم على شيحة الامير وقل لها   تدعى لنا بالشمل إنه ملايم
يا خال جد المسير واستتم السفر   فما فاز يا أبو زيد بالشكر نايم

أيا خال لاتلهيك علينا فتلتهي وتتركنا فى حبس كله ظلايم

(قال الراوى) فلما فرغ الأمير مرعى من كلامه وأبو زيد يسمع نظامه فقال له لايكون لك أدنى فكر لأنى سأبذل الجهد فى تخليصكم ثم ودعهم وسار وعيناه تذرف بالدموع من جراء ما أصابه وأصابهم وصار يقطع البرارى والقفار يوصل سير الليل بسير النهار مدة عشرين يوما حتى أقبل إلى أرض الصعيد فدخل على القاضى ابن مقرب وأخبره بما جرى له من الأول إلى الآخر فبكى القاضى بكاء شديداً ثم أنه بقى بضيافته نحو يومين وبعد ذلك ودعهم وسار يقطع البرارى والقفار مدة عدة أيام حتى وصل إلى نواحى حابب فجلس تحت ظل الشجرة هناك لأخذ الراحة فبينما هو جالس أقبل عليه رجل تاجر وحياه السلام ثم سأله الأمير أبو زيد عن حاله فقال له : إنى رجل تاجر قاصد بلاد الغرب فقال الأمير أبو زيد: هل تعلم الأمير علام ؟ فقال له: من أعز أصحابى وأعظم أحبابى فقال له أبو زيد: انى أرغب أن أعطيك كتاب توصله اليه فقال : ما بدا لك فعند ذلك أخذ أبو زيد يكتب للعلام ويقول :

يقول أبو زيد الهلالى سلامة فمن كان شقى لاتسعده الأيام

نعم أيها الغادى وحامل كتابنا تجد السفر فى واسع الآكام

إذا جئت تونس وقابس وأرضها فسلم على الفتى المسمى العلام

أوصيك فى مرعى ويحيي ويونس أولاد أختى من فروع كرام

وأجول لاتتردد عليهما وتلتجى وتحفظهم من شـــدة الآلام

فلا بد ما أرجع أعود وأنثنى ولا بد ما آتى بقوم لزام

بأربع تسعينات ألوف عدادهم تشبه جرادا منتشر بغمام

ولا بد من لطمة على باب تونس ويبقى الدم فوق الثرى عوام

ولا بد من قتل الوهيجى بصارمى ويبقى الزناتى بالقبور ينام

وأملك بلاد الغرب بحد صارمى واملـــكك فى العرب بأعلام

(قال الراوى) فلما فرغ الامير أبو زيد من كلامه طوى الكتاب وختمه بختمه فأخذه التاجر وسار يقطع البرارى والقفار حتى أشرف إلى تونس وتلك الديار

فأخذ المكتوب وسلمه إلى الغلام ففضه وقرأه وعرف حقيقة فحواه وأما الأمير أبو زيد فإنه مازال يجد فى السير مدة خمسين يوما حتى أقبل إلى نجد وتلك الأوطان وحين دخوله إلى نجع بنى هلال التقاه الكبار والصغار وكلما تقدم إلى قدام يزاحمه الجميع غاية الازدحام وهم يصرخون بصوت واحد : اليوم فقدأنا يامن هو عزنا وحمانا وما زال سائر حتى أقبل إلى صيوان الامير حسن فدخل عليه وعلى الذين حواليه فلما نظره الأمير حسن والأمير دياب والقاضى بدير والأمير زيدان شيخ الباب تقدموا اليه وقبلوه بين عينيه وأجلسه الأمير حسن بجانبه ودارت البشائر فى بلاد نجد بأن الأمير أبو زيد حضر من بلاد الغرب فاجتمعت الفرسان من كل جانب ومكان حتى احتبك الديوان وحينئذ سألوه عن الأمراء مرعى ويحيى ويونس فعند ذلك بكى الأمير بكاء شديداً واشار يخبرهم عما جرى له من التعب الشديد بهذه القصيدة يقول وعمر السامعين يطول :

يقول أبو زيد الهلالى سلامة	ولى قصة من أعجب الأخبار
فى سفرتى للغرب قد أوردها	وفى رجعتى قاسيت هموم كبار
دخلت إلى أرض الزناتى وردتها	وردت ميامنها وردت يسار
وأخذ حشيش الأرض بيدى أدفنه	وأعامه خـوف لا احتار
حتى إذا جاءت هلال وعامر	على خيلهم بالعسكر الجرار
يقولوا فا هذا الحشيش الذى هنا	وهذا دليل يا عرب اجهار
وما زلت أكشف المدن والقرى	حتى وصلت لتونس والدار
دخلنا على بستان بجوار تونس	فأتانى منها عسكر جرار
فصحت عليهم صيحة الله أكبر	الله تعالى عالم الأسرار
فمسكونا من بعد حرب عنيفة	وضرب يقطع سيفنا وحجار
وأخذونا لعند الزناتى خليفة	فتهددنا بالقتل يا أحيار
خلصتنا بنته سعدة بشورها	وقالت تراهم يا أبا شعار
فاحبسهم عندى وارسل عبدهم	يجيب اليك فكاكهم بجهار

وإن مرعى ثم يحيي ويونس   قد بقوا سندها بوسط الدار
الآن سعده بمرعى تعلقت   وصار قلبها نحوه كشعلة نار
جزاها إله العرش خير ونعمة   فلولاها لمتنا بلا إنكار
وصرنا فضيحة بين قومنا   وصارت أهالينا يا وشم يا عار
فأرسلني الزناتي لاحضر فكاكهم   كقول سعدة زينة الاخيار
ولما عزمت على الرجوع لأرضنا   فبكوا الأمارة من قلوب مرار
ووصاني الأمير مرعى وقال لى   سلم على سادتنا وكبار
وسلم على والدى حسن الدريدى   مربى اليتامى ومقصد الشعار
وسلم على القاضى بدير بن فايد   وعلى دياب الفارس القهار
وسلم على عليا وريا وغيرها   والجازية من نسل قوم كبار
أبو زيد أقرى منا أمهاتنا   سلام برتبة يا عزيز الجبار
وقال لهم فى الحبس يحيى ويونس   ومرعى يقاسى لوعة ومرار
ففارقتهم والعين ترفرف بالبكاء   وسرت فى البيدا بوسع قفار
وكم ساعة من ساعة بعد ساعة   امسح دموعى فى ليلها ونهار
فيغيب عقلى عن ذكر رفاق   قلبى كواه البين والأمرار
وبعد خروجى من المغارب وأرضها   بعشرين ليلة زايدات نهار
دخلت على القاضى أبو الجود وحده   وأخبرته فيما جرى وصار
فبكى وبكى الحاضرين جميعهم   وحزن على مرعى وعقله حار
وبقيت عنده مقدار يوم وليلة   ومن بعدها قد قلت للحضار
بأنى راجع إلى بلادى وأرضنا   وأنى سأخبركم بما قد صار
ففارقتهم والعين تذرف فى البكا   وقلبى غطاه فى كشعلة نار
وما زلت سائر فى البرارى وسهلها   والله يعلم كلما قد صار
مسافة تسعين يوم ثم لنا لها   حتى وصلت إليكم والدار
أنى أخبرتكم فيما جرى   فما الشور وتدبير فيما صار

(قال الراوى) فلما فرغ أبو زيد من هذا الشعر والنظام بكى الأمير حسن ومن حضر من السادات والسكرام لا سيما أهل الأولاد فقد تفطرت منهم الأكباد وقالوا لأبو زيد من فرد لسان اعلم يا فارس الفرسان أننا لا ننفك عنك ولا نعرف أولاد إلى منك فقالوا كونوا براحة بال فإنى قد أخذتهم من الأطلال وسار جميعهم على أحسن حال وأنعم بال ولما انتهى من هذا المقال التفت الأمير حسن إلى الحاضرين والسادات المعتبرين وقال لهم إن مرادى الرحيل إلى بلاد الغرب وأقيم هناك الحرب وأخلص الأمراء بالطعن والضرب فاستحسنوا هذا الخطاب وقال أبو زيد البطل المهاب هذا هو الرأى الصواب ولكن قبل الرحيل من هذه الأطلال بالفرسان والأبطال والنساء والعيال يجب أن ترسل أم الأمير المؤيد بعض الذوات العمد ليأتوا بالجارية لتركب أمام ظعون بنى هلال أمير باقى سيد الأمراء والأبطال وهى الست ريما والست عدلا والست ريا وسعدا للرجال وبدر النعمان وجوهر العقول وزهر الدوح ونجم السحور وزين الدار والست عليا لانه إذا اشتعلت نيران الحرب ووقع الطعن والضرب تكون الجارية وباقى السيدات أمام الأبطال فى المحاربات لان الجارية من النساء المشاهير ذات رأى وتدبير وهكذا تم الرأى بين الأمراء والاعيان وأرسلوا أربعة وعشرين فارس من الشجعان للرحيل مع فرسان القبيلة وتأهبوا للطعن والضرب والسير إلى تونس الغرب وأمر الامير حسن بدق طبل الرجوع حسب العادة والاصطلاحات المعتادة فدق الطبل فى الحال واجتمعت الفرسان والابطال وسارت الرجال على الامير حسن بن سرحان وهو فى الديوان فأخبرهم بما جرى وكان وقال لهم استقر رأينا أن نرحل عن الاوطان ونقصد بلاد الغرب بعد ستة أيام فكونوا فى الاستعداد التام لان أرضنا قد أمحلت ووقع بنا الغلا وأولادنا فى أسر الزناتى خليفة يقاسون العنا.

(قال الراوى) وفى اليوم السابع تجهز الابطال للمسير والارتحال فهدت المضارب والخيام وانتشرت الرايات والأعلام ودقت الطبول وركب الفرسان ظهور الخيول واعتقلوا بالسيوف والنصول وركبت الحريم والعيال والاولاد والاطفال ونساء الامراء العمد والجارية أم محمد الامير أبو زيد فى مقدمة الفرسان

وساروا عدة أيام حتى نزلوا بأرض يملكها الدبيسى بن مزيد وكان من صناديد الابطال وشجعان الرجال لايقدر العواقب ولايخشى حلول المصائب . وكان فى الشجاعة والفروسية فى طبقة عاليه يفتخر بنفسه ويفضل ذاته على جميع الفرسان فى ساحة الميدان ويقول إنه إذا ركب الجواد لايوجد من يقاومه فى الحرب والطراد ولو كان أبو الفوارس عنتر بن شداد وكان له أربعة وزراء وكن اليهم ويعتمد فى أموره عليهم وهو مقلد وهمام وراشد وسلام وله ولد اسمه مزيد قد سماه على اسم جده وكان يحبه كثيرا من شدة محبته فيه أراد أن يزوجه بابنة أخيه فجمع وزراءه وأخبرهم بما قد صمم عليه فأجابه على ذلك المرام ماعدا الوزير همام فانه كان صاحب رأى وتدبير فنهاه عن ذلك فى الوقت الحاضر واعلمه بقدوم بنى هلال إلى تلك البلاد والجيوش والعساكر فاندهل الدبيسى وحار فى أمره وبينما هو فى مجلسه دخل عليه الرهبان وأخبروه بقدوم بنى هلال وأنهم ملأوا الارض بجيشهم استشار الدبيسى وزراءه فأشاروا عليه بأن يرسل من يستطلع عددهم فأرسل العبد راشد إلى مضارب بنى هلال فاندهل مما رأى هناك من كثرة الرجال والابطال والفرسان ورجع إلى الدبيسى وأخبره بما رأى .

(قال الراوى) فلما فرغ راشد من كلامه وفهم الدبيسى مقاله زاد خوفه وفزعه فاستدعى اليه الوزراء وأخبرهم بذلك الكلام فلم يجبه أحد بكلام فقال لهم ما بالكم لا تردوا جوابى ولا تجيبونى على خطابى فقال الوزير راشد أنه من الواجب أن ترسل لهم كتاب تأمرهم بدفع عشر المال مع النوق والجمال فان امتنعوا عن ذلك فنقاتلهم فى الحال ونشتتهم فى البرارى والتلال فاكتب لهم كتابا بهذا الصدد وأنا آخذه اليهم وآتيك بالجواب فاستصوب الملك رأيه وكتب لهم كتابا يطلب فيه منهم عشر المال مع النوق والجمال وإن لم يرضخوا لطلبه والا سيكون مصيرهم الفناء وختمه وأعطاه للوزير راشد فأخذه فى قطع القفار حتى أشرف على بنى هلال عند وصوله إلى صيوان الأمير حسن بن سرحان نزل من على الحصان فسلم عليه وعلى باقى الأمراء الذين حواليه فردوا عليه السلام والتقوه بالترحاب والإكرام وأمروه بالجلوس

يلقى بقربه وسأل عن اسمه وعربه فأعلمه بواقعة الحال وعن سبب حضوره إلى تلك الأطلال ثم أعطاه الكتاب فأخذه الأمير وقرأه ولما وقف على حقيقة فحواه غضب الغضب الشديد لكنه أخفى الكمد وأظهر الجلد ثم أمر الغلمان أن يأخذوا الوزير إلى دار الضيافة ولما خرج من الديوان التفت إلى الأمراء والأعيان وأطلعهم على خطاب الدبيسى الذى يطلب فيه عشر المال وقال جميعهم ان هذا الطلب لا يوافق عليه فقال أبو زيد إنه من الصواب ترسل تقول للدبيسى أن يمهلنا عشرة أيام ونحن نرسل له طلبه بالتمام ومتى انقضت المدة ولح فى الطلب فتقول له ليس عندنا مال ولا ذهب سوى الحرب والقتال فى ساحة المجال وأبطالنا وفرساننا تكون قد استراحت من تعب الطريق ثم أنشد يقول :

يقول أبو زيد الهلالى سلامه	كلام يشبه الدرارى فى معناه
لكل داء يوجد دواء يعالجه	والاحمق الجاهل الحسام دواه
أنا الرأى عندى ابن سرحان العلا	يامن زكى بين الانام اباه
فارسل كتاب الدبيسى وقل له	كلامى محكم بالخداع جزاه
ألا يا ملك حزوه يا حاكم الملى	أمهلنا عشرة أيام دون سواه
إذا أمهلنا يابن عمى وسيدى	فتشبع خيول القوم من المرعاه
وتأخذ الراحة جميع قرومنا	وتبقى رجالك شبه أسود فلاه
غير الطعن والضرب ماله عندنا	لأن الدبيسى جار وزاد طغاه
يريد اليوم غصبا نهب جمالنا	وأموالنا وذاك من قلة حياه

(قال الراوى) فلما فرغ أبو زيد من هذا الكلام استصوبوه جميع الحاضرين وعند ذلك أشار حسن يجاوب الدبيسى ويقول :

يقول الهلالى أبا مرعى مناصحه	أبيات شعر بها علم الأبطال
يا غاديا واكبا على مطيته	يقطع فيافى الفلا مع رؤس الجبال
إذا أتيت الدبيسى قل لحضرته	قولا صحيحا خلا من كل إذلال
واقرأ سلامى على أبطاله سحرا	من كل ليث شديد الباس مفضال

إنى سأعطيك مهما كان طالبه　　من عشرة مالى ومن أموال أبطالى

لكننى أطلب منه أن يسمح لى　　بعشرة أيام انهى كل أحوالى

حتى ألم من العربان أجمعهم　　عشر الجمال وعشر الخيل والمال

(قال الراوى) فلما فرغ الأمير حسن من شعره طوى الكتاب وختمه فى الحال وسلمه إلى الوزير وجد فى قطع الهضاب حتى وصل إلى عند الدبيسى ودخل وسلم عليه وأعطاه الكتاب ففتحه وقرأه وعرف ما حواه ففرح واستبشر وأيقن بالنجاح وبلوغ الوطر ولما انتهت العشرة أيام لم ترسل بنى هلال الأموال قال للوزير ها قد مضت المدة المعينة ولم نقف على إفادة ولا وردت الأموال فيجب أن تسير اليهم وتطلب منهم أن يبادروا بإرسالها فى عاجل الحال وإلا حاربناهم وأنزلنا بهم الوبال فامتثل الوزير أمره وركب من وقته وساعته إلى تلك الديار حتى وصل إلى صيوان الأمير حسن فنزل عن ظهر الحصان ودخل وسلم عليه وتمثل بين يديه ثم جلس قليلا وبعد ذلك طالبه بالمال ولامه على ذلك الإهمال فقالت السادات والأمارة ارجع إلى مولاك قبل أن تحل بك الخسارة وقل له أنه ليس عندنا مال ولا نوق ولا جمال غير طعن السيف وطعن النصال فاغتاظ الوزير من هذا الكلام وخرج من ذلك المقام ورجع إلى مولاه بالعجل وأخبره بما سمعه فاغتاظ وأمر الرؤساء والقواد بجميع العساكر والأجناد فعند ذلك دقت الطبول وركبت الفرسان ظهور الخيول واعتقلت بالرماح وخفقت الرايات وركبت الأبطال أربع مائة ألف مقاتل .

تمت هذه القصة ويليها قصة الدبيسى

قصـــة الدبيسى

ابن مزيد وسبي المسارية بنت القاضى وما جرى للأعجام مع أمراء بنى هلال الكرام من الحروب والأهوال وعلى أخبار الملك الغضبان وحروبه مع بنى هـــلال ومرورهم على بلاد الخفاجى عامر ورحيله معهم إلى بلاد الزناتى خليفه وما حصل بينهم من الحروب الهائلة المخيفة

(قال الراوى) فلما ركب الدبيسى ومعه العساكر والأجناد فما زال سائراً طالباً وديان بنى هلال فلما اقترب منهم وسمع الأمير حسن وأبو زيد ودياب بن غانم وباقى السادات الأكارم والتقوا بالدبيسى فى تلك الأرض ولما دنوا من بعضهم برز من فرسان الدبيسى فارس كأنه الأسد الكاسر فبرز إليه دياب وصار قدامه فقال له من تكون من بنى هلال فقال أنا دياب المصادم وصاح فيه وهجم عليه وقد عظم ذلك الأمر عليه فا التقاه الفارس كالأسد الكاسر وجرى بينهما حروب وأهوال تشيب رؤوس الاطفال وما زال فى عراك وطعان نحو ساعة من الزمان بعد ذلك اختلف بينهما ضربتان قاطعتان وكان السابق الأمير دياب فارس الفرسان لأنه أعلم فى أصول الحرب وأخبر فى مواقع الطعن والضرب فوقعت الضربة على هامه فقدته نصفين ثم صال وجال وطلب براز الأبطال فبرز إليه فارس آخر فقتله وثانى جندله وثالث عجل إلى المقابر مرتحله وما زال على تلك الحال وهو يبارز الفرسان والأبطال ويمددها على وجه الرمال إلى وقت الزوال فدقت طبول الانفصال وبات الفريقان يتحدثان نحو مشيئة الرحمن ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح برز الأمير دياب إلى الميدان وطلب براز الفرسان فبرز إليه الوزير راشد وهو يقول أنا مفرج الكروب والشدائد فالتقاه الأمير دياب بقلب كالحديد ثم التقيا البطلان كأنهما جبلين أو أسدين كاسرين وحام عليهم الحين وغنى على رؤوسهم غراب البين ولم تكن ساعة من الزمن حتى استطال عليه دياب فى الميدان وطعنه بالرمح فى صدره فخرج يلمع من ظهره فوقع على الأرض قتيلاً وفى دمه جديلا فلما قتل الوزير راشد هجمت جموع الدبيسى بقلب واحد فتلقتهم بنو هلال بقلب كالجبال واشتد بين العسكرين القتال وعظمت الأهوال فما كنت تنظر

فى اليوم المهول إلا وقع السيوف على السيوف والنصول وقتال يشيب الأطفال ويذهب العقول ومازال القوم على تلك الحال وهم فى أشد قتال إلى وقت الزوال فعند ذلك دقت طبول الانفصال فتأخرت عساكر الدبيسى خاسرة رجعت بنو هلال كاسية ظافرة ففرح بذلك الانتصار ونثر فى تلك الليلة على الفرسان النثار وأخذ ينتظم بالكلام يحمسهم على الحرب والصدام وفى ثانى الأيام دقت طبول الحرب والكفاح فركبت الفرسان واعتقلت بالسيوف والرماح وبرز الأمير دياب الفارس الجحاج فصال وجال فى ساحة المجال وطلب براز الابطال فبرز اليه الوزير محمود فالتقاه الأمير دياب بقلوب شديد وجعل يهدده بهذه القصيدة :

يقول الفتى الزغبي بن غانم ... ولى قلب من رنين الجوانح طار
ألا يا فتى محمود اسمع قصتى ... واصغى لقولى مع الأخبار
واعلم أنى فارس الخيل بالوغى ... فمن رام حربى قد يروم دمار
فلا تقدر اليوم تلقى مضاربى ... لو عشت عمر النسر يا غدار
فلا بد ما تلقى أخوك راشد ... ودمك على وجه الثرى فوار

فلما فرغ دياب من كلامه أجابه محمود على شعره ونظامه :

يقول الفتى محمود فيما جرى ... بدمع جرى فوق الخدود شرار
دياب يا غدار ياولد الزنا ... أيا انذل العربان فى الأمصار
فلا بد ما أرديك بالسيف والقنا ... وأترك دماك على أوطا فرار

(قال الراوى) فلما فرغ الوزير محمود من هذا الكلام هجم على دياب فالتقاه دياب بقلب شديد وهجم عليه هجوم الصناديد واشتد بينهما القتال فى ساحة المجال فاختلف بين الاثنين ضربتين قاطعتين وكان السابق الوزير محمود فطاش دياب تحت الخضرا واحت الضربة خائبة بعد ما كانت صائبة ثم أنصب الأمير دياب وهجم عليه كسبع الغاب وضربه بالسيف على هامه فقطعه نصفين وألقاه على وجه الأرض قطعتين وكان له أخ يدعى الهداف فلما رأى أخاه قد مات زادت عليه الحسرات فهجم على الأمير دياب ليأخذ بثأر أخيه فشتمه وصاح فيه والتقاه الأمير دياب فى الميدان بقلب أقوى من الصوان وجرت بينهما حروب واهوال تشيب روس الأطفال واستمروا على تلك الحال وهم فى أشد قتال إلى أن ولى النهار

وارتحل وأقبل الليل على عجل فأوقفوا عن الحرب وتوقفوا عن الطعن والضرب وباتت العساكر فى البطاح ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح ودقت طبول الحرب والكفاح وبرز الهداف إلى الميدان وطلب براز الفرسان فبرز إليه دياب وصدمه كليث الغابه وكان الهداف من الفرسان المشاهير والأبطال والمغاوير قد تعود الحرب من صباه فكان لايهاب الموت ولا يخشاه فاقتتل مع دياب أشد قتال وكان يجول معه فى ساحة المجاله ويهجم عليه هجوم الأسد الرئبال ومازال الفرسان فى أشد قتال وطعان يذهل عقول الشجعان إلى أن انتصف النهار وكان دياب استظهر عليه كل الاستظهار وضربه على عنقه بالسيف البتار فقطعه وألقاه فى ساحة المجال فلما رأت جموع الدبيسى ما حل بوزيرها هجمت على دياب ناصدة قتاله وهى تذمه وتشتمه فعند ذلك حملت بنى هلال من اليمين والشمال والتقت الرجال بالرجال والأبطال وجرى الدم وسال من شدة الحرب والقتال ومازالوا على تلك الحال إلى وقت الزوال فدقت طبول الانفصال وباتت بنى هلال فى سرور وبات الدبيسى فى قلق وضجر لأنه قد قتل من قومه جمعاً كثيراً أكثره من الرؤساء والقواد ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح وركبت الفرسان إلى الحرب والكفاح وكان أول من برز إلى الميدان وطلب قتال الشجعان الملك الدبيسى دون باقى الفرسان فصال وجال فى ساحة المجال ونادى أين فرسان بنو هلال فليبرز الآن إلى ساحة القتال فما تم كلامه حتى صار الأمير دياب قدامه وهو راكب على فرسه وكل العيون تنظر إليه وترى ولما اقترب منه أنشد وقال :

يقول الفتى الزغبى دياب ابن غانم	أنا فارس الفرسان يوم طعان
أنا البطل المدعو ليوم الكريهة	على ظهر خضرا تسبق الغزلان
ألا يادبيسى إسمع كلامى وافتهم	من قبل أن تغدوا قتيل طعان
فأولاد أختك قتلت بصارمى	وقتلت جمعاً وافر فرسان
فلو كنت عاقل يا أمير وفاهم	ما كنت تطلب زمرة النسوان
فكنا نعطيك مهما تريده	من المال ثم الخيـــل والفصلان

(قال الراوى) فلما فرغ الأمير دياب من هذه القصيدة اغتاظ الدبيسى ثم أنشد وقال

يقول الفتى المسمى الدبيسى مريد	فدمعى على الخدين كالغدران

وايران قلبي كلما أقول تنطفي ... يزيد لهيبها بالحر والدخان

من قولك يا دياب يابن غانم ... قدمتنا فى حضرة الفرسان

فلا بد من قتلك على وجه الثرى ... وتعود بعد الربح بالخسران

وبعد ذا أقتل حسن فى صارمى ... وأبو زيد أيضاً وعمدة الشجعان

أسبى حلالتكم وكل رجالكم ... تبقى من جملة الرعيان

(قال الراوى) فلما انتهى الدبيسى من شعره ونظامه اغتاظ دياب منه وانطبق عليه وحمل وفعل الدبيسى مثل مافعل وأخذفى الحرب والقتال وجرى بينهما عجائب وأهوال وماز الوا على تلك الحال إلى أن ولى النهار وأقبل الليل بالاعتكار فافترقا عن بعضهما البعض ونزلت كل فرقة فى ناحية من الأرض وعند رجوع الأمير دياب من معركة الصدام التقاه الأمير حسن باعزاز وإكرام وشكره على مافعل وقال له لله درك فى القتال وملاقاة الأبطال فأريد منك أن لا تنزل غداً إلى الميدان لأن لك عدة أيام وأنت فى الحرب والصدام والدبيسى مرتاح ثم ختم الكلام بهذا الشعر والنظام :

قال الفتى حسن الهلالى أبو على ... والدمع من فوق الخدود سيول

يا مرحبا بك يا دياب الغانم ... يا فارس الفرسان يوم الهول

يا فارس الفرسان ياليث العدا ... ياليت عمرك يا أمير يطول

يا أمير إنك قتلت لراشد ... وسلام أضحى ميتا مقتول

أما الفتى محمود ولى وانمحى ... وأخوه هدافا غدا مجدول

واليوم قد نزل الدبيسى صادمك ... فى حومة الميدان مثل الغول

فأنا عليك اليوم قلبي خائف ... ياليت عمرك ما ترى منكول

يا أمير دع عـدا ينازله ... فاسمع كلامى وافهم المنقول

(قال الراوى) فلما فرغ الأمير حسن من شعره ونظامه وفهم دياب فحوى قصده ومرامه توقف عن رد الجواب فقال له حسن علامك يادياب توقفت عن رد الجواب قال اعلم أيها الهمام لا تمنعنى عن هذا الطلاب وإن قتلت روحى فداك فانى لا اخشى الموت فى قتال أعداك قال الراوى فلما فرغ دياب شكره حسن وقبله فى صدره وقال له أنا ما تفوهت بهذا الكلام إلا لما وجدتك تعبان ومادام الأمر كذلك فابرز نهار غداً

قاتل خصمك واتكل على الله فانك تكفينا شره وأذاه ثم باتوا تلك الليلة فى سرور وانشراح ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح دقت الطبول وركبت الفرسان ظهور الخيول واعتقلوا بالرماح والنصول وتقدموا إلى ساحة الميدان وكان أسبقهم الأمير دياب ولما صار فى معركة القتال طلب الدبيسى فانحدر اليه فالتقاه دياب كسبع الاجام وأخذ معه فى الحرب والصدام واشتد بين البطلين القتال وعظمت الأهوال وكانا تارة يتقدمان وتارة يتأخران وكانت عيون الفرسان شاخصة اليهما ومازالا على تلك الحال إلى وقت الزوال فدقت طبول الانفصال فافترقا عن بعضهما على سلامة ورجعا إلى الخيام ولما أصبح الصباح ركب الأمير دياب فتقدمت اليه بنته وطفا وهى تبكى بدموع غزار فتعجب من ذلك وقال لها اعلمينى بما أصابك قالت مرادى أن تتوقف هذا اليوم عن قتال القوم فقد رأيت حلما فى المنام أصبحت منه فى أوهام ثم سردت له هذا النظام :

إن الدهر كوانى حتى زادت نيران
من أجل حلم شفته منه قلبى فزعان
قد شفت بحر من دم وأنت بوسطه غرقان
شفتك فى وسطه تسبح وكلت منك الدرعان
ما عاد الك قوة تخرج أنا شفتك بعيان
أنت تنادى يا أبو زيد هيا يا أبا شيبان
فى سرعة قد أتاك ومد اليك الزندان
وقال الك يا أبو موسى أمسكنى بالدرعين
الحال قدرا فى عاجل وقد جابك للصيوان

(قال الراوى) فلما فرغت وطفا من هذا الكلام قال لها لا تخافى من هذا المنام فانه أضغاث أحلام فلابد لى من الحرب والصدام فاذهبى إلى خيامك ولا تخافى على من أعداك فرجعت إلى الخيام وتقدم دياب إلى معركة الصدام فوجد الدبيسى بانتظاره فصالا وجالا فى ساحة الميدان وأخذ بالضرب والطعن حتى جرت الدماء ومازالا فى هنا وحصر من الصباح إلى وقت العصر فاختلف بين الاثنين ضربتين قاطعتين وإن السابق الأمير دياب فبطلها الدبيسى بمعرفته ثم هجم على دياب كسبع الغاب وطعنه

بالرمح طعنة قوية فجاء الرمح فى فخذه فسال دماه وآيس من الحياة وأراد الدبيسى أن يعجل فناه ويبلغ منه غاية مناه وإذا بفارس من بنى هلال قد أقبل كأنه قطعة من جبل وهو يهدر كالأسد فخلص دياب من أيدى الدبيسى بن مزيد ورجع به حتى وضعه فى المضارب ثم اقتحم الصفوف والمواكب وهو يصيح على الأعادى وينادى أتاكم أبو زيد ليث الاعادى وجعل يقوى بنى هلال على الحرب والقتال فأجابته إلى ما طلب وحملوا على جيش العدا من كل جانب فعند ذلك حملت العساكر على العساكر وتقاتلوا بالسيوف والخناجر وحمل على الأمير حسن بن سرحان وتبعه السادات والاعيان ولم تكن إلا ساعة من الزمان حتى اشتدت الاهوال وتمددت الابطال على وجه الرمال وما زالوا فى أشد قتال إلى وقت الزوال وكانت عساكر الدبيسى قد استظهرت فى ذلك النهار وأسرت عشرين فارسا من بنى هلال الاختيار من جملتهم الامير عزندس والرياشى ومفرج والهدار فلما شاهد حسن تلك الاهوال خاف على بنى هلال من الهلاك والوبال فنازل فى المضارب جمع قواد المواكب وأخذ يستشير بهذا القصيد :

قال الفتى حسن الهلالى أبو على	من فوق الخدود لقد جرى
يا قوم اصغوا إلى كلامى وافهموا	وأنت يا أبو زيد انظر ما ترى
قوم الدبيسى يا رجال اشارس	القوم منهم مثل سبع يهدرا
يا قوم ما هو رأيكم فتكلموا	حتى أصير فى أمورى وأبصرى

فلما فرغ حسن من كلامه أجابه أبو زيد يقول :

قال أبو زيد الهلالى سلامه	يا أبو على اسمع وكن منى موقرا
واصغى لقولى يا ابن عمى وافهم	هذا مقدر فى الكتاب مسطرا
واعلم بأن الدهر هذا حاله	يوم لك ويوم عليك يا قسورا
اسمع كلامى يا ملك وافتهم	إنى أشور عليك يا فخر الورى
ارسل إلى الزينات أحضر جميعهم	حتى ينخوا فى القتال العسكرا
ثم نهجم فى الاعادى كلنا	من فوق ظهور خيول ضمرا
أما الدبيسى سوف أقتله أنا	ويعود من فوق التراب معفرا

ونجندل الفرسان فى طعن القنا   فى يوم أغبر ينظرونه أشقرا
هذا جزاء من خان فى أضيافه   الله يقطع كل من يتكبرا

(قال الراوى) فلما فرغ أبو زيد من كلامه وفهم الأمير حسن فحوى قصده ومراده استحسنه وكذلك جميع السادات والأعوان وقالوا عن فرد لسانه أن الخطاب هو عين الصواب هذا ما كان من بنى هلال وأما الدبيسى فانه عند رجوعه من القتال كبرت نفسه وأحضر الاسرى بين يديه وتهددهم بالقتل والدمار فوجدهم لا يبالون بالاخطار فأرسلهم إلى الحبس بعد أن أشفى غليل النفس ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح اصطفت المواكب وترتبت الكتائب ولما تقابل العسكران وبرز القاضى بدير إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فبرز إليه فارس وكان من الأبطال المذكورين فحملا على بعضهم البعض وتجاولا فى الطول والعرض وتضاربا بالسيوف والقواضب وتطاعنا بالرماح والكواعب ولم يزالا فى حرب وقتال وطعن يشيب الاطفال إلى قرب الزوال وكان القاضى قد استظهر على جاسر وهجم عليه كالاسد الكاسر وطعنه بالرمح فى صدره خرج يلمع من ظهره فوقع على الأرض يختبط بعضه ببعض ثم هجم آخر فقتله وعجل من الدنيا مرتحله فعند ذلك دقت طبول الانفصال فرجع القاضى من معركة القتال فالتقته بنو هلال بالاكرام والاجلال وهنته بالسلامة من الوبال وباتوا تلك الليلة إلى أن أصبح الصباح وتواثبوا إلى الحرب والكفاح فبرز من قوم الدبيسى فارس وطلب قتال الفرسان فبرز الامير عقيل وهو أخو أبو زيد الفارس الكرار النبيل صدمه صدمة جبارة فالتقاه مثل الاسد الكرار وأشار يقول

أنا تميم بيوم الحرب طعانا   كم قتلت من الشجعان فرسانا
ان كنت فارسا فاثبت ثم قاتلنى   حتى أبيدك ويبقى الدم غدرانا
فعادتى الحرب بالميدان من صغرى   اليوم تبقى طريح الأرض منهانا

(قال الراوى) فلما فرغ تميم من هذا الشعر والنظام فقال له عقيل لمثلى يقال هذا الكلام وأشار يقول :

عقيل غنى من الاشعار أوزانا   وفى الحروب شديد البأس طعانا
نحن الكرام لنا بالفضل قد شهدت   كل الورى وملوك الأرض تخشانا

أميرنا ابن سرحان الأمير حسن | لم نلتقي مثله في النـــاس إنسانا
أخي أبو زيد من شاعت مكارمه | فكم سبى في الوغى أسد وشجعانا
ما في الفوارس من قوم يماثله | حامي حمانا من الحساد احمانا
أنا عقيل لقتالك جئت أطلبه | وأجعل الدم فوق الارض غدرانا

(قال الراوي) فلما فرغ عقيل من شعره ونظامه حمل عليه وأخذا في الصدام والعراك واشتبكا اشد اشتباك وما زالا على تلك الحال وهم في أشد قتال نحو ثلاث ساعات من النهار وكان عقيل قد استظهر على خصمه غاية الاستظهار فضربه على عنقه بالسيف البتار وإذا برأسه قد طار وكان له أخ اسمه ناصر فلما رأى ما حل بأخيه هجم على عقيل هجمة الأسود فالتقاه عقيل بقلب كالجبل والتحم بينهم القتال وكان عقيل يريد سرعة الانجاز من الصدام والبراز فلاصقه وضايقه وسد عليه طرقه وطربه بالحسام على رأسه شقه فوقع على الفلاة وعدم الحياة وكان الوقت قريب الزوال فدقت طبول الانفصال ورجع عقيل الى بني هلال فالتقاه قومه بالكرامة وهنوه بالسلامة وشكروه على فعاله وزادوا في إكرامه وإجلاله وأما عساكر الدبيسي بن مزيد فكان قد تنغص عيشه وتنكد فاجتمعت الاكابر والعمد ودخلوا على أميرهم وتمثلوا بين يديه وقالوا إلى متى هذا الحال فجعل يوعدهم في الانتصار وثاني الايام برز الدبيسي إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فبرز اليه غنيم بن مفلح وكان غلاما جميلا فقال له الدبيسي من تكون يا غلام حتى تبرز في معركة الصدام فسوف أقطع رأسك بحد السيف ثم صدمه بقوة واهتمام وما زالوا في قتال شديد وحرب ما عليه من مزيد حتى صارت الشمس في رابعة النهار حتى الدبيسي قد أظهر فاقتلعه من سرجه مثل العصفور وسلمه إلى أصحابه فأوثقوه بالكتاف ثم صال الدبيسي وجال وطلب ابراز الابطال فبرز اليه الأمير زيدان وصدمه بقلب أقوى من الصيوان فالتقاه الدبيسي كالأسد الغضبان وأخذا يتضاربان ويتحاربان واستمر الحال على ذلك الشأن نحو ثلاث ساعات من الزمان ثم افترقا بالسلامة والامان وبينما كان الأمير زيدان راجعا من الميدان ضرب الدبيسي حصانه فأرماه على بساط الفلا فانقضت عليه جموع الدبيسي فأخذوه في الحال وكتفوه وأوثقوه فزاد به الهم والكدر وقد حلت به العبر وأما بنو

هلال فقد هاجت منهم النساء والرجال واستعظموا تلك الاحوال وذهب منهم جماعة من الاعيان إلى عند أبو زيد فارس الفرسان فوقعوا عليه وفوضوا اليه وطلبوا منه أن يسعى لتخليص الفرسان والابطال من الأسر والاعتقال فطيب قلوبهم وأوعدهم بأنه سيبذل المجهود ثم انه غير زيه وتنكر ولبس حلة من الحرير الأخضر ووضع طيلسانا على رأسه حتى لم يعد يعرفه أحد وقصد الملك الدبيسي الخيام ودعا له بالعز والانعام وكان كلامه معه باللغة الفارسية فلما رآه الدبيسي على تلك الصفة ظن بأنه من دراويش الاعجام فاحترمه غاية الاحترام وقال له من اين أتيت يا ابن الاجواد قال من مدينة بغداد وإنى من فقراء عبد القادر رب الفضائل والمآثر فقال ادعو لنا يا درويش الاعجام بالنجاح والانتصار وان الله يرزقنا بابو زيد الخادع الماكر حتى نقتله على رؤوس الاشهاد ونبلغ منه سرور الفؤاد وهو الذى كان السبب فى قدوم بنى هلال إلى هذه المنازل والأطلال فاذا أجاب الله طلبك بلغناك أربك فتعجب أبو زيد من هذا الكلام وقال له بلغك المراد بجاه مولاك عبد القادر وباقى الاولياء العظام وما دام كذلك أريد منك أن تأمر لى بالذهاب إلى البلد فسمح له بالذهاب وأمر الحجاب أن يفتحوا له الأبواب وعند دخوله إلى البلد قصد باب الحديد وهو المكان الذى كانت مسجونة فيه فرسان بنى هلال ووجد هناك جماعة العبيد وهم يطوفون من خلف وقدام وتحت جنح الظلام فسلم عليهم فردوا السلام وقال من تكونون من الايلم فقال قد أرسلنى الدبيسى بن مزيد لادعوا له فى جامع عبد الصمد بأن الله يبلغه المراد وينتصر على أبو زيد من الاوغاد وأنتم من تكونوا من الناس فقالوا إننا من جملة الحراس وقد أمر الملك أن نحافظ على أسرى بنى هلال خوفاً من أبو زيد لئلا يأتى اليهم بالمكر والاحتيال ثم أن أبو زيد بعد هذا الحديث أخرج من جيبه شمعة مبنجة فاضاءها عنده فرك منا خبير فلما اشتعلت فاح منها رائحة البنج فلما اشتعلت فاح منها رائحة زكية ولم تكن الا برهة يسيرة حتى وقعت الحراس كالاموات من ذلك البنج وبعد ذلك أخرج حجر المغناطيس ووضعه على الاقفال فتساقطت فى الحال فرأى فرسان بنى هلال فى القيود والاغلال وهم يقاسون الأهوال فاعلمهم الأمر وفكهم من الاسر ثم أعطاهم أسلحة الجماعة وقال لهم اتبعونى بعد ساعة حتى أكون فتحت لكم أبواب المدينة

فتخرجوا بالراحة والامان ثم صاروا حتى وصلوا الى الباب فوجد الحراس جالسين وفي أيديهم السيوف والحراب فردوا عليه السلام وقاموا على الاقدام وأجلسوه بجانبهم وجعلوا يخاطبوه ويخاطبهم وكان كثيراً يمد يديه الى جرابه ويأخذ قطعة من السكر ويأكلها امامهم فقالوا ماله هذا الذى تأكله يا شاي قال هذا هو ملبس حلبي فقالوا اطعمنا ونحن ندعو لك بالتوفيق والخير فأعطاهم قبضة كبيرة وكانت مبنجة فأكلوها فما استقرت في بطونهم حتى سقطوا أمواتاً والاسرى فقد خرجوا ومدوا في قطع البراري والبطاح فوصلوا لأهلهم عند الصباح فقامت الافراح وكثر الصياح واشتدت ظهور الابطال وشكروا أبو زيد على تلك الفعال وأهل البلد فقد حل عليهم الويل والنكد لما رأوا الحراس راقدين والاسرى غير موجودين ولما بلغ الدبيسي هذا الخبر طار من عينيه الشرر وتأكد عنده بعد التحقيق والتفتيش أن البلا من الدراويش وما هو الا أبو زيد صاحب المكر والكيد ولكنه أخفى الكمد والجلد وزحف بالعساكر والابطال لقتال بني هلال فالتقته فرسان القوم في ذلك اليوم وكان أول من برز للدبيسي سرور بن فايد فالتقاه الدبيسي بقلب كالصوان ولم تمكن الا ساعة حتى أخذه أسيراً وقاده ذليلاً حقيراً فبرز اليه نعيم الزحلان وكان من صناديد الشجعان فأسره في الحال واوثقه بالقيود وما زال على تلك الحال وهو يأسر الفرسان والابطال حتى أسر خمسين فارساً من بني هلال فقد منهم عدة أبطال وقد أشرفت على الوبال من هول القتال فلما كان اليوم الرابع هجم الدبيسي بالمواكب والطلائع قاصداً قتال بني هلال وانطبق عليهم من اليمين والشمال وقاتلهم أشد قتال فكانت موقعة عظيمة لم يسمع بمثلها في الايام القديمة كثر الصياح وجرى الدم وساح فما كانت ترى الا رؤساً طائرة ودماء سائرة وفرسان غائرة ودارت على بني هلال الدائرة واستمر القتال على هذا المنوال حتى كثرت الاهوال على بني هلال فلم يعد لهم ثبات فتأخروا الى الوراء فتفرقوا الى جانب الصحراء وقد قتل من الفريقين في ذلك نحو عشرين الف بطل كرار ولما أظلم الظلام اجتمعت بنو هلال في الخيام في حالة الذل والانكسار بما اصابهم في ذلك النهار وعقدوا ديوان مع الأمير حسن وطلبوا منه أن يمدهم برأيه فأخذ حسن يحمسهم بالمقال ويشجعهم على الحرب والقتال ويقول لهم إنه من الواجب أن تركب الحازية مع الجارية وتحمل عليهم في الصباح بالكتائب والمواكب

وإلا حاطت بنا النوائب وما يعود يسلم منا أحد فعند ذلك اشتدت عزائمهم على الحرب والصدام وأجابوه على فرد لسان إننا سنقاتل غداً بالسيف والسنان حتى لا يبقى منا إنسان. ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح دقت طبول الحرب والكفاح فركبت العساكر واصطفت على الميامن والمياسر وهجمت عساكر بني هلال على عساكر الدبيسي بقلب حديد وهجمت معه فرسان الصناديد والتقت الرجال بالرجال والأبطال بالأبطال واشتدت الأهوال وسال الدم وارتجت السهول والجبال وما زالوا على تلك الحال حتى تضعضعت من الدبيسي الأحوال فعند ذلك مالوا من اليمين والشمال وتفرقت جموعهم بين الروابي والتلال فنادى الدبيسي بنحو الأبطال ويقول من عرفني فقد اكتفى ومن لم يعرفني فأنا أخفا أنا الفارس المؤيد المدعى الدبيسي فلا يبرز من أبطالكم المشهورة وفرسانكم المذكورة إلا أبو زيد صاحب المكر والكيد الذي أتى إلينا واحتال علينا فما أتم كلامه حتى صار أبو زيد أمامه وصدمه صدمة تزعزع الجبال وفي الحال التقيا في ساحة المجال واصطدما كأنهما بحرين تهامرا كأنهما نمرين وتزاحما كأنهما أسدين حتى حان عليهم الحين وزعق فوق رؤسهما غراب البين واستمر على تلك الحال إلى نصف النهار أما أبو زيد فاستظهر على خصمه وضايقه وسد عليه طرقه وضايقه وطعنه بالرمح في صدره وخرج يلمع من ظهره فوقع على الأرض قتيلا ولما رأت قومه ما حل به خافت من الهلاك والبوار فولوا طالبين الفرار وقصدوا المدينة وقد انقطع منهم الأمل فتبعهم أبو زيد وبني زحلان والأمير دياب والأمير حسن بباقي الفرسان وتبعوهم على ظهور الخيل ودخلوا المدينة تحت ظلام الليل وضربوا فيهم بالسيف حتى جرى في الأسواق وبابت وقوم الدبيسي بما لا يطاق وكانت ساعة مريعة كثر فيها الصياح والبكاء والنواح ثم هجمت بنو هلال على الحصون والقلاع وخلصوا أمراهم من الاعتقال ورجعوا من ساحة القتال وثيابهم كشقائق الارجوان من أدمية الفرسان ونزلوا المضارب والخيام وقد بلغوا غاية المراد فخلعوا الحديد ولبسوا الأطالس والحرير ودارت القهوة والشربات على الأمراء والساعات وفي ثاني الأيام نهض وزير الدبيسي همام وأخذ مزيد بن الدبيسي وأمه بدران وسار بهما عند الأمير حسن بن سرحان فدخل عليه وسلم عليه وبكى بين يديه وطلب منه العفو والأمان وأن يعاملهما بالطيب

والإحسان ثم تقدمت الأميرة بدر إن سلمت على الأمير حسن وتمايلت بين يديه هي والأمير مزيد ثم تقدم بعدهم الوزير همام إلى امام الأمير حسن وقال له العفو ياملك الزمان فقد نصحت الدبيسي جملة أمرار وحذرته من عواقب الأمور فلم يسمع كلامي إلى أن نفذ به الأمر المقدر

(قال الراوي) فلما فرغ الوزير من كلامه وفهم حسن فحوى قصده ومرامه فأجابه ماطلب فأكرم مزيد وأمه غاية الإكرام وخلع عليهما الخلع الفاخرة وأنعم أيضاً على الوزير وزاد له في التعظيم والتوفيق ونادى بالآمال وزالت الاكدار والاحزان وكان مزيد خاطب ابنة عمه هند وكانت من النساء المحسنات فاعلم الوزير الأمير حسن ذلك الخبر وطلب منه أن يزفها عليه قبل رحيله فأجابه إلى ذلك الطلب وبالغه غاية الأدب وفي الحال ذبحوا النوق والأغنام ودارت الأفراح سبعة أيام وبعد تمام الأفراح والسرور والانشراح ولى الأمير حسن مزيد مكان أبيه على تلك البلاد وأطاعته جميع العباد وكان هذا الغلام محبوبا من جميع الايلم لأنه كان عاقلا فهما سخيا بما يحب العدل والانصاف ويكره الجور والاسراف .

(قال الراوي) وبعد تمام عرس مزيد بعشرة أيام أمر الأمير حسن بهذه المضارب والخيام وجمع المكاسب والأغنام أمر بالاستعداد للرحيل ودق طبل الرجوع الرحيل إلى بلاد الغرب وحينئذ اجتمعت الفرسان من كل جانب ومكان فركب الأمير دياب والقاضي بدير وركب زيدان شيخ الشباب والأسد المهاب بستين ألف من الشبان وركبت الجارية مع المهاريات وحينئذ ركبت الفرسان ظهور الخيول واعتدوا بالسيوف والنصول وانتشرت البيارق وارتفعت السناجق وكانت الفرسان تموج وتموج مثل أيام يأجوج ومأجوج وجدوا في قطع البراري والقفار والسهول والاوعار وهم يواصلون سير الليل والنهار حتى وصلوا بعد عشرة أيام إلى بلاد الأعجام فنزلوا في مرج واسع كثير المياه والمنابع فنصبوا المضارب والخيام .

(قال الراوي) وكان الحاكم على بلاد الأعجام في تلك الأيام سبعة ملوك عظام وهم خرمندو على شاه والصاصيل والمغل وينذر المنذر والنعمان ولما نزلت بنو هلال في ذلك المكان أطلقوا مواشيهم في المرعى وكانت كثيرة الخيرات والأشجار

النبات فى مدة يسيرة أكلت المواشى العشب والأشجار والبساتين والأثمار وبعد أن أخذوا الراحة وأمنوا من نوائب الزمان رجع الأمير حسن والقاضى بدير إلى نجد فى حاد من الاجناد لتجديد البلاد ورجوع الأمير حسن والقاضى إلى نجد اجتمعت ملوك الأعجام عند الخرمند وجعلوا يتداولون فى أمر نزول بنى هلال فى ذلك البر وبعد مجادلات طويلة قال الخرمند اعلموا أيها السادات أن بنى هلال قدموا البلاد وهم كل يوم فى ازدياد فقالوا الرأى عندنا أن نبادرهم بالقتال ونسبى حرمهم والعيال وننهب نوقهم والجمال قبل أن تكثر جموعهم وتصل أيديهم الينا.

(قال الراوى) وكان الملك النعمان حاضرا فى الديوان فصعب عليه ذلك الأمر لان أصله من بلاد الغرب فقال للملك الخرمندان كان لابد من حرب بنى هلال طمعاً بالغنائم والاموال فارسل اطلب منهم عشر المال فان امتثلوا أمرك الشريف وأجابوك لطلبك تكون قد بلغت منهم المرغوب وان امتنعوا عن ذلك فحينئذ نبادرهم بالقتال وننهب أموالهم ومواشيهم ونطفى نارهم ونلاشيهم فلما سمع منه هذا الخطاب رآه الصواب وكذلك صادقت عليه سادات الاعاجم ثم أن خرمند بعد هذا الكلام استدعى بقلم وقرطاس وكتب إلى بنى هلال يطلب منهم عشر المال أو يرحلوا من بلاده .

(قال الراوى) فلما فرغ الخرمند من كلامه طوى الكتاب وأعطاه إلى النجاب وأمره أن يسير إلى حلة بنى هلال ويدفع الكتاب إلى نائب السلطان حسن بن سرحان ويرجع اليه من غير توان فامتثل النجاب أمره وسار حتى وصل تلك الديار فسأل عن نائب الامير حسن فأرشدوه إلى مضارب أبو زيد فدخل وسلم عليه وتمثل بين يديه وأعطاه وطلب منه سرعة الجواب فلما فتحه وقرأه وعرف رموزه ومعناه مزقه ورماه وكتب إلى الخرمند الجواب :

يقول أبو زيد الهلالى سلامه ... فلا يكتم الاسرار غير الاصايل

ألا يكشف الاخبار غـــير خائن ... ردىء الاصال من قوم أراذل

أنا أبو رزق من أهل عامر ... وأمى شريفة من خيار القبايل

سميت أبو زيد على الناس زايد ... كريم شجاع من كرم أفاضل

بعثت يا خرمند تطلب لعشرنا عشر النساشم الخيول الاصايل
وتريد منا كل بيضة جميـــلة بنأكل الأمارة زائدات بالدلائل
فما يحظى بهـــم فان وراهم رجال حروب كالأسود تقاتل
سألقاكم غدا بقوة ساعدى وجيش بنى هلال الفضايل
وإن كنتم لا تبرزوا للقتال فإنى سألقاكم بوسط المنازل
يقول أبو زيد الهلالى سلامة سيدركونى الفرسان فى يوم الهوايل

(قال الراوى) ولما وقف الخرمند على هذا الشعر والنظام صار الضياء فى عينيه كالظلام وقال هل بلغ من قدر بنى هلال ان يخاطبونى بمثل هذا المقال وأنا ملك بلاد العجم وذكرى فى جميع بلاد الأمم ثم أنه استدعى من قواد العساكر ومن يعتمد عليهم فى الحروب والمخاطر وأمرهم أن يستعدوا للقتال ويجمعوا الفرسان والابطال فامتثلوا أمره فى الحال وجمعوا الابطال والفرسان حتى اجتمع خمسمائة ألف عنان وأرسل إلى بلاد خراسان تمده بالجيوش والعساكر ثم ركب فى ثانى الايام للحرب والصدام ولما بلغ أبو زيد هذا الخبر ركب فى جموع بنى هلال واشتبك بين الفريقين القتال واشتدت قلوب الرجال وماجت بنو الزحلان وبنو هلال وارتدت على طوائف الاعجام كليوث الآجام وقدامهم أبو زيد فارس المعامع وهو يهدر كالأسد الكاسر ولا يبالى بالاهوال والمخاطر وقد فضل الممات على الانهزام والشتات هذا وقد فتك أبطال بنى هلال بالعجم فتك الذئب بالغنم وأوردتهم مورد العدم وكانت ساعة من أعظم الساعات فيها ارتفعت الضجات وتمكنت الصوارم فى روس الفرسان والسادات فعند ذلك ولت الاعجام هاربة إلى النجاة طالبة وخلص أبو زيد من أيديهم النساء والبنات ورجع بالنصر والاقبال إلى المضارب والابيات مع باقى الامراء والسادات هذا ما كان من أبو زيد الاسد الكرار والبطل المغوار وما فعله فى ذلك النهار وأما المارية ابنة عم الامير غنيم فكانت فى هودج على جمل أهوج فلما اشتد القتال انهزم بها ذلك الجمل وسار بها على عجل فرأت نفسها بقرب الحلة والكوفة والصاصيل وراء هودجها طالب أخذها فصاحت على ابن عمها من علو رأسها وكان المذكور بالقرب منها فلما سمع نداها ترك القتال واتاها بجمل يطعن الابطال ويبدد الفرسان

على وجه الرمال حتى اقترب من نواحيها وصار يناديها ويقول لبيك يا ابنة عمى وفارجة همى وغمى فقد أتيتك فابشرى بالخلاص من شرك الاقتناص فلما فرسان الاعاجم تقدم مالت عليه من خلف وأمام وأخذت معه فى الحرب والصدام . فبينما هو يقاتل ويدافع وإذا هو بالصاصيل قد ضربه من خلف ظهره بالرمح فخرج من صدره فوقع على الارض قتيلا فى دمه جزيلا . فساق الصلصيل هودجها فى الحال بينما كان أبوزيد يشتغل بالقتال وما عنده خبر بهذه الاحوال فلما أمسى الظلام ورجع أبو زيد عن الحرب والصدام دخلت مارية الحلة مسبية من الاعجام وهى تبكى وتصيح وتستغيث من فؤاد جريح وليس من يسمع نداءها

(قال الراوى) وبينما كان الأمير أبوزيد فى خيامه مع سادات قومه يشربون المدام ويأكلون الطعام والنساء تدق لهم الدفوف وتدعو لهم بطول العمر على ذلك النجاح والنصر وأن الابطال قد أتوا بجثة غنيم من ساحة القتال وأقاموا عليه النواح والصياح فسأل أبوزيد عن السبب فقال يسلم رأسك بالامير غنيم فانه كان يقاتل بقرب هودج مارية إلى أن ضايقته الابطال فقتل وشرب كاس الحمام وراحت مارية سبية الاعجام فلما سمع أبوزيد هذا الخبر تنغص عيشه وتمرر وطار من عينيه الشرر ولكن لما رأى نفسه مغلوبا من العجم لكثرة ما عندهم من الامم كتب إلى الأمير دياب يعلمه بوقعة الحال ويطلب منه المعونة فى القتال وأرسل الكتاب مع عشرة أبطال فلما وصل الكتاب إلى الأمير دياب وقف على ما تضمنه من الخطاب امتنع عن الحضور وقال أولى بحماية الجمهور وهذا لا يمتنى عواهله فلما وقف أبوزيد على هذا الخطاب خرج عن الصواب وغضب من كلام دياب ثم انه كتب إلى الأمير حسن بن سرحان يعلمه بهذا الشأن ومثل ذلك إلى القاضى بدير يعلمه بما جرى بينه وبين الاعجام فما فرغ الامير أبوزيد من الكتاب سلمه للنجاب وأمره أن يجد فى مسيره حتى يصل إلى بلاد نجد ويسلمه إلى الأمير حسن ويرجع اليه بسرعة الجواب.

(قال الراوى) ومن الاتفاق الغريب بأن القاضى بدير رأى تلك الليلة حلما وهو أنه قابض على حمامة بيضاء وإذا بعقاب أسود قد هبط من الجو فخطفها وطار فاستيقظ من المنام وهو فى قلق عظيم وسار إلى عند الأمير حسن وقص عليه الرؤيا

فقال يا ابن العم ان هذا الحلم يدل على ضيق وغم الآن وأن ابنتك مارية قد خطفها الاعجام فلما سمع هذا الكلام صار الضياء في عينيه كالظلام وقال له ما دام الأمر كذلك فيجب أن نركب حالا ونجد في قطع القفار ونكشف خبر قومنا في تلك الديار فأجابه الأمير حسن إلى هذا المرام وركبا في ساعتهم ومعهم فرسان الصدام وقصدوا تلك الاطلال قاصدين بني هلال وكان ذلك النجاب الذي أخذ الكتاب قد سار قصدهما ولكنه أخطأهما في الطريق وعند وصولهما بالعساكر والأبطال إلى أول نجوع بني هلال ثم انه سار مع الأمير حسن حتى اشرفوا على الأمير دياب بالاكرام والترحاب وطلب منهم أن ينزلوا عنده فأبى حسن وقال له علامك يا أميرنا ركبت مع أبو زيد على قتال الاعجام أنسى الحريم والعيال وتنهب النوق والجمال وأنت جالس في الخيام بدون فكر ولا اهتمام قال أن الذي منعني يا ملك الزمان هو خوفي من هجوم العدا إلى هذا المكان فتنهب الاغنام ثم ركب دياب مع القاضي والأمير حسن وركب معه الابطال والفرسان وما زالوا يجدون المسير حتى وصلوا عند أبو زيد فالتقاهم بالتعظيم والاحترام وكان ذلك النهار عنده من أعظم الايام فنزلوا عنده فذبح لهم الاغنام فامتنع الامير حسن عن الاكل وهو مغتاظ زعلان فسأله أبو زيد عن سبب ذلك فقال إني مغتاظ عليك كيف تفقد المارية من يديك فلما فهم أبو زيد فحوى كلامه أجابه يقول وعمر السامعين يطول :

يقول أبو زيد الهلالي سلامة ... بدمع جرى من مقلة العين تتابع
يا أبو علي اسمع كلامي وافهم ... وإذا مت يا قاضي فكن اقوالي سامع
أتونا بنو الاعجام من كل جانب ... سبعة ملوك من غير التوابع
فصحنا عليهم هاجمين بعزمة ... قتلنا منهم ألفين ما عدا التوابع
فكانت فتاة الحي مارية المها ... عدت فعاد القوم فيها طوامع
جعل بكرها فيها وما أنا ما رأيتها ... وقلبي لأجل المارية عاد واجع
ونادت بعالي الصوت يا آل عامر ... وترمي بأيديها وتلوي الاصابع
طعنت الملك صاصيل بالرمح صابه ... بحربة نورها كالشمس ساطع
وكان ظلام الليل بيني وبينهم ... وعاد العجم من بعد هذه الوقائع

وحق كلام الله والبيت والحجر فلا بد لى من حربهم أن أسارع
ولا بد من أن أجيب المارية وأهدم الكوفة وارتد راجع

(قال الراوى) فلما فرغ الأمير أبو زيد من كلامه قال له الأمير دياب والله يا أبو زيد لو كنت حاضر قتال العجم ما كنت تركتهم يسبيوا المارية ويسطو على الأموال والحريم بل كنت قاتلت أشد قتال وأموت موت الأبطال فلما سمع أبو زيد ذلك كان عليه كضرب الحسام فالتفت إليه وقال له أمام الأعيان صدقت يا أمير دياب يا ابن غانم وبما انك كنت قادر على كسر الاعجام فلما حضرت وأظهرت شجاعتك فى الميدان عندما أرسلت خاصك عشرة فرسان ولا بد أن نقصد الأعجام وحينئذ تريناشجاعتك فى المعركة وأما ما كان من الأعجام فانهم لما رجعوا إلى أوطانهم وتنازعوا ملوكهم على مارية بنت القاضى بديرو وكان كل واحد يريد أن يأخذها لنفسه دون الغير وذلك لما فيها من الحسن والجمال والبهاء والكمال فاتفق رأيهم على إعطائها الشاة خرمندلا ه من أكابر الملوك وأنهم يركبون على بنى هلال مرة ثانية وكل من يكشف امرأة تكون له مثل المارية وفى ثانى يوم ركبت الأعجام على بنى هلال فركب الأمير حسن واستقبلهم فى ساحة الميدان ماعدا أبو زيد فانه لم يركب معهم لقتال القوم وجعل نفسه مريضا فى ذلك اليوم ولما انتشب القتال وعظم بين الفريقين الاهوال هجمت الاعجام على بنى هلال مثل أسود الآجام وقاتلت أشد قتال وجعلت ترميهم بالنشاب وتطعنهم بالحراب بدون خوف ولا ارتباك فلما رأت بنو هلال تلك الأحوال وهجم العجم عليهم من اليمين والشمال خوفاً من الهلاك والوبال فارتد إلى الخلف وانهزموا أشد انهزام وتبعهم فرسان العجم حتى دخلوا الخيام ثم داروا ينهبوا فى البيوت ويسبوا النساء والبنات فوقع البكاء والنوح وزادوا فى الصياح فلما سمع أبو زيد عويل النساء والأصوات التى ترتعش من سماعها الآذان وعظم عليه الحال وعصفت فى رأسه نخوة الرجال فبكت الأبطال والفرسان وفى أيديهم السيف والرماح فالتقى بعسكر الاعجام وحكم رقابهم ضرب الحسام فزادهم عن المال والحريم بإذن الملك العظيم فارتدوا مهزومين إلى الخيام طالبين وهو وقومه وراهم مثل الشواهين إلى أن بلغ منهم المراد وقتل عدداً كثيراً من الاجناد ثم ارتد منتصراً وعند وصوله إلى الصيوان فالتقاه الأمير حسن بن سرحان

وشكره على تلك الف مال وقال له مثلك تكون الأبطال يا زينة الأبطال فلولاك لكنا في أسوأ حال وصرنا معيرة بين سائر العربان على طول الزمان وكذلك القاضي بدير فإنه كان متأسفاً على فقد ابنته مارية أمام الحاضرين فقال له أبو زيد كن مطمئناً من هذا القبيل فلا بد من خلاص ابنتك أيها القاضي الجليل واشفي من عساكر العجم الغليل ثم أن أبو زيد صبر إلى وقت الظلام فنهض كسبع الآجام وتزيا بزي الأعجام وساروا إلى مدينة الكوفة بجمع الاعجام وفي صحبته عبده أبو القمصان وبدر بن غانم وعند وصوله إليها وجدوا أبوابها مغلقة فدار من جميع الجهات فلم يجد منفذاً بينما هو يتفرج ويتأمل رأى دهليز صغير فنزل فيه فأوصله إلى البلد فالتقى جماعة بانتظاره وأخذ يطوف من زقاق إلى زقاق ويجول بين الحارات والاسواق وهو يجس الأحوال ويقف على الاخبار وكان كلما نظر إليه إنسان يكلمه في لغة الاعجام بأفصح لسان ومازال سائر من مكان حتى وصلوا إلى حارة عظيمة البنيان ذات أربع عمدان وفوقها قصر جميل الهندام من الرخام وشبابيكه مصفحة من الذهب وإذا به يسمع آلات الطرب فقال أبو زيد في نفسه إن صدق حذري هذا قصر الملك خرمند لا محالة لما عليه من الهيبة والجمال ونظر أيضاً إلى شجرة من السرو واصلة أغصانها لشباك القصر فصعد إليها حتى وصل إلى أغصانها ولما صار عند الشباك وجه نظره إلى تلك الغرفة فوجدها من أحسن الغرف مزينة بالفرش الفاخرة ووجد سبع ملوك من العجم جالسة على كراسي من الذهب ومارية جالسة بينهما كأنها القمر وهي لابسة ثياب تذهل البصر وكانت ملوك الاعجام تشرب بالمدام والمغاني تغني لهم بأنواع الانغام فبينما هم كذلك وإذا بخرمند التفت إلى مارية وقدم لها كأساً وقال لها خذي واشربي يا بنت الكرام وغني لنا بأفصح كلام حتى يزيد انشراحنا ويكمل سرورنا فامتنعت عن الشراب وزادت في البكاء والانتحاب فلم يهز ذلك على الملك النعمان فنهض من وسط الديوان وكان أصله من العربان وكان الملك خرمند متزوج بابنة هند فقال دعوها ولا تكلموها فإنها من بيت كبير وأبوها قاضي وأمير وهذا لا يفعله حقير ولا صعلوك فكم بالحرى الملوك ولكن من جهة الغنا فهذا ليس فيه عيب ولا تعب ولا عناء ثم التمس منها أن تغني فلما سمعت الكلام أشارت تغني وتقول وتشكو حالها :

تقول فتاة الحى مارية من ألمها ... فثار الضنى والشوق يكوى ضميرها
بالله يارايح إلى الحجاز إذا سرى ... تهدى هداك الله خزلى سطورها
إذا جئت إلى نجد العدية بلادنا ... فسلم على كبيرها وصغيرها
وقل لهم الدنسا والقول صادق ... بأنى فى الاعجام صرت أسيرها
وقل لهم لا تحملوا سمر القنا ... ويلقوا عمايمهم ويلقوا حريرها
ألا يا هلال فانجدونى بسرعة ... فقد صرت فى ذل حال عسيرها
وإن لم تنجدونى طال ذل خاطرى ... وصندوق صدرى ضاق تكثيرها
وقد جابنى الخرمند داخل قصره ... مع المغل والصلصال ومندور وزيرها
فبالله يارايح تحمل رسالتى ... واحمل سلامى بالعجل وسطورها
وروح إلى أبو زيد الهلالى سلامه ... فقبل لرأسه فهو خير أميرها
وقل له قالت فتاة الحى المارية ... شكت أمرها فانهض اليها جيرها
أبو زيد أبو زيد يا كاسب الثنا ... ارحم فتاة تاه منها بصيرها
ألا ياذياب الخيل عاون سلامة ... وكل هلال كبيرها وصغيرها

(قال الراوى) فلما فرغت المارية من هذا الشعر والنظام طربت ملوك الأعجام وشرب خرمند كاس المدام ثم أعطاه إلى الساقى ليسقى الباقى فلما فرغ الخرمند إلى الساقى املى كاس المدام وناوله إلى مارية بدر التمام حتى تفرح وتطرب ويزول عنها الحزن والكرب فخجلت مارية من الناس وقالت للنعمان انى لا أشرب من هذا الكاس لانك تعلم أيها السيد المعظم بأن مشروبنا هو حلب النوق والغنم ولا أن نشرب غيره من المشروبات لاسيما النساء والبنات فإن ذلك عندنا من أعظم العار فاعتذر النعمان عنها إلى خرمند أمام الجلاس وقال له اعفها من هذا الكاس لأنها غير معتادة وليس فى التكرار فائدة فتناول الخرمند الكاس من الساقى وقال له أريد منك أن تصف لى مارية أمام هؤلاء الملوك وتذكر حسنها وجمالها فقال سمعاً وطاعة وأنشد الأبيات:

يقول فراج أنا ساقى الملوك ... الدمع من فوق الخدود تبددا
من رؤيتى المارية عقلى شرد ... ما عاد لى صبراً بأن أتجلدا
الشعر منها مثل ليل دامس ... أو مثل لون غراب طائر أسوادا

والوجه منها مثل بدر طالع ... وجبينها يسطع كبار موقدا
وعيونها مثل الغزال فواتك ... فكأنها حورية تتوقدا
وخدودها كالورد تزهو كأنها ... تفاح شامى أحمر وموردا
وشفافها تمر العراق وسكرا ... وسنانها تزهو كدر منضدا
إن شافها أبو زيد يهجم بسرعة ... يضرب بسيفه من طغا وتمردا
إن أطعتنى خرمند أرسلها غدا ... واسعى لهم بالصلح لا تترددا
لا تتبع الصاصيل فى آرائه ... شور النعمان خيراً وأرشدا

(قال الراوى) فلما فرغ الساقى من كلامه وسمع الخرمند والملوك فحوى شعره ونظامه قال له الخرمند أحسنت بما فعلت فعند ذلك نهض النعمان وأراد أن يأخذ المارية إلى بيته فاعترضه الصاصيل وقال إنى كسوتها بالثياب الفاخرة والحلل وأنا أحق بها من كل أحد فقال له النعمان إنى لا أمكنك من ذلك حتى نرى ماذا ينتهى الحال بيننا وبين بنى هلال وأنا من رأيى أن نطلق سبيلها فتذهب إلى أهلها خوفاً من القيل والقال فقال الصاصيل هذا لا يكون ومرادى أن أنشدها بالأشعار أمام هؤلاء السادات الأخيار فأنا أنشد من الشعر وهى تجيبنى عليه ولا نريد منها بغير ذلك ثم أشار يقول :

قال الملك الصاصيل يا مارية غنى لى ... وارفعى المنديل عن وجنتيك الحمرا
يا مارية بحياتك قومى اشربى كاساتك ... وبينى شاماتك عن وجنتيك الحمرا

بطل كلام القيل وافهم يا مذلول نحن بناتك الأمراء فقومى تعالى اقربى لأذوقك من شربى وقربى لجنبى حتى تطيب السكرا : صاصيل قال كلامك وأزن مقالك غدا يسير هزامك من سباع الفقرا : يا مارية ارتدى . برجالك لا تعتدى بالحرب ما هم قدى بأكرمى زيدان وذياب راعى الخضرا يا مارية لا تزيدى بقولك لا تعيدى أن الجميع عبيدى ما يلتقونى بكرا غدا يجيك سلامة أسمر طويل القامة سيفه يزيل الهامة . سلامك ذاك راحى من يوم درعا ما حى أن أنى اكفاحى اقتله فوق الصخرا غدا يجيبك العالى أمير بخته عالى حسن كبير هلالى قومه كموج البحر إذ ذاك ما أعداه يوم الحرب اهداه بحد سيفى قد أجعله وسط القبرا .

(قال الراوى) فلما فرغ الصاصيل من هذه المنادمة والمحادثة والمكالمة كانت جالسة

بقربه أخت الملك خرمند وكان اسمها تاج بخت فلما سمعت أن مارية شتمت عمها الصاصيل فى شعرها وأهانته بالكلام كان ذلك عليها أشد من ضرب الحسام فنهضت على قدميها ولطمت مارية بين عينيها وقالت هل بلغ من قدرك يا بنت الكلاب أن تتكلمى بهذا الخطاب وكانت الضربة شديدة فآلمتها فاندفق الدم من جبهتها فلما شاهد أبو زيد تلك الحال خرج عن دائرة الاعتدال ولولا وجود الحديد بالشباك لكان دخل عليهم وأورث العجم الدمار والهلاك وأما النعمان فانه استعظم ذلك الأمر لما نظر الدم يقطر من جبينها فنهض على الأقدام وسل كفه الحسام وجعل يهدد الاعجام

يقول الملك نعمان عقلى طار ... والقلب منى يلهب بالنارا

قد جبتم بنت الكرام لداركم ... يا عادمين العقل والأفكارا

لو عاينت فرسانها أفعالكم ... أو شافها أبو زيد وقت الغارا

لرأيتم أفعاله وقتـــاله ... وهجومه بين الصفوف جهارا

إنى سأسعف ماريا بمهندى ... بضرب فقد الروس والأحجارا

قول الفتى النعمان قول صادق ... لا بد لى أن أقيم الغارا

فلما فرغ النعمان من هذا الكلام وسمعته ملوك الأعجام خافت من الشرور ووعواقب الأمور فقال خرمند للنعمان خذ مارية إلى عندك هذه الليلة وابقها لأنه يخشى من تواليها حتى ظفرنا بهؤلاء العرب فحينئذ نبلغ منها الارب فعند ذلك أخذها النعمان من يدها وقال لها انهضى أيتها الأميرة إلى بيتى فنهضت وسارت اليه من عند الاعجام ولم يعترض أحد بكلام فلما شاهد أبو زيد أفعال النعمان شكره فى قلبه على ذلك الشأن وقال والله إن هذا الرجل يستحق كل جميل ثم نزل من أعلى الشجرة وتبع آثار النعمان حتى وصل الى منزله وهو من وراءه فسمعه يقول لابنته خذى الأميرة وافرشى لها فى غرفتك فانها من بيت شريف فترحبت بها وأخذتها إلى عندها ثم رجع النعمان ليصرف باقى ليله عند الاعجام ورجع أبو زيد لبنى هلال وعند وصوله إلى الخيام سمع أصوات البكاء والصياح والعويل والنواح لانهم كانوا يظنون بأنه مات فلما دخل على الأمير حسن وهو فى الصيوان سلم عليه فنهض له على قدميه وشكر الله على سلامته وكذلك فعلت باقى السادات وسأله القاضى بدير عن المارية ابنته وهل وقف على أخبارها فى أثناء غيابه فأجابه يقول:

يقول أبو زيد الهلالى سلامة — الأيام والدنيا تسبب هوائل
وصلت إلى الخلا سريعاً بلا بطا — فدرت ميامنها ودرت الشمائل
إلى أن نظرت المارية فى أعينى — فقولى صحيح ليس فيه زلايل
فى قصر خرمند يا قوم جالسة — ملوك العجم من حوالها كالجمايل
والطاس داير والجنك والغنا — والنيران بينهم وهو شهم فاضل
يمر عليها الكاس ما تذوقه — فتحسبه مثل سم الغوائل
فكانت تنادى بالصوت يا آل عا — مر وتضرب بايدها يمينا وشمايل
فكان الملك النعمان قد اتى بها — فخاصها منهم بضرب هائل
وأخذها فى الحال إلى دار بيته — وأوصى بها بنته وكل الاهايل
فان عانى الرحمن ربى أجيبها — وأهدى الكوفة ووحدى أقاتل

(قال الراوى) فلما فرغ أبو زيد من كلامه وسمع الحاضرون فحوى شعره ونظامه قال الأمير حسن اعلم يا صاحب الرأى الحسن مرادى الآن أكتب كتابا إلى ملوك الاعجام وأطلب من الخرمند ان يرسل المارية الآن لأنها عند الملك النعمان فاذا فى ذلك فقال أبو زيد باقى الناس لا بأس فعلهم يتأثرون من كتابك ويرسلونها إلينا فعند ذلك كتب هذه الأبيات :

قال الفتى حسن الهلالى أبو على — النار فى قلبى تهب وتشعل
يا ملك خرمند اسمع قصتى — ابعث لنا المارية ولا تتمهل
إنك ان أرسلتها لبيوتنا — فترى العساكر ودياب ترحل
حتى إذا خالفت فى رحالها — نهجم عليك فى الصباح ونقتل

(قال الراوى) فلما فرغ الأمير حسن من هذا الشعر والنظام استحسنه جميع السادات الكرام فى الحال أرسله مع نجاب ليعطيه إلى الملك ويأتيه بسرعة الجواب فامتثل حتى وصل الملك الخرمند فتمثل بين يديه وسلمه الكتاب ففتحه وقرأه ولما عرف معناه مزقه فى الحال واغتاظ من هذا الامر وأمر العساكر أن تستعد للقتال وخرج بجيوش الاعجام لقتال بنى هلال فلما وصلهم هذا الخبر استعدوا للحرب والطعن والضرب وفى أوائلهم الأمير أبو زيد والأمير دياب وغيرهم من الفرسان والسادات والكرام .

والتقوا بالاعجام بقلوب كالجبال وقاتلوا أشد قتال وفعل الأمير أبو زيد أفعالا تشيب الاطفال وكان يطعن الاعداء من اليمين والشمال ولله در الأمير دياب فانه قاتل فى ذلك اليوم قتال شديد وألقى بنفسه على الهلاك حتى فرق الصفوف وطعن فيهم اللحم وهو ينحى الابطال ويقول دونكم وهؤلاء الاندال ومازال يشق صفوف الاعجام حتى وصل إلى الملك القمقام وهو تحت البيارق والاعلام وضربه بالسيف على عاتقه خرج يلمع من علائقه ثم مال على القوم وباقى الأمراء والنواب وأولاهم بضرب السيف القرضاب وقتل منهم عدة رجال فلما رأت العساكر والاعجام تلك الاحوال هاجت من اليمين والشمال وارتدوا راجعين إلى الوراء وانقلبوا منهزمين فى تلك الصحراء وقطع دياب راس الهمام وعلقه على رأس السنان إلى عند الأمير حسن وباقى السادات ورجعت بنو هلال ذلك النهار بالعز والانتصار وباتوا فى فرح واستبشار ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح دقت طبول الحرب وتقدمت الفرسان إلى مقام الطعن والضرب وكان أول من برز إلى القتال من أبطال بنى هلال أبو زيد الفارس المفضال فصال وجال فى ساحة المجال فبرز من الاعجام الملك المنذر فالتقاه أبو زيد وانطبق على المنذر كسبع الآجام والصدام ولم تكن غير ساعة من الزمن حتى ضربه أبو زيد بالسيف على هامته قده نصفين وألقاه على وجه الأرض قطعتين فوقع على الأرض يختبط بعضه ببعض فلما رأت الاعجام تلك الحال ضجت منها الفرسان والأبطال واستفظعت ذلك الأمر فعندها برز أخوه الأمير بندر أبو زيد ليأخذ ثأر أخيه فالتقاه أبو زيد بقلب كالحديد ثم هجم عليه وضربه بالسيف فالحقه بأخيه فلما وقع وانقلب هجمت الاعجام بشدة الغيظ والغضب فالتقته بنو هلال وحكمت فيها السيوف والنصال وقتلت منها أكثر من عشر آلاف من صناديد الأبطال فانهزمت إلى الوراء واستعظمت بعادها وفى اليوم الثانى دقت الاعجام طبولها وركبت خيولها وبرزت إلى القتال وهى تهدر كالجمال طالبة أخذ الثأر وكشف العار فالتقتها بنو هلال وكان أول من برز إلى الميدان الأمير أبو زيد فبرز اليه المغل بن رلدل .

(قال الراوى) فلما التقيا فى الميدان وأخذا يتضاربان ويتطاعنان وكان المغل المذكور من أفرس الفرسان قوى الجنان وله ذكر شائع فقاتل أبو زيد أشد قتال وما زالا

على تلك الحال حتى تحيرت من قتالهما جميع الأبطال وكان اختلف من الاثنين ضربتين وكان السابق أبو زيد فمال عنها المغل فراحت خائبة بعدما كانت صائبة وإذا ضربه المغل فإنه استلقاها أبو زيد فى الترس فقطعته نصفين ونزلت على رقبة الجواد فأبرتها كما يبرى الكاتب القلم فوقع أبو زيد على الأرض فأراد المغل أن يكمل عليه فبادر الأمير دياب اليه وخاصه فى أسرع من لمح العين لانه يرقب قتال الاثنين وأشار أبو زيد إلى عبده أبو القمصان (قال الراوى) وفى الحال أتوه قومه بجواد فركبه وهجم هو ودياب على صفوف الأعجام وتبعهم باقى أبطال بنى هلال وخاصوا فيهم من اليمين والشمال وكانت ساعة مهولة قتل فيها خلايق كثيرة وكان من جملة المقتولين المغل وغيره من سادات العجم والمقدمين وانهزمت العجم فى ذلك اليوم أقبح هزيمة وقتل منهم مقتلة عظيمة ورجعت بنو هلال بقلوب كالجبال فبرز من عساكر العجم الملك الصاصيل وهو راكب على جواد مثل الفيل وطلب قتال بنو هلال ولما صار فى ساحة المجال برز اليه الأمير دياب وهو راكب على فرسه الخضرا فالتقاه الصاصيل واشتد بين الفارسين القتال وعظمت الأهوال ومازالا على تلك الحال إلى وقت الظهر وكان الصاصيل قد اعتراه التعب واسترخت منه المفاصل والركب وأحس بالهلاك والعطب فولى وطلب لنفسه الهرب فلما رأت عساكر العجم بأن سيدها قد انهزم خافت من العواقب وحلول النوائب فارتدت إلى وراها حتى وصلت إلى الحلة فدخلت اليها وأغلقت الابواب ولما كان الليل جمع الملك خرمند الملوك وقواد الخيل وقال لهم مرادى ان أخرج فى ثانى الأيام إلى قتال بنى هلال وأريد أن تشجعوا أنفسكم وتقاتلوا وإلا انهتكت ناموسنا وصرنا معيرة وفضيحة عند ملوك الزمان فأوعدوه بأنهم سيبذلون غاية المجهود ويقاتلون معه قتال الاسود ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح ركب الملك خرمند فى جميع الجند وخرج من المدينة يريد القتال فالتقاه فى الحال جميع الفرسان والأبطال ولم العسكران وتقابل الجمعان برز أبو زيد إلى خدمة الميدان فانطبق الخرمند وأخذ فى حربه وصدامه فالتقاه أبو زيد بقلب كالجبل فتطاعنا بالرماح وتضاربا بالسيوف ومازال على تلك الحال من الصباح إلى وقت الزوال ولم يقدر أحد على صياحه فافترقا عن بعضهما وبات كل فريق

فى ناحية من الأرض (قال الراوى) كان حاكم التركمان فى ذلك الزمان رجل عظيم الشأن اسمه الخطريف ويلقب بالغضبان وله عدة وزراء واعوان ومن جملتهم الوزير النعمان وهو عنده من أعظم الاركان كأنه صاحب معرفة وتدبير وفى أمور السياسة عليم خبير وله ابن أخت وكان ولى عهده ونائبه على التخت تمر الجارح وكان فى الشجاعة والفروسية منطقة عليه يصارع أسود البطاح ولا يمل من الحرب وكان الملك الغضبان يركن اليه كل الاركان ولما وصلت جموع بنى هلال وخيمت فى تلك الاطلال كما سبق المقال وبلغ الغضبان هذا الخبر تطاير من عينيه الشرار فاجتمع بوزرائه وباقى الاعوان وعقد معهم مجلسا فى هذا فقال له الوزير النعمان الرأى عندى الآن ترسل لملكهم بعض الابطال تطلب منه المال فأجاب الملك بلغنا القصد وإن أبى وامتنع ركبنا عليه بكل فارس صميدع فننهب أموالهم ونسبى حريمهم وعيالهم ونقتل شبابهم ورجالهم فاستحسن الغضبان هذا الرأى وفى الحال استدعى بعض الفرسان وأمره أن يذهب إلى بنى هلال على سبيل رسول وكتب اليهم يقول:

يقول الفتى الغضبان بما جرى له ... نيران قلبى زايدات وقيد
ألا أيها الغادى على متن ضامرى ... فاقطع فيافى برها وبعيد
إذا جئت إلى حسن الهلالى أبو على ... فاعطيه مكتوبى تنال سعودى
وسلم على القاضى بدير بن فايد ... قاضى العرب بالحق والتأكيد
وسلم على الزغبى دياب بن غانم ... وسلم على أبو زيد سلام مجيد
وقل لهم قال الملك ابن حامد ... كلاما صحيحا خالى من التعقيد
إن كان مقصدك تهوز بلادنا ... ويرعوا مراعينا وعشب البيد
فهاتوا لنا عشر المال بلا خفا ... وعشر النساء والخيل بالتعديد
وألفين سيف وألف ترس مواضى ... والفين رمح للطعان تفيد
وألفين بيضا من خيار بناتكم ... والفين من السمر الملاح عبيد
هاتوا الينا عليا وريا غيرها ... والجارية أم محمد الصنديد
وإلا فمن حيث أتيتم فارجعوا ... وعودوا سريعا قبل حرب شديد
فعندى عساكر لا تعد جموعها ... وهى على ما يبين كره تزيد

(قال الراوى) فلما فرغ الغضبان من هذه القصيدة استحسنها كل من كان حاضراً من الأمراء والسادات والأماجد ثم أنه ختمها وسلمها إلى عبده رشيد وأمره أن يسير بدون إمهال ويسلمها إلى الأمير حسن سيد بنى هلال فامتثل أمره وسار وجد فى قطع القفار وهو على ظهر ناقة سريعة السير تسابق سيرها البرى وما زال على تلك الحال حتى أشرف على جمع من بنى هلال فنزل من على ظهر ناقته ودخل على الأمير حسن من ساعته فسلم عليه وقبل يديه ثم ناوله الكتاب ووقف على الحجاب ينتظر الجواب فلما فتحه وقرأه واطلع على ما حواه انشغل باله وتغيرت أحواله فقال له أبو زيد علامك يا أمير حسن فإنى أراك فى غم وتكدير فناوله الكتاب ليقرأه فلما قرأ الكتاب وفهم ما تضمنه فى الخطاب أبدى بالضحك والابتسام من ذلك التهديد والكلام وقال أنا أرد الجواب ثم أنه كتب يقول :

يقول أبو زيد الهلالى سلامه ونيران قلبى زايدات وقيد
ياغاديا منى على متن ضامر تقطع فيافى برها وتميد
إذا جيت إلى الغضبان بلغ سلامى وخاطبتنا بالغيظ والتهديد
طالب بنات مكحلات نواعس بنات الامارة مثل وردالبيد
أما كنت تعلم ياخميس وراهم أسود قروم هلال وكل حسيد
وراهم حسن أمير قيس حامى الزناتى من كل قرم عنيد
وراهم أبو الكساير بن فايد على متن ضامر مثل نار وقيد
وراهم أبو موسى دياب بن غانم على ظهر خطو الغزال تصيد
وراهم أبو ضرغام شيخ شبابنا ستة آلاف قومه وتزيد
أنا أبو زيد الهلالى سلامه لخلى الفوارس على التراب مديد
وافنى أكابركم وكل رجالكم واجعل دماكم على التراب تزيد

(قال الراوى) فلما فرغ أبو زيد من شعره طوى الكتاب وأعطاه إلى الحاجب فأخذه وجد المسير حتى وصل إلى مولاه وقرأه وفتحه وعرف حقيقة فحواه مزقه ورماه وزاد حزنه وبلاه واغتاظ الغيظ الشديد من الكلام القاسى وفى الحال أمر ابن أخته ووزيره نمر الجارح وابن عمه الملك أن يجمع العساكر والابطال لمحاربة بنى

هلال فأجابه بالسمع والطاعة ودقت طبول الحرب من تلك الساعة فاجتمعت من كل جهة ومكان وكانوا نحو مائة ألف بطل فركبوا بالعجل وهم معتقلون بالسلاح وفي أيديهم الرماح وركب نمر الجارح الأسد الكاسر في مقدمة العساكر وجدوا بالمسير كالطير التي تطير قاصدين بني هلال حتى اقتربوا اليهم فلما علمت بنو هلال بقدومهم عليهم استعدوا لحربهم ونزولهم فدقوا طبولهم بالعجل فاجتمع كل فارس وبطل ودخلوا على أميرهم حسن بن سرحان وهو جالس في الديوان وأعلموه بما جرى فأمرهم أن يسيروا لقتال عساكر الغضبان فركبت الشبان في مقدمتهم الأمير أبو زيد وساروا مدة ثلاثة أيام وثلاث ليالي حتى التقت العساكر بعضها ببعض وهجمت بنو هلال بقلوب كالصوان وانقضوا على عساكر الغضبان كـكواسر العقبان وأحاطوا بها من اليمين والشمال وفي الحال اشتد القتال وعظمت الأهوال وكانت وقعة تشيب الأطفال وتذعر قلوب الفرسان كثر فيها القتل والجرح وجرى الدم وساح وفعل أبو زيد في تلك النهار فعالا تذكر على مدى الأعصار وكذلك فعل الأمير دياب وباقي الفرسان والانجاب فانهم ابتدروا وقاتلوا وما قصروا واستمر القتال على هذا المنوال إلى أن صار وقت العصر وكان الأمير دياب وقد التقى بالأمير نمر الجارح وزير الغضبان وهو ينحي رجاله فتقدم دياب يريد قتاله فصدمه في الحال بقلب أقوى من الصوان واشتد بينهما القتال في الميدان نحو ساعة من الزمان وكان نمر قد طعن خصمه بالسنان وقال خذها من يد فارس الفرسان فغطس دياب تحت بطن الخضرا فراحت الضربة خايبة بعد ما كانت صايبة ثم ضربه بالدبوس الحديد فخاب أمله ولم يستفيد لانه خلي بالعجل وهجم على خصومه هجوم القضاء المنزل وضربه بالدبوس على الخوذة فتألم وصار على حالة العدم فار تدراجعاً إلى الوراء وندم على ماجرى وفي الحال هجمت بني هلال على الاعداء من اليمين والشمال وأذاقوا الاهوال وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وربحوا غنائم جسيمة وكان النهار قد مضى وزال وأقبل الليل بالاسدال فانفصلت العساكر عن بعضها البعض ونزلت كل طائفة في ناحية من الارض ورجع الامير دياب من ساحة الميدان كان شقيقه أرجوان بما أصابه من أذية الفرسان ودخل على الامير حسن في الديوان

وهو مسرور فرحان فالتقاه بالبشاشة والإكرام ولاطفه بالكلام وقال له كيف وجدت خصمك نمر الجراح أجاب من الحجاجج والكنفى نهار غد أقصر عمره واكفيك شره فشكره على ذلك المقال وباتوا على أحسن حال هذا ما كان من بنى هلال وأما ما كان من عساكر الغضبان فانهم رجعوا من ساحة الميدان وهم فى قلق واضطراب من قتال أبوزيد والأمير دياب وكان نمر قد جمع الأمراء ومن يعتمد عليهم من السادات والكبراء وأخذ يستشيرهم فى أمر الحرب والطعان فقالوا له عن فرد لسان اعلم ياسيد الفرسان أنه من الصواب أن ترسل الآن وتعلم خالك الملك الغضبان بما جرى وكان وتطلب منه نجدة وإلا وقعنا فى الشدة فاستصوب رأيهم وفى الحال كتب إلى خاله يعلمه بواقعة أحواله ويطلب منه المعونة بهذه القصيدة:

يقول الفتى نمر الأمير الذى شكا ودموع عيونى على الخدود تسيل

يا غاديا منى على متن ضامر فاقصد إلى الغضبان أمير جليل

وقل له يا أمير اسمع كلامى وافهم فقال لاتكن ذليل

فلما أتتنا جموع قيس وعامر على خيلهم وهى للسهول تشيل

ركبنا مطايانا وسرنا لنحوهم نزلنا عليهم مثـل نار شعيل

صرخت أنا فيهم صرخة قوية هجموا علينا مثل نار شعيل

فبادرتهم بالضرب والطعن والقنا وصار الدما يجرى كبحر النيل

وحاربتهم مقدار شهر وازود من الصبح إلى النهـار يميل

وهم يشيلونا ونحن نشيلهم بسمر القنا والمرهفات صقيل

قتلوا فوارسنا وكل قرومنا وعدت أنا خسران ثم ذليـل

فانجدنا يا خالى قبل أن تقتلنا عساكر هلال وعامر وعقيل

فنفسى آلا ياخال فى ضيق حالة وتبقى اسا ما الرجال تشيل

وتملك هلال بلادنا وديارنا ونعود فى أمر مهين قليل

(قال الراوى) فلما انتهى نمر من شعره طوى الكتاب وختمه وسلمه إلى نجاب يقال له عقاب فأخذه وجد فى قطع البرارى والقيعان حتى وصل إلى عند الملك الغضبان فدخل عليه وقبل الأرض بين يديه ثم ناوله الكتاب ووقف زمر الحجاب فلما

فتحه وقرأه وعرف حقيقة فحواه اغتاظ وتأثر وتطاير من عينيه الشرار وقد عظمت عليه الأحوال واقسم أنه لا بد أن يفنى بنى هلال ولا يبقى أحدا منهم ثم أمر بجميع العساكر للحرب والطعان ولم تمكن الاساءة من الزمان حتى تجمعت الفرسان فركبت خيولها واعتقلت بسيوفها ونصولها وركب أيضا مع الضرغام أخو نمر ووزيره النعسان وقصدوا بنو هلال بقلوب كالجبال وجدوا فى البرارى وكان عدد الفرسان خمسمائة ألف عنان (قال الراوى) هذا ما كان من هؤلاء أما ما كان من نمر الجارح فانه بعد انفاذ الحالة ركب فى ثانى الأيام بجميع فرسانه وأبطاله وتقدم نحو بنى هلال وهو قاصد الحرب فتقابل الفريقان فى ساحة الميدان وتقدم الأمير نمر إلى معركة الطعان وطلب بروز الفرسان فالتقاه الأمير دياب وهجم عليه هجوم ليث الغاب وحالا اشتبك بينهما الحرب وأخذ فى الطعن والضرب حتى أتى عليهما الغبار وحجبهما عن أعين النظار فلله درهما من بطلين وفارسين عظيمين وما زالا على ذلك إلى قرب الليل فكان دياب اشجع من نمر وأعلم منه بمواقع الطعن وأخبر فطعنه بالرمح فى صدره خرج يلمع من ظهره فوقع على الأرض قتيلا وأيقنوا بالهلاك والدمار طلبوا الفرار وتبعهم جموع بنى هلال فلما نظرت عساكر الغضبان بما جرى وقد زادت عليهم المصائب والبليات وحكموا فيهم السيوف والنصال وقتلوا منهم عددا كثيرا واغتنموا أموالا لا تعد وبينما هم سائرون وفى الفلاة متشتتون وإذا بغبار قد ظهر عليهم من جوانب القفار ومن خلفه جيوش وعساكر تبهر النواظر فلما اقتربوا منهم تأملوا بالعيان وإذا هم بعساكر الغضبان وكانوا قد حضروا من الأوطان لمعونة نمر كما شرحنا الآن فلما رأت العساكر المنهزمة ملكها الغضبان وهو فى المقدمة تقدموا إليه وقبلوا يديه وأعلموه بما حل فيهم من المصائب وكيف أن بنى هلال قتلت نمرا الجارح فلما سمع الملك الغضبان منهم هذا الكلام خرج عن دائرة الصواب فشخر ونخر وطغى وتجبر وقال وحق دينى ومعبودى لا بد من قتال جميع بنى هلال وأسر الحريم والعيال ثم أنه جد فى قطع القفار وقلبه يتوقد بنار من جرى هذه الأخبار وقتل نمر الأسد الكرار لأنه كان يحبه أكثر من الغير ويتمنى له كل نجاح وخير وما زال يجد السير حتى التقى بالقوم فى ثالث يوم فأمر الفرسان بالهجوم فهجمت فى الحال والتقتها بنو هلال بقلوب

قوية وهجم عليه وفى مقدمتها السادات والأعيان والأمير حسن بن سرحان واشتبك الطعان بين الفرسان والتقى الضرغام بالأمير حسن وهو ينحى العساكر فالتقاه الأمير بقلب أقوى من الصوان وأخذ يتضارب بان نحو ساعة من الزمان وكان الأمير حسن قد طعن ضرغام قاصداً أن يسقيه كاس الحمام فخلى من تحت بطن الجواد فراحت خايبة ثم اعتلى الضرغام على ظهر حصانه وطعن الأمير حسن بقوة جنانه فالتقاه بترس البولاد فانكسر ووقع وراح أربعة قطع وما زال فى عراك وصدام إلى وقت المساء فعند ذلك دقت طبول الانفصال وراحت العساكر من ساحة القتال وباتوا يتحدثون تحت مشيئة الرحمن ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح ركب الفرسان ظهور الخيول واعتقلت السيوف والنصول تقدمت إلى ساحة الميدان للبراز والطعان فتقدم الأمير ضرغام وطلب البراز والصدام فبرز اليه الأمير عقل وكان صاحب أدب وفضل وهجم الضرغام بقلب شديد فالتقاه عقل بقوة وأخذ فى الحرب وقد اشتد الحرب بينهما وما زال على ذلك نحو أربع ساعات من النهار وكان الأمير عقل قد استظهر على خصمه وهجم عليه وطعنه بالرمح فى صدره طلع يلمع من ظهره فوقع الضرغام قتيلاً وفى دمه جديلاً فلما نظر الغضبان ما جرى استعظم الأمر وهجم على عقل وفاجأه وطعنه بالرمح يريد أن يعدمه الحياة فخلى منها عقل فراحت الضربة خالية وما زال فى أشد قتال إلى أن قرب الزوال فرجعت بنو هلال فى السرور والأفراح وعساكر الغضبان بالهم والاتراح وأخذوا جثة الضرغام وأقاموا عليها النواح وكسروا السيوف والرماح ثم كفنوه وبعد ذلك دفنوه ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح فركبت بنى هلال للحرب والكفاح وأشهرت فى يديها السلاح فالتقتها عساكر الغضبان فى ساحة الميدان طلب الغضبان برازة الفرسان ونادى أين الشجعان أين جبابرة الضرب والطعان فما تم كلامه حتى صار الأمير دياب أمامه وصدمه صدمة تزعزع الجبال وترتعد منها قلوب الفرسان فالتقاه الغضبان كالأسد وضربه بالسيف فالتقاه دياب بدرقة البولاد فانكسر السيف ما أفاد ثم أن الأمير دياب طعن الغضبان فهجم على الأمير دياب هجوم الصناديد فأشار يتهدده بهذه القصيدة .

ألا ما قال أبو موسى دياب بن غانم   نيران قلبى زايدات لهـــايب

(٥ — تغريبة)

أيا ملك الغضبان اسمع كلامى وافهم حديثى يا وغد الأعارب
أوسات تطالب نوقنا وجمالنا ونساءنا مع بنات الكواعب
أما تخشى تطلب بنات حرائر بنات الأمارا فروع الأطايب
ألم تعلم يا أغواه أن وراهم ليوث حرب من هلال أطايب
فلا بد من قتلك فى حد صارمى وتبقى دماك على الفلاة سكايب
ويبقى رجالك بعد موتك مشتتة وتبقى نساكم راخيات النقايب

(قال الراوى) فلما فرغ الأمير دياب من كلامه التقا الفرسان كأنهما جبلان أسدان كاسران وتضاربا وتطاعنا بالرماح واشتد بينهما الحرب والكفاح وتمايلا فى ساحة الميدان وتعلمت مهما الفرسان حقيقة الضرب والطعان وما زالا فى حرب وقتال تشيب رؤس الأطفال إلى أن اختلف بين الاثنين ضربتين قاطعتين وكان السابق الملك الغضبان وقال له خذها من يد فارس الميدان وليث المعارك والطعان فغطس دياب تحت بطن الخضرا فراحت الضربة خائبة ثم طعنه دياب بالرمح من قلب ملان واحت الضربة خائبة وما زالوا على ذلك وهم فى أشد حرب إلى قرب المساء فدقت طبول الانفصال فرجعت الفرسان من ساحة الميدان وباتوا يتحارسون تحت مشيئة الرحمن وعند الصباح برز الفرسان إلى ساحة الكفاح وطلب براز الفرسان فبرز اليه أبو زيد ليث الميدان واقتتلوا طول النهار وفعلا أفعالا تذهب الابصار ثم افترقا على سلام إلى المضارب والخيام واستمر القتال بين عساكر الغضبان وبنى هلال ستة عشر يوما على التمام وقد قتل من عسكر الغضبان عشرين ألف فارس ومن بنى هلال خمسة آلاف بطل مداعس وفى اليوم السابع عشر استعدوا لقتال العسكر فدقت طبول الحرب وبرزت الفرسان للطعن والضرب وكان أول من برز إلى الميدان الملك الغضبان وقال هل من مبارز هل من مناجز فلا يبرز لى كسلان ولا عاجز اليوم هز المزاهز فما أتم كلامه حتى صار الأمير أبو زيد قدامه فالتقاه الغضبان بقلب شديد وأخذ معه فى عراك وصدام وجرى بينهما فى ذلك النهار قتال شديد يذهل كل صنديد من أشد الفرسان وأقدرهم فى ساحة الميدان وكان يعد نفسه فى ساعة الطراد من طبقة عنتر بن شداد فلما رأى أبو زيد قوة حربه تأخر من أمامه فعند ذلك صاح الغضبان على الفرسان بالهجوم على بنى هلال فهجم العساكر

فما التقتها بنى هلال واشتبك القتال فما كنت ترى إلا رؤوساً طائرة وفرساناً غائرة وكانت بنو هلال قد قصرت فى القتال وانكسرت أشد انكسار وانسدت فى وجهها أبواب الانتصار وأيقنت بالهلاك والدمار فتأخرت ثلاثة أيام إلى الوراء وعساكر الغضبان تتبعهم فى تلك الصحراء وفى اليوم الرابع اجتمع أبو زيد وسادات بنى هلال وقال لهم فقد سلبت أموالنا وفقدت أبطالنا ورجالنا فما هو رأيكم أيها الأعيان فى قتال الملك الغضبان فقالوا الرأى هو عندك يا أمير فما فينا من خالفك حتى ولا الأمير حسن فقال الرأى عندى أن تقسم بنى هلال فى أربعة أقسام ونهجم على الأعداء من أربع جهات ونسد عليهم جميع الطرقات وتكون الجازية فى أول العماريات مع باقى النساء والبنات وأهجم أنا من جهة الشمال والأمير زيدان والأمير حسن والقاضى بدير من جهة الجنوب بباقى الأبطال ونقاتلهم أشد قتال وإلا حل بنا الوبال فاستصوبوا هذا الخطاب لأنهم رأوه عين الصواب

(قال الراوى) ولما أصبح الصباح ركبت الفرسان للحرب والكفاح وانقسمت بنى هلال أربع فرق واعتقلوا بالسلاح وهجموا على عساكر الغضبان كليوث الغاب وكان السابق الأمير دياب فصاح وزعق على الفرسان وانطلق وحكم سيفه فى الهامات والصدور وتبعه أخوه زيدان بكل فارس مشهور وحملوا على الفرسان بقلوب أقوى من الصوان وجندلوا الأبطال فى ساحة الميدان ولما أن رأى الغضبان ما حل بقومه من الهوان استعظم ذلك الشأن فجعل ينحى الأبطال وتقدم هو بنفسه وقد هانت عليه المنية فى بلوغ الآمال وضرب فيهم بالحسام وتبعه الفرسان من خلف وقدام وتزاحم الميدان وثبت الشجعان وفر الجبان وقطرت الدماء وحجبت الغبار وجه السماء فبينما هم على ذلك وإذا بغبار قد ظهر وبان من تحته جيوش وعساكر وأمام الجميع الأمير حسن بن سرحان وهو راكب بنى دريد وأبو زيد بنى زحلان والقاضى بدير بباقى الرجال والشجعان ومن حوله السادات بالبيارق والرايات ولما اقتربوا على الميدان هجموا على عساكر الغضبان من كل جهة ومكان واشتد قلب دياب بقدوم القوم وأمل بالنصر فى ذلك اليوم فقاتل أشد قتال وهكذا فعلت بنو هلال هذا وقد التقت الرجال وجرى الدم وسال وكان يوما شديداً لم يسمع مثله فى سالف الأجيال فلله در بنى هلال فانها تثبت ثبوت الأسد وكان الملك الغضبان قد

برز إلى الأمير دياب وهو غائب عن الصواب وكان دياب يدور حوله مثل الدولاب
وهو ثابت على الحروب والجلاد كأنه طود من الاطواد فعند ذلك تقدم الأمير
حسن والأمير أبو زيد والأمير زيدان وهجموا هجمة رجل واحد على الغضبان
وأحاطوا به من جميع الجهات ونزلوا عليه بضربات قاطعات تهد الجبال الراسيات
وبهذه الفعال هان على دياب القتال فتقدم السنام وهجم على الملك الغضبان كأنه قضاء
الرحمن وقال له خذ هذه الطعنة من يد ليث الغاب وفارس الاعراب الامير دياب وطعنه
بالرمح فى صدره خرج يلمع من ظهره فوقع على الارض قتيلا فلما رأته الرجال
استبشروا بالسعد والاقبال وقالوا لله درك من فارس فتاك فلا شلت يداك وشمت بك
أعداك وقد تهللت النساء والبنات وقد أظهروا الافراح والمسرات وصاحت الجازية
مع البنات المخدرات لا عدمناك يافارس الخضرا وأخرسادة الورى فقد خلصتنا النهار
وأكسبت بفعالك الشرف والفخار فمدحوا الامير دياب على المديح والخطاب ثم
انحط على الابطال ففرقها مع اليمين والشمال وتبعه ابن زغبي وشجعان بنو زحلان
وهجموا على عساكر الملك الغضبان بقلب أقوى من الصوان وكانت عساكر الغضبان
لما رأت ملكها قد مات وحلت بها الآفات ضعفت عزيمتها وقلت همتها وأيقنت الهلاك
والبوار فولوا الادبار وأدركوا إلى الهزيمة والفرار فتبعهم فرسان بنى هلال من أسود
الرجال وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وكسبوا اغنائم ذات قدرة وقيمة وكانوا قد تبعوهم إلى
البلد وحكموا فى أجسامهم الصارم المهند فنهبوا الأموال وسبوا الحريم والعيال وبعد ذلك
رجعوا إلى الخيام وقد بلغوا المرام وزالت عنهم الأوهام ثم أنه حضر ابن الملك الغضبان
وكان اسمه عبد المدان إلى عند الأمير حسن بن سرحان وبمعيته الأكابر والأعيان
وطلبوا منه الامان فأجابهم إلى ذلك الشأن وعاملهم باللطف والإحسان وخلع
عليهم الخلع الحسان وبعد ذلك ولوا بالأمير عبد المدان حاكم على تلك الأوطان
مكان أبيه وقامت بنو هلال فى الاوطان خمسة أيام على التمام واليوم السادس
دقت طبول الارتحال فركبت الفرسان بالحريم والنسوان وصاروا يقطعون
الآفاق بدور العراق حتى وصلوا إلى بلاد العراق .

تمت هذه القصة ويليها قصة الست زهرة بنت الملك الترلنك ووزيره اسكندر

قصة الست زهرة بنت الملك التمرلنك

ووزيره إسكندر وما حصل لهم مع الأمير صبره بن الأمير أبو زيد
من الحروب والأهوال وفيه ما كان من الخزاعى والملك بدريس
وما جرى له من الأمور الغريبة والحوادث العجيبة وأخبار الملك
الهراس وأمر دياب بالتمام والكمال
والحمد لله على كل حال

(قال الراوى لهذه السيرة العجيبة) أن بنى هلال الماقتات الغضبان وولت ابنه ملكا على بلاده ورحلت عن الديار طالبة بلاد العراق فلما وصلوا اليها وجدوا أن الحاكم على تلك البلاد رجل من الأجواد قد اتصف بالجود والكرم وبالفضائل وحسن المآثر يقال له الخفاجى عامر يحكم على البصرة وبغداد والموصل والعراق وما يلى تلك البلاد وكان عنده من الأبطال والفرسان نحو مائتى الف عنان فبينما هو جالس فى الديوان وحوله الوزراء والأعيان إذ قد دخلت عليه الرعيان وقالوا له اعلم يا ملك الزمان أن بنو هلال قد دخلت ديارنا وأكلت من ثمار بساتيننا وأشجاره وهم كالجراد المنتشر لم يعرف لهم أول من آخر وقد هربت من أمامهم الرعيان وتركت النوق والعضلان .

(قال الراوى) فلما سمع الخفاجى هذا الكلام صار الضياء فى عينيه كالظلام والتفت إلى الأمراء وأكابر الرجال وقال لهم ما قولكم فى بنى هلال فعند ذلك تقدم الوزير عميرة وأشار يقول :

يقول الفتى المسمى الوزير عميرة ... أيا أمير اسمع لى ترى أفكارى
يا أمير ارسل للأمير أبو على ... وأبو زيد والزغبى وكل كبار
ليأتوا بعشر المال والخيل والضنى ... والبوش يأتى لك مع الابكار
كل السرارى والجوارى وغيرها ... وما يملكوا من فضة ودرارى
فإن أرسلوا لك ما أنت طالبه ... من الخيل والأموال والأعشار
فدعهم يجوزوا يا أمير بلادنا ... ويرعوا من أرضنا ويسار

فهذا كلامى يا أمير ونصيحتى والشور عندى أحسن الاشوار

(قال الراوى) فلما فرغ الوزير من هذا الشعر والنظام قال الخفاجى هذا هو الصواب الأمر الذى لا يعاب ثم كتب إلى الأمير حسن يطلب عشر المال والنوق والجمال وطوى الكتاب وختمه وأعطاه لوزيره سلام ليأخذه إلى حسن ويطلب منه المطلوب بالكمال والتمام فأخذه وقطع الروابى والتلال حتى وصل إلى مجموع بنى هلال فدخل على الأمير حسن بن سرحان وناوله الكتاب ووقف بقرب الباب فلما قرأه وعرف فحواه اغتاظ من ذلك التهديد وخاف من عواقب الأمور وقال للجمهور إن الذى كنت أحذر منه وقعنا فيه والله أعلم ثم أنه أمر بأخذ الوزير إلى دار الضيافة حسب العادة وقرأ الكتاب أمام الحاضرين وطلب منهم الرأى والإفادة قالوا الرأى عندك افعل ما تريد برأيك السديد فقال مرادى أن أرسل له كتاب منطوى على المودة والاصطحاب وننظر ما يكون من الجواب فقال الجميع هذا هو الصواب فعند ذلك كتب الأمير حسن إليه يقول

أيا غاديا منى على ضامر يسبق مسير الطير إن كان طاير

إذا جيت نحو الكبيسة وأرضها فاقرأ سلامى للخفاجى عامر

وقل له قال الأمير أبو على حاشا لمثلك يبغى المناكر

تريد بناتنا يا خفاجى ومالنا وثم تريد الخيل ثم الاباعر

وقد شاع ذكرك فى البلاد جميعها وكفك سخى الجود يا ابن الأكابر

ونحن يا أمير لنا بالغرب سادة بأرض الزناتى يا ملك بالجنازر

وجينا جميعاً يا أمير لأجلهم لكى نخاصمهم بضرب البواتر

ونحن ضيوفك يا خفاجى اهتدى بجاه النبى فخر الورى والعشاير

فدعنى نثنى الخير بدربنا حتى نصل للغرب وأرض الجزاير

يا أمير نحن تحت حكمك وطاعتك فافعل بأصلك يا خفاجى عامر

(قال الراوى) فلما فرغ الأمير حسن من هذا الشعر والنظام طواه وأعطاه إلى الوزير سلام فأخذه وسار حتى أشرف على الخفاجى عامر فى آخر النهار فأعطاه الكتاب ففتحه وقرأه وعرف فحواه وسمعه من كان حاضرا من السادات الكرام قال له أبوه درغام جواب بنى هلال أحلى من الماء الزلال فقم اعزمهم وترحب بهم

ولا تشهر فى وجوههم الحرب لأنهم عابرون طريق فقال الحاضرون هذا هو الصواب وفى الحال ركب الأمير خفاجى فى جماعة من الأبطال وركب والده الأمير ضرغام الأسد وقصدوا منزل بنو هلال ولما علم الأمير حسن بقدوم الخفاجى عليه ورآه عن قريب يصل إليه ركب مع الأمير أبو زيد ودياب وزيدان شيخ الشباب وجميع السادات الأنجاب وساروا لاستقباله بالعجل وقد زال عنهم الخوف والوجل ولما التقوا بعضهم البعض نزلوا فى تلك الأرض وتقدم الأمير حسن إلى الخفاجى وسلم عليه وقبله بين عينيه وتقدم الأمير دياب وجميع الأمراء الأنجاب فسلموا عليه سلام الأحباب فشكرهم على ذلك الاهتمام وسار معهم إلى المضارب والخيام فأجلس الأمير حسن والده فى صدر الديوان وبعد أن دارت القهوة وطاسات الشراب أشار الخفاجى يترحب بهم بهذه الأبيات :

قال الخفاجى بن ضرغام عامر … يا مرحبا بك فى من أتوا البلاد
يا مرحبا بك يا أمير أبو على … يا مقرى الضيفان والقصاد
يا مرحبا بك يا أمير سلامة … يا قاهر الفرسان يوم الطراد
يا مرحبا بك يا دياب الماجد … يا حامى الزينات حين تنادى
يا مرحبا بك يا بدر بن فايد … يا قاضى العربان والوراوى
يا مرحبا بك يا هلال جملة كلها … وكبارهم وصغارهم وأولادى
يا بو على سيروا جميعاً وانزلوا … بأرض الكبيسة ثم بأرض الوادى
أهلا بكم أهلا بكم أهلا بكم … أنتم ضيوفى تأكلون من زادى
أوهبتكم أرض الكبيسة كلها … من هاهنا إلى بغدادى
لجميعها بين الأيادى بحكمكم … نحن العبيد وأنتم الأسيادى

فلما انتهى الأمير خفاجى من كلامه شكره الأمير حسن على لطفه وكرمه وما أبداه من حسن اهتمامه وأجابه يشكره بهذا القصيد :

يقول الفتى حسن الهلالى أبو على … يا أمير عمرك لا ترى أقدارا
يا أمير نحن سايرين مغربا … يا أمير ما نحن لكم أخطارا
أولادنا فى الغرب عند خليفة … فى حبس ما له يا أمير قرارا

نحن اليوم سايرين بسرعة والله يفعل كل ما يختارا
قد عمنا جودك وفيض مكارمك يا قاهر الفرسان يوم الغارا

فلما فرغ الأمير حسن من كلامه والخفاجي والأمير دوغام يسمعون رقة شعره ونظامه فانشرح خاطر الخفاجي عامر وتقدم بعده الأمير دوغام وأشار يترحب ببنو هلال (قال الراوى) ثم ركبت بنى هلال مطاياهم والخفاجي عامر ودخلوا البلد فى فرح وسرور وتفرقت عرب بنى هلال فى تلك الاراضى وأما الأمير حسن والسادات فبقوا عند الخفاجي عامر على أكل طعام وشرب مدام وفرح وسرور ومدة ثلاثة شهور وهم على أحسن حال فاتفق فى بعض الأيام أن الخفاجي أولم وليمة عظيمة دعى اليها الأمير حسن وسادات بنو هلال الأكابر حضرتها النساء والبنات وجميع السادات وبعد أن أكلوا ولذوا ودارت كاسات المدام على من حضر فى ذلك المقام وكانت البنات والنساء الحراير يشربن على اسم الخفاجي إلى أن انتهت النوبة على الجازية وكانت بديعة الجمال فصيحة المقال تقدمت إلى الخفاجي تصف له محاسن بنى هلال وما خصهم الله من اللطف والكمال والظرف والجمال وأشارت تقول :

تقول فتاة الحى الجازية ونيران قلبى زايدات اشعال
إن الأمارة يا أمير لبناتهم من الظبا والحسن والاشكال
أما جمال الظعن بنت سلامه الوجه منها مثل بدر تمام
بنت أبو موسى دياب الماجد فعيونها يا أمير كعين غزال
بنت قاضينا بدير الفايد تشبه غزالا بالفلاة جفال
بنت أمير البوادى أبو على شبيهة البدر فى بهاء وجمال
أنظر يا أمير لحسنى فاننى أجمل واللطف من نساء هلال
قد شاع ذكرك بالمكارم والسخا وبكل فضل شائع وجمال

(قال الراوى) فلما فرغت الجازية من هذا الشرح والوصف شكرها الخفاجي على شعرها ونظامها فلما فرغوا من هذا الطعام وشرب المدام نهض الأمير حسن على الأقدام وشكر الخفاجي على ذلك الإكرام وقال له فى آخر الكلام وأريد من أفضالك أن تشرفنى غدا بجميع رجالك لأجل أكل الطعام وشرب المدام فأجابه إلى ذلك المرام ووعده بالمسير فى ثانى الأيام وقد أولم الأمير حسن وليمة عظيمة لها قدر

وقيمة ذبح فيها ألف رأس من الاغنام وأحضر فيها مائة صرف فكانت من أعظم الولايم لم يسمع مثلها فى الاعارب والاعاجم حضر فيها الخفاجى عامر وقومه وسادات العشائر فلقاه الأمير حسن بالترحاب وبعد ذلك جلسوا على مائدة الطعام ودارت بينهم كاسات المدام فطربت الأمراء والسادات والبنات أصوات ورقص المغانى ولما فرغوا من الطعام جلسوا للحديث والكلام فعند ذلك التفت الأمير حسن إلى الخفاجى وأنشد هذه الأبيات على مسامع الأمراء والأكابر :

مقالات الفتى حسن المسمى ... أبو مرعى فزال الهم عنا
نظرنا منك يا عامر جميلا ... ومعروفاً وألطافاً وإحساناً
فدستورك يا أمير عامر ... زماناً فى بلادك قد أقمنا
ورانا حاجة يا أمير تلزم ... إليها قاصدين ولو قتلنا
فلولا يا فتى مرعى ويونس ... ويحيى وسط قابس ما رحلنا
لك الافضال اطلب يا خفاجى ... لك الارواح يا عامر تمنا
فبقى من بنات هلال أربع ... عطيه من أبى مرعى ملكنا
فهذه هى عطر بنتى يا مسمى ... وهذه بنت أبو زيد المكنا
وأنت دياب وطفه يا خفاجى ... وبنت قاضى العربان تسكنا

فلما فرغ الأمير حسن من شعره وفهم الخفاجى فحوى شعره ونظامه قال والله يا أمير حسن أنت صاحب الفضل والمن قد شرفتونا فزال عنا السكدر وطابت بقدومكم المهج والقلوب ثم أشار اليه يقول وعمر السامعين يطول :

مقالات الخفاجى فى نظامه ... أبا مرعى لك الإكرام منا
وفيكم حلت البركة علينا ... رضا الحى فيكم يا مكنى
وليس أريد منكم يا هلالى ... بنات ولا جمال ولا أسنة
فليتك دائماً يا أمير قيس ... مدا الايام فى خير مهنا
قبلت عطيتك يا فخر قومك ... وقد رديتها من غير منه
فتكدرت الخواطر فى رحيلك ... ومن وقت اجتمعتم ما زعلنا
فلا بد لى أن أذهب معاكم ... إلى أرض المغارب يا مكنى
أحارب معكم جيش الاعادى ... بحد السيف يا حسن المكنى

فلما فرغ الخفاجى من الشعر والنظام وأكلت قوم الخفاجى وهلال من موائد الطعام أمر حسن بالرحيل بعد ثلاثة أيام فقال الخفاجى لا بد من مسيرى معكم إلى تونس وأبذل معكم المجهود فى استخلاص مرعى ويحيى ويونس فلما سمع أبوه الضرغام منه هذا الكلام لم يهن عليه ذلك الأمر وقد اشتعل قلبه بلهيب الجمر لأنه كان يحبه محبة زائدة وليس له صبر على فراقه ساعة واحدة فلم يقبل الخفاجى وطلب من ابنته وزوجته أن يذهبا معا فى تلك الديار ويتركان الحى فامتنعا عن المسير وبكيا بدمع غزير ثم تقدمت ابنته ذوابه وأشارت تنهيه عن السفر وتقول :

تقول ذوابه يا أبى لا تسافر ... فتترك الأهل فى عنا ومصاعب

فما لك يا أمير فى الغرب حاجة ... ولا لك فيها مال ولا أسباب

ولا ثأر عندك الزناتى خليفة ... ولا دم لك ولا أصحاب

فكيف تشتتنا وتطلب بعادنا ... وتبقى ضواحى فى عنا وحساب

وتبقى الهلالين بجموع شملهم ... ونحن بلا أهل ولا أصحاب

فلما فرغت ابنته من كلامها وسمع الحاضرون فحوى شعرها ونظامها زاد البكاء والتعجب من ذلك الأمر الغريب وتقدمت بعدها امرأته وأشارت تقول :

تقول فتاة الحى هى التى شكت ... ولى قلب من كثر الغياب داب

روحك ألا يا أمير مافيه فايده ... وقصدك بلاد الغرب ليس صواب

فدع أبو زيد الهلالى سلامة ... وحسن الهلالى والأمير دياب

فكيف تخلى يا أمير بلادك ... وتبقى قصورك خاليات خراب

(قال الراوى) وبعد ذلك حضرت جميع الولاة وسادات العشائر لوداع الخليفة عامر فودعوه بالبكاء والنواح ودعوا له بالتوفيق والنجاح .

(قال الراوى) وبعد هذا الحديث والكلام بثلاثة أيام أمر الأمير حسن بدق طبل الرحيل والاستعداد والسفر من تلك البلاد فعند ذلك مدت المضارب وركبت الفرسان ظهور الجنايب واعتقلوا بالسيوف والنصول وقد ملأوا ابكثرتهم تلك السهول وركبت النساء والبنات فى الهوادج قاصدين بلاد الغرب وتلك الجهات وأمام الجميع زوجة الخفاجى وابنته والجازية ونساء الأمراء والسادات وكان الخفاجى من أفرح البشر

فى هذا السفر (قال الراوى) لما قتلت بنى هلال ملوك العجم كان الخرمند صهر النمر لنك حاكم بلاد الموصل فلما قتل الخرمند أرسلت زهرة لأبوها كتاب وأعلمته بقتل زوجها فلما سمع النمر لنك ذلك الكلام صار الضياء فى وجهه ظلام وغضب غضباً شديداً ولبس كل شيء أحمر وطلع إلى الديوان وهو بالغضب مليان وكان له وزير من جملة وزرائه اسمه اسكندر فلما تكامل الديوان أشار يسأل الملك عن غضبه فأخبره بجلية الخبر وما كان من قتل خرمند وما كان من بنى هلال بالتمام والكمال

فلما انتهى الملك من كلامه والوزير والقوم يسمعوا فقام من بين الوزراء وزير وقال له يا ملك الزمان أرسل للبلاد واجمع العساكر ودعنا نلاقى بنو هلال فأمره النمر لنك أن يأخذ معه ألف مقاتل وقال له سير بالعساكر واحفظوا حالكم وكونوا رجال فسار الوزير اسكندر بالعساكر إلى أن وصل مكان يقال له القصر فوجد فيه تجار آتين من بلاد العجم فسألهم من أين أتيتم وإلى أين متجهين فقالوا من بلاد العجم إلى هذا المكان فاستدعى كبير التجار وكان اسمه كمال الدين وقال له ماذا سمعت لنا عن بنو هلال فأخذ يوصفهم له .

(قال الراوى) فلما فرغ من كلامه والوزير يسمع فقال لهم الوزير الرأى عندنا ترسل مائتين فارس إلى بلاد الزها ويكشفون لنا الخبر ونحن نبقى هنا حتى يأتى الملك وإذا قال لنا لماذا ذهبتم نخبره بأن أتانا علم بأن بنو هلال نازلين فى بلد جاكده ونحن أرسلنا لهم رواد يكشفوا لنا خبرهم وبقينا ننتظرهم فقال الجميع هذا هو الرأى الصواب اسمع للنمر لنك فانه بعث المكاتب إلى جميع البلاد بجميع العساكر وضبط عددهم اثنا عشر أربع كرات وجابوا معهم المدافع وأحضر ابن أخته شروان وقال له احكم وضعى حتى احضر لك وطفا بنت دياب فقال له على الرأس والعين ثم انه سار بالعساكر والجيوش يقطع البرارى والقفار والسهول والاوعار حتى وصلوا إلى بلاد الفرقس التى نازل فيها الوزير اسكندر فلما وصل الملك لاقاه الوزير وسلم عليه فقال علامك فالحقت بقوم هلال فحكى له ما صار فعند ذلك غضب الملك غضبا شديداً وراوده الهم والتنكيد أمر بقتله فتشفعوا فيه ملوك العجم من القتل فصفح عنه ثم انهم ساروا إلى أن وصلوا الرأس والعين ونزلوا فى ذلك المكان قال اسمع ما جرى لبنو هلال فإن الأمير حسن رأى منام هائل ق

الاحلام فلما أصبح الصباح استدعى أبو زيد دياب والقاضى بدير وكل الأمراء يخبرهم بالمنام يقول :

يقول الفتى حسن الأمير أبو على — الدمع من فوق الخدود سجام
ياقوم اسمعوا لى قصتى — وأنتم يابو زيد ويا ضرغام
شفت فى نومى مناماً رعبنى — واصبحت منه موجعاً وسقام
قد شفت لآل عامر كلهم — فى بحر من غيث ثم غمام
ترابا فى مركب بالبحر سايره — والموج يضربنا إلى قدام
والريح جالنا من شمال بلا خفا — قد زاد منه القهر والاسقام
من ساعته جتنا سباع كواسر — نزلوا البحر الدم عاد معام
وكان عاد مركبا وسط البحور — يقلب ونحن فى الحروب نيام
عدنا جميعا وسط لجة كلنا — أكابرنا وصغارنا وعـــلام
أما السباع توردوا من حوالنا — شبه الدياب لاحقات الأغنام
هو أن ماء البحر أحرق مهجتى — وأما فؤادى والحشا مانام
يا مخيمر قوم فسر لى المنام — وعجل علينا ليت عمرك دام

فلما فرغ حسن من كلامه هزوا الحاضرين رؤوسهم وقالوا الاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم قال فتقدم أبو زيد والتفت خلف ابنه صبرة وأتى به فقام وضرب به تخت الرمل ورسم الاشكال على شرح الحال فشاف الأهوال فبكى بكاء شديدا وأشار يقول :

يقول أبو زيد الهلالى سلامه — بدمع جرى من فوق الخدود سكيب
ونيران قلبى كلما أقول تنطفى — لها بين عظم الضلوع لهيب
من أجل منامك يا أمير أبو على — دعى فى ضميرى لاعجا ولهيب
ولا أظن مثلى قارىء العلم دارس — وربى على كل العباد رقيب
من أجل منامك سار فى القلب — سره وقد عرت ياأمير منه مريب
رباع أنا ياأمير افسر منامك — وما قد جرى لك فى كلام عجيب
وقد شفت حالك فى بحر من الدما — وأنت بمركب زيد التقليب
وذاك بحر من المنا يارجالنا — نخوضه ونحن فى بكاء ونحيب

وهذا تراتا نبتلى بشدائد ويا ما جرى كل أمر عجيب
أما السباع تأتينا قبائل من أرض بعيد مثل نار لهيب
جموع ألوف سدت القاع والفلا ويأتوا الينا راكبينا جنيب
ونحن نخاف من العرب لاحقينا أميرهم تمرلنك قوم صعيب
وإن جاء إلينا اقتله مع جموعه ندعيهم بالماضيات ذهيب
فقال أبو زيد الهلالى سلامه لا بد يجرى المقدر بلا تكذيب

فلما فرغ أبو زيد من كلامه قال لهم كونوا على حذر من الغدر والأفكار فلموا جيوشهم وأخذوا حذرهم من الأعادى وباتوا إلى الصباح حتى صارت وقت الضحى أقبل عليهم أحد فقال أبو زيد يا أمير دياب أعزل من قومك الف ومن بنى زغبة الف ومن عرب القاضى الف ومن قوم حسن الف ومن بنى هلال إثنى عشر الف وتسلمهم الضعن وتجعلهم أربع فرق من كل فرقة أربعة آلاف فارس قال فرجع دياب إلى الضعن وفعل مثل ما قال أبو زيد وجمعوا الأمراء عند الأمير حسن فقال كيف الراى عندكم قال الراى انك ترسل كتاب إلى التمرلنك وإذا بالأمير دياب كان مسيره بالطريق نظر رجال آتين من ناحية التمرلنك مسكهم دياب وأتى بهم الأمير فقالوا ما هذا يا دياب قال لقيتهم فى البرية فقال حسن أنا أكتب كتاب إلى التمرلنك وارسله مع واحد منهم ثم أشار يرسل إلى التمرلنك يقول :

يقول الفتى حسن الأمير أبو على بدمع جرى فوق الخدود يسيل
ونيران قلبى كلما أقول تنطفى تهب لها جوا الضلوع شعيل
نعم أيها الغادى على متن ضامر تشبه غزال بالفلا جفيل
إذا جئت نحو التمرلنك بلا خفى أمير على العجهان أمير ثقيل
وقول له يقول الأمير أبو على أمير ابن أمير سيد وفضيل
فإننا ترانا سايرين مغربا ولا نحن عليكم وايدون نزول
إلى الغرب نبغى يا أمير بلا خفا وأولادنا فى وسط قيل ثقيل
فى الغد نرحل يا أمير عنكم ولا لى عليكم زايد التويل
فعارضنى الدبيسى بن مزيد دعينا بلاده بالهنا ودميل

ومن بعده جينا العجم بطعننا ... ملينا أراضيها وكل سهيل

وقد جملنا الخرمند هو وقومه ... وقد راح على حد السيوف قتيل

فإن طعنا أقصر وارجع لورى ... ولا ترى تعدى بعد ثقيل

ما قال الفتى حسن الأمير أبو على ... ولا خير فى رجل يعيش هزيل

فلما انتهى حسن من كلامه طوى الكتاب وختمه بختمه وأعطاه إلى الذين جابهم الأمير دياب وقال لهم اعطوه إلى التمرلنك فأخذوه وساروا حتى دخلوا عليه وقبلوا يديه وأعطوه الكتاب أخذه وقرأه وعرف رموزه ومعناه أطرق رأسه فى الارض وقال مرادى أرسل لهم الجواب وأطلب منهم عشر المال والخيل والجمال والبنات الحسان وفى الحال استدعى بقلم وقرطاس ودواية وأشار يكتب ويقول :

يقول التمرلنك على ما أصابه ... ولى مدمع فوق الخدود يسيل

من أجل كلام البدو يا قرومنا ... وأصبح جسمى والفؤاد نحيل

أرسل لنا ابن سرحان كتابه ... قد يصف شور زايدات تنكيل

يهدد بالحرب والحرب مقصدى ... أيا ريت ظنى فهو رجل هبيل

هل يحسبونى أخاف من كلامهم ... رمانى بيوم الموزمات ذليل

أيا غادياً منى على متن ضامر ... عليها من الفرسان قوم ثقيل

إذا جيت إلى حى الأمير أبو على ... أمير ابن الأمير زاكياً وأصيل

سلم كتابى اليه بلا بطا ... وخليه يقرأه ولا يكون هبيل

يسمع ويقصر عن كلامه بلا خفا ... يسلم لنا ماله بلا تمهيل

وارسل لنا بنات هلال عامر ... بنات الامارة طرفها كحيل

من قبل ما تأتيك جحافل العجم ... ويأتى اسكندر فارس ثقيل

ويامقداح والأمير مشعشع ... وشمعون المسمى والفتى الدفيل

وسادتنا ميتين الف ومثلها ... ومائتين تنصرف تعجيل

ماقاله التمرلنك أنا أبو شمله ... أنا قاهر الأبطال بالتكفيل

فلما فرغ التمرلنك من كلامه طوى الكتاب وختمه بختمه وكان عنده عبد اسمه الماس لكن شديد البأس صعب المراس فقال يا الماس خذ هذا الكتاب إلى حسن

ابن مرحان أمير العربان وقل له يرسل نصف مال بنى هلال والنصف الآخر بحشيش فأخذ العبد الكتاب وسار حتى وصل إلى عند الأمير حسن ودخل عليه وقبل يديه وأعطاه الكتاب فاخذه وقرأه وعرف رموزه ومعناه فغضب غضباً شديداً وقال إلى قومه كيف يكون الرأى عندكم يا أمارة فتقدم الأمير أبو زيد وأخذ الكتاب وقرأه ورماه فى الأرض وأشار يقول :

يقول أبو زيد الهلالى سلامه لى دمع جرى فوق الخدود سكيبها
من أجل كلامى قد فاضت مدامعى وعدت أقاسى من كلامه لهيبها
أرسل يريد المال منا غصيبة جموع هلال تأتيه اليها جديبها
فيرسل يهددنا بطعن وغيره وما يعلم أين من الباع مريبها
فنحن رجال الحرب فى يوم غارة بيوم يعود الدم يجرى سكيبها
فكم من ملوك كبار شدت شمامهم وراحوا من سيفى يقاسوا لهيبها
أيا تمرلنك أجمع الأعاجم وارتحل لأرضكم سافر فالك نصيبها
أنا أعلمك من آل قيس وعامر وآل زغبى خلانى أحبيبها
إن طعتنى ارحل بقومك يا فتى نحن سباع الفلا ثم ديبها
من قبل ما تقلق بكم ثأر حربنا مغرور يوم الكون من يقدر يصيبها

فلما فرغ أبو زيد من كلامه طوى الكتاب وختمه وأعطاه إلى العبد فأخذه وسار حتى وصل إلى عند التمرلنك ودخل عليه وقبل يديه وأعطاه الكتاب فأخذه وقرأه وعرف رموزه ومعناه وغضب غضباً شديداً وزاد به الغم والتنكيد ثم أن التمرلنك استدعى الوزير اسكندر وقال كيف أعمل العربان ما يعطونا حسب طلبنا وحيات رأسى لأحصدهم حصيد وأجعلهم يا ابرارى شريد قال له الوزير ما هو الجواب يا ملك الزمان فقرأه عليهم ثم قام الوزير اسكندر وقال دعنى يا ملك الزمان أكتب الجواب إلى الأمير أبو زيد فقال الملك لا يلزم الجواب وباكر نصلى عليهم نار الحرب ونسقيهم كاس الكروب وثانى يوم ركب الأمير أبو زيد وأشرف على القوم رآهم مقبلين مثل الجراد الناشر ما لهم أول من آخر ولما نظرهم أبو زيد رجع وأخبر بنى هلال بهذه الأبيات :

قال أبو زيد الهلالى سلامه يا حسن جتنا العجم تمشى سريع
يا ملك جانا الترلنك قاصداً من فاق شعر يا أمير تلميع
والخيل من خلفه كبار غير صغارهم دوارع وسيوف تلمع لميع
عشر ملوك كبار غير صغارهم والترلنك فى قومه جانا سريع
أيا دياب اركب وانهض عاجل واجعل الاعجام أن يغدوا قطيع

قال الراوى وهم بالكلام وإذا بالعجم أقبلت مثل الجراد فركبت بنى هلال ولاقوا الأعجام ثم إنهم وقفوا بجانب بعضهما البعض فنزل وزير من وزراء الترلنك إلى ميدان اسمه دخان عرض وبان وطلب الفرسان وصاح على بنى هلال هل من مبارز هل من مناجز لا يبرز كسلان ولا عاجز ما فى حومة الميدان الا الوزير دخان فما تم كلامه حتى صار القاضى بدير قدامه وأرمى العمامة وصدمه صدمة هائلة فقال له من تكون من الفرسان حتى جيت تصادم الوزير فقال له أنا قاضى العربان ثم التقوا البطلين كانهم جبلين وافترقوا وزعق على رؤوسهم غراب البين وثار الغبار على رأسهم حتى شد الأقطار وقدحت حوافر خيولهم ناروما زالوا على تلك الحالة إلى آخر النهار فزعق القاضى فى وجه دخان مثل الرعد القاصف ثم انه ضربه بالرمح فأخذها دخان بالترس البولاد وراح ضرب القاضى خايب فارتد الوزير وضرب القاضى بالترس فشطح على رقبة الجواد براها كما يبرى الكاتب القلم فأراد أن يكمل عليه فأدركه الرياشى مفرج فاركبوه جواد والتقت الرجال بالرجال وجرى الدم وسال إلى وقت الزوال فعندما دقت طبول الانفصال وكل عاد إلى حيه والاطلال ولما أصبح الصباح دقوا طبول الحرب والكفاح وركب الترلنك بقومه وركب بنو هلال وخرجوا حومة الميدان واصطفوا فى جانب بعضهما البعض فبرز الوزير دخان إلى حومة الميدان ونادى على الفرسان وقال لا ينزل إلا الأمير سرحان فما تم كلامه حتى صار الأمير دياب قدامه وقال له سد فمك لعن الله أبوك وأشار يقول :

قال أبو موسى دياب بن غانم دخان أعوى من قبال هزيم
فر بنفسك وارجع يا فتى أنا أبو وطفا ما أنت لى خصيم

ها الوقت تنظر همتى لادعيك شطرين فى سيف قسيم
انزل إلى الميدان بادرنى سريع وانظر إلى طعنى كنار جحيم
ها الوقت أسقيك من سيفى عطب وادعيك من فوق الوطن عديم
اقطع رأى عاجلا فى عارسلك وادعيك من فوق الوطن عديم
وافنى عساكركم أيضاً والملوك أما التمرلنك أجعله حطيم
قول الفتى الوغى دياب بن غانم لا بد ما أسقيك كاس حميم
رد الفتى دخان فى حرب الهمم اسقى الأعادى من يد كاس حميم
والسيف فى يدى ترانى شامطه هندى يكاد يقطع الصخر المتيم
لابس على درع داودنى عجيب وخوذتى تضىء كما نجم الظليم
تحتى حصان ثابت عند اللقا موصى عليه من خيل العجيم
كم من أمير قد قتلته بالوغى قد راح منى فى الوغى أصبح عديم

(قال الراوى) فلما فرغ دياب من كلامه التقوا البطلين كأنهم جبلين وحان عليهم الحين وغى على رؤوسهم غراب البين وافترقوا كأنهم أسدين فعند ما ضرب دخان إلى دياب بالسيف أخذها بترس البرد راحت خايبه بعد أن كانت صايبة ثم أن دياب انحدف على دخان وكان معلم الخضرة إذا صاح فيه الفارس وكان من وراه تضربه الخضرة بالجوز فلما انحدف على الدخان وأراد أن يضربه التفت دخان من وراه دياب يريد ضربه وإذا بالخضرا ضربته بالجوز رمته هو والجواد على الأرض فنزل له دياب وشده كتاف قوى منه السواعد والأطراف وأخذه أسير يجره من وراه إلى أن وصل لعند الأمير حسن فقال ما هذا يا أمير دياب فقال هذا دخان الذى قتل جواد خال القاضى بدير وقتل من بنى هلال ستة عشر فارس قال حسن والله هذا ما يستحق فيه أن يقتل ثم أن حسن أمر له بخلعة سنية والبسها إلى دخان وقال لا تخف وعليك الأمان إن رحت عند التمرلنك مع السلامة وإن بقيت عندنا حلت البركة فقال الوزير يا ملوك الزمان إذ رحت إلى عند التمرلنك ما أعود أقدر أنزل اليكم وإن نزلت اليكم يقتلنى التمرلنك والآن أنا بقيت أحد منكم فقال حسن حلت البركة فقال يا ملك الزمان لى ولد عند التمرلنك فقال دياب أبشر أنا أجيب لك إياه فبقى دخان عند بنى هلال اسمع ما جرى من قوم التمرلنك فانهم لما أصبح الصباح ركبوا وركب

ابن دخان وكان اسمه سكران فنزل إلى الميدان وطلب براز الفرسان فنزل اليه دياب وقال له من أنت فقال أنا سكران بن الوزير دخان وأنت أسرت أبوى قال دياب فقم اليوم ألحقك به ثم التقوا البطلين كأنهم جبلين وافترقوا كأنهم مركبين وحان عليهم الحين وغنى على رؤوسهم غراب البين من طلوع الشمس إلى الغياب ودياب ما يستحى بقتله إكراما لأبوه فداموا على ذلك الحال إلى أن أمسى المساء ودقت طبول الانفصال فافترقوا عن بعضهم وكل منهم طلب أهله وباتوا إلى الصباح فنزلوا الاثنين الحرب والكفاح وتحاولوا فى الميدان من الصباح إلى المساء فقال دياب وإلى متى وأنا أطاول روحى وسحب الدبوس وضرب به سكران أرماه على القيعان ونزل اليه وشد كتافه وعاد به عند أبوه الوزير دخان فضمه إلى صدره وقبله بين الأعيان وأخبره بما أكرمه به السلطان ففرح سكران وبقو عند بنى هلال هذا ما كان منهم وأما ما كان من العجم لما راح الوزير وابنه صاروا فى حساب وأمور صعاب وأما التمرلنك غضب الغضب الشديد وزاد الغم به والتنكيد وباتوا تلك الليلة إلى الصباح دقوا طبول الحرب والكفاح وركبت القومين وترتبت الجيشين جانب بعضهم البعض ثم برز وزير الوزير التمرلنك اسمه شاهين فنزل له طوى ابن مالك فقال له اسمك أيها القادم فقال اسمى طوى بن مالك ثم التقوا البطلين كأنهم جبلين حتى كلت من تحتهم الجوادين وتعب منهم الزندين ولم يزالوا على تلك الحال من الصبح إلى العصر فعندما قام طوى إلى عزم الركاب وضرب شاهين بعود القنا أخذها بترس البولاد راحت خايبة ثم قام شاهين فى عزم الركاب وضربه على هامته أتى رأسه قدامه فلما شافت الأعجام أن شاهين قتيل هجموا على العرب وهجمت العرب على الأعجام والتحم القومين فى بعضهم البعض وصار بينهم شر عظيم حتى جرى الدم وهربت الانذال ولم يزالوا على تلك الحال إلى أن دقت طبول الانفصال ورجعوا القومين إلى الصباح فعند ذلك اصطفت عساكر القومين وبرز أبو زيد إلى ميدان القتال وعرض رأيان وطلب براز الفرسان فنزل اليه من الأعجام اسكندر وزير التمرلنك فصدمه أبو زيد صدمة هائلة فتلقاها وقال على مهلك من تكون من الفرسان وأشار يقول

قال أبو سرحان اسكندر   انى قوم غضنفر   رأس فرسانى وعسكر
هوم فى الجهات عابس   انى قوم غشمشم   من يعادينى بيندم
بس يا فارس   تترحم اليوم   أعدامك مقايس

فلما فرغ اسكندر من كلامه وأبو زيد يسمع نظامه أشار يرد عليه:

قال أبو زيد الهلالى   فارس يوم المجال   عادته قتل الرجال
يوم وقعات الصدام   جاك أبو زيد المسمى   من لقاكم ما بهما
ضربى والسن سمى   سمها يبرى العظام   من وقع فى يدى يزول
كم قتلت ملوك أكابر   شوف ايضا مع عساكر   يا اسكندر قوم بارز
والتقينا بالصـــدام

فلما فرغ الأمير ابو زيد من كلامه والوزير شاهين يسمع نظامه التقوا البطلين كأنهم جبلين وحان عليهم الحين وغنى على روسهم غراب البين ولم يزالوا على تلك الحال إلى وقت العصر حتى كانت منهم الزنود فعندها قام الوزير فى عزم الركاب وضرب ابو زيد بالسيف وأخذها بدراقة البولاد راحت خائبة ثم الامير أبو زيد هجم عليه كأنه السبع الكاسر وضربه بالقرصان على نواعم الركاب وإذا برأسه قد تدحرج على التراب وأفل نجمه وغاب فلما قتل الوزير حملت العجم على العرب والعرب على العجم وانحطت منهم الهمم ولله در أبو زيد ودياب وباقى الشباب بما فعلوا من الفعال وما فرق بينهم إلا الظلام ودقت طبول الانفصال وافترقوا عن الحرب والقتال وقد قتل من العجم خلق كثير وعادت بنى هلال على خيل شاردة وعدمة ثم باتوا إلى الصباح ودقوا طبول الحرب والكفاح واصطف الفريقين فبرز التمرلنك إلى الميدان وطلب براز الفرسان (قال الراوى) فلما رأى بنو هلال التمرلنك تعجبوا من همته وهو كأنه البرج الحصين فقال حسن يا أبو زيد ما تقول فى هذا الفارس فقال أبو زيد العلم عند الله أنه عفريت من عفاريت سيدنا سليمان فقال حسن نادوا إلى الوزير دخان لربما يعرفه فنادوا لخضر فقال حسن يادخان من يكون هذا الفارس الذى فى الميدان فقال له ياملك الزمان هذا التمرلنك فقال حسن لا أحد ينزل اليه لأنه جبار عنيد فقال دياب أنا أنزل اليه وعلى الله الاتكال ثم أنه نزل إلى الميدان وصدم تمرلنك فالتقاه وقال من

تكون من الفرسان قال اسمي دياب والي القصاب وحذاف الرقاب فلما سمع التمر لنك
هذا الكلام صار الضياء في عينيه ظلام وانطبق عليه والتقوا البطلين كأنهم جبلين
والتطموا كأنهم بحرين وكانت منهم الساعدين وتعبت تحتهم الجوادين ولم يزالوا
على تلك الحال إلى المساء ودقت طبول الانفصال ورجعوا عن القتال وأتوا إلى أن
أصبح الصباح دقوا طبول الحرب والكفاح ونزل التمرلنك إلى الميدان وطلب
الفرسان فتقدم إليه فارس من بنى زغبة فضربه التمرلنك على هامته طير رأسه
أمامه ثم نزل فارس ثانى قتله وثالث جندله ورابع ما أمهله ولم يزل حتى قتل
منهم سبعة وعشرين فارسا وأمسى المساء فدقت طبول الانفصال فرجع كل فريق الى
حيه والاطلال فجمع الأمير حسن إلى عنده وقال ما الرأى عندك يا أبو زيد
لأن مرادى تدبير يكون مليح وكيف نسوى مع هذا اللعين والله إنه فارس عظيم
فقال أبو زيد الذى تريده نصير فقال حسن مرادى أن أرسل إلى التمرلنك كتابه
لكى يبطل عنا القتال فقال أبو زيد الذى تريده افعله فكتب حسن إلى التمرلنك يقول

يقول الفتى حسن الهلالى أبو على ... بدمع جرى فوق الخدود سكابه
امم أيها الغـادى على متن ضامر ... تشابه نسيم الريح مثـل شهابه
إذا جيت للتمرلنك بلغ رسالتى ... يا عبرة ما شوف نكابه
وقل له قال الأمير أبو على ... أمير ابن أمير من فروع أنسابه
ألا يا ملك اسمع مقالى وقصتى ... وافهم كلامى لا تزيد عتابه
فان طعتنى أسلم بروحك وغزوتك ... وفز بروحك من ملوك أعرابه
من قبل ما تعلق بكم نار حربنا ... وتوقع باوشم شومها وكلابه

فلما فرغ حسن من كلامه طوى التحرير وختمه بختمه وأعطاه إلى عبده فأخذه
وسار إلى أن وصل عند التمرلنك وأعطاه التحرير فقرأه فغضب غضباً شديداً
وسحب السيف وضرب العبد طير رأسه وقال لقومه باكر يكون آخر أيام بنو هلال فوصل
الخبر إلى الأمير حسن فغضب غضباً شديدا وشاور الأمير أبو زيد على هذا الأمر
فأجابه هاتوا لنا ثمان أمراء من أولاد الامارة والعبيد اسوقها مزورا ونركب نحن
وراهم الله يعطى النصر لمن يشاء فاعتمدوا على هذا الرأى ولما كان الصباح وركب الأمير

أبو زيد بقومه الدسمين القاضى بقومه والأمير دياب بقومه والأمير حسن بقومه ومشوا الجمال بعدما حملوها ترابا وقال أبو زيد الذى مع الجمال إذا انكسروا تمالوا صوبنا ثم أنهم دقوا النوبات وركب العسكرات وطلبوا اللقاء والثبات فلما سمع التمر لنك صوت الطبول دق طبله وركب بقومه فهجمت الأعراب بالمدافع وكان عددها خمسمائة مدفع فعندها الكرت بنو هلال الجمال على المدافع فخفت من صوت المدافع وكثر الصياح من وراء الجمال والعبيد تنخسهم بالرماح وفزروا هدول التراب وهب الهواء وثار العجاج والغبار حتى عمى الابصار فركضت الجمال وداست الاعجام وخيلها وحينئذ هجمت الأعراب هجمة الأسود وطعنوا الصدور والكبود فلما نظر التمر لنك إلى ماصار فى قومه أراد الهرب وإذا بالأمير صبرة بن أبو زيد عارضه فى الطريق وصاح به إلى أين يا ابن الف قرنان فالتقاه التمر لنك بقلب مثل الصخر وتجاولوا فى الميدان وتكسرت بينهم الميدان ثم أن التمر لنك هجم على الأمير صبره هجمة الأسود وحمله على راحة زنده وأرماه على وجه الأرض فتعلق صبره فى صدره فوقع هو وإياه فتعدل صبره على خصمه وسحب الخنجر وطعن به التمر لنك وشق بطنه وإذا بالأمير حسن أدركه وفى يده السيف ونزل وقطع رأس التمر لنك فعندها مالت العرب على العجم وفتكوا بها بالسيف وماسلم به الا كل طويل عمر وفاتوا على خزائن ملك التمر لنك ونهبوا ورجعوا بنو هلال على خيل شاردة وغنموا تلك الأموال وفرق الأمير حسن على العربان وأحضر أقوام التمر لنك وأحضر الوزير دخان وابنه سكران والبسه عليهم ملك وقال حسن كل من خالف كلامه رميت رأسه واخمدت انفاسه قالوا حاشا أن نخالف كلامه ومن بعدما ارتاحوا العساكر من الحرب والصدام وقاموا عدة أيام ورحلوا إلى أرض حلب (قال الراوى) ذهب بنو هلال من بلاد الخفاجى عامر إلى حلب وكان حاكم حلب يقال له بدريس وكان صاحب مال وخيل وابطال وكان وصل له خبر بنى هلال أنها محلت أرضهم والبلاد رحلوا منها وما فعلوا فى الملوك الذين حاربوهم وكيف أن الخفاجى عامر أضافهم وسافر معهم فلما سمع هذا الكلام جمع أكابر قومه وخابرهم بهذا الشأن وكان عنده وزير يقال له الخزاعى فقال علام يا ملك جمعت القوم والفرسان فأجابه أريد ان أخبركم عن بنى هلال وما فعلوا من أن يدخلوا بلادنا

ويقتلوا أبطالنا ورجالنا وإذا ما عملنا تدبير وقعنا فى عسير فلما سمعوا هذا الكلام عادوا فى أمرهم متحيرين عندها التفت الوزير الخزاعى وقال أيها الملك العظيم أنا عندى من الرأى أن ترسل لهم رواداً إلى أرض الكنيسة يرودوها ولم يكون معهم من العساكر والأبطال ويكشف لنا خبرهم ويعود بالحال حتى تحضر رجالنا لأجل حربهم وقتالهم فلما سمع منهم هذا الكلام قال هذا هو الرأى الحميد ثم استدعى برجل كان شيطاناً مريداً يسمى سابق وقال له اعلم أن مرادى منك أن تذهب ترود لنا بنى هلال تنظر قومهم والفرسان وترجع لنا بالخبر الشافى فقال سمعاً وطاعة وركب ناقة عمارية وصار يقطع الفيافى والقفار حتى أشرف على جموع بنى هلال فرآهم بعدد الرمال وحار مما شهد من الفرسان وبينما هو على تلك الحال وإذا بالأمير أبوزيد آتياً من الصيد فلما رآه وعرف أنه روّاد فتقدم إليه وسلم عليه وسأله ما أنت آتياً إلا لترويد بنى هلال وتخبر مولاك بدريس أحوالنا فأجابه أخطأ ظنك وما عادتى م خبأ عليك ولكن قل لى عن اسمك حتى أعرفك فقال له أبوزيد الآن وصلت من الصيد فقال له يا أمير اعطينى الأمان حتى أعلمك جميع الأعلام فقال لك الأمان وألف مرحبا بك أنت ضيفى وكل من عارضك آذيته بسيفى عندها أشار سابق يقول :

قال سابق بن كاسب صادق	الدمع من فوق الخدود سراعى
قد جيت من حلب أرود جموعكم	وأنا رسول للملك قطاعى
بدريس أرسلنى برأى صايب	بدريس سيفه للعدا قطاعى
أما الخزاعى يا أمير وزيره	يسمى محمد بن مفلح واعى
وأنا ظنك يا أمير سلامه	أنا شبيه الشاة أنت الراعى
أبو زيد لك بين الملوك اشارة	كل الخلايق منها غدت ترتاعى
قول ابن كاسب للأمير سلامه	ياريت عمرك ماتشوف صداعى
رد أبوزيد أمير الوغى	ياأمير سابق أنت رجل مراعى
إنى خبير بالرجال وفعلهم	وعلمت حالك جيت الينا ساعى
وأنت جاسوس بحيله رايد	وقطعت وديان الفلا وقلاعى
تأخذ علام أولاد عامر سرعة	لبدريس الملك ثم الخزاعى

بشروا من ضلال سلامه   ما يوم ضيق يابن كاسب ضاعى
إن الملوك حواصل وعواضب   طعناتهم جوا الحشا أساعى
يا أمير سابق موج كل جموعنا   انظر بعينك صنعة الصناعى
أربع ملوك على التخوت جوالس   عن الملاح الراخيات قناعى
قل له إذا عاودت نحو أميركم   نفسه يهنا عن الاطـــلاع
ما قال أبوزيد الهلالى سلامه   من كان يعرف بالنزيل براعى

فلما فرغ أبوزيد من كلامه وسابق يسمع نظامه فأطرق إلى الأرض فقال أبوزيد أنت اليوم ضيفى قم بنا إلى المنزل فسار معه إلى بيته وأكرمه غاية الاكرام واخلع عليه ثم قال قم بنا ياسابق إلى عند الأمير حسن نواجهك فيه فأجاب إنى أخاف من أن يقتلنى فقال له لا تخف بكفالتى فقام وأخذه معه وسار لعند الامير حسن فدخل أبوزيد وسلم فردوا عليه السلام وقاموا له على الاقدام فخاص عين يمين حسن وجلس سابق إلى جانبه فقال له حسن من أين ضيفك ياأمير أبوزيد فقال له من حلب ولـكن اسأله عن كل ماتريد فعندها ناداه حسن فقام سابق واقفا وتقدم اليه وقبل يديه فقال له حسن أهلاً وسهلا ومرحبا من اين آتى وإلى أين ذاهب ياسابق احكى وعليك الامان فقال يعيش راسك ياملك الزمان وحكى له قصته على التمام ثم أقام عند أبوزيد عدة أيام وبعدها طلب إذن للسفر فاذن له وأعطاه الف دينار فسار وماهو مصدق بالنجاة إلى أن وصل إلى حلب الى سيده ووزيره وأشار يقول :

قال الفتى سابق على ماجرى له   ترى القول ينقص تارة ويزيد
وما زينة الانسان إلا صدقه   وكذب الفتى يشينه والتنفيذ
غدوت أنا يا أمـــير المؤمنين   وكان بها برد وبعض جليد
أنا ومانى السير بأرض الـكبيسة   بلاد الخفاجى عامر الصنديد
نظرت جموعا يا أمير نزالهم   تقول غماما أو كبحر مديد
مسير ثلاث يا أمير نزالهم   ويوم تراه بالعرض ياصنديد
الوف ومياه ملوا واسع الفلا   ربى يكون عالم وشهيـــد
أما حسن مقدم كل جموعهم   أميرين أميرين سعد وسعيد

وأبو زيد راعي الشور والرأي كله　　وأبو زيد نجمه بالسماء سعيد
أما دياب الخيل قرم مجرب　　على ظهر خضرا فارسا وشديد
ومعهم مكاسب يا أمير كثـــيرة　　وشفت طبولا يرعدون رعيد
وضربوا بلاد الفرس يا أمير مفالح　　دخلة وكوفة والعراق عبيد
وقد جاؤا لعند الخفاجي عامر　　بأرض السكيبسة والعراق قعيد
يا أمير يوم ينزلون بلادنا　　يخلوا بلادك بالقمــــا وهديد
يا أمير شد الخيل بالزعف والزرد　　وجرد قومك للوغا تجريد

فلما فرغ سابق من كلامه والملك يسمع نظامه وتغيرت منه الأحوال من عظم هذه الأقوال ثم التفت إلى الوزراء والقواد وقال ما هو رأيكم أيها الأعيان هل نبادرهم بالقتال والطعان أو ندعهم يجوزوا بلادنا بالأمان فقالوا يا ملك الزمان نحن بين يديك ولا نبخل بأرواحنا عليك والذي تشوف فيه الصواب افعله فقال الملك ما تقول يا وزير فقال أرى نصبر حتى يصلوا إلينا ونكون قد جمعنا قومنا وأبطالنا حتى إذا وقع فيما بيننا القتال نشيلها على سنة الرماح وننهب مالهم ونسبي عيالهم فقال الملك هذا هو الرأى الموفق ثم أنه بعث الأوامر إلى جميع عماله بأن يحضروا بالفرسان والأبطال وما مضى إلا قليل من الأيام حتى غصت حلب الشهباء من كثرة العساكر وازدحام العساكر فسر الملك بهم وأمر القواد أن يكونوا دائما متيقظين لقدوم بني هلال أو حتى حضروا ضيقوا عليهم ولا تخلوهم يتفرقوا عن بعضهم لبعض حتى تملكوا الجميع ولا يفلت منهم لا فطيم ولا رضيع وأما بنو هلال فإنهم لم يزالوا سائرين حتى وصلوا إلى مكان بعيد قليلا عن حلب الشهبا وكان كأنه فردوس الجنان وهو بين كأس وعناب فنزلوا فيه وامتدوا في نواحيه وأكلوا الأشجار والأثمار وشربوا مياه الأنهار فهربت الأهالي والسكان وأعلموا بهذا الشأن فلما سمع بهذا الخبر تطاير من عينيه الشرر وفي عاجل الحال أمر بجمع الفرسان ثم استدعى إليه القواد وفرسان المعارك والطراد وأكابر الوزراء الأعوان واستشارهم بهذا الشأن فقال له إنك ترسل تطلب عشر المال والنوق والجمال فإن أجابوا إلى هذا الطلب كان غاية المراد وإن امتنعوا نبادرهم بالقتال والحرب والنزال فاستصوب الملك هذا المقال وفي عاجل

الحال كتب إليهم يقول وعمر السامعين يطول :

يقول الملك بدريس بن مهلهل	بدمع جرى فوق الخدود بديد
يا غاديا منى على متن ضامر	يطوى برارى الفلا ثم الفدايد
إذا جئت إلى حسن الهلالى أبو على	فقل له جئت اليـــوم قاصد
وقل له بدريس حاكم فى بلاده	أرسل يقول لك يا ابن الأماجد
وهذه ديارى قصدكم تملكوها	وترعوا مراعيها وتبقى حصايد
فهاتوا لنا عشر الجمال مع الغنم	وعشر المال مع عشر الولايد
وهاتوا لنا نجله وقتنه وغيرها	هاتوا فتاة الحى الزين بنت فايد
وهاتوا فتاة الحى الجازية أم محمد	وهاتوا وطفه بنت دياب الماجد
وهاتوا جمال الضمن بنت سلامة	يا وعيا ثم بنت ابن حامد
وهاتوا لنا أيضاً ميت مليحة	عذرى يكونوا ماعقدن العقائد
ميتين سيف من الصواعق مصقطه	وميتين عقد من خواص القلائد
وميتين حره من خيول أصايل	وميت حصان من خيول أجاود
وهذا الذى أطلب يا أمير أبو على	فإياك إلى قولى تكون معاند

(قال الراوى) فلما فرغ من شعره ونظامه طوى الكتاب وختمه بختمه واستدعى بنجاب وقال له خذ هذا الكتاب ومر فى الحال وسلمه إلى حسن سيد بنى هلال فأخذه وسار فى قطع القفار حتى وصل إلى بنى هلال ودخل على الأمير حسن فتقدم وقبل يديه وأيادى الامارة الذين حواليه ثم سلمه الكتاب وطلب الجواب فلما قرأه وفهم فحواه تغيرت منه الأحوال واعتراه العجب ولكنه أخفى الكدر وأظهر الصبر والجلد وأمر بأن يأخذوا الساعى إلى دار الضيافة فأخذوه وبعد ذلك التفت الأمير حسن إلى سادات الرجال وأعلمهم بالقصة وما كتب إليه بدريس من التهديد وأشار إلى أبو زيد يقول :

قال الفتى حسن الهلالى أبو على	أبو زيد أعلمنى وكن شوارا
بحيات رأسك يا أمير فقل لنا	وأسرع لنا يا أمير بالاشوارا
هذا الملك بدريس أشغل بالنا	وأرسل الهنا يطلب الاشوارا

يبغى لعشر المال يا فخر العلا — الإبل والخيل والجود والمهارا
وعشر النسا ياأمير مع كل الخدم — مع السلاح وهذا أعظم عارا
أبو زيد يا أبوزيد يافخر العلا — فشور علينا اليوم شور جهارا
قول الفتى حسن الهلالى أبوعلى — مهما أراد الله كان وصارا

فلما انتهى الأمير حسن من كلامه وعرف أبو زيد والأمارة فحوى قصده، ومرامه قال يا ابن عمى ليس لبدريس غير ضرب السيوف والطعن وأما دياب صار الشرر يطير من عينيه وعوارضه ترقص فى وجهه وقال على فى بدريس والخزاعى وحدى فاستحسن الحاضرون هذا الكلام منه فعند ذلك أشار القاضى بدير يرد له الجواب ويقول :

يقول الفتى القاضى بدير بن فايد — ولى عزم أمضى من حسام باتر
يا غاديا منى على متن ضامر — يسبق لطير الجو إن كان طاير
إذا جيت إلى بدريس بن مهلهل — فاعطيه مكتوب وارجع باكر
بعثت تهددنا بعزم عساكر — تقول هم مثل الجراد الطائر
بدريس بدريس هل عقلك شارد — تريد بيض من هلال وعامر
البيض فى حمى الهلالى أبو على — ومن حولهم فرسان أسود كواسر
إن كنت حيل قرم مجرب — انهض إلينا من جموعكم باكر
وأنظر مضارب ما رأيت نظيرها — من حد هندى رهيف باتر
وأنا بدير العامرى بلا خفا — وذكرى شاع فى كل العساكر
واعلم يقينا أن هلاك كثيرة — تسعين ألف شاهرات البواتر
طغيت يا بدريس مالك حيلة — فلست على حرب الأمارة بقادر
ولا بد من قتلك وقتل رجالكم — واجعل دماكم بالأراضى فاتر
من ذا الذى يرسل إليك حليلته — أو إبنته أو ماله يا فاجر
بأربع مذاهب حل قتلك يا ردى — من يستحل العرض حقا كافر

فلما فرغ من هذا الشعر ختمه وأعطاه النجاب فأخذه وسار حتى وصل إلى الملك بدريس فناوله إياه فلما فتحه وقرأه اسودت الدنيا فى عينيه ثم استدعى بوزيره

الخزاعى لحضر بين يديه فأعلمه بواقعة الحال وأمره بجمع العسا كر والابطال فامتثل أمره بالعجل وجمع مائتين ألف بطل فركبت الفرسان ظهور الخيل واعتقلوا بالرماح والنصول وركب الخزاعى بهذا الجيش الكثير وركب معه كل سيد وأمير وساروا إلى خارج البلد لاستقبال بنى هلال قبل وصولهم إلى الاطلال وأما بنو هلال فانهم كانوا قد استعدوا للقتال وإذا بالخزاعى قد برز إلى ساحة الميدان وطلب براز الفرسان فبرز اليه الامير دياب كأنه سبع الغاب فالتقاه الخزاعى بقلب كالحديد وصدمه صدمة الفرسان الصناديد وأشار يهدده ويقول :

يقول الخزاعى والخزاعى أروعى	كل الفوارس لا أخاف لقاها
إسمك دياب والدياب ستأكلك	يا أرذل الفرسان يا أرداها
وسأملك الخضرا بعدك يا فتى	وتنال نفسى منك مناها
أنا الخزاعى بن مفلح صادق	ويخافنى الفرسان يوم لقاها
رد الفتى الزغبى دياب الماجد	الخيل تعرف همتى وطرادى
إنى أصيد الأسد فى غاباتها	بمهند ماضى الحديد حادى
كم كربة فرجتها فى صارمى	والخيل وات لا تطيق طرادى
إنى دياب الخيل ذباح العدا	دى الفوارس يوم حرب جلاد

فلما فرغ الأمير دياب من شعره ونظامه وفهم الخزاعى فحوى شعره ونظامه وزاد به الغيظ ومازالا فى كر وفر وطعن من لهيب الجمر من الصباح إلى وقت الظهر وكان الخزاعى قد ضاقت به الخيل فطعن خصمه وهو على آخر نفس فانقلب دياب تحت بطن الفرس فراحت الطعنة خايبة بعد أن كانت صايبه فعند ذلك استوى دياب على ظهر الخضرا وضرب خزاعى بالسيف شرارا فالتقاها بدرقة البولاد فوقعت على رقبة الجواد فبرتها كما يبرى القلم فوقع الوزير على الأرض واتحطم وصار وجوده كالعدم وإذا بقومه قد أدركوه ونشلوه من على وجه الارض وخلصوه فلما رأى دياب تلك الأحوال وهجوم الفرسان والابطال من اليمين والشمال صاح فى بنى زغبة وأمرهم بالهجوم والقتال ومازال وراهم فى الطلب حتى أوصلهم إلى مدينة حلب فدخلوا المدينة وأغلقوا الابوابه وهم فى حالة الخوف والاضطراب ورجع الأمير دياب وهو مثل شقيقة الارجوان

عليه من أدمية الفرسان وقصد حسن فى الصيوان فدخل وسلم عليه فقبله حسن بين عينيه عما فعل وشكره وخلع عليه أثمن الخلع فأخبره بما جرى له فى ذلك اليوم فى قتال القوم وقال له فى أن الكلام لا بد الملك بدريس أن يقصدنا فى ثانى الأيام ويخرج بنفسه إلى ميدان القتال فأذيقه الوبال واستخلص بالغنايم والأموال هذا ما كان من بنى هلال وأما الخزاعى فإنه رجع إلى حلب وهو فى حالة العنا والكرب ودخل على الملك بدريس وأعلمه بذلك الانكيس وما جرى عليه فى ذلك اليوم التعيس وكيف قتلت الرجال وفقدت الأموال وظفر بهم بنو هلال فلما سمع منه هذا المقال اعتراه الاندهال وخرج عن دائرة الاعتدال وبات بدريس تلك الليلة على غير هدى وقد صمم أنه يخرج فى ثانى الأيام لقتال معدولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح أمر بخروج الأبطال للحرب فاستعدت فى الحال وركب بأول العسكر كأنه الأسد الغضنفر وخفقت على رأسه الرايات ومن حوله الوزراء والسادات وخرج بموكب جسيم وجيش عظيم فلما علمت بنو هلال بقدوم الملك بدريس للقتال استعدت وركب الأمير حسن فى الفرسان والأبطال فاصطفت الصفوف وترتبت المئات والألوف وقد برز الملك بدريس إلى ساحة الميدان بقلب أقوى من الصيوان طالبا براز الفرسان وقال لا يبرز لى سوى الأمير حسن بن سرحان لأنى ملك فمن قتل خصمه حصل على طلبه وبلغ غاية قصده ومأربه فما أتم كلامه حتى صار الأمير حسن أمامه وصدمه صدمة تزعزع الجبال فاصطدمه بدريس وأنشأ يقول :

قال الفتى بدريس الهمام الماجد اسمع كلامى يا حسن يا فايد
لا بد لى من قتل كل رجالكم فى حد سيفى يا أمير القلايد
واقتل أبو زيد الأمير سلامة ودياب والقاضى بدير الغايد
قال الملك بدير هذا يومكم يا من يودع قومه ويمايد

فلما فرغ الملك بدريس من كلامه أجابه الأمير حسن على شعره ونظامه يقول :

قال الفتى حسن الهلالى أبو على نيران قلبى زايدات وقايد
لا بد من قتلك ونهب أموالك مع قتل أبطالك وكل معاند
لو أن قومك ألف ألف ومثلهم لا بد أن يبقوا الجميع فقايد
قومى أنا تسعين ألف ومثلهم تسعين فى تسعين ألف ماضد

أفعالهم يا أمير هي طعن القنا فترى الفتى منهن كصخر جامد
فيهم أبو زيد الأمير سلامة ودياب والقاضي بدير الفايد
هل ما رأيت دياب قل جموعكم وكسر عساكركم بغير معاند
واليوم تبقى يا أمير مجندلا وعددا بين الفوارس فاقد

(قال الراوي) فلما فرغ الأمير حسن من كلامه وفهم بدريس فحوى شعره و نظامه زاد حمقه وعظم غيظه فهجم عليه وحمل عليه كأنه قلة من القلال أو قطعة فصلت من جبل فالتقاه الأمير حسن في الحال واشتبك بينهما القتال وعظمت الأهوال وكان تارة يتقدمان وتارة يتأخران كأنهما أسدان كاسران وبحران زاخران وما زالا يتجاولان في ساحة الميدان حتى قصرت من تحتهما الجوادان وكلت منهما الزندان وتعجب من قتالهما الفرسان وقد اختلف بينهما طعنتان وكان السابق بدريس فراحت خايبة بعد أن كانت صايبة فاردها اليه حسن وهجم عليه وضربه بالسيف فاستتر في درقة البولاد فبرى السيف رقبة الجواد فوقع على المهاد كأنه طود من الأطواد فأراد حسن أن يضربه بالسيف ويسقيه كاس الحمام فأدركه قومه في الحال وخطفوه من ساحة المجال وأركبوه على ظهر الجواد في الحال اشتبك القتال والطراد والتقت الأجناد بالأجناد وتضاربوا بالسيوف الحداد والرماح المداد وتحكمت السيوف في الجماجم والاكباد فما كنت ترى في ذلك اليوم المهول إلا ضرب السيوف وطعن النصول وهذا مجروح وهذا مقتول وما زالوا على تلك الحال وهم في أشد قتال إلى الزوال فدقت طبول الانفصال فرجعت بني هلال إلى المضارب والخيام ولاقوا الأمير حسن بالترحاب والإكرام ودعوا له بطول العمر والدوام فشكرهم على ذلك الاهتمام وأما بدريس فانه رجع غضبان كثير الهموم وقد خاف من العواقب وحلول المصائب وفي الحال كتب الرسائل وأرسلها إلى ولاة المدن والقبائل يطلب منهم المساعدة والامداد بإرسال المؤونة والسلاح والسيوف والعساكر والاجناد لقتال بني هلال الاوغاد وأن يبادروا اليهم بالقتال ويحملوا عليهم من أربع أركان المجال لينتهي الحال وتنقضي الأشغال وبقي هو داخل البلد بالعساكر والعدد فلما وصلت اليهم هذه الرسائل والأخبار إلى ولاة

الأقطار فامتثلوا أمره فى الحال وجمعوا الفرسان والأبطال وقصدوا بنى هلال من حدود البحر الأسود فى جمع كبير العدد وكان بنو هلال فى فرح وهم يؤملون بالفوز والنجاح وإذا بالموكب والكتائب أقبلت عليهم وأحاطت بهم من اليمين والشمال من أربع جهات الميدان وهم كعدد النمل فهجموا عليهم من الأبيات وسبوا النساء والبنات فعلت الضجات وتكاثرت الصيحات وتضايقت بنو هلال أشد الضيق وعدموا السعادة والتوفيق وأيقنوا بالهلاك والدمار وتقاتلوا ذلك اليوم قتالا يذهل الأبصار وألقوا نفوسهم على الأخطار وما زال الحرب يعمل والدم يهدل والرجال تقتل حتى صار وقت الزوال عند ذلك ودقت طبول الانفصال فافترقت العساكر عن بعضها ورجعت الجيوش كل إلى أرضها وبات بدريس فى سرور وانشراح على ذلك الانتصار والنجاح وبات بنو هلال فى أسوأ حال بما أصابهم من الذل والوبال ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح جمع بدريس أكابر دولته وأرباب ديوانه وقال لهم اعلموا أيها الرجال أن بنى هلال قد حل بهم النكال وتضعضعت منهم الأحوال ومرادى الآن بأن أطلب منهم عشر المال فإن أبوا وامتنعوا وما دفعوا فحينئذ نقاتلهم فى هذا النهار واستخلص منهم المال قوة واقتدار وابليهم بالويل والدمار فلما سمع الخزاعى وأكابر الديوان هذا الكلام قالوا افعل ما تريد أيها الملك الهمام فعند ذلك سلمه الكتاب وبه هذا القصيد على هذا التهكم والتهديد ويقول:

على ما قال الملك بدريس صادق	غدا نركب عليكم يا هلال
غدا نركب بجيش مرمرى	شبه الغيث فى عدد الرمال
فعربان البحيرة والشواهد	وعربان الدهيمى والموال
تراهم يوم تنشب العوالى	كسبع طالب صيد الغزال
أقتل منكم الأمير قيس	وآخذ خيلكم ثم الجمال
واقتل آل زغبة مع الهلالى	بضرب السيف مع طعن النصال
وآخذ من دياب الخيل بنته	ولا أفكر لنكبات الليال
فان طاوعنى فلك الأمانى	وهاتوا لى عليك عشر والجمال
وهاتوا الجازية بنت كامل	ووطفا ثم نجلا ذى الدلال

وارسلي عطور الجيل بنتك فابقى صهركم بين الرجال
وإن لم ترسل لى ما طلبته فقوموا واستعدوا للقتال
ألا يا أمير لا تبطىء علينا ألا يا أبو على فاسمع مقال

فلما فرغ من هذا الخطاب طوى الكتاب وسلمه إلى نجاب وأمره أن يسير فى الحال ويسلمه إلى الأمير حسن سيد بنى هلال فامتثل أمره وسار يجد فى قطع القفار حتى وصل إلى بنى هلال قبل الزوال فدخل على الأمير حسن وسلمه الكتاب وطلب منه الجواب فلما فتحه وقرأه وعرف فحواه انشغل باله وتضعضعت أحواله وأمر أن يأخذوا النجاب إلى دار الضيافة ثم التفت الأمير حسن إلى سادات الرجال وقرأ لهم ذلك القصيد وقال لهم ما قولكم أيها الأماجيد فى هذا التهديد ثم أشار يقول :

الا يا بنى عمى وكل قرايبى أنا حسن فلست يا أهل ذايل
بدريس أرسل يطلب الخيل والنساء ويطلب بنات طرفهن كحيل
فإن كنتم تعطوه ما هو طالبه فاعلمونى بصدق القول بلا تطويل
أنت يا زغبى دياب الماجد وأنت يا قاضى أمير جليل
فرأيك والنبى يا ابن فايد وتعرف بما جاء فى التنزيل
فقولوا لنا ماذا تشوروا جميعكم فما عاد ألا يا كرام تشيل
وإن كان ياقوم ما تعطوه بادروا إلى حربه يا قوم بلا تحايل
أبو زيد خبر أبو زيد قال لنا فأنت لنا بالنائبات دليل

فلما فرغ من هذا القصيد قالوا إن الرأى السديد عند أبو زيد الفارس الصنديد فلما سمع أبو زيد هذا الكلام وعرف القصد والمراد قال الذى يلوح فى فكرى أيها السادات الكرام هو أن أكتب أنا والأمير حسن إلى بدريس ابن اللئام نوعده بإرسال المال بعد عشرة أيام بشرط أن يدفع عنا القتال والحرب والنزال عند فروغ الوقت المؤجل نرحل بالليل من هذه الاطلال ولا يعلم بنا حتى نكون قد قطعنا مسافة يوم أو أكثر حتى إذا لحقنا بالعساكر نبادر بالقتال ونسقيه كاس الوبال ونملك مدينة حلب ونبلغ القصد والأرب فاستحسن الحاضرون هذا الخطاب ورأوه عين الصواب فعند ذلك أشار حسن يقول :

يقول الفتى حسن الهلالى أبو على … أبشر أتاك الخير يا بدريس
ألا أبشروا لقد أجاب مرامكم … غدا الخير يأتى فى ظهور العيس
ونعطيك فتنة يا أمير وغيرها … ونعطيك أموالا وكل نفيس
ألا يا ملك بدريس أنت أميرنا … وقولى صحيح ما فيه تدليس
ونار الوغى يا أمير لا تضرمونها … ولا تسمع يا أمير شور إبليس
إنى أنا أمير قيس عامر … كريم ولست بما وعدت خسيس

فلما فرغ الأمير حسن من شعره ونظامه طوى الكتاب وختمه وسلمه إلى النجاب فأخذه وسار وجد فى قطع القفار حتى وصل إلى حلب نصف النهار فدخل على الملك بدريس وقبل أياديه ثم ناوله الكتاب ودعا له بالنصر على أعاديه فلما قرأه وعرف فحواه فرح فرحا شديدا والتفت إلى أرباب الديوان والوزراء والأعيان وقال لهم لقد بلغنا المراد وحصلنا على مسرة الفؤاد ثم أنه أمر الرجال أن تهيء المخازن فى الحال لوضع الأموال التى ستأتيه من هلال وأن تفرش القصور والحارات برسم البنات المخدرات فامتثلوا أمره فى الحال وفعلوا كما رسم وقد استبشر بدريس ببلوغ المرام وزالت عنه الهموم والأوهام وكتب إلى الأمير حسن بن سرحان يعطيه الأمان ويأخذ للعرب بالدخول إلى حلب وذلك على سبيل البيع والشراء بدون أدنى احتساب وهذه صورة الكتاب :

قال الملك بدريس يا أجوادى … القول منى صادق الانشادى
يا أبو على أدخل مدينتنا حلب … فلكم أمان الله يا أجوادى
أعطيتكم من الزمام وجرتكم … والله شاهد والنبى الهادى
بيعوا بضاعتكم علينا واشتروا … روحوا وجولوا بالملا وبلادى
الأرض أرضكم والبلاد بلادكم … أرسلت مع كل الجموع منادى
هذا كلامى بالأمان فادخلوا … والختم من فوق الكتاب شهادى
كن براحة بال من بعد الهنا … يا أمير أبو على يا زينة الأجوادى

(قال الراوى) ثم انه طوى الكتاب وسلمه إلى النجاب وأمره أن يسير فى الحال إلى بنى هلال ويسلم للأمير حسن الكتاب ويأتيه بسرعة الجواب فامتثل وسار

فدخل على الأمير حسن فى ذلك النهار فسلمه الكتاب وطلب الجواب فلما قرأه وفهم فحواه فرح فرحاً شديداً الذى ما عليه من مزيد وقام فخلع على النجاب وأرسل معه الجواب وهو يتضمن على كلام لطيف ويشكر بدريس على ذلك التصريف ثم أنه علم سادات بنى هلال بما كتب بدريس من المقال فاعتراهم الفرح والطرب بعد ذلك الغم والكرب ومن ذلك اليوم ابتدأت العرب بالدخول إلى مدينة حلب فيشتروا من أهلها البضائع الثمينة ويبيعوهم من المكاسب التى اكتسبوها من كل البلاد والمدن ومازالوا على تلك الحال وهم فى انشراح بال حتى اقتربت الرعدة ومضت تسعة أيام من المدة فعند ذلك اجتمع الأمير حسن بالأمراء والسادات الأماجد وقال لهم هذا هو اليوم التاسع ولم يبق لنا إلا يوم واحد فما هو رأيكم أيها السادات الفرسان فقال أبو زيد الرأى أن نركب ظهور الخيل ونسير فى ظلام هذا الليل وأن لا يذهب أحد من العرب هذا النهار إلى حلب خوفاً من بدريس أن يعلم بواقعة الحال فيقبض عليه فبينما تقدم له المال فاستحسنوا هذا الخطاب ورأوه الصواب وفى الحال أرسل الأمير حسن منادى ينادى بين جموع العربان أن لا يذهب أحداً منهم إلى حلب هذا ما كان من بنى هلال وما سمعوا عليه من الفعال وأما ما كان من الملك بدريس فانه صبر إلى اليوم العاشر ولما بلغه بأنه لم يدخل فى النهار أحد إلى البلد من عرب العشائر زاد كدره بعد الفرح والسرور وخاف من عواقب الأمور فأرسل بعض الجواسيس فى ذلك اليوم لتكشف له أخبار القوم وكان رجل اسمه المحتال وهو ذو فكر واحتيال يخطف الكحل من العين بسرعة اليدين كأنه الثعلب أبو الحصين فغير زيه وتنكر حتى لا يعرفه أحد من البشر وأخذ حماراً وحمله من المنقولات والعطريات وجد فى قطع الفلوات قاصداً بنى هلال بدون إمهال ولما وصل اليهم وأشرف عليهم جعل ينادى ويقول يا معشر العرب معى الملبس والزبيب وفستق وكرابيج حلب فمن أكل وشرب والتذوا ستطاب وحصل له السرور والطرب ومعى أيضاً العطر الطيب الذى يصلح لكل حبيب ولم يزل على تلك الحال يصيح وينادى على الرجال وهو قاصد الأمير حسن وفى يده الرسن فاتفق أن حانت منه التفاتة إلى وراه فلم ير أثراً للحمار فى تلك الفلاة فتعجب كل العجب وعرف أنها سرقته العرب فقال لقد سرقته

بشجاعتنا وفقد الجار منا ولما وصل إلى صيوان الأمير حسن جعل يتجسس الأخبار بما أمكن فوجد عنده جماعة من الأمراء المشاهير وهم يتناولون في أمر المسير فعرف المراد وأن قصدهم الرحيل تحت ستور الظلام فرجع على الأثر وأعلم بدريس بذلك الخبر فعظم عليه وتكدر فقال للخزاعي ومن حضر من الرجال بنو هلال قد خدعتنا بالمكر والاحتيال ومرادي أن يرحلوا من هذه الديار تحت ستور الاعتكاف فما هو رأيكم الآن في هذا الشأن فقال الوزير الرأي عندي يا ملك الزمان أن أسير بالمراكب والكتائب وأكمن لبني هلال في سهل مراقب لأنه لابد من العبور من ذلك المكان ثم أنت تدركني بباقي الأبطال والفرسان ونبادرهم بالحرب والصدام من جانب وأمام وتبلغ منهم القصد والمرام فاستصوب بدريس هذا الكلام فعند ذلك ركب الوزير خزاعي بما تيسر من العسكر وقصد سهل من مراقب وكمن لبني هلال في تلك السباسب وكان الملك بدريس قد كتب إلى ولاة المدن والبلدان يطلب منهم أن ينجدوه بالأبطال والفرسان فأرسلوا له بالعجل مائتين ألف بطل ففرح واستبشر وأمل ببلوغ الوطر ثم دقت الطبول ونفخت الزمور وتقلدت الرجال بالرماح والنصول وعليت الفرسان على ظهور الخيول وساروا بالعساكر والشجعان قاصدين ذلك المكان .

قال الراوي هذا ما كان من الخزاعي وبدريس وما جرى لهما من الكلام والحديث وأما ما كان من بني هلال فانهم لما أظلم الظلام امر أبو زيد العرب أن تضرب النار أمام المضارب والخيام حتى لا يشعر بهم أحد من الأنام وأن تركب الحريم والعيال على ظهور الهوادج والجمال ويسيروا أمام الأبطال ففعلوا كما أمر وتجهزوا للسفر وسار الخفاجي عامر بخمسة آلاف من الفرسان الشجعان مع البنات والنسوان خوفاً من نكبات الزمان وطوارق الحدثان حتى وصل بالقرب من مراقب وتلك السباسب وعند وصوله إلى ذلك المكان أدركه الخزاعي بالأبطال والشجعان وهجم عليه من جانب كل باب ومكان فلما شاهد تلك الحال وهجوم العساكر والأبطال إلى اليمين والشمال اعترى الخفاجي عامر الاندهال وخاف على الحريم والعيال فجعل هو ومن معه من الأبطال والتقوا الأعداء بقلوب كالجبال وفي

الحال انتشب القتال وعظمت الاهوال وجرى الدم وسال وكان الخفاجى كما تقدم الكلام من أشد فرسان الصدام فبذل فى الحرب غاية المجهود غير أن عساكر الأعداء كانت أكثر فانصبت عليه فظفر الخزاعى واستظهروا ذلك بعد قتـــــل شديد وهجمات تشيب الطفل الوليد فبينما كان الخفاجى فى أشد الأهوال وهو غارق فى وسط المجال وعساكر الأعداء محيطة به من اليمين والشمال وإذا بفرسان بنى هلال قد أقبلت إلى ذلك المكان وأمامهم الأمير أبو زيد ليث الميدان وهو راكب على فرسه الحمراء وكان قد بلغه الخبر بما حصل إلى الخفاجى فغار فى الحال بالفرسان والأبطال حتى أدرك بنى هلال وهجم إلى ساحل المجال وتبعته العساكر والجنود وقاتلوا قتال الأسود وبعد معركة عظيمة ومذبحة جسيمة خلصوا البنات والنسوان من الأسر والهوان وما زالوا على تلك الحال وهم يجندلون الفرسان والأبطال وإذا بغبار من خلفهم قد ظهر وبعد ساعة انكشف للأبصار وبان عن عسكر جرار كعدد رمل البحار وكان عسكر بدريس ملك حلب قد حضر لقتال بنى هلال ليبليهم بالذل والعطب لأننا كنا ذكرنا قبل الآن بأنه قد أرسل ولاة الأمور يطلب منهم النجده والإمداد فأمدوه بالعساكر والأجناد وكانت مائتين ألف مقاتل بين فارس راجل فخرج بهم وقصد بنى هلال وفى قلبه منهم نار اللهب وما زال يقطع الروابى والقفار حتى أدركتهم فى ذلك المكان وهم فى حالة الانتصار فبادرهم بالقتل من اليمين واليسار وفى الحال انتشب القتال وعظمت الأهوال واستمر القتال إلى وقت الزوال فعند ذلك دقت طبول الانفصال فانفصلت العساكر فى كل ناحية وكان بدريس فى قلبه لبنى هلال نار الاشتعال وذلك لعدم إعطائهم المال وما بدا منهم وبات تلك الليلة فى قلق عظيم وغم جسيم .

تمت هذه القصة ويليها قصة أبو بشاره العطار

قصة ابو بشاره العطار

الحاكم على قلعة صوالى وتلك الديار وما جرى له مع بنى هلال.
وأسر حسن دياب وغيرهم وذلك بالسحر والكهانة ومجىء
أبو زيد وما جرى لهم بعد ذلك من الحروب والأهوال

(قال الراوى) ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح دقت طبول الحربه والكفاح فركب الفرسان ظهر الخيول واعتقلت بالرماح والنصول فاصطفت الصفوف وبرز الخزاعى وقال لا يبرز لى سوى أبو زيد المحتال فما أتم كلامه حتى صار أبو زيد أمامه وصدمه صدمة تزعزع الجبال فالتقاه الخزاعى بقلبه كالصوان وأنشد وقال :

قال الخزاعى فالحرب مرادى	أنا صريع الخيل يوم الطرادى
اليوم يا أبو زيد أفنى جمعكم	وأنا غاية مقصدى ومرادى
أقتل حسن أميركم بمهندى	وأقتل عرندس والأمير حماد
وأقتل دياب الخيل من حاز الملا	وآخذ الخضرا بضرب جلادى
والبيض آخذها وأقتل كل من	يوم الوغا عند البنات ينادى
إنى وزير القوم جئتك عاجلا	فالقوم تبصر شدتى وطرادى
وسآخذ الجرا وغيا يا فتى	من بعد طعن يشيب الاولاد
واجعل نساكم خادمات نسائنا	طول الزمان وما لهم من عاد

(قال الراوى) فلما انتهى الخزاعى من شعره ونظامه وفهم أبو زيد فحوى قصده ومرامه اغتاظ منه الغيظ الشديد فأجابه بهذا القصيد وعمر السامعين يزيد

قال أبو زيد الهلالى سلامه	اليوم تبصر يا خزاعى طرادى
اليوم تبصر فارسا ذو همة	وعزيمة أقوى من البولاد
إنى سأملك أرضكم وبلادكم	ويطيب فى هذا النهار فؤادى
وحلب سنجعلها على جلوسنا	من حرب يشيب الأولاد

(قال الراوى) فلما فرغ أبو زيد من هذا الشعر والنظام اغتاظ الخزاعى من هذا

الكلام وصدمه صدمة الأسد الضرغام فالتقاه أبو زيد بالعجل وانطبق عليه وحل وجرى ما بينهما من الأهوال إلى أن سبق منهما ضربتان كأنهما صاعقتان وكان السابق الخزاعى فالتقاه أبو زيد بدرقه البولاد فقطعهما كما سقط على رقبة الجواد فبراها كما يبرى الكاتب القلم فوقع أبو زيد على الأرض واتحطم فأراد أن يعجل فناه ويعدمه الحياة وإذا بفارس قد أقبل من وسط المجال وصاح صيحة تزعزع الجبال وانقض على الخزاعى مثل العقاب الكاسر أو السبع الحائر وقال ارجع يا كليب الرجال فسوف يحل بك الوبال وتضحى قتيلا على الرمال وكان صراخ الأمير دياب فالتقاه الخزاعى بقلب كالجبال واشتد بينهما القتال وما زال على تلك الحال إلى وقت الزوال وهما فى ضرب وطعان يحير عقول الفرسان وكان قد اختلف بينهما طعنتان قاتلتان وكان السابق الأمير دياب الأسد الوثاب فطعن الأمير الخزاعى بالرمح فى صدره خرج يلمع من ظهره فوقع على الأرض يختبط بدمه فلما رأت عساكره ما حل بوزيرها من العطب زاد بها الغيظ والغضب وحملت فى الحال على بنى هلال من اليمين والشمال بقلوب كالجبال وهم يصيحون يا ثارات الوزير وقاتلوا قتال الأبطال فالتقتهم بنو هلال واشتبك بينهم القتال وعظمت الأهوال وجرى الدم وسال وتمددت الرجال على وجه الرمال وما زالوا على تلك الحال إلى وقت الزوال فدقت طبول الانفصال فافترقوا عن القتال ورجعوا بنى هلال فى فرح واستقبال وأما ما كان من دياب ليث الوادى فإنه رجع من ساحة الميدان وهو مسرور فرحان وثيابه كشقائق الأرجوان بما سال عليه من دماء الفرسان فالتقته النساء بالفرح والسرور والغبطة والحبور وشكروه على ما فعل وقالت لله درك من بطل لقد قهرت الغريم وحميت الحريم فلا عدمناك يا فارس الخضراء وليث الصحراء ثم أنه أنزل فى المضارب والخيام وخلع ثياب الصدام ولبس ثياب البرفير والأرجوان وبعد ذلك دخل الأمير حسن فقام له على الأقدام والتقاه بالترحاب والاكرام وأجلسه بقربه وترحب وقال له مثلك تسكون الفوارس يا زينة المجالس ومثل ذلك قال القاضى بدير بن فايد والأمير أبو زيد الهمام الماجد ولما استقر به الجلوس وطابت منه القوم النفوس التفت الأمير دياب إلى أبو زيد وأشار يخاطبه بهذا القصيد :

مقالات الفتى الوغى دياب ولى عزم كما الصخر الأصما

ولى همة كهمة ليث عابس | أنا الزغبى دياب المسمى
فكيف رماك يا أمير الخزاعى | وأنت أشد قلبا ثم عزما
أيا أبو زيد ياحسن العذارى | فلولا ما أدركك اقتلت رغما
ولما قد أتيتك يا سلامة | أذقت أبا الخزاعى كاس سما
وما قصدى أمتن فى كلامى | لأنك فلقس البيد المسمى
أنا روحى فدا لو وكل قومى | لأنك عزنا اسم المسمى
واقتل الملك بدريس باكر | وآخذ مالهم والمال حتما

(قال الراوى) فلما فرغ دياب من شعره ونظامه شكرته الأمراء والسادات على حسب اهتمامه ثم أشار أبو زيد يرد عليه القصيد وعز السامعين يزيد :

مقالات أبو زيد الهلالى | أيا زغبى جزيت الخير عنى
أبو زيد فاسمع كلامى | أنا منك بقيت وأنت منى
أنـــا للميدان عاجل | وقد برز الخزاعى قرب منى
ضربنى ضربته بالسيف حقا | ولولا الترس يازغبى قتلنى
فصاب إلى جوادى فى حسامه | ترى النوى من تحت منى
وقعت على الوطا والذهن غائب | جفونى بالدموع ففرحتنى
ورأسى طايش يا أمير زغبة | فجرحت شفتى من فوق سنى
وقد أدركتنى يا ابن غانم | وفرحت العدا من حول منى

(قال الراوى) فلما فرغ أبو زيد من شعره ونظامه فهم الحاضرين فحوى كلامه شكره حسن على هذا المقال وقال مثلك تكون الرجال أتوا تلك الليلة فى سرور وانشراح وانبساط وافراح على الانتصار والنجاح ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح استعدت الفرسان للحرب والكفاح فدقت الطبول وركبت الأبطال ظهور الخيول واعتقلوا بالرماح والنصول ترتيب الميامن والمياسر واصطفت الجنود وركب بدريس ظهر الحصان وقلبه يقدح النيران على ما جرى له وكان من الانكيس والخنا الآن برز إلى ساحة الميدان بقلب أقوى من الصوان وطلب براز الفرسان وقال من عرفنى فقد اكتفى ومن لا يعرفنى فما بى خفا أنا بدريس ملك حلب يا برزلى أمراء العرب فما تم كلامه

حتى صار دياب أمامه فأشار بدريس يتهدد بالكلام بهذا الشعر والنظام :

يقول الملك بدريس قولا صادقا ... إني مريع الخيل في خد الأسل
اسمع دياب من كلامي وافتهم ... أبو زيد يامكار صنعت الحيل
أرسلت أطلب ياحبيب نساكم ... عشر الغنم والمال أيضاً والجمل
ولقد بعث ملككم وأميركم ... يطلب المهلة ومثلي من مهل
وحلتم بجنح الليل مع طفلكم ... أبو زيد يا مكار ياراعي الخيل
لابد الفتك في وسط الفلا ... واذل هذا اليوم من دمر الأمل

فلما فرغ بدريس من شعره ونظامه أجابه الأمير دياب على كلامه :

يقول أبو وطفا دياب الغانم ... فيوم الحرب يا بدريس عيد
فنحن قد مررنا في بلادك ... نريد السير إلى الغرب البعيد
نريد السير إلى أرض المغارب ... إلى عند الزناتي بالأكيد
فكيف تريد عشر المال منا ... وعشر الخيل مع عشر العبيد
تريد بنات منا مع جواهر ... فهذا يا ملك عنكم بعيد
أما بناتنا من كل فارس ... قوای القلب ذو بأس شديد
فانزل عن جوادك لا تكابر ... فسوف ترى إلى حربي الشديد
وإلا اقتلك في حد سيفي ... وتبقى من أهلك فقيد

(قال الراوي) فلما فرغ دياب من هذا الشعر والنظام انحدر بين الصفين وهجم على الملك بدريس على الميمنة وأبو زيد على الميسرة وكان دياب يدور بالخضراء عليه بضربتان قاطعتان تهد الجبال الراسيات وكان قد اختلف بينهما طعنتان قاتلتان وكان السابق دياب ليث الميدان فطعنه في صدره خرجت تلمع من ظهره فوقع بدريس على الارض قتيلا وفي دمه جديلا فلما رأت العساكر ما حل بملكها أيقنت بهلاكها وقلعاها ولما صممت على القتال وهجمت كليوث الاكام وهي تصبح الثار البدار وحملت من اليمين واليسار بقوة واقتدار فالتقتها بنو هلال في الحال واشتبك الفريقين للقتال وعظمت الاهوال وجرى الدم وسال وتقطعت الاوصال وتزلزلت الارض من ضجيج الابطال وقعقعت النصال ومازالوا في عراك وقتل يشيب الأطفال إلى وقت الزوال فعند ذلك

تأخرت عساكر بدريس وقصدت مدينة حلب خوفاً من الهلاك والعطب فتبعها أبو زيد والأبطال والفرسان فلما رأت ما حل بها من الهوان طلبت لانفسها الامان عندما بلغ أهل المدينة بما جرى كانت خرجت الأكابر والاعيان والتمست من أبى زيد أن يعفو عنهم ويعاملهم بالفضل والإحسان فأجابها إلى ذلك الشأن بعد أن استشار الأمير حسن بقتله بدريس ملك حلب زال عن بنى هلال العنا والكرب وطابت لهم الاوقات وحصلوا على الافراح والمسرات وكان لبدريس ولد حميد الخصال ممدوح من كثر الرجال اسمه جمال فلما قتل الملك بدريس وحصل ذلك الانكيس خرج الامير جمال فى جماعة من الأبطال ووقع حسن السيد لبنى هلال فأجابه الامير حسن ومال قلبه اليه وقد شفق عليه فأقامه ملكا مكان أبيه وأمر أهل المدينة أن تطيع أوامره وأقامت بنو هلال فى تلك الاطلال نحو عشرة أيام فى أكل وطعام وشرب مدام وسماع أصوات الانام وفى اليوم الحادى عشر تجهزت للرحيل والمفر قد دق طبل الرجوع تنبيها للعسكر وفى الحال هدت الخيام وركبت فرسان الصدام وسارت النساء والبنات فى الهوادج والعماريات وركب أيضاً الامير حسن وباقى السادات ورفعت على رؤوسهم الاعلام والرايات وجدوا فى قطع البرارى والفلوات كأنهم ليوث الغابات هذا وقد اشتد ظهورهم وزاد قدرهم وفخرهم بما شيدوا لهم من الشرف والمجد بعد رحلتهم من بلاد نجد وذلك باستظهارهم على الملوك العظام بقوة الحرب والصدام وما زالوا يقطعون الروابى والآكام مدة ستة أيام على التمام والكمال حتى وصلت إلى مدينة حماة فنزلوا على نهر العاصى ولم يعترضهم أحد لا دانى ولا قاصى لأن أهل البلد كان قد بلغهم ما جرى على أهل حلب من النكد فخافوا عواقب الأمر واثارة الفتن والشرور فاستقبلوهم الملك بالإكرام والوقار والاحترام وصار لهم من جملة الأعوان والأصحاب والخلان قال الراوى ومن الأمور الغريبة والحوادث العجيبة وهو أنه كان بمدينة حلب تاجر اسمه كساب وكان من أشهر الناس ومن أتباع صاحب جزيرة قبرص الملك الهراس قد حضر الى تلك المدينة وكان يتاجر البضائع فاتفق أنه لما قدمت بنو هلال إلى تلك الديار ونهبت أموال له جملة الأموال فشكى للأمير دياب وأعلمه بذلك المصاب وطلب رد أمواله التى كسبها بنو هلال فلم يستفد والا حصل على ما يريد فترك حلب ونجا بنفسه وهرب خوفاً من العطب وقصد الملك الهراس دون باقى الناس

فدخل عليه وشكا اليه وبكى بين يديه وأعلمه بالحالة وما فعلت بنو هلال به فاغتاظ الملك غيظا شديدا عليه من مزيد لانه كان يحب كساب فأوعده باحضار دياب وكان عنده ثلاثة من أصحاب حيل وخداع وكانوا من جملة حافظين المدينة فأحضرهم اليه وأعلمهم بواقعة الحال وقيد الاموال وطلب منهم أن يسيروا مع كساب ويأتوا بالامير دياب فقالوا سمعاً وطاعة وغيروا ثيابهم وساروا بالمواكب من تلك الساعة وصحبتهم هدايا وعند وصولهم إلى اللاذقية نزلوا فى المدينة وجعلوا يتجسسون أخبار بنى هلال وعلموا أنهم فى حماة الاطلال فعند ذلك ركبوا وساروا تحت جنح الظلام إلى أن وصلوا إلى البلد ولم يعرفهم أحد ودخلوا منزل دياب وصحبتهم الهدايا مثل سيف معقرب وخنجر كالفضة جوهر وأبريق فضة وثلاث مماليك يساوى الف دينار وغير ذلك من الاشياء الثمينة فلما وصلوا دخلوا على الامير دياب وسلموا عليه وقدموا الهدايا فترحب غاية الترحاب وسألهم عن حالهم فقال له كبيرهم إن سألت عنا يا أمير نحن تجار واخوة ثلاثة وجينا فى تجرة عظيمة وتركناها فى اللاذقية خفنا من الطريق وحذرنا كل صديق ومرادنا تعيدنا من هذا الطريق وعند ذلك شالوا ثلاث منح من الجواهر الثمينة التى تدهش الابصار وتحير الافكار التى ما شاف مثلها سالف الاعصار وقالوا له هذه الاولى إلى الامير حسن والثانية إلى الامير أبو زيد والثالثة إلى القاضى فقال دياب ومن هؤلاء الذين تقول عنهم وكأنهم من تحت يدى فقالوا نحن أتينا لعندك الذى تريده أعطيه والذى ما تريده لا نعطيه فقال لهم نحن ما ندرى لاحدكم لئلا يقوموا يلحقوا فقال كبيرهم نحن تجار ولا أحد يجلب متاجر مثلنا ومعنا مركب موثوق خلاف ما بعناه نحن كل سنة تلاقينا نبيع ونشترى ونكسب النصف فى بضاعتنا ولا نحمى طريقنا الا على حلب وكان اللعين بدريس يشترى منا ما يلزم من البضائع كل سنة وقد أتينا هذا المال على حسب عادتنا فلم نجده وقد وجدناكم ناصبين على حلب فسألنا بعض المسافرين فأخبرونا عليك بأنك قتلته وملكت بلاده ففرحنا وانسر قلبنا وانشرحنا بعقلنا أن ذلك الملعون أخذ منا عشرة آلاف دينار وهذا غير عشرة آلاف ثانية فقلنا من شدة فرحنا تقدم لك هذه البدلة حيث انك قتلت هذا الملعون الخبيث ونحن أتينا اليك مالنا ونوالنا الذى كان تحت يده فهو اليك وهذه البدلة منا هدية اليك ثم طلعوا ماله

هل اعجبتك فقال لهم نعم قالوا نحن ماجينا اليك إلا لأجل أن نهديك بها ففرح بهم فرحا شديدا ثم التفت إلى التاجر الثانى وسأله ما إسمك قال منذر ثم التفت إلى التاجر الثالث فسأله ما إسمك فأجابه نظرون العقيلى فقال لهم إن كان متاجركم تعوز مائة جمل أعطيها لكم لكن ان كان مرادكم أن أكون لكم حمى من المصريين واغفركم إلى أرض تونس الغرب ثم قال لهم قوموا بنا سيروا إلى المركب حتى أنظر متاجركم وأشوف الحمولة كم جمل تحتاج حتى أرسلهم لكم مع عبدى فدخلوا معه بالخداع. وقالوا تريد أن تشهر الناس ونحن نريد أن لا يطلع على سرنا إلا الله وأنت يا أبو موسى. لأن العرب متى رأوا متاجرنا يطمعون فينا ويغيروا علينا فيقع الخلل بيننا وبينهم وينشب القتال فنكون نحن السبب فى هذا الشر والنكد فلما سمع منهم هذا الكلام قال أنا أسير معكم وحدى وما آخذ معى أحد من أهلى وجندى حتى أنظر ما ذكرتموه لى فقالوا الامر على بركة الله تعالى فركبوا الثلاثة هجنهم وركب الامير دياب أيضاً وساروا خوفا من أن ينظرهم أحد لئلا تظهر حيلتهم وبينما هم سائرين وإذا بالامير عمار أخو الامير حسن التقى بهم فلم يعرف منهم سوى الأمير دياب فقال يا ابن غانم إلى أين ساير مع هؤلاء القوم فأجابه هؤلاء ضيوفى وموصلهم خوفا عليهم من سفهاء العرب فقال فريد أذهب معك فأجابه ارجع أنت فى حالك لا تتعب ذاتك وتسير معى فسار الامير عمار الى منزله وأما الأمير دياب فانه سار مع أصحابه من العشاء إلى ثانى يوم الظهر حتى أشرفوا على البحر المالح فسمع دياب صوت دوى الماء مثل الطبل فدخل عليه الوهم وقال فى باله الله أعلم أن هذا الثلاثة خائنين لأن عيونهم ملآنة بالغدر وهذه علامة الغدر فأراد أن يرجع من وقته ولا بد للمقدر من نفاذه ولما رآه الثلاثة قد تغير وفى سيره قد تأخر قال له أما تنزل معنا فى البحر فأجابهم إن نزولى معكم فى البحر ماهو ضرورى وإن كان كلامكم صدق أنزلوا وهاتوا ما قلتولى عليه وأنا ما عدت أخطى ولا خطوة واحدة ثم نزل عن الشهبا ومسك سرعه بيده اليسار والسيف بيده اليمين. ووقف ينتظر فتركوه ونزلوا إلى البحر حتى أتى إلى الغليون وجابوا له خيمة من الحرير الأصفر وتلك الخيمة مكللة بالدر والجوهر والياقوت والمرجان والزمرد الأخضر فلما رأى دياب تلك الخيمة وفرشها الذى يدهش تعجب غاية العجب وظن

أن كلامهم صحيح ودخل معهم إلى الخيمة ودخلوا يتحادثون وأتوا بالمأكل والمشرب وفى الحال جابوا السلاسل قيدوه ونزلوا إلى المركب ورفعوا المراسى ، وأقلعوا ولما قطعوا مسافة طويلة أعطوه ضد البنج ففاق فوجد حاله مقيداً بالسلاسل والتفت يميناً وشمالاً فلما نظر الجماعه كانوا فى ملابس بيض يلاقيهم فى برانيط سود فعرف أن الحيلة تمت عليه فتنهد وأنشد يقول :

يقول الزغبي دياب ابن غانم	بكيت على حالى وأنا مأسور
بكيت على جاهى وعزى وهيبتى	وأنا فوق يختى جالساً مسرور
ومن بعد عزى وارتفاعى وشمختى	بقيت مقيد بينكم مأسور
وختمونى لاعمر الله دياركم	وبعتون إنما نالنا وستور
يارب يا رحمن يا سامع الدعاء	يا من تسبح له شجر وطيور
بجاه أبو زيد الهلالى سلامة	يخلصنى من كل هلاك وضرور
ما قال الفتى الزغبي دياب الغانم	دعتنى الليالى والزمان غدور

فلما فرغ دياب من كلامه ندم على فعله ثم قالوا له لا بد من قتلك واتلاف مهجتك وما زالوا سائرين إلى أن وصلوا جزيرة قبرص وطلعوه مقيد وأدخلوه إلى عند الملك هراس وكان عنده جماعة من الناس ففرح الملك به الفرح العظيم وألقاه تحت العذاب والستر الآلام هذا ما كان من دياب وما جرى له من الأهوال والعذاب وأما ما كان من بنى هلال فانهم كانوا كما تقدم الخبر فى فرح ومسرات والهدايا تأتيهم من جميع الجهات فبينما هم فى بسط وانشراح إلا والخضرا قادمة مثل هبوب الرياح وهى كئيبة حزينة على فقد خيالها الأسد المهاب الزغبي دياب فأول ما نظرتها بنته وطفا طار الشرر من عينيها فصاحت وولولت فترا كض جميع الفرسان والأبطال على صاحبها وفى تلك الساعة صار ضجة عظيمة ما صار مثلها فى سالف الزمان هذا ما كان من هؤلاء وأما ما كان من الأمير حسن فانه قال لأبو زيد أن دياب صار له مدة ما حضر لعندنا وأظن أنه مغتاظ علينا لأننا ما خليناه ينهب حلب فقال له أبو زيد قم نزوره ونشوف أموره لأن دياب لو كان حصل له شىء ما كان طول علينا كل هذه الغيبة فمن ساعتهم ركبوا على ظهور خيولهم ومعهم القاضى بدير

ـعار واتمت منازل دياب سمعوا البكاء والنواح فى جميع الجهات ولما نظروهم الامارة
فقدم غانم أبو دياب وهو باكى العين زايد الانتحاب وأشار إلى الأمير أبو زيد
بهذه الأبيات يقول :

يقول الفتى غانم على ما جرى له ودمعى جرى فوق الخدود سكيب
دياب يا عينى ويا نور ناظرى سقاه الدنيا كأس المنون عصيب
تفرق شملى بعد ما كان مجتمعا غدرنى زمانى والزمان عجيب
أتانا ضيوف قاصدين بلادنا على ظهر خيل مثل ريح هبيب
فأضافهم ولدى وقام بجمعهم يرحب فيهم غاية الترحيب
فقالى يحدثنى يقول لى فما هم إلا من أهالى الصيب
أبو زيد قدامك أبو زيد غانم أبو زيد قدمك حزين كئيب
أبو زيد لك من المال جملة الفين سرية وألفين جنيب
تعرف سعوده والنحوس طالعه وعلى العرابة وكل فن غريب
وحقى عليك اليوم يا أبو غنيمر دخيل أتيتك من ضيف غريب
ما قال الفتى غانم على ما جرى له وما اليوم أصعب من فراق حبيب

فلما فرغ غانم من كلامه وسمع الحاضرين فحوى شعره ونظامه حزنوا على فقد
دياب واستعظموا ذلك المصاب ثم التفت الأمير حسن إلى أبو زيد وقال له حط
عندك الحكاية وما أحد يقصها غيرك فالتفت الأمير أبو زيد إلى عبده أبو القمصان وقال له

قال أبو زيد المسمى جميع الشورى لنا ردى
حسن وبدير وأبو الدكنا مفرج فى البعدى
حسن يا ناس شديد البأس فهو رأس وأنا سندى
أبو القمصان أسرع جريان إياك تهان على العبدى
هات الرملين مع الشكلين شرح الصدرين لنا هدى
لأجل دياب قلبى ذاب كما القصاب على الزندى

فلما فرغ أبو زيد من كلامه راح العبد وجاب الرمل وأعطاه إلى الأمير أبو زيد
فأخذه منه ورسم الأشكال فبان له أشكال النحوس وعلى دياب الفال معكوس وعرف

غريم دياب شاف الأمير أبو زيد هذا الحال بكى كل من كان حاضر فقال له حسن لماذا يا أبو زيد بكيت وبكيتنا معك فأخبرهم أن دياب فى قبرص عند الملك هراس وهو فى السجن يقاسى أنواع العذاب فلما سمعوا هذا الكلام صاح الجميع عن فرد لسان مالنا سواك يا شيبان لأنك مفرج الهم فقال لهم سمعا وطاعة وتجهز للسفر وأخذ عشرة فرسان من الفرسان الشهيرة وودع الامارة والسادات وركب ظهر الحصان وصار يقطع البرارى والفلوات وما زال سائرا حتى وصل قبرص بقلب مثل الحديد إلى أن وصل إلى باب المدينة رأى الهراس خارج بجماعة إلى الصيد والقنص فعرف أبو زيد أنه الملك فتقدم اليه بقلب أقوى من الصوان وسلم عليه بأفصح لسان وسحب المبخرة وحط بخور فعقد الدخان وقال له هذا البخور من دير الحيران وطلع ثلاث شمعات وقال له خذ هذه من دير البنات ودير الحمرة المباركات فقال الهراس وقعت يا أبو زيد وكيف خلصت وأنا مربط عليك الطرق فقال سلامة لا تقول هذا الكلام يا ملك الزمان أنا خدام الملك مثقال ولى ماتين عام سابع ما خليت دير ولا صومعة ولا مجلس وإنك الثالث على دياب وأسرته لأنه قتل بدريس فقال الهراس يا راهب أما دياب فقد مسكناه فى الحديد رمينا ولكن حياتى عليك أنت بعينيك مثقال فقال أبو زيد أى وحق الإله المتعال فعندما أخبروه والهراس كيف علق دياب فقال أبو زيد شاباش لك من هذه الحيلة التى تعجز عنها أعظم الرجال ثم أنهم دخلوا إلى الديوان وأمر أبو زيد بالجلوس فجلس للطعام فأكل ثم بدأ أبو زيد الملك حديثا ما سمع مثله فى طول عمره حتى ولا من العلماء والفلاسفة فسر منه جداً ونادى فى أكابر ديوانه بأن يكون أبو زيد الكبير فيهم جميعاً فتقدم كبير الرهبان كان حاضر ضرب الرمل فعرف أنه أبو زيد فقال الجميع هذا كبير ذا تغلب يكون اتغلبنا وكان يسمى أبو بوناس فتقدم لعند أبو زيد يقول :

قال الراهب أبو بوناس	اسمــــع قولى يا قاضى
أنا لك ضد بهزل وجد	وحق العهد وأبو شماس
دخلت المكر وبحر الفكر	وماء السكر وأم النـــاس
وما المكروم وما المخزوم	وما المنصوص بغصن الآس

وما البنتين طرن بملين ... وما الشخصين وما الرفاس
وما المحروم وما المطروف ... وما المعروف وما الجلاس
سؤالى جبت إن كنت لبيب ... بلا تعجيب وما ملاسى
ورد سلامه ياجلوس ... أنتم ملوك خيار الناسى
كونوا شهود على الراهب ... شهادة حق بغير أكاسى
وشوفوا السيد من الخادم ... وابن اللاس وابن الناسى
وأما المكروه وأما المحروم ... وما لقوا إبليس وخاسى
أما المفهوم جفاه القوم ... وإبليس يروم لجنفه نعاسى
أما البنتين فلهم بملين ... بيد شيخين رواى نحاسى
أما المقروف إبليس يطوف ... له شرشوف فتن الناس
وأما المحروف خليل الله ... أما الظروف الخضر العباس
أما الهرجوس لنا جاسوس ... حاسد وتعوق خفيف الرأس
أما الرادى نسيم الريح ... أما الكادى عقرب الكاس
أما الشاف دنى النفس ... من المسكر نسيم الكاس
فهى حواء خلقت كالبدر ... بوجه منير كالمقياس
آدم قام يريد ابنا ... اتاه الوحى بلا قرطاس
سلامة قال نزكى الخاطر ... شرحت سؤال أبو نواس

فلما فرغ سلامه من كلامه تعجبوا الحاضرين من فصاحة لسانه فما بقى عند الهراس أكبر منه وقال تمنى على ما تريد ياسلامة قال له أريد أن تريني دياب حتى أشفى قلبى منه بالعذاب فأمرهم بما قال فعند ذلك قاموا فى ساعته وأخذوه والشمع قدامه أشعلوه وساروا حتى وصلوا إلى السجن فأدخلوه ولما شاف دياب فى هذا البلاء والعذاب كل عن الصواب وتقدم إلى عنده ورفع يده وضربه كف طير الشرر من عينيه فتألم دياب وصاح الله يقطع يمينك فقال له وأنت الله يقطع عمرك من هذا السجن ثم أنه خرج من عنده وتوجه إلى عند الهراس وقال يا ملك الزمان هذا دياب ما بقى ينفع قال الهراس كيف يكون الرأى عندك فقال ياسيدى فكه من الحديد

وألبسه ثوب جديد وطلعه إلى القصر وأطعمه دجاج وخبز كان حتى يسمن ويعود ويصلح للعذاب فقال الهراس اطلعه فطلعوه وعمل ما فيه مثل ما قال الراهب سلامه وقال دياب من ساعة لساعة يصلحها رب الأرباب وأما أبو زيد لم ينزل إلى دياب الأكل على أتم المراد وكان مراد أبو زيد أن يرد دياب إلى عافيته لأنه قد اسلا من كثرة الجوع ولا عاد عنده القوة ولا حيل قال واستقام أبو زيد عند الهراس فلا يغلب عليه أحد من الناس فسمع راهب من الرهبان وكان يسمى مغلوب ابن توما فركب وأتى إلى عند الهراس فلما وصل إلى المدينة قامت الضجة وقالوا يا ملك أتى مغلوب بن توما فركب الهراس ولاقاه وسلم عليه فما رد سلامه قال له لماذا يا سيدى ما ترد سلامى قال كيف أرد سلامك وعدوك أبو زيد عندك وأتى إلى هذا الدالى لأجل خلاص دياب المغوار فقال الهراس أن لا آخذ أحد ظلم وعدوان فقال مغلوب هذا يتكلم بالسبع لغات ويصبغ حاله سبع صبغات لأنه غضبه من الغضبات وأنا مالى معه غرض ولكن غيرة وحمية وأخاف أن يقتلك ويخرب بلادك فقال له الهراس اذهب معى ياسيدى إلى الديوان شوفه فساروا إلى الديوان ولما دخلوا التفت الهراس إلى الراهب سلامه وقال له أنت أبو زيد صاحب المكر والكيد أتيت تفك دياب من البلاء والعذاب وحضر من يعرفك وجيت سحرتنا بمكرك فقال سلامه من الذى حضر يعرفنى فقال له مغلوب يعرفك وهو عالم بلادنا وخطيب ديارنا فما أتم كلامه الهراس إلا والراهب سلامه بكى بكاء شديد وقال يا ملك ما دام كل من أتى اليك تسمع كلامه أنا بقى لى عندك قعود وأشار يقول :

قال الراهب سلامه يا ملك اسمع كلامى وأنت قاها يدها السؤال
من عند مثال ثبت لعندكم وردت قبرص والسهول من الجبال
وجيت إلى عندك وأكرمتنى وأعطيتنى كل المواهب والأموال
وعلى الجميـــع قد رقيتنى وجعلتنى ملك أحكم بالرجال
إذ قال أكيد هذا أبو زيد الذى يحكمون من جبال إلى جبال
هابه وخابره وأنبت شاهده والحق ما يخفى عن أهل الكمال
أنا عـــالم معى ما تريد وتشتهى وعواذ شيحنى عن درس الجبال

وان كان ما يثبت ويطلع كاذب ··· من أين من أتى إليه أبو زيد الهلالى
وأنا ووائى ألف عايد سايحين ··· مأكولهم عشب الفلا ثم الزلال
وصايمين الدهر عن كل الخبز ··· ما يعرفون الخيول أيضاً والجمال

فلما فرغ من كلامه قال المراس تحقيق هذا فعل الشيطان قوم روح إلى عند مغلوب هذا وهما فى الكلام إلا والراهب داخل عليه قاموا له وسلم عليهم فردوا عليه ثم التفت إلى من حوله وقال هذا الراهب سلامة قالوا نعم قال لهم من أين يا راهب قال من بيت المقدس قال أول كذب وأنالى أربعين عاما فى بيت المقدس ما سمعت عن الراهب سلامة قال أبو زيد أنا مثل ما يدخل جدولا بأى عمار أنا كنت سايح فى رؤس الجبال قال له قطعت يدك يا محتال ولكن أقرالنا الإنجيل فقرأه فقال له أقرالنا المزامير فقرأه فقال السواعى وغيره والكتب فقرأها فى لسان مثل المبرد فتعجبوا الحاضرين منه غاية العجب قالوا مسلم لا يعرف يقرأ كل ذلك قال لهم مغلوب هذا يعرف السبع ألسن يقرأ فيهم واشاو يسأل ويقول :

قال مغلوب أين توم الموجعى ··· افهم كلامى يا سلامة وافهمى
قد جيت تأخذ بمكرك ··· وتروح إلى أهل وعنا تطلعى
إن كنت راهب فى مسائل ··· إن كنت شاطر لا تكون بمصبعى
اخبرنى كن شجرة طويلة فروعها ··· وبها عمار مثلثه ومربعى
واخبرنى عن شيخ مصلى دايما ··· مفطر ولا يدخل لمعبد يركعى
رد الجواب إن كنت عارف راهب ··· وإلا لتوبك والبرانس اقلعى
اليوم يا بو زيد لاوريك العجب ··· عن كل مسألة بها لا تسمعى
هذه مسائل ابن توما ردها ··· ارمى السبك ثم قوم واطلعى
رد الفتى الغريب المسمى سلامة ··· أصل من قدس الشريف موضعى
وأنت ترمى لنا مسائل مثل معجزة ··· عندك ولكن عندنا لا تسمعى
صبيا بالقدس قد بلغوا فيها ··· ومشهورين بين النساء يا مدعى
تقول عن شجرة كثيرة فروعها ··· آدم وحوا النيل منهم منزعى

تقول عن نور يضوء فوق الدجى   فوق الظلام والظلام يفرقعي
هذاك نور الصبح لما انقضى   بعد الظلام بسرعة يتفرقعي
تقول عن شيخ مصلى وصايم   مفطر لا يدخل لمعبد لا يركعي
هذا طير الليل دايما ساجد   صايم ياكل دود ما يترجعي
وتقول عن حرمه تصيح بصوتها   الحق تهواها واليها ترعي
هتيك دنيا تحول وتنقلب   وتميل مثل السائح . ما يتروعي
هذه رموزى قد صرحت فصولها   أخبرنى عن خمسة وستة وأربعة
خافوا من الصخر الأصم جميعهم   ما كان لهم نار تهب وتلمعي
وأخبرنى عن حرمة توقع بعلها   الفين مرة بفرد يوم وتكلمى
ونجوا أولادها ما يثوا صفوا   والشخص منهم القلوب يروعي
وأخبرنى عن أربع بنات بكر   من شافهم فوق الوطى يتضرعي
وقال لى عن نفر نفير ومنفر   والكبر والسكارين بيطاعي
وقال لى عن شلا وشل وشلة   والتحط والتاحوط والمترجعي
والزهل والزهول أين مكانهم   والسبط والنبطان والمترعزعي
رد الجواب إن كنت عارف   قام والا قم من قبالى واطلعي

فلما فرغ من كلامه تعجبت الناس من فصاحة لسانه وعامه وبيانه وأشار ... منطوبه
قال الملك علامك ما تردجوابه وقد أرميت عليه مسائل ردها فقال يا ملك أنا ما قلت
لك هذا نقمة من النقمات ولكن هذا أبو زيد اقتله وإن أردت أبقيه فقال له الهراس
كيف تكون يا راهب سلامة فقال يا ملك الليلة مسى المساء ولكن أبقيها إلى الغد
وأنا الليلة اختلى فى ذاتى مع سادتى الذين ربونى من صغر سنى وما أظن أنهم
ينسونى ومن هذا المشكل يخلصونى غدا أخبرك وانفض الديوان وتوجه أبو زيد
واختلى بنفسه ثم احضر دهن السندل ودهن به جسمه وإذا لمس النار ما تؤذيه
وبات إلى الصباح وطلع الهراس والتف عليه الناس قال الهراس كيف رأيت
يا سلامة فبكى أبو زيد وقال وحق العمامة آتانى أربعين عابد وكل واحد طوله
أربعة رجال وعمرهم ما تركوا الصلاة وهم فى أقطار الأرض طايرين ينظرونى

فقال الساكين حكيت لهم عن مغلوب خلفوا أنهم لا بد أن يحرقوه وحكيت لهم فقالك باركوا الك فى طول عمرك وكل واحد أوهبك من عار عام تمام فقال له الهراس جزاك الله عنا كل خير لانه زاد فى عمرى أربعين عام هذا فى اليقظة أو فى المنام وكيف قالوا الك أن تفعل فان قالوا لى خلى الملك يوقد النار فى الفرن وداخل الفرن أنت ومغلوب والذى يكون غلطان نحرقه بالنار قال الملك ماذا تقول يامغلوب قال يدخل النار قبلى هذا الشيطان المكار قال سلامه نعم أدخل قبله وأمر أن يوقد الفرن فأوقدوه حتى صار جمراً أحمر ودخل أبو زيد الفرن من بعد ما تلا اسم الله الأعظم فعادت النار باردة باذن الله سبحانه وتعالى العزيز الجبار فنزل الهراس بعد ساعة وجده جالس كأنه فى روضة خضرة فقالوا ادخلوا امغلوب فقدموه وصرخ صوت من صميم فؤاده فديده أبو زيد وساقه حتى نشره حتى صار داخل الفرن فاحترق وقضى نحبه أما أبو زيد طلع سالم فصار الموجودين يتباركون به وأما الهراس فإنه استعقد فيه العبادة وصارت تهيله النذورة باكر وعند الغياب تخيلهم حتى تقتلهم شوية فجمعوا الأسارى من جميع البلاد وإذا هم اثنى عشر الف أسير فوضعوهم فى مكان حصين وفى الليل قام أبو زيد وأخذ شمعة ودخل على دياب يلاقيه فى هم شديد ولكن فيهم واحد أطول من الكل اسمه عمر وكان من بلاد الشام فلما شاف سلامة قال آه ياملعون على ما أكون مطلوق السواعد فقال له سلامة ماذا يطلع بيدك ثم تقدم اليه وأطلقه وقال له دونك وعا أنت طالب ها أنا أمامك فاستعد وانطبق على أبو زيد فالتقاه كالأسد ومد يده من وسطه ودفعه على رأسه وخبطه بالأرض قام يدخل طول بالعرض وقال كيف رأيت نفسك ثم عفى عنه فلما فرغ أبو زيد فرح دياب فرحاً شديداً ما عليه من مزيد والأسرى دعوا اليه بالتوفيق ثم أخذهم إلى الزدخانة فأخذوا منها ما يحتاجون ثم أن أبو زيد أرسل عمر مع الفين من الشباب وربطوا الطريق والأبواب وفرق الباقى فى جميع أنحاء البلد وأخذ معه دياب وألف فارس وسار نحو السرايا ودق الباب فطلع له الحارس فقال أبو زيد أنا الراهب سلامة ففتح ودخل الأمير أبو زيد وضربه بالسيف قطعه نصفين ودخل على الهراس مع رفقاه فوجده نايم على فراشه فرفسه برجله ففاق وفتح عيونه يرى الموت الأحمر فوق رأسه فقال من

أنتم ياقوم أبو زيد أنا الراهب سلامة أسمع أبو زيد قال الراوى فما أتم كلامه إلا وأشهر دياب حسامه وضربه على هامه رمى رأسه قدامه وأخذ أنفاسه ثم تفرقوا فى الأسواق والأزقة وحملوا السيف بمن لم يطاق حتى قتلوا اثنى عشر ألفاً وباقى الناس طلبوا الأمان ووضعوا المحارم فى رقابهم فعفوا عنهم وطلع منادى ينادى فى الأمان وجلس أبو زيد فى الديوان وأتى عنده الأكابر والأعيان بين أبو زيد ونوفل إشارة وكانت مراكبه دائماً فى البحر فرفع أبو زيد الإشارة حالا تقدم نوفل بمركبه نحو الشط وصعد إلى البر فذهب أبو زيد ودياب لاقوه وسلموا عليه ورجعوا به إلى الديوان والتفت أبو زيد إلى الحاضرين من أعيان البلدة وقال لهم قد وليت نوفل حاكم عليكم ولا أحد منكم يخالف له أمر فلما فرغ أبو زيد من كلامه شكره على مقاله ودخلوا إلى دار الهراس وجدوا المال الذى فيها لا يعد ولا يحصى فأخذوه ووثقوه فى المراكب وودعوا نوفل وسافروا بعد ثلاثة أيام ووصلوا إلى دير اللاذقية فأرسل أبو زيد من يبشر الأمير حسن وبنى هلال بقدومهم فقامت عندهم الفرحات وعلت الصيحات وزغرطت النساء والبنات ودقت النوبات وركبت الأربع كرات والأمارة والسادات وساروا حتى وصلوا لعندهم فلما وقعت العين ترجل الفريقين وسلموا على بعضهم البعض سلام الأحباب وهنوهم بالسلامة ثم حملوا الأحمال وساروا وأما الأسارى ماشيين فى عراضة قدام الأمير أبو زيد إلى أن وصلوا إلى الخيام فقابلتهم النساء والبنات بالزغاريط والنوبات وهنوا الأمير دياب بخلاصه من الأسر والاعتقال وشكروا الأمير أبو زيد على حميد أفعاله والخصال وصرفوا ذلك النهار بالفرح والسرور والغبطة والحبور وعمل الأمير حسن فى اليوم الثانى وليمة عظيمة لها قدر وقيمة وما زالوا على تلك الحال وهم فى أرغد عيش وأنعم بال مدة عشرة أيام وبعد ذلك صمموا على الارتحال من تلك الاطلال فهدت الخيام ونشرت الرايات والأعلام وركبت السادات ظهور الخيول واعتقلوا بالرماح والنصول وركبت النساء والبنات فى الهوادج والعماريات وجدوا فى قطع البرارى والفلوات طالبين أرض عيام حتى وصلوا اليها بعد أيام فنصبوا المضارب والخيام ورفعوا الأعلام .

قال الراوى لما رجعوا بنو هلال من قبرص واجتازوا فى طريقهم مارين التفت

حسن بن سرحان إلى الامارة والفرسان وقال لهم يا قوم مرادنا هذا اليوم أن نذهب.
إلى الصيد والقنص وانتهاب اللهو والفرص فماذا أنتم قائلون فقالوا له نحن لك مطيعين
ثم فى ساعة الحال نهض الامير دياب وبدير وساروا مع حسن يجدون السير ويسابقون.
بمسيرهم الطير ومازالوا سائرين من مكان وهم يطاردون الأرانب والغزلان حتى.
وصلوا إلى أرض يقال لها قلعة سوا كن فبينما هم على هذا الحال وإذ لاقاهم رجل.
عطار ذو هيبة ووقار قدامه حمار واضع عليه العطارة فلما أقبلوا سلموا عليه فارد
عليهم السلام بل انه قال لهم وقعتم يا أوباش لابد ما أقتلكم وأريح الدنيا منكم ثم
تقدم إلى حسن وقال له ويلك إلى أين سائر فى هذه الاطلال أنت ودياب وبدير
أبناء الكلاب والله لاعذبكم أليم العذاب (قال الراوى) فلما فرغ أبو بشارة العطار.
من كلامه والإمارة يسمعون كلامه قال حسن اسمعت قطع الله لسانك فعند
ذلك صاح القاضى بدير وارتمى على ابو بشارة وأراد أن يفتك به فصاح به أحمد بالقدرة.
فما أتم كلامه حتى ارتخت أعضائه وكذلك حسن صار فيه قتاله فلما نظر دياب هذه
الأحوال حمل منه وصاح فيه اليوم يومك يا ابن اللئام ثم أنه قوم الرمح السام
وقال له خذها من دياب الأسد الريبال فاراد أن يطعنه فما نظر نفسه إلا مكتف
مكشوف الرأس بلا لباس حافى القدم فعند ذلك صاح فيهم ومشى أمامهم فتبعوه.
مثل الغنم وكل منهم صار فى حالة العدم

قال ومازال سائر فيهم حتى وصل إلى قلعة سيوون فاحضرهم قدامه وأراد.
يسقيهم كاس المنون فأدخلهم إلى السجن ووضع لهم الحديد والأغلال وقال لهم
ما بقى لكم خلاص من ضيق الاقفاص قال الراوى هذا ما كان من أمر هؤلاء وأما
ما كان من أمر أبو زيد فإنه كان غائب فى الصيد والقنص فلما رجع إلى الاطلال.
ما وجد حسن والابطال فسأل عنهم بعض الرجال فقالوا ساروا على الصيد والقنص
ولهم غائبين فى تلك البرارى والايام وهذا ما نعلمه يا ابن الكرام .

قال الراوى فبينما هم فى الكلام وإذا بالذين كانوا مع الامارة شاردين فى تلك الايام
فسألهم أبو زيد عن حسن الامارة فاعلموه بهذه الاشارة فلما سمع أبو زيد هذا.
الكلام غاب عن الصواب وصار فى حساب وأمور صعاب وسفر ساعة من الزمان

ثم التفت الى الامراء والفرسان وقال لهم كيف يكون عندكم الرأى فقالوا له الرأى رأيك ونحن ما عندنا رأى فقامت نساء هلال بالصياح والبكاء والنواح من كل جانب وباتوا فى هم وغم شديد ما عليه من مزيد (قال الراوى) ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح واجتمعت بنو هلال عند أبو زيد وقالت ما هذا المصاب وما يكون من الجواب قال لهم قوموا بنا فى ساعة الحال ندور عليهم فى البرارى ونفحص عن هذه الأحوال فبينما هم كذلك وإذا برجل صابر فى تلك الدكادك فساروا اليه فسلموا عليه فرد عليهم السلام بكل أدب واحتشام فقال له أبو زيد يا أبا العرب وصاحب الفضل والادب أنت من أين والى أين قاصد فقال له يا أمير أنا كنت فى صهيون وسائر الى بغداد وتلك العيون فقال ما عندك من الأخبار فقال اعلم بينما كنت أمس سائر فى تلك الناحية إذ وجدت أبو بشارة العطار ومعه ثلاثة أمارة وخيارهم من بنى هلال ولكن واقعين فى أوشم الاضرار وأخذهم الى قلعة صهيون ووضعهم فى الحديد والاغلال وهذا ما عندى من الأخبار وإذا كنتم ذاهبين الى خلاصهم ارجعوا واستجيروا بالله لئلا يصير فيكم مثلهم لأنه ما يقدر أن يصل اليهم فقال له أبو زيد من أى شيء فقال له من أبو بشارة لأنه سحار مكار لا يطاق له بنار ولكن أنتم من أى بلاد فقال له من بلاد الحسار والقطيف فلما سمع الساعى كلامهم تركهم وسار الى حال سبيله واما أبو زيد فانه قال لفرسانه والابطال ما يكون عندكم من الرأى والارشاد فقالوا الرأى عندك يا ابن الأمجاد فقال لهم أرجعوا الى الاطلال وأنا وزيدان نكفى لهذه الأحوال فعندها رجعت العرب وأما أبو زيد ساروا فى تلك البرارى والقفار طالبين قلعة صهيون وفى تلك الأوطان إذ نظروا أبو بشارة العطار يدور فى تلك البرارى وسابق قدامه الحمار فلما نظرهم وقف حتى وصلوا اليه وصاروا بين يديه فصاح فيهم وقال لهم ويلكم أيها الانذال وقعتم فى أوشم الاحوال وقعت يا أبو زيد انت وزيدان وتظنوا أن مكركم يدخل على والله يا أبو زيد لا بد اقتلك وأريح الناس منك فقال له من عرفك بينا حتى تعادينا فقال عارفكم من وقت ما خرجتم من أوطانكم قال الراوى فلما فرغ ابو بشارة من كلامه والامير يسمع نظامه اغتاظ غيظاً شديداً وقال له سد فك لعن الله أبوك وأمك وما أنت الا ملعون يا بايع الفلفل

والسكون وروح وبيع عطارتك على النسوان ولا تعارض الفرسان وأشار يهدده

يقول أبو زيد محسا ياردى انا ابو زيد حاوى جميع الاشناف
لا بد ما اقتلك واقتل الى حنا لوكان عندى ثلاثين ألف سياف
أنا أبو زيد وكل الناس تشهدلى قوم صميدع من نسل الاشراف

قال الراوى فلما فرغ أبو زيد من كلامه وابو بشارة يسمع نظامه غضب غضبا شديدا ما عليه من مزيد وأراد ابو التنكيد فعندها سحب زيدان حسامه وغار عليه يريد إعدامه فلما نظر حاله الا وهو مكشوف ورأسه مكشوف ووقف أمامه بلا شاش ودموعه رشاش فلما نظر أبو زيد ماصار فى زيدان خرج عن دائرة الاعتدال وزاد به الجنو والخبال وماهان عليه فى تلك الاسباب بل سحب سيفه وهجم عليه هجمة الأسد الريبال قال له ويلك يا ابن الانذال دع عنك هذه الأحوال فاما نظر أبو بشارة من أبو زيد تلك الفعال خاف من الوبال فقبض كبشة من التراب وعزم عليها ثم حدفها على أبو زيد وإذا برجليه قد لبست فى الأرض وكذلك يده يابسات ومرفوعات الى فوق رأسه فعدم حواسه ثم انه أبو بشارة زعق فى أبو زيد بصوت هائل كأنه الرعد الصايل ورفعه فى يده ماشاف نفسه إلا وهو طائر ما بين الأرض والسماء وأما زيدان جره ذلك الملعون ووضعه فى حصن صهيون ماعون ما لها إلا الله وأشار يقول:

يقول الفتى زيدان بن غانم ونيران قلبى زايدات انفاح
أنا كنت أبو زيد فى البر ساير تدور عليكم فى مسا وصباح
فلاقانا العطار السكهين فى طريقنا أتاريه سحار مكار يا صاح
فصاح عليه الأمير سلامة وقال له من هنا عاد الك نها راح
وأبو زيد ما نظرته اين غدا يا حسرتى ما اعلم لاى أرض راح

(قال الراوى) فلما فرغ زيدان من كلامه والامارة تستمع شعره ونظامه فقالوا مليح هذا ملعون يجينا واحد بعد واحد فى حساب وأمور صعاب هذا ما كان منهم وأما ما كان من أبو زيد فانه ماوعى على ذاته إلا بين هلال يبكى وينعى أهله والأعمال ويضرب بيداه اليمين والشمال فلما رأته بنو هلال بهذا الحال فأمر عليه الصياح من كل جانب قالوا يا ناس أبو زيد جن الآن يبكى وبان ثم أنهم تقدموا اليه وغاروا

عليه وقبضوه وحطوا القيد فى رجليه وبقى فى هذا الحال مدة ثلاثة أيام مع لياليها لا يعرف ذاته فى أى مكان اجتمعوا عليه الفرسان وصاروا يواسوه بالكلام فعند ذلك صحى من الأوهام فقالت أكابر بنى هلال إلى متى هذا الحال يا أبوزيد ومن الذى عامل فيك هذا فقال لهم أين أنا وأنتم ماتكونوا فقالوا نحن أهلك واحبابك بنى هلال فعند ذلك صحى مليح وعرف من عنده وصبح وأشار يعلم بهذا القصيد يقول :

قال أبو زيد الهلالى سلامة	ونيران قلبى زايدات ضروم
يا آل عامر يا أجواد اسمعوا لى	فيما جرى لى يا ناس فى هذا اليوم
على أنا والفتى زيدان قدامى	فى فرد ساعة دهانا يا قوم
وقال لى أنت غدار تغدر بى	اسمك سلامة ودير على القوم
فصحت فى زيدان أقطع رأسه	ادعى هذا الكلب وسط الدم يعوم
فصاح يا ناس بزيدان أولاده	مربوط فى شاشه بقى محروم
لما نظرت أنا يا هلال فعاله	بقيت بحال الذل شبه البوم
صرخ على وبيده أو ما يجرى	ما عاد لى حيل حتى أقوم
وجدت نفسى بين العرب واقف	صاحى كأنى يا ناس فى نوم
عمرى ما زلت بالنـــاس مثله	أبو بشارة دهانى أنا يا قوم
يا هلال ماذا العمل وإش قولوا	أرواحنا فى سبيل الله تروم

(قال الراوى) فلما فرغ أبو زيد من كلامه وبنو هلال يسمعون نظامه وإذا بالأمير غانم أبو دياب مقبل عليهم فدخل وسلم فردوا عليه السلام وقاموا له على الأقدام فنظر بينهم فلما رأى أولاده غايبين زاد همه وغمه وقال يا أمير أبو زيد أين أولادى وثمرة فؤادى فأخبره بما جرى وصار فلما سمع هذه الأخبار طار من عينيه الشرار وصاح صوتاً من صميم فؤاده ووقع مغشياً عليه وغط على قلبه ساعة من الزمان فاستيقظ وعاد يصيح أين دياب وأين زيدان فارس الفرسان وأشار يقول :

يقول الفتى غانم على ما أصابه	ونيران قلبى زايدات شعال
أنت الأمير أبو زيد سلامة	رأيت عمرك قط ما تنظر هوال

أين زيدان المسمى مع دياب مرعب الفرسان فى هوق المجال
أنت أبو تكنا بدير القدير قاضى هلال ما مثله مثال
أوبع فرسان فى يوم الحرب مال فيهم الدهر يا أمير مال
أتوك جميع هلال يا أمير الملا يا فارس الفرسان يا مفضال
وكلهم منك يريدون الفرج يا أبو شيبان فارس هلال
انهم ما يوم جابوا لك قديم تاجر فيهن ترى من الاصال
أخذت لأولادى سرعة بلا بطا أبو بشارة كتفهم بأربع حبال
وانت قد وليت أتيت لنحونا ما نظرنا منك قط هذه الفعال
يا القلم يا أبو ما حد يسقيك غير سعدا التى عنها يقال

(قال الراوى) فلما انتهى من كلامه والأمير أبو زيد يسمع نظامه صاحت بنو هلال صيحة عظيمة تقلق الجبال وقالوا يا ابو زيد إلى متى هذا الحال وانت قاعد يا مفضال قم وسر بلا امهال وانظر أحوال الأمارد والأبطال ونحن نعرفك ما نترك ملوك هلال قوم يا أبو زيد وسير أنت وأعوانك بدل فعايلك فقال لهم يا قوم هذا أبو بشارة كهين من الكهان وما يقدر عليه لا من أنس ولا من جان ولكن استعنت عليه بالله وتوكلت على الله الواحد الديان الذى لا يشغله شأن عن شأن يا بنات وكونوا بأعظم المسرات وإن شاء الله ما أموت إلا وأنا خالص السادات من الأسر والشدات فبكوا الجميع بكاء شديد ما عليه من مزيد وقال له يا أبو زيد لا تسير نخاف عليك من التعبير بما يصير فيك مثلهم فقال لهم أبو زيد ما يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا ثم أنه قام من ساعته وقلع ما كان عليه من الثياب ولبس فى صفة دزويش وأخذ فى يده عكاز وأبريق وكولك وصار يقطع البرارى والقفار والسهول والأوعار وما زال سائر حتى أتى إلى ضيعة من حكم تلك البلاد فبينما ينظر فى تلك الوادى وإذا به سمع صوت أبو بشارة ابن الأوغاد وهو ينادى على العطار يا غندور فقال أبو زيد الله يخفى لك هذا الصوت يا ستار استرنى من هذا الجبار ثم أنه دخل خرابة فى ذلك المكان واختفى فيها خوفاً من ذلك الملعون ابن الأندال الدان طلع أبو بشارة من تلك الضيعة فكان أبو زيد مشاهد اليه ثم أنه خرج من تلك

الخرابة ولحقه من خلف إلى خلف حتى يقتله فلما قرب اليه التفت أبو بشارة ونظر تابعه اوقف وقال أين بقيت تروح يا نذل العرب وأنا وراءك فى الطلب تحسب إنى ماشايفك أنت الذى تخبيت فى الخرابة ثم قال له تعالى قدم إلى عندى حتى أوريك نفسى يا كلب يا مكار يا مخرب الديار فلما سمع أبو زيد هذا الكلام أراد أن يهرب فى الآكام وإذا رجليه يابسات ولاصقات فى الارض فقال له العطار موت كمداً ولا يدار فيك أحد فسار وتركه فعند ذلك رفع أبو زيد رأسه إلى قبلة الدعاء وباسط الارض على وجه الماء وقال إلهى وعزى وجاهى ومولاى ورجاى نجاة كل الانبياء والمرسلين انك تغيثنى من هذا اللعين بجاه سيدنا الخضر عليه السلام منجى الأيتام ومغيث كل من دعاه فما أتم كلامه إلا وقائل يقول لاتخاف يا أبو زيد ولاعليك من باس قيل شيخك الخضر أبو العباس عليه السلام فعند ذلك انطلق أبو زيد من مكانه وسار قليلا إذا أبو بشارة العطار مقبل عليه وقال له من فكك يا غدار يا مكار فقال له يا عطار أنا عمرى ما تدخلت على أحد يا مغوار فارجو يا فتى أن تخبرنى وتطلقنى من وثاقى وأنت سير واقتل المحابيس الذى عندك وأنا بدمهم قد سامحتك فقال له إذا طلقتك وسرت إلى عند المحابيس قتلتهم ما أكون عملت أكون قطعت ذنب الحية وأبقيت رأسها ولكن أنا لا بدلى عن قتلك يا ابن الأنذال وقتل محابيسك أمارة بنى هلال فلما سمع أبو زيد هذا الكلام صار الضيا فى وجهه ظلام وأشار يقول وعمر السامعين يطول :

يقول أبو زيد الهلالى سلامة	ونيران قلبه زايدات شعال
سألتك يا رحمن يا سامع الدعا	بجاه من على الجبال قد جال
أبو بشارة ما تخاف الله يا كاهن	يا حيف رايحـــين أبطال
لوكنت ماسور وكان الأسر أهون لى	وكنت أشوف الرفاقى ورجال
إلهى بحق الكرام وكعبه	وبجاه الأنبياء وكل مفضال
بانك تجيرنى من الكهين الساحر	أبو بشارة الساحر المحتال
مقالات أبو زيد الهلالى سلامة	ونيران قلبى زايدات شعال

(قال الراوى) فلما فرغ أبو زيد من كلامه والحق متجلى على دعائه استجاب ندائه

فأراد أبو بشارة أن يسير إلا وصوت أرعد له الجبال يقول الحقوا أبو زيد فضالة
وأسقيه كاس الوبال أو استدرك أبو الخضر العباس ما علمك منى يا أبو زيد من بأس
فلما سمع أبو زيد هذا الكلام ظن أنه فى المنام فعندها انطبق أبو زيد ولحق أبو بشارة
فى تلك البيد ولما قربه صاح عليه وقال له أين عدت تسير يا ابن اللئام اليوم أسقيك كاس
الحمام وما عادلك خلاص من ضيق الانفاس فأراد أبو بشارة أن يلتفت اليه ويهجم عليه
وإذا بكف على وجهه عقد لسانه وجمدت عيونه ما بقى له كلام فزاد به الاوهام فسحب
أبو زيد النمشة من العكاز وطسه على هامه حط رأسه قدامه فوقع قتيل فى دمه جديل ولما قتل
ذالك المحتال حمد الله المتعال الذى خلصه من هذه الاحوال وقرأ الفاتحة وهداها إلى الخضر
أبو العباس الذى خلصه من الاوجاس ثم أنه أخذ حماره ونزل عنه بضاعته ففردها
ونظر ما فيها وبعد ذلك حزمها ووضعها على الحمار وبقى فى ذاته محتار ثم أنه شلح ما كان
عليه من الثياب بدون انياب وتزيا بزى أبو بشارة العطار وساق قدامه الحمار وقال له
الله يحرق عظام صاحبك ابن الاوغاد وسار فى تلك البرارى والاوهاد وسار على قلعة
صهيون وصاح أنا الحنون ساقى الضد كاس المنون ومعى فلفل وكمون وحنه وأساور
وابر وحلق ودهان وأحمر وسبيداك وخطوط أرخص لكم البضائع فى هذه السفرة
يا بنات فتكاثرت عليه النساء من كل مكان فصار يكبش ويعطى لهم بلاش من غير
دنانير ويقول لهم هل من سفرة كسبنا شىء كثير فعادوا يدعوا به بكل شفة لسان
فتركهم وسار فى تلك البرارى والكسبان ولم يزل أبو زيدساير حتى وصل الى قلعة
صهيون وتلك المعالم فانظر الى واحد فنزل له واثب على الاقدام والتقاه بالترحيب
والإكرام وأجلسه بجانبه على مراتبه وأمر له بالخمر والشراب فقال أبو زيد فى سره أنا عمرى
ما شربته وكيف أشرب الآن وعاد بامره محتار من هذا الضرر فقال له صاحب القلعة
وكان اسمه حنا علامك يا بشارة ما تشرب وتضرب فقال له أبو زيد ما لى حاجة حيث
حلفت عنه يمين جمعة كاملة إننى لا أذوقه لأنه من خاطرى قتل هؤلاء الاسارى
وأسقيهم كأس الذل والخساء فقال له ونحن عندنا ننظرك حتى أنك تحضر وتفعل
فيهم مرادك فقال لهم أبو زيد لاجل أن أسقيه كاس الهوان فلما أحضروه ونظر اليه

وصاح عليه ويلك يا ابن الانذال أين رفقتك والأبطال قال له في السجن يامفضال. فقال ياجان أنا أسألك عن أبوزيد أين هو الآن فقال له أبشر باكر يجيك ويدهك فقيد فقال له لاتخشى أنت وإياه لازم قتلك أنت وأبوزيد وحسن ودياب آخذ منكم الثأر واكشف عنى العار وأشار يقول :

أبو بشارة قال يا زيدان	وحيات راسى لأجعلك قربان
لأعمالك شهرة فى كل الملا	وحيات دينى يافتى زيدان
اليوم يازيدان تبقى عادم	من يد أبو بشارة الفارس العرمان
واقتل حسن أنا بعدك	وقتل دياب الفارس الخوان
وقتل بدير بن فايد يا فتى	وقتل أبو زيد على الوطا يتهان
ياقوم هاتوا الحطب ثم اضرموا	كبريت ابيض حطوه عالنيران
وهات الريس والكواهن كلها	وهات يعوب وأبو سلمان
وكل من يأخذ شقفة منهم	يوصل خبرهم الى جبل سمعان
وآخذ لثار بدريس الفتى	وثأر دايق ثم ثأر اخوانى
زيدان لاشقى فؤاد منكم	ان اقيت فارس قرم هنا التقانى

(قال الراوى) فلما فرغ من كلامه وزيدان يسمع شعره ونظامه قال لزيدان يا أبو بشارة لاتخوفنى بقولك ولاهى المراجل فى السحر لمعاجلى على ظهور الخيول هات جواد وعدة جلاد وادعى قومك كلهم يلاقونى فى الميدان يا كلب ياجبان وأشار يقول وعمر السامعين يطول :

قال الفتى المسمى زيدان	أبو بشارة ما أنا فزعان
إن كنت تقتلنى فهذا يومى	هذا الذى مقدره الرحمان
لأن عمرى يافتى ماهو بيدك	العمر من الواحد المنان
إن كان نجانى إلهى منكم	لالعن أبوك من قديم الزمان
وحيات رأسى ان طلعت للفلا	وركبت لفرسى وعود الزمان
أبو بشارة كيف تأمر بحرقنا	وتقول قوموا اضرموا النيران
النار تحرق يالعين فؤادك	ماتحرق الإسلام ياخوان

يا أبو بشارة يالمين تأدب ‏ ‏ ‏ يا ندل يا سحار يا شيطان

قوم وانظر فى المرايا وجهك ‏ ‏ ‏ وما كانك الا من فرخ الجان

قال الفتى زيدان من وسط الحشا ‏ ‏ ‏ كلامى صدق ما به بهتان

(قال الراوى) فلما فرغ زيدان من كلامه وأبو بشارة يسمع نظامه قال له ياندل دياب قتل ابن عمى أنت وأبو زيد قتلته وعلى الأرض جندلته قال زيدان تقول أنك عارف شاطر وتعلم السحر ما هو أتاريك كذاب وما لك علم فى هذه الأسباب فقال له كيف ما أعرف ذلك وأنا مالى وقائع ومها لك قال له زيدان كل الذين قتلوا ما قتلهم غير دياب ابن الانجاب وأما أنا وأبو زيد ما قتلنا أحد فقال أبو بشارة هاتوا دياب ومن معه حتى ننظر هذا الارتياب فأجابوه بما قال وساروا فى الحال واحضروا دياب وبقية الأبطال فحينئذ التفت أبو زيد إلى دياب وقال له من قتل أولاد عمى واسقاهم كأس العذاب فإن زيدان يقول أنت قتلتهم صحيح هذا الكلام إفيدنى بالجواب قبل أن أعلى رأسك بهذا الحسام فأجابه اعلم يا أبو بشاره أن المكتوب يقرأ من عنوانه انظر إلى كلام زيدان أنت تحاكيه بالدرهم وهو يحاوبك بالقنطار هذا كلامه فى هذه الأمصار وما ذا يكون فى البرارى والقفار والله ما نجس إلا أبو زيد الغار العنيد وهؤلاء الذين عليهم الكلام يا فريد فقال أبو بشارة والله ما فيكم واحد مقصر وكلكم أنجس من بعضكم البعض أنت مثل الحية تلسع وتحنى رأسها وأشار يقول:

أبو بشارة قال أبيات مرتبة ‏ ‏ ‏ أبيات موزونة على البيكار

لا تأمن من الدهر عمرك ساعة ‏ ‏ ‏ الدهر دولابه حقيق دمار

دياب قتلت العزاز فى سيفك حتى ‏ ‏ ‏ الحزاعى دعيته على الوطا عثار

وحياة دينى لأجعل قتلكم عبرة ‏ ‏ ‏ يوصل خبرها إلى بلاد شنجار

وأقتل أمارتكم كل رجال ‏ ‏ ‏ ميتين كرباج كل واحد دار

(قال الراوى) فلما فرغ دياب من كلامه وقوما تسمع نظامه ودعواله بالنصر والظفر قال أرمؤادياب فجا بوه وطرحوه فأخذ العصا بيده وقام ليضربه فقال له زيدان مكن يدك يا أبو بشارة ريت عمرك ما تشوف خسارة من بعد ذلك العذاب القيه فى النار فقال دياب ويلك يا زيدان كيف يهون عليك هذا المرام يا خفيف يكون أبوك غانم

وأخوك دياب فقال أبو بشارة إلى زيدان ماذا يكون منك هذا هل هو فأجابه نعم. من فرد أم وأب ولكن قوم اقتله وادعى من الدنيا مرتحله لأنه هو الذى قتل رجالك وألقانا بين يديك ظلم فقال دياب والله يا أبو بشارة صاحب الطان غلب صاحب الإحسان والله ما يستاهل القتل غير زيدان لأنهم قتلوا أولادعمك وهذا زيدان بربابة ذلك الشيطان فقال أبو بشارة حنا انك ترعايه ولا بد مايمدمك .

قال الأمير حنا يا بشارة قوم اقتل هؤلاء الأسارى فقال له طول بالك يا ملك ولا تعرف قتلهم الا متى ولكن لا تقتلهم حتى أجيب أبو زيد وأذبحهم سوا وأنت كون فى صفاك فلما سمع حنا كلامه سكن روعه وجلس موضعه وقال افعل مرادك بلغك الله آمالك عندها التفت أبو زيد إلى القاضى وقال له أنت قاضى العرب قال نعم قال أنت قلت إلى قومك أن يقتلوا عباد النار ذات الشرار حتى قتلوا إلى أمارتنا وفرساننا فقال له قتلهم حلال قال فى كل المذاهب لأنه ليس يعبد إلا الله سبحانه وتعالى فقال له مرادى أن أرعى عليك مسائل فقال القاضى اسأل ماشئت فقال أخبرنى عن شجرة وفى كل غصن ثلاثين ورقة وفى كل ورقة خمس ثمرات من الثنين اثنين بيض والاثنة سود فقال له القاضى هذه السنة والأشهر والأيام والصلوات الخمس فقال له اخبرنى مسيرة كم يوم فقال له خمسمائة عام قال زيدان بقى عليك أن تسأل دياب وأن ماعرف يجاوبك قطع رأسه واخمد أنفاسه فقال دياب ويلك يا زيدان أما أنا أخوك لاشك أنك ابن لئام وأنت تربا أبو زيد الهمام قتلتم بدريس وعزاها فإن قتلوكم يكونوا اخذوا ثارهم منكم وأشار يقول :

دياب غنى قصيداً من ضمايره ودمع العين عالخدين طوفان
يا أهل المروءة اعفوا اليوم عن قتلى إن كنت تقتل قوم زيدان
هذا الذى قد حان يا فخر الورى راعى دماه على الفلا خلجان
وهذا وأبو زيد قتلوا عمامك ونحلوا الفوارس فى بلا وأحزان
ونحن يا أبو بشارة قوم اقتلنا أنا وبدير مع ابن سرحان
ترمى علينا مسائل ما نعرفها ما يعرف اللغو إلى أخى زيدان
وإن كان زيدان ما يعرف سؤالك قتله يا أمير محمد يمان

واقتل أبو زيد الهلالى سلامة ‏ واجمع عليهم يا أمير فرسان
أنت صاحب العزة والمجد والعلا ‏ أنت صاحب الصيوان والعيدان
وهذا الذى أبصرت يا فخر الملا ‏ وقولى ما به نقصان

(قال الراوى) ياذياب أنت تقول ماقتلته وحسن القاضى وزيدان يقولون أيضا ما قتلوا أحد ومرادى أعلم من هذا الذى قتلهم أخبرونى وأصدقوا المقال وإلا قتلتكم فى الحال فقال لهم دياب أعلم يا أحباب ما حد قتل عمامك والابطال أبو زيد الامير زيدان وأنا أعلمك بصدق اللسان ومابقى على ملام ولاقتلتنا جميعا تكون فسخت الزمان فقال زيدان ويلك دياب من قتل بدريس والخزاعى فى ذلك المقام والمراعى فانت تعمل عمالك وتتهم غيرك وأعداءنا فى العانيات ومالك فى شىء دياب وطيبك العدا والهزيمات وأنشد يقول :

قال زيدان قصيدة من ضمايره ‏ أبيات كالدر موزونة بميزان
وحق عيسى وموسى والنبى محمد ‏ قولى صحيح ما فيه بهتان
دياب هو الذى قتل ابن عمك ‏ قتل بدريس بسيفه وسنان
أيضا مثل الخزاعى ماأختشى منك ‏ بحقيق يا أبو بشارة ماأنت وهمان
حنا يا أهل المروءة بالسباع ‏ واجمل دمه فوق الارض غدران
بحيات رأسك تشفى خاطره منه ‏ هذا يقين فتن كتبه شيطان
وهذه المسائل يحلها دياب بساع ‏ وإن ما عرفها اجعله اليوم قربان
اضرب به على رقبته بالكف وحياتك ‏ يا فارس الفرسان يوم طعان

قال الراوى فلما فرغ زيدان من كلامه والجميع يسمعون نظامه فقال حنا كيف يا أبو بشارة دياب يقنع أهلنا ورجالنا وأنت ساكت عنه بحياتى عليك تشفى خاطرى عنه فقال ارموه تحت الضروب فرموه وقام أبو بشارة وأخذ العكاز فى يده ومال عليه حتى كسر أجنابه من القتل والتفت إلى القاضى وقال له مرادى ارمى عليه مسائل أن ماجبت عنهم ضربتك مثل رفيقك فقال له سل عما تريد أيها الملك السعيد أخبرنى كم طير نزل بالكتاب فقال له تسعة فقال حنا وما هى التسعة قال الذباب والنمل وطير الابابيل والجراد وطير عيسى وهو الخفاش والغراب والهدهد

والصغا والهو وهو السمك فلما أتم كلامه قال أخبرني عن طير يمن ويحيض وعن شيء إذا حبس عاش وإن شم الهوى مات فقال أما الطير فهو الوطواط وأما الثاني هو السمك ثم إن القاضي التفت نحو أبو بشارة وقال له مرادي أسألك سؤال هو أخبرني عن شيء كان حلال ثم صار حرام فقال له البيضة حلال وإذا وضعت تحت الفرخة صارت حرام فقال القاضي أخبرني يا أبو بشارة عن رجل قام إلى الصلاة فسلم عن يمينه وجب عليه مائة دينار وسلم عن شماله طلقت زوجته وإلى موضع سجوده بطلت صلاته فأشار يشرح صلاته ويقول :

أبو بشارة يا قاضي العرب	أنت فهم تعرف الأبيـــات
اسمع كلامي يا أمير وافهم	واصغى لقولى يافتى وأبياتى
وحق ديني إني مشفق عليك	وإلا دعيناك كنت بالحفراتى
دياب قربت بهذا منيتك	أيضا حسن أسقى له كاساتى
هاتوا المقارع واضربوهم بالعجل	لحسن يروحوا الكل للسفراتى
ترمى على يا بدير مسائل	أنت فما تعرف أمور صلاتى
هل كان يصلى يا قاضى العرب	عليه مائة دينار من الطاباتى
نظر عن يمينه شاف الهلالى	وجب عليه المال بالجزاتى
نظر عن يساره قد شاف المرا	وعيب عليه طلاقها بثبات
لأنه حالف عليها بالطلاق	بأن ما تطلع من الأبيات
نظر قدامه موضع ما سجد	وجد النجاسة مانجوز صلاتى
الله يهدينا إلى أوقاتها	بحق من أنزل الآيات
كلام أبو بشارة يا بدر	وحيات راسك لأجلك رفقاتى

(قال الراوى) فلما فرغ من كلامه والقاضى بدير يسمع نظامه فقال عفا الله يا أمير على هذا اسلم لك واخفيف عليك تكون عابد النار ويكون عندك هذا العام فضحك وقال يا قاضي خلص وحلى والا أقتلك أنت ورفقاتك فقال القاضي أريد أن أسألك سؤال فقال قل ماشئت قال أخبرني عن خمسة أرواح أكلوا وشربوا ولا لهم أم ولا أب فقال لهم أنا أعرفك سؤالك التفت أبو بشارة إلى رفقاه وقال

أجيبوا سؤال هذا المسلم فقال إذا ما كان عرفت سؤاله ماذا يعرفنا فقال ياقاضى ماعرفنا سؤالك فاشرحه لنا وخذ لك خمس دجاجات محشيات رز وسمن بر وكان أبو زيد مراده يطعمهم لحم حتى ترد روحهم اليه فقال له بدير يا أمير هؤلاء هم آدم وحواء وكبش اسماعيل وعصى موسى وناقة صالح فقال أبو زيد أخبرنى عن موضع لا يجوز فيه صلاة المسلمين وهو طاهر فقال له ظهر الكعبة فأمر أبو زيد بأخذه إلى موضعهم فأجابوه بالسمع والطاعة وأما أبو زيد رتب له كل يوم خمس دجاجات ومازالوا على هذه مدة أيام (قال الراوى) وفى ذات يوم من الأيام قال أبو زيد يا أمير احشا مرادى أن أسير إلى بنى هلال واقتل أبطالهم ورجالهم وأدعهم بأوشم حال وأقتل أبو زيد وتبقى قدير فى هلال رجالهم ثم أشار يعلمه هذه القصيدة يقول :

عتب على دهرى وفى صهيوان ارمانى	عند قوم بين القاضى والدانى
الدهر دولاب لا تأمن له بالك	فى أرض صهيون هذا اليوم ارمانى
خلى حماى وجملى هل بضاعة	حتى أروح سواح فى آخر البلدان
واعمل وليمة واجمع فرسانك	وأحط يدى عليهم وثم ذرعانى
وهذه المحابيس يوم العيد نذبحهم	واجعل دماهم فى الأرض طوفان
وأجيب ابو زيد وأعماله الماكر	كى ينظر العذاب أشكال وألوان
وحياة دشى لاجعل قتلة شهرة واجـ	ـهل صد القلب وا كشف الأحزان

(قال الراوى) فلما فرغ أبو زيد من كلامه والملك حنا يسمع نظامه قال افعل مرادك وما فينا من يخالف مقالك هذا ما كان من أمر هؤلاء أما ماكان من أمارة بنى هلال فبينماهم بالذل والخبال تفكروا أهلهم والخلان وكيف عادوا فى الذل والهوان من بعد عزهم فقال القاضى ما يصير علينا إلا ما كتبه الله لنا هذا ماكان منهم واما ما كان من أبو زيد فانه التفت حنا إلى وزيره جرجس وقال اهم هذه الليلة مرادنا نعمل كيفية فقالوا حباً وكرامة وما كان إلا برهة من الزمان حتى حضر الخمر وجعلوا فى ذلك المكان وقالوا من يكون الساقى علينا يا إخوان فقال أحد الأمارة وما أحد يسقينا غير أبو بشارة لان يده مباركة فقام المذكور من ساعته وصار يسكب الخمر ويسقيهم حتى سكروا الجميع ما عاد يعرف الاول من الآخر

فتركهم أبو زيد وسك عليهم الباب وصار على الأعتاب فى البرارى والهضاب حتى وصل إلى أمارة بنى هلال وفتح باب السجن ودخل عليهم وقال قوموا ولما رأوه ارتعدوا منه وقالوا نحن فى جيرتك يا بو بشارة فقال لا تخافوا أنا لست أنا أبو بشارة فقالوا من تكون أنت يا فارس الفرسان أعلمنا بالحال فقال لهم أنا أخوكم أبو زيد وعليكم الأمان من نوائب الزمان فقال لله درك يا بو صبرة وشيبان ولولاك متنا من زمان فى هذا المكان ولكن أعطى بالك من أبى بشارة لربما يعرفك فى هذا المكان فقال لهم كونوا براحة بال من هذا الأمر ولازم أذيقه كاس الحمام فطيب خاطرهم ورفع عن وجهه اللثام وحدثهم بما جرى بينه وبين أبو بشارة من الاحكام بالتمام وحدثهم بما فعل بهم فلما سمعوا منه هذا الكلام قاموا له على الأقدام وقبلوه بين الأعيان وشكروه بكل شفه ولسان فعند ذلك تقدم إليهم وفكهم من وثاقهم وأخذهم فى جنح الظلام وساروا يقطعون البرارى والآكام حتى وصلوا لقومهم ففرحوا بهم فرحاً شديداً ما عليه من مزيد وطلعوا لاقوهم بالطبول والزمور وفرحوا على سلامتهم وشكروا الأمير أبو زيد على تلك الفعال التى تعجز عنها صناديد الأبطال وما زالوا سائرين حتى التقوا فى بعضهم البعض فسلموا على حسن ودياب وزايد ونزلوا فى تلك القفار فى الخيام وقدموا لهم الطعام وبعد ذلك قاموا على الأقدام وتقلدوا بأنواع السلاح وباتوا ينتظرون الصباح (قال الراوى) هذا ما كان من أمر بنى هلال وأما ما كان من أمر حنا والأبطال فكانوا خرانين كما تقدم الكلام ولما كان الصباح استفقدوا الأسارى فما وجدوهم وفتشوا أبو بشارة فما وجدوه فحينئذ علموا القضية وبما كانت مطوية ثم صاح حنا فى الفرسان وأمرهم يركبوا الخيل فعند ذلك ركبوا ظهور المهارة وجدوا فى قطع الصحارى طالبين بنى هلال وما زالوا جدين فى سيرهم حتى قاربوا الأرض التى فيها بنى هلال فقال لهم الوزير وأخوه مريض خذوا أهبتكم للقتال واستعدوا للحرب والنزال فلما سمع حنا المقال قال ما لكم ومن بنى هلال فقال جريس إذا قمنا إلى وقت السحر وسرنا بلا مهل نصف

النهار إلى بني هلال فقالت الفرسان لقد نظر جريس موضع الثور لان من أمسى وأصبح على خطر لا يأمن من القضاء والقدر ثم إنهم باتوا فى ذلك المكان يتقلبون تحت مشيئة الرحمن وعولوا على ماقال جريس من الخطوب وفيما هم على ذلك وإذا بخيل بني هلال طلعت ولمعت رماحها فى شعاع الشمس وهى غائصة فى الزرد والسلاح تحت خلفها قطع الرماح وفى أوائلها أبو زيد ومن جواره دياب وحسن والقاضى وزيدان فرسان الحرب والطعان فتبادرت إليهم عساكر جريس وحنا صاحوا بهم فارتجت لصيحتهم الوديان ثم سأل من أنتم أيها اللئام فحمل عليهم دياب بدون جواب فتلقاه فارس يقال له الدهقان وتجاول هو وإياه ساعة من الزمان حكم دياب عليه السنان وطعنه فى صدره خرج يلمع من ظهره وكان معه عشرة من الفرسان فلما نظروا ما حل به حملوا على دياب فتلقاهم كأنه أسد وفى أقل من ساعة قتل سبع فرسان وانهزم الباقون وهم ينادون بالعرب أنقذونا فقال الجن قد حل بنا العطب قم الآن ياحنا وقاتل الجان فقد برز الينا من هؤلاء القادمين شيطان بصورة انسان قتل مقدمنا دهقان وسبعة فرسان فلما سمع حنا هذا الكلام صعب عليه وكبر لديه وقال لهم كان هؤلاء القوم ما عرفوكم حتى قاتلوكم وجه الأرض جندلوكم ولو عرفوكم ماكان حاربوكم وإن صدقنى حذرى ما هذا الجيش المعسكر إلا مع أبو زيد الأسد المغوار وأظن أنه لما خاص الأسارى إلى العرب وأنا للطالب والآن يحل بهم العطب ثم أنه غار عليهم ولما وقعت العين على العين لا وصاح من الفريقين ووقع السيف بين الطائفتين ونادى حنا أنتم لئام غير كرام تظنون إنى لكم مالى ومانهبتوا من أفعالى وماقتلتم من رجالى اليوم أبلغ منكم أربى وآمالى فلما سمع أبو زيد من كلامه عرفه وقال له ويلك يافاجر لمثلى تفرع هؤلاء الأندال وأنا أبو زيد مقدم الأقيال ثم أمر رجاله بالحملة فحملوا من غير إمهال وقع بينهم القتال ساعة من الزمن فوقع بقوم الفناء مسنا الدمار وخاب منهم الأمل وأيقنوا بحلول الأجل ووقعت أسنة الرماح فى الأرواح والمقل وجرى الدم على تلك البطاح وهطل وضرب فى ذلك اليوم المثل بأن الخطأ زائل وعلمت تهان الحرب كغليان المراجل وكان حظها

هوامر الرماح الذبل وخاضت بنو هلال الغبار القسطل وابروا الرقاب وامنوا الصدور بالاسل وقاتلوا اغتيال الجبابرة الاول فلله در أبو زيد وما فعل وقد استقبل وسطا زيدان وسط البطل ونزل الامير حسن فى جملته بين تلك الامم حتى التقى الوزير مرقص أخو جريس فرآه ينحنى من حوله الفرسان فأقبل عليه وطعنه بصدره بالرماح خرج يلمع من ظهره فلما نظرت قوم حنا إلى مرقص هو قتيل تصايحوا على حسن وطلبوه من كل مكان فعند ذلك حملت القومين فرد ذكره واسعروا من نار الحرب جمرة وسالت منهم الدماء وعادوا بورد القوم عدما وزاد الحرب وصارت النعم نقما وملأت الارض جماجما وخلت السروج من ركابها بعدما كانت لها حماوكحلت الاجفان بغبار السما وثبتت عساكر الملك حنا واجتهدت وطلبت رد أعدائها فلم قدرت بل أمالها رأت وانحلت عزائمها وتفرقت ولم يزل السيف يعمل والدم يجرى الى أن أمسى المساء فعند ذلك دقت طبول الافتراق وكفوا عن الحرب وكل فريق ذهب إلى مكانه أما عساكر حنا فصاروا يتآمرون ويقولون ماهم إلا أبو زيد ودياب الذى شاع ذكرهم فى كل الارض وبقوا يتذكرون فى المحاضر أعمالهم وأخبارهم وإن كان الامر عن هذا الشأن فهذه مصيبة لا ترتد إلا بكثرة الفرسان ومعاونة إخوان هذا ما كان من هؤلاء وأما ما كان من بنى هلال فإنهم هنوا بعضهم بعضا بهذا النصر وباتوا تلك الليلة مسرورين ولما أصبح الصباح نهضوا للحرب والكفاح واصطفوا ميمنة وجناح وإذا بالوزير جريس برز الى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فنزل إليه الامير دياب فالتقاه جريس بقلب لا يهاب وقال له ماذا بلغك منزلنا حتى دخلت أرضنا فدع عنك الحاجة وما لك فيها حاجة ولو ما كنت جاهل لما دخلت هذه الاوطان وطلبت تلاقيها فى شرذمة من الفرسان فاستدرك أمرك قبل الفوت وادخل على والى مقدمنا حتى نعطيك الزمام وما تم كلامه حتى أشهر دياب سيفه وضربه على هامه حط رأسه قدامه فلما نظر حنا الى وزيره قتيل غاب عن الصواب وصاح فى قومه إتونى بهذه العصابة القليلة حتى أشفى منها غليلى فحملوا عليه من كل جانب فالتقوهم بنو هلال كالأسود الكواسر وانطبقوا على بعض وغطت

الدماء الأرض وأبو زيد فى قلب العسكر ينثر الرءوس ويبلى الفرسان بعد وجودها بالعدم فكانت ساعة مكدرة وقد طامت على الطائفتين الغيرة حتى وقع عسكر الملك حنا التقصير ولما نظر إلى عساكره قد انكسرت وعصابة بنى هلال قد انتصرت خاف على نفسه وبلاده ونادى العساكر وشجعهم على الثبات فانطبقوا على بنى هلال انطباق الليالى على الأيام وحمل حنا أوائلهم ونشرت الأعلام فوق رأسه وأخذ يمحى الفرسان وبينما هو كذلك إذ التقى به أبو زيد فحمل عليه وضربه بالحسام بين عينيه يلمع من الفخذين وقطع الجواد قطعتين وأما ذياب وبقية الفرسان فانهم فرقوا الكتائب وأظهروا العجائب ولما رأت عساكر الأعداء ماحل بهم من الدمار ولت الأدبار واركنت إلى الفرار والتجأت إلى القلعة فتبعهم أبو زيد والفرسان فعندما طلب الأمان فأعطاهم الأمان ورتبوا عليهم الجزية فى كل عام ورجعوا إلى مضاربهم كسبانين غانمين وفرق الأمير حسن ماغنموه من الجميع وأقاموا على شرب قهوة وأكل وطعام مدة ثلاثة أيام وبعد ذلك صمموا على الارتحال من تلك الأطلال فهدمت الخيام وانتشرت الرايات والأعلام وركبت الفرسان ظهور الخيل واعتقلوا بالرماح والنصول وركبت النساء والبنات فى الهوادج والعماريات وجدوا فى قطع البرارى والآكام حتى وصلوا إلى حمص فأقاموا فيها خمسة أيام وكانت تأتيهم الهدايا من جميع الولاة والحكام وارتحلوا من بعلبك ومنها إلى زحلة وقد طابت أيامهم فى هذه الرحلة لأنهم كانوا يصرفون الاوقات فى السرور والطرب وقد زال عنهم العنا والكرب وبعد ذلك صاروا قاصدين مدينة الشام فوصلوا اليها عند الظلام ونصبوا المضارب والخيام .

﴿ تمت هذه القصة ويليها قصة التبعى ﴾

قصة شبيب التبعى

قال الراوى تقدم لنا فى الجزء الرابع أن بنو هلال بعدما قتلوا أبو بشارة المطار حاكم بلاد صهيون جدوا فى قطع الفلوات حتى أقبلوا على مدينة الشام كان الحاكم فى تلك الأيام على دمشق ملكا أشد فرسان المعارك واسمه شبيب التبعى ابن مالك كان فى تلك الأيام قد رأى حلما فى المنام فقام خائفا فجمع أكابر الديوان والوزراء والاعيان وقال لهم قد رأيت رؤيا الآن قالوا ما هى يا ملك العصر والأوان قال رأيت فى منامى أنه قد أتى إلى هذه البلاد سباع شبه الجراد وكان كل سبع يأتى إلى شجرة يقلعها بأنيابه ولا يبالى من الأخطار وكان لهذا الملك وزير عاقل خبير واسمه الوزير عميرة فلما سمع من الملك هذا الكلام نهض وقال :

يقول عمارة والفؤاد محسر	من أهل عامر ياشبيب تحذر
بنى هلال بجمعهم قد أقبلوا	مثل الجراد ياشبيب وأكثر
من نجد قد رحلوا بجمع وافر	وفرسانهم من كل ليث قسور
قتلوا الدبيسى بعد حرب هائل	وأتوا إلى الكوفة بهذا العسكر
لاقاهم الخرمندى سلطان العجم	قتله أبو مرعى محمد الابتر
أما الفتى القمقام فارس قومه	قتله الفتى الزغبي الاشقر
قتلوا الخزاعى بن حامد فى حلب	ثم غربوا إلى حماة وسنجر
أما السباع بنى هلال وحربهم	أما الشجر أبطالنا تتنثر
فالقوم منهم ما يسلم روحه	الا بضرب السيف حتى يتكسر
حتى القوم قد بان عندى يا ملك	هذا منامك ياشبيب تفسر

فلما فرغ الوزير فهم تفسير حلمه استعظم هذه الأمور وكان قد بلغه قدوم بنى هلال إلى الشام فزاد ذلك الأمر اهتماما على اهتمام لأن أبو زيد كان عند رجوعه من تونس ومروره إلى الشام كما سبق الكلام قد استخلص من داره سرية عربية واسمها قنوع وسار بها نحو بنى هلال فتأثر شبيب من هذه الأفعال فاستدعى بنجاب وأمره أن يسير فى الحال ويكشف له أخبار بنى هلال فسار ودخل على

بنى هلال فأضافوه ثلاثة أيام ورجع لعند سيده وصار يخبره بهذه القصيدة يقول :

يقول مسرور عما جرى له ... ونيران قلبى زايدات شرار
ذهبت أكشف فى هلال نزلهم ... فسرت وفى قلبى لهيب النار
مازلت ساير فى البرارى وسهلها ... حتى وصلت لنزلهم والدار
ولما وصلت ياشبيب لأرضهم ... نظرت خلائق مثل موج البحار
مسافة خمسة أيام يا أمير نزولهم ... ويوم وليلة عرض يا مغوار
دخلت صيوان الأمير أبو على ... ملك عظيم عالى المقدار
وقال أهلا وسهلا ألفين مرحبة ... لك الخير منى أنت ضيف الدار
وأمر لى حسن بخلعه سنية ... بعشر مفاتيح وخمس زوار
وجدت قنوع العامرية جالسة ... ومن حولها الشبان والأمار
باتت قنوع ترفع الصوت بالغنا ... بصوت يحاكى العود والمزمار
قد مدحت بالسكر حتى تمايلت ... وقد طار عنها برقع وخمار
تميل مثل الرياح وتنثنى ... إلى أن عرفتنى بغير إنكار
فقالت أوصى شبيب وقل له ... يلاقى هـلال صفا ووقار
إذا جاء أبو زيد يبغى حربكم ... يكن شبيب فى لقـاه حذار
ترى عدد قوم هلال وعامر ... أربع تسعينات ألوف جبار
أبو زيد مع أجاويد قومه عددهم ... تسعين ألفـاً كلهم أمار
ودياب فى تسعين ألف محارب ... من آل زغبة من فروع كبار
وتسعين القاضى بدير القائد ... قاضى هـلال فارس الجبار
وتسعين إلى حسن أبو على ... أمير حوى جاها وكل وقار
وهذا الذى أبصرت بأفخر الملا ... وقولى صحيح ما به إنكار

فلما سمع شبيب هذا الشعر والنظام وفهم فحوى الحديث والكلام صار الضياء فى عينيه كالظلام فقال للاكابر والأعيان ومن حضر فى الديوان ماهو رايكم فى هذا الشأن لان بنى هلال قد حضروا الآن إلى هذه الاطلال بعساكر كعدد الرمال فقالوا إن الرأى هو أن نبادر القتال ولكننا فى أول القتال أرسل واطلب منهم عشر المال فإن أجابوك

إلى هذا الطالب بلغت القصد والارب وإلا نحاربهم فى العسكر وتشتتهم فى البر فاستصوب شبيب رأى القوم وأرسل يطلب منهم عشر المال وكتب إليهم يقول:

يقول المدعو شبيب بن مالك   لى قلب أقوى من صفا الجامود
أنا صاحب العز والمجد والعلا   أنا صاحب الصيوان والعامود
أنا صاحب الدرع الذى ورثته   عن جدودى من عمل داود
أنا صاحب السيف الثقيل قرابه   بياضه شبه المشعل الموقود
وفى خوة من عهد جدى ورثتها   لها عشر تفاحات وخمس بنود
ويا حسن قدم لنا المال عشره   وقدم لنا من أحسن الموجود
وقدم لنا عشر الخيول جميعها   عشر الحرير بيضها والسود
وقدم الفين عود من القنا   وقدم لنا ألفين سيف هنود
وقدم لنا ألفين عقد جواهر   عقود ثمينة قليلة الوجود
وقدم لنا ألفين طير جوارح   ومعها ضوارى وكاسرات الأسود
وقدم لنا قنوع العامرية بخدرها   وهاتوا عطور الورد أم الجود
وهاتوا فتاة الحى أم محمد   صبيحة الوجود أم العيون السود
وقدم لنا جمال الطعن بنت سلامة   ووطفا وريا غاية المقصود
ومن بعد هذا امكثوا فى بلادنا   وتكتفوا من شرنا ونكود
مقال شبيب التابعى بن مالك   وما كان عارف يفهم المقصود
وإياك تمهل كل شىء ذكرته   وإلا تروحوا للحبال شرود

فلما فرغ شبيب من شعره طوى الكتاب وختمه بختمه وأرسله مع نجاب إلى الأمير حسن فأخذ الكتاب وسار إلى أن وصل إلى الأمير حسن وأعطاه الكتاب فلما فتحه وقرأه قال لا حول ولا قوة إلا بالله ثم جمع بنى هلال وأخبرهم بالكيفية وقال ما هو رأيكم فقال الأمير أبو دياب ليس عندنا جواب إلا الرمح المكعب والسيف القاطع والقرضاب حينئذ قال الأمير حسن للرسول إذهب إلى مولاك شبيب وقل له إنى سأرسل له جواب فى وقت قريب وبعد ذهاب النجاب نهض ابو زيد كليث الغاب والتقى الأمير حسن هذا الخطاب أيها الملك الهمام ان شبيب ملك دمشق والشام استعد والحاربنا

وجمع الرجال لصادمتنا والرأى الصواب وأمر بعض الفرسان الأخيار إلى تلك الديار لكشف الأخبار والوقوف على عدد العساكر والأبطال التى تجهزت للحرب والقتال وذاك فى شعراء حتى لا يعلم أحد ولا يدرى وبهذه الوسيلة تبلغ المقصود فاستصوب الأمير حسن هذا الكلام وقال لقد أصبت ثم استقر على مسير أبو زيد والأمير دياب مع الأمير عدندس والرياشى مفرح وأبو الليث الكندى العارف بعلم الرمل والحساب إلى تلك الديار ليجدوا الأخبار فى ثانى يوم استعد أبو زيد إلى المسير إلى الشام مع الفرسان وتركوا الحى وفارقوه وجدوا فى قطع البرارى حتى وصلوا إلى دمشق الشام فدخلوا بسلام وقصدوا الأمير شبيب فى مراتبه حتى دخلوا على حضرته فسلموا عليه وتمثلوا بين يديه وكان جالساً على كرسى مرصع بالجواهر يدهش العقل ويذهل البصر وحوله الأتباع والخدم فرد عليهم السلام قال من تكونوا من العرب الأجواد وما هو سبب قدومكم إلى هذه البلاد نحن شعراء نقصد الملوك والامراء فنمدحهم بالقصائد الحسان ونرجع بالخلع والاحسان وقد سمعنا بجودك ونداك ومكارم أخلاقك وحسن مزاياك فأتينا اليك وقصدنا نمدحك وننقل ثناك ونرجع مجبورين الخاطر إلى الديار وندعو لك بطول العمر على مدى الدهور والأعصار ثم ان أبا زيد بعد هذا الخطاب عدل الرباب وصار يمدح الامير شبيب بهذه الابيات :

يقول الفتى المدعو سلامة ... بدمع جرى فوق الخدود سكيب
ركبنا وجينا يا امير على نقا ... من فوق نوق شبه ريح هبيب
فقلنا لهم يا قوم أين مسيركم ... فقلنا إلى نحو الامير شبيب
شبيب بن شيبان بن مالك ... امير البوادى والبلاد شبيب
شبيب الذى كل البلاد عياله ... ونحن بقينا من عيال شبيب
شبيب الذى إن قل ماله يوماً ... فيعزى إلى مال العدى ويجيب
شبيب من لا يوجد فى الدهر مثـ ... ـله ولا ربعه العربان مثل شبيب
أتينا إلى ملك العراق يدرينا ... فالح وصالح والامير نجيب
فجاد علينا بالمكارم والعطا ... وبالجود معك أيضا ثم مسك رطيب
يا أمير أعطنا ولك الثنا منا ... فنثنى عليك عند الضحى ومغيب

فلما فرغ أبو زيد من كلامه شكره شبيب على حسن نظامه ثم صرف معهم هذا النهار في الحديث والاخبار ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح ركب شبيب الى الصيد وركبت معه الفرسان وابنه صقر ما عدا الشعراء وأبو زيد التفت شبيب إلى الشعراء وقال لهم لماذا لا تركبوا معنا في هذا النهار فقالوا له اعلم يا بدر المسالك أن الذي يمنعنا عن ذلك هو عدم وجود الخيل لان مطايانا لا تصلح للركوب وفي الوعور والسهول فأمر لهم شبيب بخمسة أفراس من الخيل الجياد فركبوا عليها ما عدا أبو زيد فارس الطراد فقال له شبيب علامك لا تركب وما هو السبب فقال ان هذا الجواد لا يحملني وهذا هو السبب الذي يمنعني فأمر السايس أن يأخذه إلى الاسطبل ويختار له جواد من أطايب الافراس فذهب معه الاسطبل وجعل أبو زيد ينظر في الخيول فلم يعجبه سوى جواد شبيب وهو غطاس وكان أبو زيد قصده بهذا العمل الغريب هو الاكتشاف على خيول شبيب وكان السايس قد رجع على الاثر واعلم شبيب بذلك الخبر فقال له وقد زاد تعجبه أعطيه إياه إن كان يقدر يركبه فعاد السايس إلى الاسطبل من قريب واعلم أبو زيد بما سمعه من الامير شبيب وقال إعلم يا شاعر العرب ونخبة الأدب أن الحصان هو جواد الأمير شبيب الغطاس الذي تضرب به الامثال بين الناس فلا يقدر أحد منا أن يقربه ولا يدنيه وإذا أردنا أن نطعمه ندلي له الشعير من سقف البيت الذي هو فيه فخذه إن كنت تقدر عليه فتقدم أبو زيد اليه فصهل الحصان حتى زعزع المكان لانه كان بطران فلطمه أبو زيد بالكف بين عينيه وسرجه وركب عليه وسار إلى عند شبيب فتعجب منه كل العجب وقال في نفسه وحق ذمة العرب أن هذا الامر مستغرب وهذه الافعال والاعمال لا يقدروا الشعراء بل صناديد الابطال وقد تأمر من ذلك الامر ثم إنهم ساروا في جوانب البر وجعلوا يصطادون حتى صار وقت العصر ثم إنهم ارتدوا راجعين قبل دخول الليل وفي أثناء طريقهم رأى شبيب ميدانا لسباق الخيل فامتثلت أمراء الفرسان وجعلوا يتسابقون في الميدان فعلم أبو زيد على جميع الشجعان بالسيف والسنان حتى حير العقول وأذهل الابصار وكثرت فيه الظنون والافكار فرجعوا إلى البلد ونزل ابو زيد في دار الضيافة مع جماعته وكان التبعي

رمال إسمه عكرمة وكان قد خرج معه للصيد فاجتمع به فى قاعته على إنفراد وقال له إعلم أيها الرمال أننى فى حيرة من جهة أولئك الرجال الذين حضروا نهار أمس عند غروب الشمس وادعوا أنهم من الشعراء وما أقول للامير حسن هذا الكلام إلا أنهم جواسيس نظراً لما رأيت من أفعال أحدهم فى هذا اليوم لانه علم على جميع الناس فأريد منك الآن أن تضرب الرمل وتعلمنى بواقعة الحال لانى قد صرت مشغول البال فقال السمع والطاعة وأنا اظهر لك صحة الأمر فى هذه الساعة ثم أنه أحضر الرمل وولد البنات من بطون الأمهات وجعل يعلمه بهذه الأبيات :

يقول عكرمة الرمال صادق خرجنا يا شبيب إلى البرارى
وجدنا صيده يا نعم صيده أكابر مش من فوق المهاوى
فهم خمســـة كأنهم أسود ومنظرهم عفائف كالدرارى
وفيهم ســـيد مشهم ورأيت بكل حوادث الأيام دارى
وفى جسمه رسوم كثيرة تدل على معانى كالدرارى
عريض الصدر مدموج السواعد وسيع الوجه مثل سبع ضارى
مساه يكون أبو زيد الهلالى وترميه المنيــــة فى الديارى
تذكر فعله بنهار أمس بوادى السطو عند الاعتكار
وهو عشم جوادة بين طى كحملات المراهف والقطار
ورفاقته فيهم مراه هلال محاسن وجههم مثل الدرارى
فاقطع يد أبو زيد الهلالى واقطع أنفه هذا النهارى
فهذا يا أمير قد بان عندى وقولى حق ليس فيه فشارى

فلما فرغ الرمال من هذا الشعر والنظام وعرف شبيب فحوى الحديث والكلام غضب غضباً شديداً ما عليه من مزيد وفى الحال أحضر أبو زيد ومن معه من الرجال وصاح فيهم وقال أتيتم أيها الاشرار إلى هذه الديار لتجسوا الأخبار وأسميتم أنفسكم بأنكم شعراء تمدحون الملوك والأمراء فلا بد من قتالكم وأمر العبيد والخدم أن يأخذوهم إلى المشنقة فامتثلوا أمره وأخذوهم فى تلك الساعة ووضعوا المراس فى رقابهم

ودوهم فى منازلهم والاطلال وبعد ذلك رجعوا الى المشنقة وأرادوا أن يفعلوا الشناعة وإذا بصقر بن الأمير شبيب أتى من الصيد والقنص فلما نظر ذلك سأل عن الخبر فاخبره بالأمر والمنكرة فعند ذلك نزل عن ظهر الجواد إلى الأرض والمهاد وخاصمهم من ذلك الشأن وقطع المراس من رقابهم فوصل الخبر إلى شبيب فأحضرهم عنده فى الديوان ووبخ ولده على الشأن وقال هؤلاء من بنى هلال أعداؤنا أوتوا إلى منازلنا والاطلال لأجل أن يقتلوا الرجال ويدعونا بأوشم الاحوال قال صقر يا ابى ما عندى خبر من ذلك الأخبار وهذا الأمر قد جرى وصار شفعتى فى هؤلاء الشعار وتبطل كلامى ونقص بين الشباب مقامى فالاوفق أن تبصر لهم إهانة ولا تقتلهم وتدعى من الدنيا مرتحلهم والا يرموا عليهم رموز أسامى وإذا ماعرفوهم فحينئذ قتلوهم قال شبيب هذا هو الصواب والأمر الذى لا يعاب ثم أنه التفت إلى أبو زيد وقال يا صنديد ما كارك اليوم يا أديب قال شاعر لبيب قال مرادى أدعى شعرائنا وأحضرهم إلى دياره وادعيهم أن يرموا عليك رموزان ماعرفتهم فإنى أقتلك من الدنيا مرتحلك قال أبو زيد افعل ما تريد يا ابن الاماجيد فعند ذلك أدعى الأمير شبيب إلى شعراء بلاده وكانوا أربعة وعشرين شاعراً وكبيرهم يدعى صولجان بن ماهر فلما حضروا أمرهم أن يرمو رموزا على أبو زيد ورفاقته فأجابوه السمع والطاعة فاحتبك الديوان فى تلك الساعة فالتفت أبو زيد إلى صولجان وقال له يا سيد الفرسان مرادى قبل أن تبدى شعره وقصيدة تسير إلى موضعك وتأتى لنا بطعام حتى يصير بينك خبز وملح فأجابه بما قال وسار إلى بيته فى ساعة من الزمان وأحضر إلى أبو زيد قطعة ملانة عصيد وفيها ملعقة وقال كل يا ابن الكرام وادعى لنا بدوام العز والإكرام فأخذ أبو زيد شفقة براس الملعقة وذاق شىء قليل وجده امره مثل الحنضل قال هذا زادك لا رحم الله شبابك قم يا ذليل يا مهان وهات ماعندك من الأوزان فعند ذلك تقدم الصولجان وأخذ الرباب وبدأ حتى أطرب ذوى العقول والالباب وأما أبو زيد يراقب الكواكب فنظر نجمه حاجب وهو سعيد ففرح بذلك فرحاً شديداً ماعليه من مزيد فلما رآه الصولجان ينظر فى الكواكب ظن أنه ينظر إلى بنات نعش أشار يقول:

رأيت ناظرا إلى بنات نمشى ... عن قبل المشى لحين تمشى
فهل هاديت نجم هواها ... فهل من النمشات نمشى
فنحن فى حماسا كل ما ... نقرى ضيفنا لحم وحشى
فلما بصرك تقطع وتبلع ... وكثر الزاد فى المأكول يفشى
كأنك ضفضعة فى قاع جب ... يجيبها الماء شىء بعد شىء
فاذا أتاه الماء تسبح ... وتسمن بأكل الوحل وتمشى
فقل لى بين السحاب باها ... وبين الأرض من شبر وكشى
وعن عنزه تغفى جنح ليل ... فهل جاهدت أو تعلم بدى شى
وعيناها طوال وهى عمية ... وأذناها عراض والسمع طرشى
فلا فرح ولا بيض لواوها ... ولا حبل ولا تثقل بشى
قل لى لاتسكن جاهلا غشيا ... وكم من مدعى ما يعرفشى

فلما فرغ الصولجان وأبوزيد سامع نظامه وأشار يجاوبه يقول :

أراد تداش الأشعار دفشى ... وما عندك من العقل ولا شى
قولك عن أبو زيد الهلالى ... غشيا ما يعرف الشعر إلا بشى
فأنتم تعرفون فلا تراعوا ... فقول الصدق ما به من غشى
فيكم من يوم قيس أجرعوكم ... سم الأفاعى من سمن ودقى
فسرف أن هذا الحديث يجرى ... ويمفش فى صدر الخيل عفشى
ويشبع ضيفكم ضربا وطعنا ... وتبقى الروس مكدوشات كدشى
وتنظرونى على حمراء طحرمه ... أرش الدم على الأرض رشى
ويجزى المعتدين بالقهر معنا ... وتنقش دياركم بالدم نقشى
وعيب عليكم إذ لم تعرفونى ... أربح الخيل فالأرماح مقشى
فالله يطعمك طعنة عروسى ... من يد فارس قط ما يرحمشى
تكون من يد أبو وطفا دياب ... يروح الرمح فى كرشك ويمشى
لأنك لاتصد ولا ترد ... ولاتلقى الضيوف ولاتمشى
أنا ياطول ما أقريت ضيفى ... لخطار لما أهدى مفالفل وعشى

أنا أبو زيد أنا صور الصبايا ولست بخائفها منكم بنهشى
أنا حذرتكم لا تجهلونى بنهشكم سباع البر نهشه
أيا صولجان اعلم بأنى عرفت مسائلك صفها وانقشه
تسايلنى عن عرش عظيم فكم بينه وبين الارض كشه
وعن عنزه تغنى بجنح ليلى دوما بالارض عاطشه ثم عطشه
تقدم أخبرلى عشرة عشرة عددهم خمسة تريح وترشى
وهم من حين خلق أبوك آدم الى يوم الحساب ولم يموشى
يموتوا ثم يحيو بعد موت ومنهم شىء لم يتبعشى
ومنهم طايفة تأكل وتشرب كما منهم منذ عمره ما ارمشى
عن حوت وفوق الحوت حوت وتحت الكل بحر انا ما يمشى
ودولاب يدور الشغل منه بجوهر فيه من اصف البلخشى
إذا لم تخبرونى لمن ما أقلك وإلا أنت عندى مثل جحشى
فنحن نشبع الخطار لحما ونخمش منهم بالزاد خمشى
وحيا إلى أجاويد الرجال ومن هو لكلامى يسمعشى

فلما فرغ أبو زيد من كلامه وشاعر على السمع نظامه تعجبوا الامارة من ذكاؤه أبو زيد وما عاد الشاعر يعرف يجاوبه فاغتاظ شبيب غيظا شديدا ما عليه من زيد وحلق ذقن الشاعر وطرده من عنده والتفت إلى أبو زيد وقال له بقى لى عليك ست أشياء ان عرفتهم خلصت من دماهم وإذا ما عرفتهم قتلت أنت ورفقك فأجابه ماهم أخبرنى عنهم فقال له المصارعين والمشاكين والمدافقين ورمايين الدهاب وشايلين العلم وطباخين الكيما لهم بعد ذاك قال إذا ما أجبتك على ذلك فإنى لاشاهدها لك ولكن لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ثم انهم باتوا تلك الليلة إلى الصباح فقام شبيب وأحضر كبير المصارعين وكان بطل رزين ماله من قرين فلما رآه أبو زيد قال له يا أخا العرب دونك العرب لانه إن أجعلك فى التراب ولا تظن الصراع أكله حلو فقال له المصارع دع عنك شنشنة اسان يا ذليل يا مهان واليوم يبان الشجاع من الجبان فقال أبو زيد اليوم عندى عيد بقتلك يا مهان ثم نهض

وأثبت الأقدام وأسرع إليه مثل الأسد الضرغام والتقى البطلين كأنهم جبلين وحان عليهم الحين وزعق فوق رأس غراب البين قال وكان المصارع دافن فى ركن الثبان حربه مثل الثعبان وهى شغل بلاد الروم مدخرها لمثل هذا اليوم ويريد بها هلاك أبو زيد فى تلك البيد فرآها دياب وقال له خذ بالك يا أمير من هذا الشيطان الرجيم وانظر هذه الحربة التى كأنها نقمة أنا رأيتها قبلك يا أمير دياب وهذا اليوم أدعيه ملقى على التراب ثم اصطدما وافترقا واقتربا وابتعدوا ما زالوا على هذا الحال مقدار ساعة من الزمان حتى وجد المصارع ماله من أبو زيد طالع فعند ذلك هجم عليه وأدخل دماغه بين رجليه وأراد أن يقلبه ويقصف عمره فما كان من أبو زيد إلا أنه أطبق عليه صوابين ركبتيه واتكأ على رقبة المصارع وفك جوزة رقبته وما زال كامشا عليه حتى خرجت روحه من بين جنبيه فقلب على قفاه قدام شبيب وصاح غيره يا أمير يسلم رأسك بها النحرير ثم تقدم المداق ودق أبو زيد ساعة من الزمان فالتقاه بهمة وعلو شأن وضربه بالعصا على دماغه فطرش بذرعه وقال غيره يا أمير شبيب قدم فارس نجيب فتقدم المشابك وشابك أبوزيد ففرك أناملة ولقطه من يده ماخرها من الباط فتقدم رامى النشاب فذهب أبو زيد ووقف فى تلك الهضاب رآها ذاك الرجل مرشق أبو زيد أربعين فاستعان عليه برب العالمين فى أصابه شىء ضربه أبو زيد موقفاه على الأرض رماه فوقع قتيل بدماه جديل فعند ذلك تقدم شايلين العلم فغلبهم وكذلك طباخين الكيمياء طلعت طبخته أحسن من طبختهم ثم التفت إلى شبيب وقال له يا أمير المؤمنين لك عندنا شىء بعد من هذا التفكير فاتركنا نذهب إلى أهلنا وعيالنا فعند ذلك غضب غضباً شديداً ما عليه من مزيد وقال له لا شك أنك عفريت من عفاريت سليمان وبعد ذلك أمر الخدم أن يأخذهم إلى السجن لأجل القصاص والإنتقام فأخذوهم فى الحال ووضعوا فى أرجلهم القيود والأغلال ووكلوا بهم جماعة من صناديد الرجال وكان الأمير دياب ومن معه من الأصحاب فى خوف واحتساب خوفاً من القتل والعذاب وكانوا فى شدة وإضاعة وقد قطعوا السلامة فجعل أبو زيد يشجعهم فى المقال ويوعدهم فى الخلاص من الاعتقال ويقول لهم أن الفرج قريب بعون الله السميع المجيب وأننا

فى هذه الليلة ذاهبين إلى أهلنا ونقال المأمول فاطمأنوا وجعلوا يتحدثون بالكلام حتى أظلم الظلام ونامت الحراس فعند ذلك أخرج أبو زيد الكيس المغناطيسى [illegible] فتساقطوا فصاح على الأمير دياب وباقى الفرسان الأنجاب وقال هلموا للذهاب فقد تخلصنا بأذن الله فنهضوا فى الحال وجدوا فى قطع الروابى والتلال حتى وصلوا إلى بنى هلال وكان وصولهم عند الصباح فدخلوا على الأمير حسن فالتقاهم بالسرور والأفراح لأن أفكاره كانت مشغولة عليهم فقبلهم بين عينيهم وقال الحمد لله على سلامتكم لأنى كنت مضطرب الأفكار من جهة غيابكم فاخبرونى بأحوالكم وقصتكم وما جرى لكم مع شبيب فى سفرتكم فأخبره بحديثهم من الأول إلى الآخر وأطلعوه على الباطن والظاهر فشكروا الله على خلاصهم من الاعتقال وأثنى على أبو زيد نظراً لما بدأ من حسن الفعال وبينما هم فى هذا الحال إلا وقد أتى إليهم مرسال من عند الأمير شبيب بجواب لأنه تفقد المحابيس فلم يجدهم ثم إن السلطان حسن بعد أن عرف حقيقة الأحوال وعرف ما عند شبيب من الفرسان والأبطال صار يكتب له الجواب يقول فيه:

يقول الفتى حسن الهلالى أبو على ... فلى حربة كالمشعل الموقود
ولى همة تعلو على كل ماجد ... أخلى الأعداء ع الجبال شرود
تهيأ غداً يا شبيب لحربنا ... مع أبطالك وكل الجنود
فكم حاكم ملكنا بلاده ... من بعد حرب يشيب المولود
ونجد ملكناها بحد سيوفنا ... وزلت لنا يوم القتال جنود
تريد منا اليوم عشر أموالنا ... فسوف ترى منا رجال أسود

فلما فرغ حسن من هذا الخطاب طوى الكتاب وسلمه للنجاب وأمره أن يسير إلى سيده بالعجل فأجاب وامتثل ولما دخل على سيده سلمه الكتاب ولما قرأ غاب عن الصواب وفى الحال أمر العساكر والابطال الاستعداد إلى الحرب والقتال فاجتمع عنده مائة ألف مقاتل بين فارس وراجل وكلهم بالسيوف والرماح والات السلاح فلما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح دقت طبول الحرب واستعدت العساكر للطعن والضرب وركب فى أول الفرسان ومن حوله الوزراء والاعيان وسار بهذا

الجيش الكثير والعدد الغفير إلى قتال بني هلال وكانت بنو هلال قد استعدت في ذلك النهار واصطفت من اليمين والشمال ولما تقابل الجيشان برز شبيب إلى ساحة الميدان ومقام الطعان وطلب برز الشجعان فبرز وزاد إليه وانطبق الفرسان على بعضهم مثل أسود الآجام وأخذوا في الحرب والصدام وكان شبيب كما تقدم الكلام من جبابرة تلك الايام فقاتل قتال الاسود وفعل فعال تشيب الولود فثبت أبو زيد أمامه كالجبل الراسي التقاه بقلب أقوى من الصوان للمقاومي فكان تارة يتقدمان وتارة يتأخران كأنهما أسدان كاسران وقد تعجبت من قتالهم جميع الفرسان وتعلمت منهما حقيقة الضرب والطعان وما زالا على تلك الحال وهما في أشد قتال قرب زال وكان أبو زيد قد انحل عظمه وقصر فرجع إلى الوراء وتأخر فعند ذلك دقت طبول الانفصال فافترقت العساكر من ميدان القتال ورجع أبو زيد في أسوأ حال مما شاهد من الأهوال فسأله الأمير حسن عن خصمه فقال إنه فارس شديد وبطل صنديد وإني قد بارزت الأبطال في معارك النزال فما وجدت أفرس منه في القتال ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح وركبت الفرسان ظهور الخيول واعتقلوا بالرماح والنصول واصطفت الصفوف ورتبت المئات والألوف فكان أول من برز إلى ساحة الميدان وطلب براز الفرسان الأمير شبيب الفارس النجيب فبرز إليه الأمير دياب وهجم عليه كليث الغاب فالتقاه شبيب في الحال والتحم بين الفارسين القتال وجرى بينهم عجائب وأهوال تشيب رؤوس الأطفال وما زالا في قتال وصدام إلى أن أقبل الظلام وكان الأمير دياب قد أبصر في ذلك النهار من قتال شبيب ما يذهل الأبصار ويحير العقول والافكار فلم يقدر أن ينال منه مرام لا بضرب الرمح ولا بضرب الحسام فارتد راجعا إلى الوراء ثم نزل إلى الميدان القاضي بدير بن فايد وجعل يتصادم مع شبيب في ساحة الميدان نحو ثلاث ساعات من الزمان وكان القاضي قد كل ومل وضعف عزمه وانحل فرجع وتأخر خوفاً من وقوع الخطر فبرز الامير زيدان من أمامه خوفاً من حربه وصدامه ثم تقدم غانم أبو دياب واقتتل معه القتال الشديد وأبدى ثبوت الجبابرة الصناديد إلا أنه لم يكن من رجاله ولا يعد من أقرانه فما لبس أكثر من ثلاث ساعات من النهار

حتى طلب الهزيمة والفرار فبرز الأمير عرندس كأنه المفترس فطال معه وصال وتقاتلا فى ساحة المجال وما زال على تلك الحال إلى وقت الزوال وكان عرندس قد ضعف وتضعضع فولى وارتجع وبعد ذلك دقت طبول الانفصال فرجعت عن بعضها الفرسان والأبطال وكانت بنو هلال قد اعتراها الانذهال وخافت من عواقب الأحوال فلما رجعت إلى الخيام وجمع الأمير الأمراء الكرام ومن يعتمد عليهم من فرسان الصدام واستشارهم فى أمر شبيب ملك الشام فقالوا له فارس جبار وبطل مغوار لا يصطلى بنار له هجمات الأسود وقلبه أقوى من الجلمود ومن الصواب أن تحاربه غداً بالعسكر وتترك برازه إلى يوم آخر بيما يكون قد تعب من القتال فحينئذ تبرز إليه الأبطال فاستصوب الأمير حسن الخطاب ورآه عين الصواب وباتوا تلك الليلة على هذه النية وفى قلوبهم نار الحمية ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح استعدت بنو هلال للحرب والقتال فدقت الطبول وركبت الفرسان ظهور الخيول واعتقلت بالرماح والنصال وركب الأمير حسن على ظهر حصانه وتبعته جميع أبطاله وفرسانه وكان شبيب الاخر قد التقاهم العسكر فعند ذلك صاح وصاحت معه فرسان الكفاح وفى الحال التحم القتال والتقت الرجال بالرجال والأبطال بالأبطال وجرى الدم وسال وعظمت الأهوال ونزعت الروابى والتلال من صياح الفرسان وقعقعة السنان وكان بينهم وقعة عظيمة ومعمعة جسيمة قتل فيها خلق كثير وعدد غفير فلله در الأمير أبو زيد والأمير دياب فإنهما هجما كأسود الغاب وحكما السيوف والحرب فى الصدور والرقاب وانكسا إليهم بطعن أشد من نزول الصواعق وفعل شبيب أيضاً فى ذلك النهار العجب وأتى نفسه فى العطب وداموا على تلك الحال إلى وقت الزوال فعند ذلك دقت طبول الانفصال فرجعت الفرسان والأبطال وفى اليوم الثانى اصطفت الصفوف وترتبت المئات والالوف والتقت الرجال بالرجال والأبطال بالأبطال وكان يوم شديد الاهوال انتصرت فيه عساكر الشام وأسرت فيه عدة من البنات والنسوان وقتلت جملة من الفرسان ولما أقبل الظلام رجعوا وباتوا فى الخيام وهم فى قلق واهتمام وفى الحادى والثلاثين برز الامير حسن مع السادات والمقدمين وطلب شبيب وقلبه

أحر من نار لهيب فما أتم كلامه حتى صار شبيب أمامه وانطبق على بعضهما حتى حجبهما الغبار عن العيون والأبصار وما زال الأمير حسن يحارب شبيب حتى قرب وقت المغيب وكان قد أبصر منه الأحوال فالتفت اليه وقال قد ولى النهار وزال فدعنا الآن من القتال وفى الصباح نعود إلى البراز والقتال فتبسم من هذا الكلام وقال إنى أنا أمهلك ثلاثة أيام ثم رجع بمن معه الجميع وفى أثناء الدرك نزع عنه الدرع وعند رجوع حسن قالت الجارية أم محمد علامك رجعت بالعسكر ولعود العرب لها رجعات فى الوقائع والغارات فتحمس الأمير حسن من هذا المقال ورجع إلى خصمه وصاح فيه وطعنه طعنة بهمة وحمية فأصابته فى رقبته وانجرح ووقف على ظهر الجواد فأدركوه قومه فى الحال ونشلوه من ساحة المجال وأخذوه العسكر إلى داره وهو فى حالة النزال يقاسى الألم والأوجاع هذا وقد ارتدت العساكر على بعضها البعض واقتتلوا قتالا شديدا فى تلك الأرض حتى كان ذلك اليوم مثل العرس كثرت فيه الأهوال وجرى فيه الدم وسال وزاد الخوف وعظم البلاء وتمددت القتلى على وجه الفلا واستمر القتال على هذا المنوال إلى وقت الزوال وكانت بنو هلال قد حلت أسراها من الاسر والاعتقال بضرب السيوف وطعن النصال فعند ها دقت طبول الإنفصال فارتدت عن بعضهما الفرسان ورجعت بنو هلال فى فرح واستبشار على ذلك النجاح والإنتصار وأما الملك شبيب فانه كان كما تقدم قد أشرف ذلك الرمح على العدم فلما رأى حاله طريح الفراش زاد عليه الخوف والارتعاش وقد عظم عليه واسودت الدنيا فى عينيه ولا سيما رأى الاهل والأصحاب فى عويل وانتحاب فتنهد من فؤاد مبتول وأنشد يقول :

يقول شبيب التبعى بن مالك قد زال عقلى يا ناس وراح
أنتى جنوب تلطم على خدودها وهى فى عويل وكثر نواح
فقلت لها تحملى واصبرى إن طلبت باكر ما عز وراح
أنا إن سلمت يا جنوب إلى غدا ترى الاعادى فى بكا ونواح
سأقتل منهم كل قرم غشمتم فى عز راق وطعن رماح
وإن مت أمرى لإلهى وأرضى بحكم الواحد القهار

(قال الراوي) فلما فرغ شبيب من نظامه غاب عن الدنيا لكثرة آلامه ووقع في قومه البكاء والنحيب هذا ما كان من أمر شبيب وأما ما كان من بني هلال فان الامير حسن كان قد جمع سادات الرجال وقال لهم مرادي هذا الصباح أبادر الاعادي بالقتال والكفاح فقال له أبو زيد تصبر فسوف تبلغ القصد والامل وأنا مرادي عند طلوع النهار أن أدخل المدينة وأكتشف لكم الخبر وأنا بصفة طبيب فعلى اجتمع بشبيب فيفرح قلبي وبطيب فقال حسن افعل ما تريد أيها الفارس الصنديد فعند ذلك سار أبو زيد إلى مضربه وهو يؤمل ببلوغ ماربه ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح نهض أبو زيد بالعجل ولبس أفخر الحلل وتعمم بعمامة كبيره ولبس جبة قصيرة وغسل وجهه ببعض العقاقير فصار أبيض مثل الثلج وأنعم من الحرير لم يعد يعرفه أحد من الانام ثم ركب ظهر كديشة عرجا ودخل مدينة الشام وهو في هذا الزي والهندام وجعل يجول في الاسواق وهو ينادي أنا الطبيب أنا الحكيم فمن كان فيه علة أزلتها عنه بإذن الاله الفتاح وما زال يطوف ويجول وينادي ويقول أنا الحكيم أنا الطبيب حتى وصل إلى قصر شبيب وكان لشبيب ولد مثل البدر يقال له صقر فاتفق أنه كان هناك وسمعه من الشباك فقال في نفسه إن هذا الطبيب رجل غريب ولو لم يكن من الشطار والحذاق ما كان يطوف في الاسواق فمرادي أن أتعرف به وأجعله يداويه لعله يشفيه ثم طلبه فحضر وسلم وقال أنت حكيم قال نعم قال إذا شفيت أبي من هذه العلة والمرض وأزلت عنه المرض أغنيتك إلى الابد وقدمتك على أطباء البلد فقال إني سأبذل الجهد وأداويه ولا أخرج من هذا القصر حتى أشفيه ففرح كل من حضر هناك بهذا الخبر وزال عن قلوبهم الغم والكدر ولم يعلموا بأن الطبيب هو عدوهم الاكبر ثم تقدم أبو زيد إلى شبيب في صفة حكيم وطبيب وهو يترقب الفرصة ليعدمه الحياة عن قريب وكان رأسه معصوباً بمنديل وهو يتنهد من قلب عليل ففك العصبة ومسح الدم ووضع له المراهم وقال لقد زالت الاقدار بإذن الواحد القهار فاتفق أن شبيب فتح عينيه فرأى أبو زيد حوله فخاف وأنذر وأيقن بالموت الاحمر فصاح من حلاوة الروح بصوت خفيف هذا أبو زيد صاحب المكر والكيد فقال الحاضرون ما هذا الذي يقول أيها الطبيب قال يريد أن تملوا الاسراج

زيت أو تخرجوا جميعكم من البيت حتى يستريح أو يزول عنه اليأس لان العليل تضيق أخلاقه بكثرة الناس ففرحوا الفرح الشديد الذى ما عليه من مزيد وخرجوا من القاعة ولما خلى المكان من الجماعة أخرج أبو زيد من جنبه السكين وذبح شبيب من الوريد الى الوريد وقد بلغ قصده ثم غطاه إلى فوق رأسه وخرج فسألته عن حال شبيب الجماعة فقال لها إنه بخير فلا تدخلوا عليه إلا بعد ساعة بينما يكون قد صحى من النوم ولا بد أن يشفى من علته فى هذا اليوم لأنى عالجته بأحسن علاج فلا تكونوا فى قلق وانزعاج فشكروه على ذلك ووعدوه بالخلع والانعام وبلوغ القصد والمرام ثم ودعهم وسار ولو كان له أجنحة لطار هذا ما كان من أبو زيد وما فعله فى تلك النهار وأما زوجة شبيب وباقى الجماعة فانهم بعد ذهاب أبو زيد بساعة دخلوا على شبيب فى القاعة فوجدوه على تلك الحال وخرجوا من دائرة الاعتدال وعلموا أن الطبيب كان أبو زيد المحتال لانهم كانوا يسمعوا عنه أشياء كثيرة فاستعظموا الامر وأخذتهم الحيرة وأقاموا العزاء والنحيب على وفاة شبيب وهم يلعنون ذلك الطبيب وكان لشبيب أخ إسمه الصحصاح وكان من أبطال الكفاح فاسودت الدنيا فى عينيه وعظم الامر عليه وقال لابد لى أن اتبع هذا الغدار وأسقيه كأس الدمار لانه فجعنى بأخى الحبيب وأضرم فى قلبى نار اللهيب وركب وسار وراءه وهو يهدر كالاسد إلى أن التقى به بقرب طاحونة خارج البلد فلما نظره أبو زيد وراءه عرف أنه الصحصاح وانه يريد قتله ووفاته فدخل على الطاحون وغير ثيابه بالاعشاب ونزع منه الثياب ثم خرج ووقف على الباب فلما وصل الصحصاح اليه اشتبه أمره عليه فقال له من قلب محزون علمنى من صاحب هذا الكديش فقال فى الطاحون فنزل على ظهر الحصان وسلمه مع الرمح أبو زيد فارس الميدان ثم سل سيفه ودخل إلى الطاحون وهو من شدة الغيظ مثل المجنون فلم يجد سوى الطحان هناك فضربه وأورثه الهلاك وخرج فى الحال وهو يظن أنه بلغ الآمال وقتل أبو زيد المحتال فوجد أبو زيد على ظهر الحصان يتعجب من ذلك الشان وقال له من تكون يا قافلا فما أتم كلامه حتى طعنه أبو زيد بالرمح فى صدره خرج يلمع من ظهره فوقع على الارض قتيلا وفى دمه جديلا وسار أبو زيد بالعجل وهو مسرور وعلى ما فعل حتى دخل على الامير حسن فى الصيوان.

وحوله الامراء والأعيان فاعلمه بما جرى وكيف قتل شبيب والصحصاح ورجع بالفوز والنجاح فشكروه الجميع على ذلك الاهتمام وقالوا الاعدناك يافارس الصدام فقد هان علينا الحال وبلغنا المرام وسوف نبادر الاعداء بالحرب والمهاجمة لانهم بعد شبيب لاتقوم لهم قائمة هذا ما كان من بني هلال اما ما كان من أهل شبيب فانهم لما علموا بقتل الصحصاح زاد عندهم النواح وأحضروه لجانب أخيه وأقاموا عليهما النحيب فتقدمت جنوب زوجة شبيب ترثيه بهذه الابيات وزادت عليهم الحسرات :

تقول جنوب الخبر بما جرى	بدمع جرى فوق الخدود سكيب
الأيام والدنيا كفى الله شرها	ومن عاش فيها ينظر التشكيب
فما أضحكت إلا بكت بعد ضحكها	فيالها من حسرة بعد شبيب
ألا يا نجوم الليل عاماينه	لعل أوجاع الفؤاد تطيب
شبيب الذي فرقع له الرعد بالسما	وصاحت دوك العرش مات شبيب
شبيب الذي ما رأت البرك مثله	وما ربت الدايات مثل شبيب
شبيب الذي يلقى الضيوف بفرحة	ومسرة ولو كان الزمان جديب
فيا ليت من كان السبب بفراقنا	يقتل مجد الماضيات قريب
ألا يا حمام النوح توجهوا واندبوا	وابكوا عن فقد الامير شبيب
يا هل ترى الأيام عادت تلمنا	وتجمعنا به بوقت قريب
شبيب الذي بكته الناس كلها	وصاحت ديوك العرش مات شبيب
تقول فتاة الحي ما أصابها	ولا عيش لى بعد الحبيب يطيب

فلما فرغت من هذه المرثية جعلت تبكي وتنوح من فؤاد مجروح وتلطم على خدودها من شدة الاسف وتقول والله لقد انهدم شبيب العز والشرف فبكت الناس لبكاها وعزوها على ما دهاها ثم أجلسوا شبيب على كرسي من الذهب الاصفر مرصع بالدر والجوهر والبسوه عدة الحرب وبكوا على ملكهم حتى كثر الصياح وارتفع البكاء والنواح وتكسرت السيوف والرماح ثم تقدمت جنوده وهي ترقص بالسيف وبعد ذلك تقدمت اليه وقبلته بين عينيه وقالت باطل عنك يا أبي الحسناء مالك نايم يامقرى الضيوف قم وأنظر هؤلاء الامراء الذين جاءوا لضيافتك فمالك لا تقوم بواجبهم وهي

ترقص بالسيف وتقول من بعدك لا أريد الحياة ثم وضعت رأس السيف فى بطنها وقبضته وفى الأرض وانكبت عليه فخرج يلمع من ظهرها فحينئذ ضج الجميع فى العويل وكثر الولاويل ثم دفنوها مع الصحصاح بكل احترام ومن بعد ما دفنوها باحتفال وأقاموا مناحة طويلة وأظهروا أحزانا جزيلة فى سائر الأيام فى شدة الحزن والاغمام. هذا ما كان من هؤلاء وأما ما كان من الأمير حسن وبنى هلال فانهم بعد الحال استعدوا الحرب والقتال فاعتقلوا بالسيوف والنصال وهجموا على المدينة بقلوب كالجبال. ومكنوا الضرب على الرجال من اليمين والشمال ونهبوا ما فيها من الأمتعة والأموال فعند ذلك خرجت الأمراء والأعيان وابنة فى جماعة من النسوان وطلبوا من الأمير حسن العفو والامان فاجابهم إلى ذلك الشان وأرسل مناديا فى الاسواق بالامان فتوقف القتال وخرجت هلال واقامت فى الخيام وبلغت المرام وزالت الاوهام وبعد عشرة أيام ولى الامير حسن الامير صقر مكان أبيه على تخت مدينة ثم أمر بدق طبل الارتحال والمسير من تلك الاطلال وفى الحال هدمت الخيام والمضارب وركبت الفرسان ظهور النجائب وجدوا فى قطع الروابى والآكام حتى وصلوا إلى القدس الشريف بعد ستة أيام فنزلوا خارج المدينة فى المضارب والخيام وزاروا الاماكن المقدسة بكل احترام وتصدقوا على الارامل والايتام ثم رحلوا منها بعد عشرة أيام قاصدين غزة بقلوب مطمئنة وما زالوا يجدون فى قطع البرارى والآكام حتى اقبلوا على تلك المدينة وهى مدينة مشيدة حصينة فنصبوا فيها الخيام والاعلام وفرقوا مواشيهم وجابوا أقطارها واكلوا من محصولها واثمارها فلما رأت الرعيان تلك الفرسان قدم لأتته البرارى والقيعان ذهبوا إلى ملكهم وأعلموه بذلك الشأن وكان ملكهم قوى الجنان لا يهاب قتال الشجعان لا يبالى احد مهما كان صاحب جيوش ومواكب يقال له السركسى ابن قارب وكان عدد عساكره خمسمائة ألف من الابطال الذى يعتمد عليهم فى الحرب والقتال فلما بلغه الخبر من الرعيان بقدوم بنى هلال إلى الاوطان اغتاظ وتكدر وطار عن عينيه الشرر وجمع الوزراء والاعيان واكابر الديوان واستشارهم فى ذلك الشأن وكان عنده وزير عاقل وخبير ذو رأى وتدبير يقال له الامير واشد فكان كثير الشر معاند فلما سمع من السركسى هذا الكلام قال اعلم أيها الملك الهمام انى اخبر الناس ببنى هلال وأعرف

ما عندهم من الغنم والجمال والخيل والأموال لأنى قد ذهبت اليهم من نحو عشرة اعوام وقعدت فيها جملة أيام فعددهم أربع تسعينات ألوف من الذكور وبناتهم مثل البدور من حيث قد أقبلوا إلى هذه الأطلال فمن الصواب أن تبادروهم بالحرب والقتال وننهب ما عندهم من الأموال لأنا أشد منهم بأسا وأقوى مراسا وفى الحال كتب لهم هذا الكتاب يطلب منهم عشر المال وهو يقول :

يقول السركسى هو ابن نارب	بدمع جرى فوق الخدود يسيل
ونيران قلبى كلما أقول تنطفى	يدب لهما على الضلوع شعيل
يا سائر بالله خذ لى رسالتى	مكربة منى بلا تمهيل
إلى حسن أمير قيس وعامر	أمير البوادى فى الملوك جليل
فارسل لنا عشر المال مع الغنم	وعشر النسا جمالكم والخيل
وهاتوا فتاة الجازية أم محمد	لها عين سود وطرف كحيل
وأرسل عطور بنتك بلا خفا	بعيون سود مكحلات يميل
وهاتم ريا ثم وطفا بعدها	ليس لهم بين النساء مثيل
وإن لم تجيبوا ما أراه لطابى	أخلى دماكم فى الفلا تسيل
وأقتل دياب الخيل بحد صارمى	وادعى الفتى زيدان بالتنكيل
وأقتل أبو زيد الهلالى سلامة	واقطع رأسه فى حسام طويل
وأقتل جميع هلال فى حد صارمى	وادعى نساكم فى بكا وعويل
مقال الفتى السركسى بن نارب	حاكم بلاده بين ملوك جليل

(قال الراوى) فلما فرغ السركسى من هذا الخطاب طوى الكتاب وسلمه إلى النجاب وأمره أن يأخذه إلى الامير حسن ويأتيه بالجواب فأخذه وسار وجد فى قطع القفار وما زال يقطع الروابى والتلال حتى وصل إلى جمع بنى هلال فدخل على الأمير حسن وسلم عليه وأعطاه الكتاب ورقص بين يديه وكان حسن جالسا فى وسط الديوان وحوله الأمراء والأعيان منهم الامير أبو زيد والأمير دياب وغيرهم من السادات والانجاب فلما فتح الكتاب وقرأه وعرف حقيقة ما حواه اشتغل باله وتغيرت أحواله ثم عرضه على الامراء وقال لهم ما رأيكم أيها السادات فقال الامير أبو زيد والامير

دياب ماعندنا إلا الطعن فعند ذلك أشار الامير حسن بجواب السركسى بهذه الابيات:

يقول الفتى حسن الهلالى أبو على بدمع جرى فوق الخد اقوع
ونيران قلبى كلما أقول تنطفى يهب لها طى الضلوع لدوع
إسمع ترى يا سركسى لمقالتى فأنت تريد الجازية قنوع
تطالب بنات محسنات كواعب وتريد تأخذ سيوفنا ودروع
فما لك عندى سوى السيف والقنا أجمع عليكم من دريد جموع
أبو زيد والزغبى دياب بن غانم لهم ضرب يقطع بين عسكرك وجموع
فنحن ملوك هلال ليس مثالنا ويا ما قتلنا من ملوك وجموع
وكم قتلنـــــا ملوك مثلكم تركنا دماهم فى الفلاة بقوع

(قال الراوى) فلما انتهى الأمير حسن من هذا الجواب طوى الكتاب وسلمه إلى ذلك النجاب فأخذه وسار يقطع السباسب والاوعار حتى وصل إلى السركسى ابن زايد فسلم عليه وقبل الارض بين يديه ثم ناوله الكتاب فلما قرأه وعرف ما تضمنه من الخطاب طار الشرار من عينيه وأمر الوزير أن يجمع العساكر والابطال لمحاربة بنى هلال فامتثل أمره بالعجل وجمع ثلاثة آلاف بطل وكلها بالاسلحة الكاملة والعدد الشاملة وركب الامير السركسى فى أول العسكر مع الامير راشد الوزير الاكبر ومن حوله الأعلام والرايات والفرسان والسادات وجد فى قطع البرارى والقفار قاصداً قتال بنى هلال ونهب الأمتعة والأموال ولما شد من القوم وعرفت بنى هلال بقدومه فى ذلك اليوم استعدت للقتال والطعان والنزال وركب الأمير حسن فى عاجل الحال وتبعته بنو هلال وكان الأمير أبو زيد راكبا عن يمينه بفرسانه وأبطاله والامير دياب راكبا عن شماله بجموعه ولما التقت العساكر ببعضها البعض وقف كل فريق فى ناحية من الارض وكان أول من برز إلى ساحة الميدان وطلب براز الفرسان السركسى وهو كالليث الواثب فبرز اليه أبو زيد فى الحال فالتقاه السركسى كالجنان وأشار يهدد بهذا المقال:

يقول السركسى هو نازب ونارى بالحشا زادت شالى
ونيران بقلبى أحرقتنى على ما قد فعلتم يا هلالى

طلبت المال منك والعطايا وعشر الخيل أيضاً والجمالى
فلم ترسل لنا مال ونوقا وأنتم ما تخافوا من قتالى
فجردت العساكر إلى اقاكم لاقتلكم على وجه التلالى

فلما فرغ السركسي من هذا المقال أجابه الامير أبو زيد فى الحال :

يقول أبو زيد الهلالى سلامه والنار فى قلبي تزيد ضرام
أرسلت تطلب خيلنا ورجالنا وتطلب بناتا شبه بدر تمام
أما تستحى تطلب بنات كواعب وأماره أضايب فروع حرب صدام
فلا بد من قتالك وقتل رجالك يوم المدعى عند حرب صدام

(قال الراوى) فلما فرغ أبو زيد من هذا الشعر والنظام انطبق على السركسى انطباق الرعد فى الغمام التقاه السركسى كأنه ليث الآجام وأخذ معه فى طعن الرمح وضرب الحسام وكان السركسى أفرس زمانه ولا أحد يعادله فى ميدانه وفى ضربه وطعانه وكانت تضرب به الأمثال وتهابه الفرسان والأبطال فقاتله خصمه أشد قتال حتى تعبه وأكر به بحد الحسام قاصدا أن يسقيه كاس الحمام فاستتر أبو زيد بالدرقة نزلت الضربة على رقبة الحصان صاعقة فبرتها كما يبرى الكاتب القلم فوقع أبو زيد على الارض وانحطم فهجم السركسى عليه هجمة الاسد وأراد أن يثنى عليه بالسيف المهند فلما رأى أبو زيد تلك الحال من الهلاك والوبال طلب منه أن يعفو عنه فأجابه إلى ذلك الشأن وقال له اذهب من الميدان وأرسل لى الامير دياب حتى أعلمه حقيقة الضرب والطعن أو تحضروا إلى عشر المال حتى أوقف عنكم القتال فرجع أبو زيد على الاثر فى حالة الذل والكدر ورجع معه باقى الجيش والعسكر حيث كان قد أظلم الظلام واعتكر ولما وصل إلى المضارب والابيات التفت النساء والبنات وسألوه عن حاله وما جرى له فى قتاله وكانت أمام البنات عطور الجيد ابنة الامير حسن فصار اليهن يقول :

قال أبو زيد الهلالى سلامه والدمع من فوق الخدود سجام
أيا عطور الجيد إن السركسى يشبه الذئب قد حظى بغنائم
روحى وقولى لابيك أبو على ينزل اليه باكر ويهاجم

ما دامن النسوان اولى فى الورى | تظهر فوارس كالسباع تصادم
هذا السركسى ما أحد يصادمه | إذا قام فى ظهر الحصان يلاطم
فامض إلى حسن الهلالى والدك | وقولى له أبو زيد ولى هزايم

(قال الراوى) فلما فرغ أبو زيد من هذا الشعر تعجبن البنات واستعظمن الامر ورجعن وفى قلوبهن لهيب الجمر وعلمن أن السركسى بطل عنيد وفارس صنديد ثم ان أبو زيد ذهب إلى عند الامير حسن وهو فى الديوان وأعلمه بما جرى وكان فتعجب الامير حسن وباقى الامراء على ما تم وجرى وقالوا ما دام الامر على هذا الحال فما بقى غير الامير دياب أن يبرز إلى السركسى فى ساحة المجال لعله يقضى الاشغال ويبلغ منه الآمال وإلا تضعضعت منا الاحوال وسمعت فينا أبطال غزوه دون باقى الابطال فاستصوب الامير حسن هذا الكلام وصار يحمس الامير دياب بهذا الشعر

قال الفتى حسن الهلالى دياب | أنت فارس الخيل شهم منتخب
فقم وانزل قتله يا أمير | واسقيه بالحراب كاسات العطب
واتركه فـــوق الوطى | كما فعلت بالخزاعى حلب
بالحرب والمرحلة أنت مجرب | يا عز قيس المكاره والكرب
قال الفتى أمير قيس وعامر | اليوم أقتله ونبلغ الارب

فلما فرغ الامير حسن من كلامه سار الامير دياب يجيبه على حديثه :

يقول الزغبى دياب المنتخب | وحق النبى ومن بمكة قد خطب
لا بد عن قتـــله يا أمير الملا | وادعى دماه على الارض تنسكب
واليوم نملك فى بلاده حقا | ونجعل عزه تحت أحكام العرب
نحن ملوك فرسان ألوفا | وابوك حسن لا نخاف من العطب

فلما فرغ الامير دياب من كلامه شكره الامير حسن وباقى الامراء على حسن اهتمامه وباتوا على تلك الليلة وعلى تلك النية وقد خافوا من عواقب القضية ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح برز السركسى إلى ساحة المجال فصاح وجال وطلب براز الابطال فبرز اليه دياب كأنه ليث وهو راكب على فرسه الاخضر وكل العين تنظر اليه وترى ولما صار فى ساحة الميدان والتقاه السركسى بقلب كالصوان وقال له

من تكون من الفرسان فقال أنا المصادم والليث المقارم الذى صار ذكره فى الأعارب والأعاجم الأمير دياب بن غانم فضحك السركسى من هذا المقال والتقى خصمه فى ساحة الميدان واقتتلا بالرمح والنصال أقوى قتال وهجما على بعضهما هجوم الأسود حتى خدرت منها الزنود وما زالا على تلك الحال إلى وقت الزوال وكان السركسى كما تقدم الكلام أقوى من أقوى الفرسان العظام فى تلك الأيام فانه استطال على الأمير دياب بعد أن لعب عليه من الأبواب اثنين وسبعين باب فهرب من أمامه مع عسكره وخلافه ولم يثبت لحربه وصدامه حتى دخل المضارب والخيام وهو مقهور ورجع السركسى إلى قومه وهو بغاية الفرح والسرور وبات تلك الليلة مشروح الفؤاد على نيل المراد وأما دياب فرجع غائب عن الصواب حتى أقبل على صيوان الامير حسن فلما رآه قال علامك يا أمير دياب فانى أراك فى خوف واضطراب فصار يخبره بهذه الأبيات على مواقع الامراء والسادات :

قال المدعو الأمير دياب	والنار فى قلبى تزيد لهاب
يا حسن اسمع كلامى وافتهم	واصغى إلى قولى وزد جواب
السركسى ما رأيت مثله فارس	يفتح على الحروب أبواب
وقد هالنى يروح ويرجع	نزل على مثل سبع الغاب
ماله مثيل فى هلال وعامر	أيضا ولا فى ساير الاعراب
قوموا بنا الليل حتى نرحل	يا أبو على الرأس منى شاب

(قال الراوى) فلما فرغ الأمير دياب من كلامه وأمراء بنى هلال تسمع نظامه حسوا أمر السركسى وخافوا من الشرور وعواقب الأمور وجعلوا يتخابرون كيف يكون العمل فى قتال ذلك البطل وباتوا تلك الليلة وفى الثانى جمع الأمير حسن الأبطال والفرسان ونزلوا إلى ساحة الميدان فالتقتهم عساكر السركسى فى ساحة المجال واقتتلوا أشد قتال وهجموا على بعضهم البعض واشتبك بين العسكرين القتال وجرى الدم وسال حتى كلت منهم الزنود وبقوا على هذا الحال إلى نصف النهار فما كنت ترى إلا رؤوساً طائرة ودماء وفرسان غابرة حتى دارت على قوم السركسى الدائرة وفيما هم على مثل هذا الحال ومتمضا يقين بالحرب والقتال وقد أيسوا من النجاة

وكانت بنو هلال محيطة بهم من اليمين والشمال فبينما هم فى ضربات قاطعات بهذه الجبال الراسيات وإذا بغبار من خلفهم قد ثار حتى سد المفاوز والاقطار وبان عن عسكر جرار ليس له قرار فى مقدمتها الوزير راشد الاسد المعاند فانه جهز مائتين ألف فارس أسود حوابس وكان السبب فى قدومهم أن السركسى أرسل يطالب منهم الامداد للحرب والطراد فحضر الوزير بمائتين ألف عنان فلما وصل إلى ساحة الميدان ووجد بقومه من الذل والهوان هجم على بنى هلال وأحاط بهم من اليمين والشمال وخلص السركسى من بين أيدى بنى هلال واقتحم هو والعساكر إلى ساحة المجال بقلوب كالجبال ومازال الحرب يعمل والرجال تقتل والدم يبذل إلى ان انكسرت بنى هلال أشد انكسار وانهزم الأمير دياب بنى زغبى وأبو زيد بنى زحلان والامير حسن والقاضى بدير ببقية الفرسان وتبعهم الوزير راشد بكل بطل مغوار وأسد كرار وشتتهم فى جوانب القفار مسافة ثلاثة أيام وكسب منهم غنائم كثيرة وأموال غزيرة ولما أظلم الظلام رجعت الفرسان عن بعضهم البعض ورجع الوزير والجال وصارت بنى هلال مشتتين فى البرارى والتلال فى تلك الليلة اجتمع الأمير حسن والامير دياب والامير أبو زيد وأكابر الديوان وأخذوا يتشاورون فى خلاص ما أخذه منهم قوم السركسى وكيف يقتلوا الوزير الذى كان سبب هذا البلاء .

(قال الراوى) وكان للأمير حسن ابن أخت شديد البأس قوى المراس يسمى الامير عقل وكانت أوصافه ممدوحة مستحسنة وعمره أربعة عشر سنة فلما رأى ما جرى وكان وانهزام الابطال والفرسان من قتال السركسى فى ساحة الميدان واستعظم ذلك الشأن فجاء إلى عنده خاله الامير حسن وتعهد له بقتل السركسى وإزالة الكروب والمحن بشرط أن تذهب معه النساء والبنات ليشجعوه فى الحرب والثبات ثم انه بعد ذلك الكلام أنشد هذا الشعر والنظام :

يقول الفتى الامير عقل بما جرى	ونيران قلبى زايدات وقيد
أنا فارس الفرسان فى حومة الوغا	أخلى الاعادى بالفلا شريد
فنادى بنات هلال تأتى بسرعة	ونادى لنا أم الامير شديد

ونادى الجـــارية أم محمد وغيا وريا ثم أم الحميـــد
ونادى لوطفا بنت عمى وزينب وعليا ونجلا حسنهن يزيد
قاربك فمـــل فيه يا أبو على واريه طعنا فى الجمـــال شديد
على ظهر حرا ليس يوجد مثلها أنا فوقها قرم أصيل عنيد
مقال الفتى الامير عقل بما جرى لاخـــير فى رجل يكون عنيد

(قال الراوى) فلما فرغ الامير عقل من كلامه شكره الامير حسن وباقى الامراء على حسن اهتمامه وقد تعجبوا من ذلك وقالوا لعل الله أن يأتى على يده بالفرج والنصر ثم أن الامير حسن أمر الجارية أن تنتخب فى الحال مائة بنت من خيار البنات الابكار اللواتى يشبهن الاقمار فحضرت بهن عند أخيها بالعجل وقالت له ماذا تريد أن نفعل قال تذهبى مع البنات ومع الأمير عقل إلى ساحة الميدان وتنشدونه بالأشعار الحسان كما فعلتم مع غيره من الفرسان حتى يتحمس على قتل السركسى بن نازب فلعله يقضى بالاشغال وتنال المقاصد فلما سمعت الجارية فحوى كلامه استعظمت الحال وقالت كيف نذهب مع عقل وهو ولد صغير السن أليس هو صغير السن والقتال إذا كان أبو زيد ودياب ما قدروا على السركسى فكيف يقدر هذا الصبى وربما نحن بهذه الوسيلة نقطع فى أرضه الوبيلة ويأسرنا السركسى وتبقى معيرة بين الأعادى فلما انتهت من هذا الخطاب تقدمت وطفا بنت الأمير دياب وأنشدت تقول :

تقول فتاة الحى التى شكت بدمع جرى فوق الخدود بدايد
أبو زيد وأبى دياب الغانم ما مثلهم بين الملوك شديد
راحوا هزايم منه يا أمير أبو على فكيف توصلنا مع طفل وليد
مقالة فتاة الوغا اليمين قلبها فاحكم بعدل لا تكون عنيد

(قال الراوى) فلما فرغت من شعرها ونظامها وعرف الأمير حسن فحوى كلامها اغتاظ الغيظ الشديد وقال لها هذا الكلام لا يفيد ثم أمرها بالركوب مع الامير عقل وفى الحال ركبت الجاريات أمام الفرسان والابطال واعتقلوا بالرماح والنصال وقصدوا ساحة القتال فلما وصلوا اصطفت الصفوف وترتبت المئات والالوف

وكان الامير عقل متسربل بالسلاح وهو راكب على ظهر جواد يسابق الرياح فبرز إلى الميدان عرض ريان وطلب براز الفرسان فبرز اليه السركسى كأنه قلة من القلل أو قطعة فصلت من جبل فقال له من تكون من الابطال وصناديد الرجال فانى أرى نفسك شاخة معتزة قال أنا السركسى أمير غزة وأنت من تكون من الشبان قال الامير عقل ابن الامير بدر ثم أنشد وقال :

يقول الفتى الامير بما جرى بدمع جرى فوق الخدود منهدا
أنا فارس الفرسان فى حومة الوغا خلى دماكم على الاراضى سكايب
ونحن الهلاليون ما بنا خيبا فمن نجد يملكها الارض المغارب
ولا بد مدعى لشخصك جندلا وتصير غزة من بعدك خرايب
دونك سوق الحرب بينى وبينك تشد بنات القوم من كل جانب
فقال الفتى عقل بقول صادق فلا بد من سيفى تراح شطايب

فلما انتهى الامير عقل من شعره وأجابه السركسى على نظامه :

يقول السركسى بن نازب ونيران قلبى زايدات لهايب
فيا أيها الشاب الذى ضرب نفسه اظنك مجنون بلا عقل ذاهب
مالك ومال الخيل تلوى عنانها تحارب أصحاب اللحى و الشوارب
فان طعتنى اسلم بروحك وانهزم وارجع إلى أهلك وولى هرايب
هجمنا على عسكر هلال وعامر فساروا وولوا فى البرارى هرايب
فارجع إلى الميدان يا ولد الخنا لادعى دماك على الارض سكايب

(قال الراوى) فلما فرغ السركسى من كلامه التقاه الامير عقل وأخذ فى حربه وصدامه هذا والتقى البطلان فى ساحة الميدان كأنهما جبلان أو أسدان كاسران وعلا عليهما الغبار حتى حجبا عن الابصار وقدحت حوافر خيلهما شرار النار ومازالا على تلك الحال وهما فى أشد قتال إلى قريب الزوال وكان السركسى قد تعجب من حرب الامير عقل واستعظم قتاله لانه رأى منه فى مواضع الطعن والضرب ما أدهشه وأهاله ثم ضربا فى الدبوس قاصدا أن يعدمه الحياة ويجعل القبر مأواه فخلى عنها فراحت الضربة خائبة بعد أن كانت صائبة ثم إن الامير عقل ارتد

على خصمه مثل الأسد وضربه بالسيف المهند فجاءت الضربة على رقبة الجواد فبرتها كما يبرى الكاتب القلم فوقع السركسي على الأرض واحطم فادركوه قومه فى عاجل الحال واشوه من ساحة القتال فهم عليهم الامير عقل بالحسام فولوا وطلبوا الانهزام حتى وصلوا إلى غزة عند الظلام فرجع الأمير عقل والفرسان من المعركة والصدام وهم فى فرح واستبشار وجعت عليه البنات الابكار وقد تعجبن من أمره نظراً لصغرسنه فدخل على الأمير حسن وسلم عليه وعلى جميع الامراء الذين حواليه وأعلمه بما جرى وكان وكيف أن خصمه ولى من ساحة الميدان بعد أن حاربه طوال النهار وقال له إن كنت فى ريب من كلامى فاسأل البنات الابكار وشهدت له البنات بالشجاعة والفروسية والهمة العالية فشكره الأمير حسن على فعاله وقد تعجب من قتاله وأياله واجلسه بقربه فى صدر الديوان ووعده بالجميل والإحسان ورفعه إلى درجة الأمراء والأعيان هذا ما كان من بنى هلال وأما ما كان من السركسى فانه رجع لساعته للقتال وهو مشغول البال فاجتمع بوزيره واعلمه بقتال الامير عقل وواجهه بالكلام ولامه أشد ملام وقال قد كنا فى غنى عن هذا التعب والعنا لانك أنت الذى أتيت فى حرب بنى هلال دون باقى الأمراء والسادات حتى جرى ما قد جرى فى هذا النهار من ذلك الولد الجبار والبطل المغوار فقال له الوزير لا تخاف يا ملك الزمان إن شاء الله نهار غد أنزل إلى الميدان وابارز هذا الولد وأذيقه الأهوال والشدائد وباتوا تلك الليلة يتحادثون وفى الصباح اصطف الجيشان وتقاتل العسكران وبرز الوزير راشد إلى ساحة الميدان وطلب الفرسان فبرز اليه الأمير عقل فالتقاه راشد بقلب كالجبل والتحم بينهما القتال فى ساحة المجال وتضاربا بالسيوف وتطاعنا بالرماح وفعلا أفعالا تعجز عنها صناديد الابطال ومازالا على تلك الحال وهما كل يوم فى حرب يشيب الاطفال قبل الفطام مدة خمسة أيام على التمام وفى اليوم السادس التقيا فى ساحة الميدان وتقابلا أمام الفرسان إلى أن اختلف بينهما ضربتان قاطعتان وكان السابق الامير عقل فجاءت الضربة على رأس الوزير راشد فوقع قتيلا وفى دمه جديلا فلما رأى قومه ما حل به من الوبال نشلوه من ساحة القتال وأما السركسى لما نظر ما جرى وكان كيف أن وزيره قد قتل وحل به الوبال غاب عن دائرة الصواب وهجم على الأمير

عقل مثل ليث الغار فالتقاه السركسى بقلب أقسى من الصوان وتقاتلا معهم فى ساحة الميدان حتى تحيرت من قتالهما الفرسان وماز الاعلى تلك الحال وهما فى أشد قتال إلى وقت الزوال فعند ذلك دقت طبول الانفصال فرجعا عن الحرب ورجع السركسى وهو غضبان على ما قاسى من الحرب والطعان فى ساحة الميدان وخصوصاً على ما أصاب الوزير من الهلاك والتدمير وصمم النية على أن فى ثانى الأيام يهجم الفرسان والأبطال على بنى هلال ويذيقهم العذاب والنكال هذا ما كان من السركسى وما جرى له من الأحوال وأما بنو هلال فان الأمير حسن بعد رجوعه إلى المضارب والأبيات أحضر إليه الأمراء والسادات وقال لهم : اعلموا أيها الرجال إنه قد طال علينا مطر الاطلال ونحن رجال قصدنا الوصول إلى تونس الغرب ليخلص من أسر الزناتى خليفة بالحرب والطعن والضرب والرأى عندى الآن أن نهجم فى الصباح بالابطال والفرسان ونحارب أعدائنا بقوة الجنان حتى نبلغ الآمال ونسير بالعجل من هذه الاطلال ويركب الأمير دياب فى بنى زغبى الشجعان والقاضى بدير والخفاجى عامر مع الأمير زيدان الرياشى مفرج وعرندس الازعى والأمير عقل يقصدون الميدان والامير أبو زيد يركب فى بنى زحلان ويقصدون أبواب غزة بعد حضور السركسى إلى الميدان وهكذا تم الاتفاق وسار الافتران.

(قال الراوى) ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح دقت طبول الحرب وركب الفرسان للطعن والضرب واندفعت الشجعان إلى ساحة الميدان من كل جهة ومكان وطلب السركسى معركة القتال وطلب براز الأبطال فبرز اليه الأمير دياب معه ساعة من الزمان ثم هجمت العساكر على بعضها البعض فى تلك البقاع كأنها كواسر السباع وجعلوا يتضاربون بالسيوف ويتطاعنون بالرماح حتى جرى الدم وساح وزهقت الارواح وما زالوا على تلك الحال الى قرب الزوال فعند ذلك هجم الأمير عقل وزيدان واقتلعوا السركسى من ظهر الحصان وارتقابا السلاسل والقيود وأخذاه إلى الخيام وبلغوا المقصود ولما بلغ أبو زيد هذا الخبر فرح استبشر وكان كما تقدم الكلام إنه محيط بالبلد من جهة الشمال فعند ذلك هجم الفرسان

والأبطال عساكر السركسى الذين انهزموا من ساحة المجال وحكم فيهم ضرب السيف الفصال وبعد أن دخلت بنو هلال غزة بقلوب ممتزة فغنموا الأموال وبلغوا الأول وخاصوا صبايام من الاعتقال وكان أظلم الظلام فخرجوا وباتوا فى الخيام وفى اليوم الثانى أقبلت أهالى البلد والأكابر والعمد وطلبوا من الأمير حسن الأمان فأجابهم إلى ذلك الشأن وأرسل مناديا ينادى بالامان والإطمئنان فاستكنت الأحوال واستبشر بنو هلال بالعز والإقبال ثم حضرت قواد الفرسان والامراء والشجعان إلى عند الامير حسن فشكرهم على ذلك الاهتمام وغمرهم بالعطايا والإنعام ثم أحضروا عقل وأكرموه غاية الإكرام على ما أبداه من الحرب والصدام من مزيد الإعتناء والاهتمام وقلده الامير حسن مقام الأمراء العظام وألبسه سيفاً مرصعاً بنفيس الجواهر ثم أشار بمدحه بهذه الأبيات ويعرض عليه ما يريد من بنات النساء والسادات مكافأة لافعاله ومجازاة لاعماله وأشار يقول :

يقول الفتى حسن الهلالى أبو على	بدمع جرى فوق الخدود بديد
عقل اسمع الى كلامى وافتهم	يا ليت عمرك كل يوم يزيد
أنت نصرت الهلالى فى حد سيفك	ورحت إلى السركسى فى البيد
نحن كنا غافلين بحربنا	نصرت قوم هلالى بالتأييد
لولاك كنا فى حالة الردى	صبايا عرايا فى البلاد شريد
فخذ لك منى ما تريد وتشتهى	واطلب منى كل شىء تريد
هذه بنات هلال ما فيهم خفا	صبايا عليهم من خلاع جديد

فلما فرغ الأمير حسن من نظامه وفهم الامير فحوى كلامه فشكره وأثنى عليه أمام السادات وقال يا جمال أرجوك أن أجوز الاشبال بنظرك السعيد طول السنين والأجيال لأنه ما حل وقت زواجى وطلوع نجم أبراجى فتقدم الأمير زيدان شيخ الشبان والتمس من الأمير حسن أن يأمر بعمل عرس لأولاد الامارة الذين حان وقت زواجهم فى هذه الإدارة حيث تمت الوقائع والحروب واسترحنا من الشدائد والكروب فقال له حسن لا بأس وركبت أولاد الامارة فوق ظهور الامهار والأبراش وعملوا عراضة عظيمة لها قدر وقيمة وبعده عملوا عرساً طائلا

بالمسرات ورقصت أمامهم النساء والبنات المخدرات ومكثوا على هذا الحال ثلاثة أيام بالفرح والسرور وشربا المدام والخمور حتى خلوا العقل بحار بعد ذلك أحضروا السركسى مقيد بالأغلال وهو صامت الفم واللسان وأدخلوه عند الأمير حسن يترامى على أقدامه ويطلب العفو والأمان وكان الأمير أبوزيد عن يمينه والأمير دياب عن شماله فهدده الأمير دياب بالعقاب والانتقام على ماجرى فحينئذ طلب منه العفو والأمان وقال يا أميردياب الوزير ياشق وكان هو سبب الأذية والضرر وكان سبباً لسبي النساء الحسان وارخته العنان فى ذلك غشان فارجوك أن تعفو عنى فأمر السلطان حسن باطلاق الاغلال عنه وقال يا سركسى العفو عنك إذا حفظت الشرائع الملوكية وهى أوصيك بمحبة الله وحفظ شرائعه ووصاياه ما دمت على قيد الحياة ولا تكون لحوحا فى الكلام ولا مدمنا اشرب بل حافظ لومام الإحتشام متخلقا بأخلاق الكرام مع الخاص والعام متجنبا كلام الجزء والهذيان واقيا نفسك من عثار اللسان لأن سدود الأحرار قبورها فمن صان نفسه ملك أمره ومن باح لم ينجح وزاد ندمه واحذر ياسركسى من النساء الأشرار فان مكرهن عظيم وخطواتهن تؤدى إلى قاع الجحيم لانهن أصل الأذى والضر وسلاح إبليس عدو البشر يتظاهرون بين الرجال تحت برقع العفاف والكمال وهن اغدر من كل إنسان ومن أعظم البلوات وهن الشيطان على ملك سليمان وكان أعظم حكماء الزمان وأفضل رجال العصر والأوان حتى غدره وطغاه ونال منه مبتغاه ثم لما تساط على أيوب بأمر الله كان هو مذكور فى التوراة واعدامه كل جيرانه وجمعه بنيه وبناته واتخذ امرأته سلاحا فكان يحاربه بها مساء وصباح وهو الذى وسوس الى حواء فأغوت آدم وبها دخلت الخطية إلى العالم ويا أخطية الموت الذى لا مفر منه فبالجلة أنهن مفاتيح الشرور فلا تركن اليهن أمر من الأمور لأن ليس لهن عهد ولا امانة البلاد عوض الاصلاح ونفع العباد فتضيع الحق والانصاف وبكثرة الجور ترتفع الادناء على الاشراف وتتساقط اليهم ثم على الاكابر بالبراطيل والولاء بدل على الدراهم فتتساقط المملكة الهلالية ويصير وجودها كالعدم بين ملوك الأمم لأن الشوكة والصولة وتمكين قواعد الدولة لا يقوم بكثرة

الجنود ولا باتساع الاقاليم والحدود بل بالوزراء وحسن التدبير والإدارة وعدالة
السلاطين والملوك والتصرف بأحسن السلوك فاياك أيها الأمير أن تسمى وزيرا
أو تقيمه مديراً ومشيراً إلا بعد الفحص والامتحان ولو كان ابن ولا شريف ولا
ديانة إذا استغنى زوجهن أمرضنه بأسنانهن وإذا افتقر كلته بأسنانهن وان شاب
واكتمل عاليه الحفارة الملل وجحدهن جملة وحبوه وصاحبن جليلا غيره ولو كان
فقيراً أو صعلوكا حقير وإن مات تزوجن بعده وما حفظن حقه وعهده كما هو ظاهر
العيان في كل عصر وزمان سدعليك يا سركسى لكي تسمع وصيتي وتعي إلى نصيحتي
بحضور أرباب الدولة فقال السركسي أنا طوع يديك وجميع أموري راجعة اليك
فشنف أذناي بأقوالك اللطيفة واصائحك الظريفة لأني لأمرك سامع ولوصاياك
خاضع فقال له السلطان حسن متى توليت أحكام البلاد وحكمت على رقاب العباد
اياك أن تغفل عن أحوال الرعية وتتعدى القواعد الملكية وتخالف قوانين وشرائع
الملوكية بل سالكا الطريق المرضية معاملا الكبير والصغير بالسوية رافعا أشكوى
المظلوم حجابك فاتحا وجه بابك واضعا الاشياء في محلها والمناصب في يد أهلها
ولا سيما ولاة الأنظار وأرباب الوظائف الكبار فينبغي أن يكون هؤلاء الرجال من
خواص الاعيان ومن أهل الفضل والكمال موصوف بالاستقامة والأمانة ومشهود
لهم بالحلم وصدق الديانة لا يميزون بين الحقير والشريف ولا يظاهرون القوى على
الضعيف فيما بهم جميع المأمورين ويقتدى بهم بين باقي المستخدمين لأنهم أصحاب
الكلام وولاة الأحكام وبيدهم أزمة الأمور وتدبير مصالح الجمهور ومحافظة
الحدود والثغور فاذا كانوا على هذه الحالة تستقيم أحوال الرعايا وينتشر العدل في
كل مكان فترى الذئاب مع الغنم وتبات العصافير مع الرخم وكانوا أحادوا عن هذه
الأوصاف ما بين الاعوجاج والانحراف لا يبالون بمصالح الخلق ولا [illegible] عما
يقتضيه الحق بل يصرفون الاوقات باللذات وسماع الاغاني والأصوات وارتكاب
الكبائر والمنكرات ويسمعون كلام الوشاة وينقادون [illegible] فتضطرب
الاحوال ويقع الاختلاف ويكون سببا لضرر [illegible] وسال حق [illegible] سوانك
وتعيد به احوال رعيتك فهذا الذي يقتضيه منك و[illegible] في القانون [illegible]

وإياك أن تغتر فى الدنيا وتلهى بأفراحها ومسراتها فانها محتالة غدارة جميع أمورها مستارة فلا تركن اليها ولا تنفق عليها وتعتمد عليها فكم افنت من الملوك وفتكت بالأنبياء وما هى الا كظل زائل وجدار مائل واعلم يا أمير السركسى أن مراتب العليا وسعادة الانسان فى هذه الديار لا تنال بالفصاحة والمهارة ولا بكثرة السعى ومغطاة التجار ولا بالقوى وأقوى البأس كما يتوهم بعض الناس وإنما هى موجب وعطايا وعناية من رب البرايا لأناس خصصهم الله دون الغير وفتح فى وجوههم أبواب الخير وذلك لغايات ما تدركها العقول وأسباب لاتهدى إلى معرفتها الفلاسفة الفحول فمنهم أنبياء وأبرار ومنهم أشقياء وأشرار كما هو ظاهر بالاختبار كالشمس فى رابعة النهار ولكن يجب على صاحب الدولة ولا يأكل عن مساعده العناية ويصرف وقته فى الكل دون أدنى عمل لكن عليه أن يسعى ويجتهد ويبعد عن طريق الشر ويبتعد فيجب على الإنسان الحاذق أن يخضع لأوامر الخالق ويقبلها بالرضا والتسليم لأن الله كريم وعادل وحكيم وهو الشفوق على عباده كالوالد وأولاده فلا اعتراض إذا ما حكم فيما سمح به وأوسم وهدى فتصبح هذه الأمور يوم الفقر وعندما تقوم الموتى من القبور فتظهر الحقائق وتعرف الخلائق مقاصد الخالق وأوصيك متى توليت تحت مملكة غزة أوصيك فى الحنك والحكم والسيف والقلم واجب عليك أن ترسل إلى الجازية فى كل عام فحينئذ نهض السركسى فقبل يديه وقال أنا طوع يديك وجميع أمورى متجهة إليك وما أنسى جميلك وإحسانك مادمت على قيد الحياة فحينئذ أمر له السلطان بخلعه سنية وحلة ملوكية نهض أبو زيد ودياب وألبسوه إياها أمام الوزراء والقواد وأرسلوه إلى محكمته فى احتفال عظيم وأجلسوه على تخت المملكة ودعوا بعضهم ثم أخذوا فى أهبتهم للمسير إلى بلاد الغرب لكي يخلصوا أولادهم من الاسر والكرب فركبت الأربع تسعينات الألوف وانتشرت البيارق والصفوف والطبول فى الصحارى والسهول وأخذوا يجدون فى السير ويسابقون فى سيرهم الطير إلى أن وصلوا العريش فنصبوا المضارب والخيام وسرحوا فى مسيرهم تلك الوادى والآكام.

(قال الراوى) أنه كان فى العريش ملكا من الملوك العظام صاحب بطش وإقدام يقال له البردويل بن راشد وكان فارس شديد وبطل عنيد وكان بانى له قصر مشيد الامكان عالى

البنيان وحوله العساكر والفرسان وكان مجوسى يعبد النار دون العزيز الجبار ويسجد للشمس كل نهار ويلبس طاقية الاخفا ويقرأ الطلاسم والبراهين فما يعود أحد ينظره من الفرسان وبهذا الشأن يقهر الأبطال فى بعض الايام أخذ خبر بنت الملك سذيس الملك مرصاد حاكم هاتيك البلاد وعنده ثلاثة آلاف فارس ما بين مدرع ولابس والبنت اسمها عليا وكانت ذات حسن وجمال وقد واعتدال وبهاء وكمال فلما سمع البردويل بوصفها ما بقى يملك من العقل ولا درهم فكتب كتاب إلى أبوها الملك مرصاد يطلب ابنته عليا إلى الزواج فأبى الملك مرصاد ذلك فجاوبه البردويل وقتله وزيره وأخذ بنته عليا زوجة له هذا ما كان من أمر بردويل والملك مرصاد وانرجع بالكلام إلى بنى هلال انتهوا من حرب السركسى فى غزة قصدوا وادى العريش فنصبوا فيها المضارب وسرحوا مواشيهم على تلك البرارى والاكام وكانت هاتيك البلاد يحكم عليها البردويل فلما سمع بقدوم بنى هلال ونزولهم فى وادى العريش عند مرادها طلقوا طروشهم فى كرومه يكون يأكلون ويتلفون الأشجار واغتاظ وتكدر وشخر ونخر واقسم برب البشر لا يبقى من بنى هلال لا عدا ولا أمرا واستدعى بوزيره منصور اليه فتمثل بين يديه فقال له ما الرأى فى هؤلاء العربان الذى سوادهم ملا البطاح والوديان وأشار يقول :

قال الهمامى ودمعى شجانى … أنا ابن راشد قاصم الأخصامى

جونا هلال فوق الجمالى … ونزلوا قبالى وبنو الخيام

وبنو البيوت التخوتى وهيوا … الزخوتى لخيل وأملوا الأراضى

طولا وعرض اليوم لامضى … بجنح الظلامى معهم دروعى

سيوفا لموعى جملة جموعى … يوما لزامى معهم رماحى بيضا

صفاحى لاجـــل الكفاحى … اليوم الصدام يا وزير منصور

قل لى ما الشور نركب وندور … ندركم قوامى اتركب عليهم

ونبلغ اليوم ونهجم عليهم وقته … المنام دولا خوارج جونا

خوارج الدحارج ادفعهم أمامى … يقول ابن راشد القول ناشد

والاعدا جاحد فى الزحامى

(قال الراوى) فلما فرغ البردويل من كلامه والوزير يسمع نظامه أجابه قال طويل العمر رفيع القدران كنت تريد رأيى وشورى ولا تقع لقول غيرى أكتب إلى الامير حسن فى طلب عشر المال والنوق والجمال فان أعطى كان قتالهم حرام وإن ما أعطى كان قتالهم حلال وملام فبعد أن أتم الوزير هذا الكلام عندها طلب البردويل قلم وقرطاس ودواية من الذهب الخاص وأخذ يكتب لى حسن فى طلب عشر المال والخيل والجمال :

يقول الفتى البردويل بن راشد ... وفارس الهيجا يوم طرادى

ولى همـــة تعلو على ماجد ... ولى فى ملاقاة الملوك عوادى

يا حسن اسمع كلامى وافتهم ... واصغ لقولى لا تكون منادى

من أى أرض أتيتوا لبلادنا ... وأنا حاميها فوق ظهر جوادى

يا بو على وادى العريش جيتها ... بسيفى ورمحى للدما بدادى

يا بو على قدم لنا عشر خيلكم ... عشر المواشى مع جمال بوادى

وقدم لنا وطفا وبنت القاضى ... وقدم لنا بنتك بغير عنادى

وإن لم تجيبوا كل شىء طلبته ... ردوا الى نجد شريع زادى

فا قال البردويل بن راشد ... وأنا دوام سيفى للعدا عنادى

فلما فرغ البردويل من كلامه طوى الكتاب وأعطاه إلى عبده سعيد فأخذه وصار إلى أن وصل إلى بنى هلال وأعطى الكتاب للسلطان حسن فقرأه وفهم معناه فاسودت الدنيا فى وجهه وارتبك فى حاله فكان أبوزيد موجود فلما رأى ذلك أخذ الجواب وقرأه وفهم معناه فقال أبو زيد للعبد سعيد قل لسيدك ليس لك عندهم غير الحرب ورمى الرقاب فسار سعيد وأخبر مولاه البردويل بذلك فغضب وفى هذا الحال أمر وزيره المنصور وكان تعلابا يركب فى مائة الف فارس وينزل إلى الدرب وأن لا يذكر منهم صغيراً وكبيراً إلا الله فسار البطل منصور حتى وصل إلى السيد فسر اليه الأمير وقالا وجالا وصالا واصطدم وضرب أبو زيد منصور دياب بالرمح تخلى منها دياب وضربه بالحربة خرجت تلمع من ظهره وولت رجاله ودخلت على البردويل وأخبرته بما جرى فلبس البردويل ثلاثة دروع فوق بعض ووضع فى

جبينه طاقية الاخفا نزل إلى الميدان فهجموا بنو هلال رقد وقع فى قلوبهم الرعب ولكن لله در بعض أبطالهم فإنهم ظهروا الجلد واخفوا الكد ومع كل ما جاهدوا وعانوا واستظهرت عليهم عساكر وكسروهم فى آخر النهار فرجعوا على أعقابهم مقهورين وقد كان أبو زيد غايب فى الصيد والقنص ولم يعلم ما جرى من هذه القصص فى صنوان حسن ومن بعد رجوع بنى هلال من هذه الواقعة التى كانت عليهم أشأم الوقائع اجتمعوا وأخذوا يتشاورون فى دفع الجزية للبردويل وإذا هم فى الحديث أقبل أبو زيد فلازموا السكوت فسألهم أبو زيد ما لهم وعما لقوه من حرب البردويل أجابه حسن وقال له والله إن البردويل ما أحد يلقاه لا إنس ولا جان فقال له أبو زيد الله يا حسن قد أغراكم الوهم ولا شك إنكم تتشاورون فى دفع الجزية للعدو فوالله ما أطاوعكم أبداً ولا أرسل الجزية ما دمت أقدر على ركوب الجواد وتقلد فى آلة الحرب والجلاد وراح يتكلنا بقيل البردويل وهو يقول :

قال أبو زيد الهلالى يا حسن اسمع كلامى أنت مع من حضر
لا تخافوا من طعان البردويل إننى أطفى لكم منه الخبر
وغداً باكر أنا أنزل اليه فوق مهر مثل طاير أو صقر
سوف أسقيه المنية عاجلا ثم أدركه حديثاً يذكر
ما يشاء ربى ويركبنى الجواد لا تخافوا من ملوك ووزراء
وكذا فى التسليم فى كل الأمور وهنيئا للذى بلغ الوطر

فلما فرغ أبو زيد من كلامه توجه كل أمير للصيوان ولم يبق عند السلطان حسن غير دياب والقاضى بدير وعلى بن مالك وابو عوف وعامر وحماد وعرندس فتشاوروا مع بعضهم وقالوا غداً يذهب أبو زيد إلى البردويل فيقتله البردويل ونبقى بعده فى حزن طويل ما يكون عملنا ثم نهض حسن ودخل إلى خزانة السلاح وطلع قيد المملكة وهو أربعة أرطال فضة ووضعه على منديل وأعطاه إلى دياب وقال اذهب إلى أبو زيد أنت وخالك القاضى بدير وعلى بن مالك وأبو عوف وعامر وحماد وعمك عرندس وقول له ان كنت طايع الله والأمير توضع رجلك فى هذا القيد لبكرة وباكر نجى نفتح لك فان حسن خايف عليك أن تذهب إلى البردويل ويقتلك

فاخذ القيد دياب والامارة الذى قال عنهم حسن وساروا إلى أبو زيد ودخلوا وسلموا عليه فقام لهم على قدميه وترحب بهم وأجلسهم فى دار الضيافة وبعده قال لهم ما هذه الجية فقام دياب ووضع المنديل قدام أبو زيد وقال له باعت لك إياه ابن عمك حسن فقام أبو زيد فتحه ووجد فيه القيد فقال ما هذا يا أجاويد قالوا لأجل أن توضعه فى رجلك ابكره واخبروه بما قال حسن قال صبراً جميل وبهت ساعة وقال إن خالفت حسن فما أحد يطيعه ومن يقدر يسفه كلام الأجاويد ثم انه أخذ القيد ووضعه فى رجله وقال سمعا وطاعة وقال لله در الأمير ولكن عليكم وحدة تجيئوا وتحلوا لى القيد بكرة من صلاة الصبح فقالوا سمعا وطاعة وذهبوا وعلموا حسن فخاف حسن أن يتعرفوا على أبو زيد فبعث وراء أم مخيمر وقال لها يا أم مخيمر خذى مفتاح القيد حطيه معك ولما تشوفى الفجر لاح بمكن الامارة يتعرفوا على بعلك وابقى أعطى المفتاح من عند الأمير حسن واياك يا أم مخيمر أن يعلم بك أبو زيد ويخبره عن المفتاح فقالت سمعا وطاعة ثم ذهبت إلى عند أبو زيد وقعدت قباله هذا ما جرى على أبو زيد الدرغام ورجع إلى البردويل الهمام فانه فى الصباح دق طبول الحرب والكفاح وبرز إلى ساحة الميدان وطلب براز الفرسان فانحدر اليه الأمير حسن وحين التقت العين بالعين قال له البردويل أهلا وسهلا يا أمير بنى هلال وعامر ومن الديار والخيل علينا تخامر أما حسن فلما شهد البردويل وهره جثته وكبر هامته وغلظ رقبته فقال والله إن هذا من عفاريت السيد سليمان ومن أفرس أبطال الجن فانطبق عليه وأخذ فى الصدام من الصباح الى وقت الظلام فافترقوا على سلام ورجع كل منهم الى الخيام ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح برز البردويل إلى ساحة الميدان فبرز اليه قاضى العربان فلما نظر البردويل قال أنت قاضى العربان تريد تحارب الفرسان فقال له اليوم أريك اليوم أفعالى وأبليك بنزال وهجم عليه وتقاربا وتصادما ولم يمض عليهما ساعتين حتى أن البردويل هجم والدبوس فى أيده وضرب بين كتفيه فظن أن روحه خرجت من بين جنبيه فدار رأس جواده وولى هارب إلى النجاة طالب فانحدر اليه زيدان وانطبق عليه انطباق الغمام فما أطال عليه المطال حتى كل فى الحال هارب وإلى النجاة

طالب فبرز إليه عقيمر وبعده عكرمة ثم مفلح أيضاً بطل حتى برز إليه خمسة وعشرون أميراً من الفرسان المشهورة والأبطال المعروفة فتهر الجميع وعلم على الكبير والصغير ولا يمكث لواحد أكثر من ساعة إلا ويولى هارب وإلى النجاة طالب وما زالوا على هذا حتى أمسى المساء ولما أقبل الظلام ودقت طبول الانفصال أخذ كل منهم شطر أمما أصابه من هذا الأسد الريبال وفى ثانى الأيام برز الأمير دياب الأسد المهاب وصال وجال ولعب برمحه العضال حتى حير عقول الشيوخ والشبان وطلب براز الفرسان فبرز إليه البردويل وهو بعظم جثة الفيل فالتقى البطلان كأنهما جبلين وحان عليهما الحين وغنى فوق رأسهما غراب البين وأخذوا فى كر وفر واقتراب وابتعاد فلما شاهد الأمير دياب أن خصمه شديد وقرم عنيد فأشار إلى بنى زغبة فطبقوا على قوم البردويل فقاتلوهم أولئك فى ضرب مثل النار حتى ماعدت تنظر فى ذلك النهار إلا رؤوس طائرة ودماء فائرة وفرسان غائرة وأنذال حائرة والرؤوس تتساقط مثل ورق الشجر فيالها من وقعة مهولة تشيب رؤوس الأطفال وتحير عقول الأبطال وكان ذلك اليوم على بنى هلال بئس الأيام وأشهر الأعوام وقد كسرتهم عساكر البردويل وأرجعوهم إلى الخيام ينوحون على مصائب الأيام ورجع البردويل إلى قصره فرحان وهو يدمدم كالأسد الغضبان هذا كله والأمير أبو زيد مقيد فلما قال لنا أبو زيد هذا الخبر ، ماقيل وما جرى على بنى هلال من العرب اغتاظ وتكدر وصارت عيناه تقدم شرر وصار أبو زيد يتقلب على الفرش مثل الثعبان فقالت له أم عقيمر علامك أنت حامل كل هذا الهم وأنت عندك مال أكثر من غيرك وأنت الامارة ما يدفعون غفارة لاى شىء اترمى روحك فى المهالك مع هذا الساحر وأنت ما سمعت ماذا عمل مع العباد فقال لها أبو زيد والله ما هو على شىء ولكن من غيظى من حسن ودياب ما يهمنى ولازم أروح للبردويل واقتله وإنى بعون الله ده ثلاث مرات بكل ما يمكن أو ما للبردويل قد طلب مال وخيل وجمال وعبيد وجوار وسلاح وبنات ملاح وأول ما طلب بنتك جمال الطعن كيف نعطيه إياها قالت لا يرحم الله ولكن أنت تقدر عليه وعلى طلاسمه وسحره فقال لها إن شاء الله تعالى وأنت ما تعرفى ملك يا أم عقيمر والأمير حسن كل يوم عند الصباح وعليك المفتاح ومرادى الآن فى هذا الليل أن تسيرى اليه وتسرقى

المفتاح من جيبه وتجى تفتحى القيد وأتوجه إلى البردويل وأقتله وآخذا ياحة على بنى هلال فضحكت وقالت ماذا تعطى الذى يجيب المفتاح فقال لها ما تريدى أن أقام وعند أربعين ليلة فاذا كنت تريدى أن تفرجى كربى افتحى القيد وأطلقى البار للصيد. فقالت إن الأمير حسن قد أقسم على أن لا أفتح لك إلا في الصباح أين تريد الذهاب فى هذا الليل فانى أخاف عليك من البردويل أن يقتلك ويعجب بدمارك فقال لها إن قتلنى تأخذى لك رجل آخر وإن ق لوك بعدى فما أنت أحسن منى فقالت له يا ذلنا من بعدك يا أبو شوشان وأخرجت له المفتاح وفتحت له القيد فوثب فى الحال مثل الجرذان وشد على ابن الحيصان وتصفح بخمس من البولاد ولبس الدروع المصفح وشد رحاله بأنواع له الحرب حتى صار قطعة من البولاد وعقل على ظهر الجواد كأنه كتلة من الكتل وقطعة فصلت من جبل وشاحت عليه وعلى الحصان هيا كل الطلاسم والاقسام وتحولت بآيات الله العظام وسلم روحه إلى الواحد العلام وقد جد السير للحال حتى بلغ قصر البردويل الريبال ودار حوله ثلاث دورات فوجده عالى البنيان رفيع الاركان. وهو منفرد عن القوم مسافة نصف يوم وكان وصول أبو زيد عند طلوع الشمس. فكان البردويل نايم على ركبة عليا ومتمدد مثل العفريت من أول القصر إلى آخره. فعند وصول أبو زيد إلى الباب وجده مصفح فى ألواح البولاد كأنه من بنيان ثمود وعاد فرفع يده وضرب الباب فى دبوس الحديد فتزعزع القصر بسكانه وكاد يزيح من مكانه فعند ذلك اتكى على فراقه وصار يتأمل فيمن يرد عليه ويفتح له فما أحد رد عليه فدق الباب ثانى وثالث فأتاه سعيد عبد البردويل وأطل من الشباك فرأى أبو زيد راكب على ظهر الجواد وهو كقطعة من البولاد فقال ما تريد أيها الفارس العنيد والبطل الصنديد فقال له أبو زيد أريد مولاك البردويل يا أيها العبد الذليل. فاذهب اليه وقل له فارس على الباب طالبك فى الحرب والكفاح فاندهش العبد من هذه الجسارة ورجع وأخبر سيدته عليا بهذه العبارة فان مولاه البردويل كان نايم على ركبتها فقال لها يا مولاتى إن فارس بالباب أسمر اللون بطل عنيد كأنه البرج المشيد وهو قد ملأ الارض بصراخه ولما رآنى قال لى قل لمولاك البردويل أن يبرز

إلى الحرب والكفاح فقالت له ما قال اسمه أجابها لا ولكن هيئته تدل على أنه اعرابي وبينما العبد يخبرها بذلك إذ سمعت صوت من خارج القصر يقف كالرعد حتى كادت تهتز منه أساسات القصر وكان الصوت صوت أبو زيد وهو يقول قم يا بردويل من نومك الآن وفيما بعد أدعوك تنام إلى الابد فلما سمعت عليا هذا الصوت أرتعشت فرائصها ورفعت رأس البردويل عن ركبتها ووضعته على مخدة ناعمة وأشرفت إلى الباب قبال الأمير أبو زيد وتأملت فيه فاذا هو مثل الصقر وقلبه أشد من الصخر ، فلما نظر أبو زيد ذلك المنظر كأنها البدر المنير حول نظره عنها فقالت له ما مرادك ومن أي قبيلة أنت فقال لها أنا الأمير أبو زيد من بني هلال ومرادي أحارب البردويل هذا النهار ودعيه ينزل إلى حربي فلما سمعت هذا الكلام أخذت ترحب به وتخبره عن حالها وتقول :

أسمع يا صنديد مني وافتهم	اسمع اقولي ولا تكون جنوف
أن الملك مرصاداً مثله حد	عكم على قوم بغير جنوف
مائة أمير تركب مع أبي	ومائة ألف عساكره وصفوف
خمسين الف من العبيد وغيره	ما كولهم لحم الغنم معلوف
أنا الذى فاق حسنى على القمر	حتى دعا البردويل كسوف
قتل أبوى بوسط عكا بظلمه	ودماه من فوق الثرى مجدوف
وأباد عساكرنا وشتت شملنا	وأنا أخذني غصب عني عسوف
أنا وثمان سنين أنذيب حائرة	حتى إلهى من سماه يشوف
فأراد أخذى ابن راشد زوجة	أيام سعدي قد أتت سعوف
إن كنت يا صنديد تفرج همنا	خبر القلب الخايف الملهوف
ادعو لربك من سماه تخلصك	من شر هذا الناكر المعروف
ما قالت عليا عما جرى لها	يا ناز قلبي لا تزيد لهوف

فلما فرغت عليا من كلامها قالت لأبو زيد أنا خايفة عليك من البردويل أنه يذيقك الحرب الوبيل لأنه فارس ما له مثيل ولا يوجد مثله في الآفاق قال لها أبو زيد

حبيبه أن يأتيني من دون إطالة كلام واليوم تنظرين فعالي والسلام لا بد ان تذكري فعالي على الدوام فعند ذلك توجهت عليا إلى البردويل فرأته غارقا في المنام فلما أفاق قصت عليه ما سمعت من الكلام وأخبرته عن قدوم البطل أبوزيد الصنديد وانه عن قتله لا يحيد فلما سمع كلامها من الأول إلى الآخر قام وقعد ورغى وازبد وقال لها بغضب اللتايني وسأخذ بثارك لو كانت اعز من حياتي وشاع فيك غرامي وشجوني لكنت ضربت عنقك بهذا الحسام فكيف تخيفيني من فارس أو من مائة فارس أو من الف فارس وأنا لا احسب لكل من دب على الغبراء وطار في السماء حساب فقامت له اهل كل الرجال رجال والثعالب مثل اسد الدكار فما زالت النساء تحيل وتدعى وجه الأرض شاطر فلما سمع من عليا هذا الكلام صار الضياء في عينيه ظلام وصرخ صوتا دوت له الجبال واهتز من هوله التلال وقال لها كفاك عربان يا بنت اللئام إلا قطعت رأسك بهذا الحسام فلما سمعه أبوزيد من خارج الدار صاح عليه صوتا وقال له اسكت يا حمار وانزل إلى قتالي فستري بلائي انزل قبالي وإلا أهدم عليك القصر قبل أن يأتي وقت العصر فلما سمع البردويل هذا الكلام صار الضياء في وجهه ظلام فقام لساعته ولبس آلة حربه وعدته وأفرد على بدنه ذراع داوردي مصفح وتقلد في سيف كأنه البرق اللامع أو الموت الماحق ووضع على جنبه طاقية الاخفا ونادى على عبده مسعود وقال شد لي على جوادي المعهود في الحال شد عليه وأحضره اليه فوثب وركب عليه وعلا فوق ظهره كالبرق المشيد وهو كقطعة من حديد حتى صار كأنه كتلة من الكتل أو قطعة فصلت من جبل وقال للعبد افتح لي الباب وحافظ لي ما في القصر وإلا أذيقك العذاب ففتح العبد الباب وكان مصفحاً بالحديد وحصل أبو زيد على فرح ما عليه من مزيد ولما فتح الباب تأخر إلى الوراء وأخذ يقرأ آيات الله العظام ويقول عونك يارب الأنام وحينئذ خرج البردويل كأنه سبع كاسر أو أسد ظافر أخذ يلاعب حصانه كأنه فرخ جان أو من عفاريت سليمان وكان أبوزيد متكى على رمحه يلتفت ذات اليمين وذات الشمال فنهض الملك البردويل اليه .

تمت هذه القصة ويليها قصة الملك الفرمند

قصة الملك الفرمند

حاكم مصر ونزول أمراء بنى هـــلال عليه وما جرى من الحروب والأهوال التى تشيب لهولها الأطفال وفيه قتل البردويل بن راشد ملك العريش على يد الأمير أبو زيد الفارس الهمام

(قال الراوى) لهذه السيرة الغريبة أن الامير أبو زيد لما علم بانكسار أمراء بنى هلال أمام البردويل كان ذلك الوقت مقيد بقيد من الحديد فعمل كل حيلة على زوجته حتى فتحت القيد منه فقام فى الحال وتقلد بعدة الحرب وركب وسار بمفرده إلى أن وصل إلى قصر البردويل بن راشد فناداه أبو زيد بصوت كالرعد فنزل اليه البردويل وناداه قائلا تعالى يا اعرابى حتى أنظر ما هو مرادك ومن الذى قادك وغرك فأخذت أبو زيد الحمية الجاهلية والنخوة العربية وهجم عليه هجمة الأسود. فالتقيا البطلين كأنهما جبلين أو أسدين درغاميين وطلع منهما الصيحات حتى ملأت الفلوات فعند ما رأى البردويل انه تعبان من صدمات أبو زيد طلب سيفه فى الحال قال.

قال ابن راشد من فؤاد ميلى　　والنار فى قلبى تزيد وقادى

أيا ملوك الحال فانتبهوا　　وافهموا ما قلت من الانشاد

يا ملك شموخ أتينى بعروتك　　وعكرش ومكرش ثم ابن جرادى

وأنت يا غيلان هات لقومك　　مثل الجراد ورابطوا بالوادى

يا شمرزان فلا تخاف كلتى　　واشفى لقلبى مرة فى مرادى

فلما فرغ البردويل من كلامه وأبو زيد رافع عينيه إلى السماء غير مكترث لنظامه بل كان يقرأ الفاتحة ويذكر كلام الله ثم بعد ذلك التفت إلى البردويل فوجده لابس الطاقية ويقول أراك جهول ثم أشار بيده إلى الملوك العلويين وقال:

يقول أبو زيد الهلالى سلامة　　فانا بفعل المكرمات أنادى

أصيل من الجدين فخر قبيلة　　شريف داكى الاصيل من اجداد

وأمى شريفة يا ابن راشد أصلها منسوبة الجــدين ذات عماد
واسم أملك صالحا يا بردويل من لمتك كانت تشيل مرادى
أبوك فرنجى وجدك حقا وأنت تخالف بالعين مرادى
إن كنت ما تسلم دهيتك طعنة وأصير لك بين الملوك معادى
عندى عزائم موايده كثيرة يحكم على الخدام ثم مرادى
سبع قبائل والملوك سبعة أيضا خرفوش طاع والاجناد
والكواكب والمنازل والبردوج هو مسندى عند الخيام وسادى
ضربت أنا بالرمل أخذت علامك بقيت لك ضمار وشكل سواد
أنا أسأل ربى بموسى وعيسى كذا بالنبى المختار ذى الأمجاد
فارسل ملائكتك يعنوا بحراسى احفظنى يا رب من ذى الأعادى
وارسل روفائيل تحوى بعينى ويجرى ملوك الجان الأعادى
يا رب يا رحمن اسمع دعوتى واغثنى بلطفك يا سميع مرادى

فلما فرغ أبو زيد من كلامه والبردويل يسمع نظامه استشاط غضبا وغيظا فما عدت تسمع إلا صياح وهدير ودمدمة فى السن مختلفة وكنت تسمع الصوت ولا ترى الزوال هذا والبردويل لما وجد حاله مغلوب ولم يقدر أن يختفى من قدام أبو زيد حيث أن الملائكة العلوية طردت ملوك الجان السفلية إلى سابع أرض وأبطلت عزيمتهم على ما فرط منه فى حرب أبو زيد وكانت عليا زوجة البردويل تتفرج من الشباك فلما نظرت زوجها انقطع أمره وأبو زيد غالبه فرحت وصارت تزغرت فظن البردويل أن هذا الغناء لأجله ولم يعلم انه لأجل عجزه وفشله فاخذته الحماسة والنخوة وهجم على أبو زيد مثل النمر إذا خطر فتلقاه أبو زيد كما تلقى الأرض العطشانه وابل المطر وعلا منهما الصياح حتى ملأ تلك الروابى والبطاح وسار الأمير أبو زيد حول البردويل فحينئذ تيقن فى ذهاب روحه وزوال سعادته فهز أبو زيد فى يده عود الزان ورفع يده وقال اللهم استر عبدك يا من رفعت وبسطت الأرض وطعن البردويل فى صدره خرج يلمع من ظهره ومن عظم الطعنة أصاب بالرمح صخرة كانت وراء البردويل فشقها فوقع البردويل على الأرض

يختبط طوله بالعرض فقالت عليا لا شلت يداك يا فارس وحالا نزل أبو زيد عن ظهر الجواد وسحب لسانه وأزال أسنانه وأخذ الساقية والدرع والسيف والخوذة والرمح ثم تقدم إلى تلك الصخرة وكتب عليها بخط واضح هذه ضربة أبو زيد الهلالى سلامة وملعون ابن ملعون كل من يمر بهذا المكان ويقرأ الكتابة ولم يمسح الغبار عنها والصخرة الآن فى مريش مصر ثم التفتت الست عليا وقالت يا أمير أبو زيد خذ هذه بدلة زوجى البردويل فانت أحق بها من غيرك لانك أنت القاتل لهذا الشيطان فأخذها أبو زيد وعلق الجميع فى قربوص ابن الخيصا وأتى باب القصر وكان ذلك وقت العصر وختمه بختمه وركب على ظهر الجواد وقال عاشان خاطرك يا ست عليا يا بنت الكرام فارجوك عندما تطلبين الشهادة تظهرين واقعة الحال كالعادة وتكلمى كما نظرت فقالت أرجوك تدخل القصر اترتاح ثم تتناول الطعام أيها البطل الدرغام والليث الهمام فانك تعبت من الحرب والكفاح فى البيض الصفاح فقال الأمير أبو زيد أنا لم أدخل الدار خوفا عليك من العار لكونك غريبة فيكون كلام الناس أمر من ضرب السلاح وأما أنت فاعطينى المفتاح لكى أقفل عليك القصر حينئذ حققت عليا شهامته وعرفت نخوته وأكدت انه من أمارة بنى هلال فأعطته المفتاح فأخذه وقفل القصر وأدار رأس جواده إلى ناحية بنى هلال فوصل فى نصف الليل ثم دخل صيوان أم عجيمر فرآها تبكى فقال لها أبو زيد الحمد لله على اجتماع شملنا ثم قام ووضع ما أتى به من أمتعة البردويل فى الصندوق وقيد نفسه بالقيد الذهبى وتظاهر بان لا له ولا عليه هذا ما كان منه وأما ما كان من حسن وهو فى الديوان وحواليه الامارة فقال لهم البارح قد التهينا بالضيوف وتركنا أبو زيد وما رأينا كيف حاله والبردويل ماعاد علينا للحرب فقوموا واذهبوا لعنده وادعوه يأتى ننظر ما هو رأيه فراح أحد الأمارة وأخذ معه المفتاح غير الذى كان مع أم عجيمر ودخل على أبو زيد قال له عن أمر السلطان ارفع القيد من رجلك واذهب اليه فقال أبو زيد قد صار لى ثلاثة أيام ما نظرت أحد منكم نسيتم اليوم أبو زيد ولكن الله يجازى كل واحد بأعماله فقال الأمير فايد والله يا أبو زيد ما نسيناك ولكن كان موجود ضيوف عند

حسن وهذا المانع من زيارتك فبعدهذا الكلام فك القيد من رجله وركب دون سلاح وما حمل معه سوى عصاه بيده وتوجه نحو حسن فحين وصل إلى الخيام قام الجميع على أقدامهم وحيوه بأحسن تحية ثم قال له حسن لا تؤاخذنى يا ابن عمى قد غفلنا عنك بمقابلة الضيوف فقال أبو زيد وماذا عملتم من المصالح فى حرب البردويل فقالوا نحن أرسلنا وراءك لأخذ رأيك فقال أبو زيد والله ان البردويل فارس من الفرسان ولا احد يقدر يحاربه فالى رأى إلا أن ترسل له عشر المال والنساء والعيال وتذهب اليه الجمارم فى رقابنا فقال حسن فى هذا الوقت قد قلت الصواب بارك الله فيك وأعطاك كل ما يكفيك إلا أن ارحت افكارنا واشتريت اعمارنا هذا ما كان منهم اسمع ما جرى بعد ذلك أنه صباح اليوم الثانى الذى قبل قتل البردويل أخذت الرعيان فى تسريح المواشى حسب العادة فصار منهم ثلاثة رعيان وسرحوا بقرب قصر البردويل وكان لهم عادة ينامو افى ظل القصر كان البردويل ما كان يقوم إلا العصر فقبل أن يبلغوا المكان المقصود نظروا شخص البردويل على الثرى ممدود وهو منفوخ مثل البرميل ولم يعلموا أنه قتل ولكن توهموا بأنه راصدهم ليقتلهم فقالوا بعضهم هذه النومة مشئومة فتأخروا من ذلك المكان خوفا من أن يسطى عليهم هذا القرنان وكان معهم عبد اسمه مسعود فقال لهم أنا مرادى أذهب اليه وأنظر ما هو اليه فان نظرنى أقول له أنا أتيت بهذا الطوس من عند العرب وأريد أن أعيش فى ظلك وأنال الأرب وان ما شافنى أزهو اتركه فى الفزع فقالوا رأيك مناسب فتوجه مسعود إلى أن وصل إلى قرب القصر فرأى البردويل مقتول وعلى الثرى مغلول وعظم جثته كجثة الغول ورأى رأسه بعيد عن جثته ولسانه مأخوذ منه أخذ يتفرج على ذلك الراس وهو قد رأس الثور الكبير فأخذه الرعب وصار يلتفت يمينا وشمالا فلم يجد أحد فقوى قلبه وسكن روعه وكانت عالية فى الشباك فصاح مسعود هيا أصحاب قصر علام سيدكم قتيل وأنتم نيام يا جيف هذا البنا يترك هذا المقام فاجابته عالية من الشباك وهى تضحك عليه فسأل عن زوجها البردويل فأشارت تقول :

تقول فتاة الحى عليا بما جرى   والنار جوا الحشا زادت ضرام
اسمع كلامى يا مسعود وافتهم   ما أتى راع ولا قد جاه علام

هذا يعلى البردويل بلا خفا من أم أتاه السهم هل من الغمام

بان لى بالك أنت غريبه يا بن عليك أنت من فوارس عظام

ليفخر بقتله بعين الملوك يبقى لك هيبة كما سبع الآكام

فلما فرغت عالية من كلامها ومسعود العبد يسمع نظامها ظن انه يخدعها وقال أنا الذى قتلته والحياة أعدمته ومرادى أخذ رأسه إلى أميرنا حسن الهلالى وافتخر فى قتله على جميع العربان فقالت أفعل ما تريد فأخذ مسعود الراس وكان هاالحد أفقدم المدينتين وربط الرأس فى فرسه وعلقه فى كتفه وراح يترنم بقوله ما كل العبد عبيد ولا المولى موالى وكان العبيد حول مسعود يغنوا له الأغانى وينشدون النشائد وكان هو حامل رأس البردويل على كتفه حتى وصل صيوان الأمير حسن ورمى الرأس قدام الصيوان كرأس مردة الجان فخرج الأمير حسن والأمارة يتفرجون على ذلك الرأس الهايل والشعر فيه كالجدايل وقد تعجب الأمير من فعل مسعود البطل الممدود فقال حسن والله من أتى برأس البردويل هو بطل ماله مثيل وله فى الايام الجزيل فوثب مسعود وقال لعينيك ياسيدى عبدك مسعود أتى بالرأس واخذه من ذلك الشقى الانفاس وأعدمه لإحساس فقال الأمير حسن لله العجب من كان يقول ان منية البردويل تقضى على يد عبدنا مسعود وقد كان هذا يخطف الأرواح ويتركها كالاشباح وذقنا من حربه البلا والكرب وانواع الذل والتعب ثم التفت إلى العبد مسعود وقال كيف عملت فى قتل البردويل فقام وقبل يدا الأمير حسن وقال قد كان عبيد دوا شكم فى البردويل والجمال سارحة فأخذتنا هجمة النوم فنمنا قليلا ثم استيقظنا فوجدنا اشنا غائب عن اعيننا حتى بلغت قصر البردويل وتلك الفقر فتوجهت بنفسى لاردها وعن عنادها اصدها فلاقانى راشدونى وظن انه يهاورنى لكن لم أرد عليه وتقدمت اليها لاردها فأتانى وهو مثيل كالسبع الكاسر ووقع يده بالدبوس وأراد إعدامى الحياة ويذيقنى الممات فراحت الضربة خائبة من غير صائبة ثم وضعت حجر أفى مقلاعى وفعلت فعل داود فى جليات وأذقت البردويل الحسرات لأنه بالقضاء والقدر أتت الضربة بين عينيه فخرج الدم يتدفق من بين شفتيه وحالا تقدمت اليه وعجلت

عليه وطرحته على الأرض انقطع منه النفس وسحبت فى يدى السكين وقطعت رأسه
وأخذت نفسه وجميع العبيد يشهدون لى بذلك فقالت العبيد نعم إنه قد قطع رأس
ابن راشد أمامنا فقال مسعود أريد منك يا سيدى أن تجعلنى سيداً على كافة العبيد
وأن تزوجنى ابنة بيضاء وأربع جوار سود وأن تعطينى جواداً من خواص الخيل
وعدة حرب كاملة وألف دينار ومواشى وعبيد وغلمان فقال القاضى تستاهل
يامسعود أزود من ذلك فى الحال نهض أبو زيد على أقدامه وقال كفاك ياعبد السوء
ما تستحى إنك تقول قتلت البردويل أيها الهبيل قال العبد نعم وحياة رأسك ورأس
الأمير حسن فقال له يا عبد السوء أنت أفرس منى ومن دياب فقال مسعود إن
لكل إنسان منية ومنية البردويل على يدى فقال أبو زيد فى أى شىء قتلته فقال حسن
كيف ما كان قتله أراحنا ربما كان يلعب فى الميدان وقنطر فيه الحصان ومسعود
هز رأسه فقال أبو زيد تمهل يا حسن قليلا ثم قام وفتح فم البردويل وقال أظنه
كان أخرس كان ليس له لسان فماذا الشان وقام الجميع ونظروا ذلك وتعجبوا
فقال يامسعود لما البردويل طلع ما كلمك فقال نعم وكان صوته مثل الرعد القاصف
فبالحال وقف أبو زيد وقال له أين درعه وأين طاقيته وسيفه ورمحه وبدلته وحصانه
وقد أخذت من أبو زيد الحدة فقام وركب جواده إلى عند أم خيمر وأتى بعدة
البردويل والحصان والطاقية والسيف والرمح وكل ما كان عنده من أمتعة البردويل
وأتى بهم إلى صيوان حسن ووضع الجميع أمام الأمارة ثم رمى بلسان البردويل أمام
دياب وقال له تفرج على هذا اللسان وبهتوا الامارة وتعجبوا من هذا الامر وأما
مسعود العبد حين نظر ما جرى سار ينسحب مخافة إلى أن هرب من الصوان لعند
الرعيان وأما الامارة فأقاموا من ساعتهم وركبوا خيولهم وكانوا الذين فارس من
الفرسان المعدودة والرجال المشهورة وقالوا إلى أبو زيد اركب معنا فقال أنا ما أروح
حتى ينكشف لكم الخبر فركبوا وفى أوائلهم حسن وساروا الجميع نحو قصر البردويل
وعند وصولهم إليه وجدوه قصر عالى البنيان فتقدم حسن نحو باب القصر فوجدوه
مختوم بختم أبو زيد فقال حسن يا ترى هل يوجد أحد فى هذا القصر فما تم كلامه
إلا وعاليه أشرفت من الشباك فشاهدت حسن وأمارة بنى هلال وكان للقصر

باب صغير غير الذى قفله أبو زيد وختمه بختمه فنزلت عاليه منه وأقبلت أمام حسن وقبلت يديه وتمثل بختمه وحينئذ سألها من قتل ابن راشد فحكت له ما جرى لأبو زيد معه وما فعل العبد مسعود بعد ذلك .

فلما فرغت عالية من كلامها وحسن وبقية الامارة يسمعون قولها قال حسن والله ماهذه إلا أفعال أبو زيد ثم قال إلى عالية وأين المفتاح فقالت له مع أبو زيد وبينما هم فى الحديث إذ أقبل أبو زيد راكب على الحصان فعندما أقبل قاموا له على الأقدام ولاقوه وحيوه فى الاكرام وأثنوا عليه وقالوا له لله درك من بطل لا تخشى نوائب الأيام وحينئذ قام أبو زيد وأخذ مفتاح البيت المصفح بالحديد والزرد النضيد وفتح لهم وأدخلهم إلى القصر ليتفرجوا على حسن فرشه هذا ماكان من هؤلاء وأما ماكان من قوم البردويل عندما علموا بموت مليكهم ساروا عند ابن أخته مسعود وكان عدواً لخاله البردويل وكان نازل فى أطراف العريش فأخبره بفعل خاله البردويل ثم قال له سعيد ما الرأى عندكم فى بنى هلال قالوا الجميع عن فرد لسان أن بنى هلال نجم سعدهم عالى وأميرهم حسن الهلالى وهذا قد ارتقى مالا يرتقى غيره من درج المعالى فاننا نشير عليك أن نركب جميعنا ونسير اليه ونوقع بين يديه ونطلب منه أن يجلسك مكان خالك فاستصوب سعيد كلامهم وسار معهم لعند حسن فلما وصلوا إلى دار بنى هلال طلبوا أن يؤذن لهم بالدخول على حسن فدخلوا عليه وقبلوا الأرض بين يديه وأخبروه عن حالهم فترحب بهم حسن غاية الترحيب وألبس الأمير سعيد خلعة سنية وحلة ملوكية وأجلسه مكان خاله وعين عليه الجزية وكتبوا كتاب سعيد على الست عالية امرأة خاله البردويل وبعد ذلك أمر حسن بدق الطبول وأن يرحلوا من تلك التلول فنشرت الرايات وركبت العماريات على الهوادج واعتلوا الفرسان ظهور الخيول وأخذوا يجدون السير حتى وصلوا إلى مصر القاهرة وكان فى بلد مصر ملك يسمى الفرمند بن متوج وكان ملك عظيم الشأن يحكم على أبطال وفرسان يكل عن وصفها اللسان ولما بنى هلال قتلوا البردويل وولوا مكانه ابن أخته سعيد قاموا وتهيئوا على الرحيل يقطعوا كل سهل ووعر حتى وصلوا إلى مصر فنزلوا فى تلك النواحى والاطراف وودعوا الزرع حتى حصدوا

الحصيد هذا ما كان من بنى هلال وأما ما كان من فرمند ملك مصر فانه فى تلك الليلة حلم منام هائل المنظر فقام مرعوب فأحضر الرمال وأشار يخبره عن ذلك يقول :

يقول الفتى الفرمند بن متوج … بدمع جرى فوق الخدود سجام
رأيت مناما آخر الليل راعنى … وأقلقنى والعالمين نيـــام
رأيت نارا ضرمت فى بلادنا … قد أحرقت أشجارها واكرام
رأيت سباع ماليا السهل والفضا … ومعهم لبوات بحسن قوام
يببوا لى بالعين قدام ناظرى … كغزلان زنجى فى مراح خزام
فهميت الى اللبوات أصيدهم … إلا وسبع أسمر على حام
ورفع إلى عنقه ليم ناشنى … فوليت منه هارباً وهزام
فوليت نحو القصر هارب مرته … ب إلا وطير أبيض على حام
ضربنى بمنقاره وحط مخالبه … فى وسط قلبى والدما قد عام
فقريت من هذا المنام خايف … تحيرت ياناس فى هذه الأحلام

فلما فرغ الفرمند من كلامه والرمال يسمع منه نظامه أشار الرمال يفسر منامه

يقول ابن بدر ان الفهم الى شكى … فسبحان ربى واحد علام
فالنار هذه يصهو وضجة … وتعلموا عجاجته وضرب حسام
هذه عرب يسموا بنو هلال بن عامر … عربان على أحد الحصا وردام
وخرجوا بعد الاعجام قبل ما أتوا … ومن بعده خرجوا بلاد الشام
وأما السباع التى تقول رأيتهم … وهم يتزاحمون فى البلاد زحام
والسبع الأسمر هذا الهلالى سلامه … أمير الملا ساير بهم قدام
والطير الذى جاء من البر لا شك … وخلى دماك على الثرى سجام
فهذا أبو موسى دياب بن غانم … وتحته شبه طير وعام
عمرك بيده يا ملك فى بلادنا … وتنعى عليك الأهل والزام
فان طعتنى يا أمير لا تعرض لهم … سما بوادى خيرين كرام
فما ينزل أرضك وما يقربونها … ولا ينصبوا فى البلاد خيام
يحاربهم عند الزناتى خليفة … لهم عنده مدة سبع أعوام

وأنا بنصحك يا أمير لا تتعرض لهم   وأنا اصحك والنصح خير كلام
وهذا كلامى يا ملك مصر افهمه   ولله كل الأمر والأحكام

فلما فرغ الرمال من كلامه اضطرب اضطرابا عظيما وهو فى هذا الحال إذ دخل عليه المهلهل حاكم الصالحية وسلم عليه وبكى بين يديه وأشار يعلمه بواقعة الحال ويذكر قدوم بنى هلال إلى تلك الأطلال فلما فرغ المهلهل وفهم الفرمند فحوى كلامه واشتدت عليه المصائب وخاف من العواقب فأحضر الوزراء والأعيان وعقد مجلسا بهذا الشأن وبعد جلسة طويلة استقر الرأى بوجه الاجمال فى أن يرسل يطالبهم بعشر المال والنوق والجمال فان أجابوه بهذا السؤال كان جل القصد والمراد وإلا نبادرهم بالحرب والجلاد فاستصوب هذا الرأى وكتب لهم بذلك جوابا وأعطاه إلى نجاب ليأخذه إلى السلطان حسن ويأتيه بالجواب وسار وجد فى قطع القفار حتى وصل إلى القوم فى ذلك اليوم فدخل على السلطان حسن وهو فى الصيوان وكان عنده جملة من الأمراء والأعيان فتقدم وسلم بأفصح لسان وتكلم وناوله الكتاب ووقف من جملة الحجاب بانتظار الجواب فلما فتحه وقرأه عرف معناه اغتاظ الغيظ الشديد وقال لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم كلما وصلنا إلى أقليم يبادرنا أميره بالتهديد ويطلب منا عشر المال والحرب والقتال ثم أمر الخدام أن تأخذ الرسول إلى دار الضيافة وبعد ذلك قرأ الكتاب على أرباب الديوان واستشارهم فقال أبو زيد أرى من الصواب أيها المهاب ترسل الجواب وتوعد بإجراء الطلب وتطلب منه مهلة عشرة أيام فبينما نكون قد أخذنا الاستعداد التام للحرب والصدام فاستحسن هذا الخطاب وفى الحال أرسله وسلمه بذلك ولما وصل الفرمند فرح واستبشر وزال عنه الهم والكدر وأيقن ببلوغ الأمل وظن أنه سينال ما يطلبه من المواشى والفضة والذهب ولم يعلم أن دون الطلب الهلاك والعطب ولما مضى الوقت المعين ولم يقف على إفادة من السلطان حسن كتم غيظه وقد زاد عليه الحال وكتب للسلطان حسن يطالب منه عشر المال بخطاب (قال الراوى) فلما فرغ الفرمند من هذا الخطاب طوى الكتاب وأعطاه إلى نجاب وأمره أن يسير به إلى السلطان ويأتيه بسرعة الجواب فأخذه وسار وجد فى قطع القفار حتى وصل لبنى هلال

قبل الزوال فدخل على السلطان حسن وسلم وبأفصح لسان تكلم وأعطاه الكتاب وطلب منه الجواب فلما قرأه وعرف فحواه إلى من حوله من الأمراء والأعيان وأعلمهم بما كتب لهم الفرمند وقال ما رأيكم فى هذا الشأن فقال أبو زيد للنجاب سر بأمان وقل لمولاك الملك فى هذا النهار ينال المطلوب ففرح النجاب بهذا الخبر ورجع على الأثر وأخبر مولاه بما سمع وبصر ففرح واستبشر وزال عنه القلق والضجر وبعد ذهاب النجاب التفت السلطان حسن إلى أبى زيد ليث الغاب وقال له ماذا عولت ان تفعل يا أبا الحيل قال مرادى أن احتال على الفرمند بحيلة يكون ماسبقنى عليها أحد وهو أن اختار أربعين بنت من بنات العرب ومن جملتهم الجارية أم محمد واحضر أربعين صندوق يكون طبقتين فاجعل الطبقة الأولى للقماش والحرير والطبقة الثانية لفرسان المغاوير وتحملهم ظهور الجمال واركب مع البنات والأحمال ونسير إلى الفرمند على سبيل تقديم المال وتدخل السراية وهو لا يعلم بهذا الحال حتى إذا وصلنا إلى هناك احتطنا عليه وبعجناه وبلغنا ما رمناه ونهبنا ما فى قصره من الأموال ثم ارتحلنا بالحريم والعيال من هذه الاطلال وليس لنا غير هذا التدبير فلما انتهى أبو زيد من هذا الخطاب التفت اليه دياب وقال له ليس هذا الرأى بصواب لأننا نخاف أن ينكشف الحال ويعود الأمر إلى وبال وتقع البنات الأبكار فى أيدى الأنذال والرأى عندى أن نبادرهم بالقتال ونشتغل فيهم ضرب السيوف وطعن النصال فتعهد أبو زيد أمام السادات فى النساء والبنات بأنه يرجعهن سالمات فقال له السلطان حسن افعل ما تريد أيها الفارس الصنديد فعند ذلك تجهزت البنات فى الحال وفعل أبو زيد كما أشار وكانت هذه البنات من المحصنات وكان من جملتهم وطفا بنت دياب وجمال الطعن بنت أبو زيد وبنت القاضى بدير والست ريا وبدر التمام وجوهر العقول وسعد الرجا ولبس أبو زيد فرون من جلد الثعالب والذئاب وتقلد بالسيف من تحت الثياب وأرخى له سوالف طوال من أذناب الكدش والبغال وجعل بزمام ناقة الجازية أم محمد وقد تعجبت من أفعاله السادات والعمد وقال له السلطان حسن لله درك على هذه الحيلة التى لم يسبق عليها أحد وودعه وسار بمن معه من البنات الابكار والصناديق والبكار ومن داخلهن الأقمشة الحسان والأبطال والفرسان حتى دخل إلى المدينة وطلع إلى قصر الفرمند

فوجدوه بأحسن الزينة والمفروشات الثمينة وكان الفرمند قد بلغه قدومهم من الخدام فالتقاهم بالترحاب والاكرام فسلمن النساء عليه وجلسن حواليه فقال أهلا بالكواعب والأكرام والأصدقاء والأحباب وكان أبوزيد أمام الجميع وهو يرقص ويلعب ويضحك ويطرب وكان لابسا تلك الثياب التى ذكرناها وهو بالصفة التى وصفناها فسأل الفرمند البنات والنساء ومن يكون هذا الانسان فقلن هذا مفرج الغموم بحركاته فرح والسرغاية السرور وسأله عن اسمه قال قشمر بن منصور قال فتلك من يصلح تسامره الملوك لما فيك من الحركات وحسن السلوك فاملى هذا الكاس حتى أشربه أمام الجلاس ويزول عنى البأس فاملاه وناوله إياه فأخذه الملك وهو مسرور الفؤاد وقد بلغه أنه المراد وحصل على ما أراد ولم يعلم أن دون ذلك خرط القتاد فعند ذلك غنت البنات ودقت على الآلات حتى كاد يرقص القلب ويطير من شدة الطرب والفرح الكثير وكان الملك وقعت عينه على الجازية فهام بها وتعلقت نفسه فيها لأنها كانت كما تقدم الخبر جميلة المنظر ولطيفة المحضر فاجلسها على جانبه الايسر والتفت الى أبو زيد من تكون هذه يا قشمر فقال هذه الجازية ذات الوجه الحسن وأخت الأمير حسن فالتفت اليها وقال لها غنى لى على الكاس يا صبية الجمال فأبت قدماه وما زال يشتد عليها ويتذلل اليها حتى أجابته الى مناله وأخذت تغنيه بهذه الأبيات تقول

تقول الجازية بقلب محروق فنحن اليوم قد جئنا هدية
هدية من أبى مرعى الهلالى أمير البوادى والرعية
اخى ابن سرحان المسمى أمير ابن أميرة برمكيه
وجئنا لمصر عندنا لك حلائل ولا عاد فيه دواح ولا بجيه
تقول الجازية من قلب محرق أيا حيف الزمان أحيف عليا

فلما فرغت الجازية من كلامها طرب الفرمند من نظامها وشرب الكاس عن اسمها وهو يتأمل فى محاسنها وبياض جسمها ثم أمر قشمر ان يملأ له كاس آخر فملاه وناوله اياه فأخذه وتقدم الى وطفا بنت الأمير دياب وقال غنى على هذا الكاس يا بنت الأمجاد فجعلت تغنى وتقول :

تقول وطفا فؤادى اكتوى بدمع جرى فوق الخدود غزار

ونيران قلبي كلما أقول تنطفى ... يهب لها فى وسط قلبي شرار
الا ياملك سعدك على الناس داير ... وطاعت لأمرك سائر الاقطار
يا أمير حبك سكن فى ضامرى ... وألهب حشاى ياملك بالنار
ياأمير مصر اشرب واسكر بالهنا ... وانظر بنات تشبه الاقمار
وانظر جمالى واعتدالى وبهجتى ... وحسنى فاق على أقمار
وعنقى كعنق الريم أو عنق شادر ... وأنظر وشامى يحير الأفكار
نحن الهلاليات مافى مثلنا ... نشبه التفاح على الأشجار

فلما فرغت من كلامها انشرح الفرمند من نظامها وشرب الكاس على اسمها واعطاه للقشمر فلاه وقد زاد عشقه وهواه ثم تقدم وجلس أمام جمال الطعن وقال من تكونين يا ربة الحسن قالت أنا بنت أبو زيد قال أنت بغية المراد وأنا أسأل رب العباد يرزقنى منك بولد يكون جده الأسد كل هذا وأبو زيد يسمع الكلام يلتفت الى وراه ثم قال لها وحيات رأسى أن تغنى على كاسى فأشارت تقول :

قالت جمال الطعن بنت سلامة ... أبيات شعر لائقات غرائب
ياملك مصر البشارة فانشرح ... وانظر بنات فاتنات كواعب
أنظر بنات هلال ياأمير نظره ... المنا ونحن كالأسود جايب

فلما فرغت من كلامها وسمع الفرمند نظامها طرب من كثرة شرب المدام ولا عاد يميز بين النور والظلام ثم صرف الاغوات والخدم حتى لا يكون أحد فى هذا المقام وبعد ذلك شرب الكاس على اسمها وشكرها على نظامها وأعطاه لقشمر ليملاه فملاه وأعطاه إياه وجلس أمام نحلا وكذلك جلس أمام جميع البنات الأبكار وهن ينشدونه بالأشعار وهو يشرب العقار حتى فقد الوجود وصار بصفة مفقود فعند ذلك منحه أبو زيد حتى غاب ونهض كالأسد ونزع ما كان عليه من الثياب حتى عراه وجعله عبرة لمن يراه ولفه بحرام عتيق ثم فتح الصناديق فخرجت الأبطال مثل الأسود فنهبوا ما فى القصر من الاموال والتحف الغوال ولم يتركوا شيئاً فى القصر إلا أخذوه باهتمام وكانت وطفة قد أخذت خاتم الفرمند وهو على تلك الحال التى تقشعر منها الابدان ولو أرادوا اقتلوه وأسقوه كاس الهوان وساروا حتى وصلوا إلى باب البلد

فاعترضهم الحارس فاورته وطفاخاتم الفرمندوقالوانحن جملة الخدام قاصدين الآن أهلنا لاجل المنام فعندذلك فتح لهم الباب ولم يعرف حقيقة الأسلوب فساروا فى سرور وأفراح وقد استبشروا بالفوز والنجاح الى أن وصلوا الى بنى هلال ففرحت بقدومهم جميع الرجال ودخل أبو زيد على الأمير حسن بن سرحان وأعلمه بما جرى وكان فالتقاه بالترحاب والإكرام وشكره على ذلك الاهتمام وسأله بواقعة الحال وما فعله من الفعال فأجابه وقال :

يقول أبو زيد الهلالى سلامة	يا بو على جبت البنات وجبت
وجبت لك مال كثير وعدة	تحف وجواهر يا ملك عبيت
وجبت دروع ثم طرس مذهبة	دبابيس مع أطيار لك لميت
وجبت معادن وسيوف مسقطة	ودباج معركة وكتان لك شديت
دخلت إلى قصر الملك أبو على	وأركانه يا أمير لك هديت
رقصت للملك وطيبت خاطره	ومن بعد ذلك كاسه أسقيت
انقلب فرمند على الأرض واقع	فقمت أنا من ساعتى فريت
جئنا بعون الله يا أمير كلنا	فلا تحسبونى نمت وانسريت
وضمنت أنا البيض من كل ريبة	وقمت بقولى يا حسن ووفيت
وجبت البنات والموالى جميعها	وهذه فعالى والذى سويت
قول أبو زيد الهلالى سلامة	وقسط يوم الروح ما ذليت

(قال الراوى) فلما انتهى الأمير أبو زيد من كلامه وفهمت الأمراء فحوى نظامه وقالوا نحن فرد لسان الاوفق لنا أن نرحل من المكان قبل أن تهزمنا الأبطال والفرسان فاستحسن الامير حسن هذا الخطاب ورآه عين الصواب وفى الحال أمر بدق الطبول والمسير والارتحال فدقت الطبول وركبت الفرسان ظهور الخيول وارتحلوا من تلك الاطلال بالحريم والعيال حتى ابتعدوا مسافة مسيرة يومين على البلد خوفا من أن يتجدد وكان الأمير دياب وزيدان فى أول الظعن يبقى الفرسان هذا ما كان من هؤلاء وما جرى لهم من الأحوال وأما ما كان من وزراء الفرمند وأكابر الأعيان فانهم كانوا قد استبطوا حضور ملكهم إلى الديوان فلما فات الوقت ولم يحضر أخذهم القلق

والضجر وقالوا لا بد لهذه الحالة من سبب وكان له ابن أخت اسمه محمود الخنضوف وكان وزيره الاكبر وقائد العسكر فصعد إلى القصر فى جماعة من الحجاب وقرع الباب فلم يجبه أحد فخلع الباب ودخل إلى القاعة فوجدها خالية ووجد خاله ملفوف بالحرام ومطروح على الأرض فغاب عن الصواب واستعظم هذا المصاب فأرسل وأحضر أرباب الديوان فلما دخلوا الأمراء ونظروا ملكهم على هذا الحال فاحتراهم الاندهال ثم ان ابن أخته أعطاه ضد البنج فعطس وهو فى آخر نفس ووجدوه ملفوفا فى ذلك الحرام وهو فى حالة الذل والهوان ولم يجد أحد من البنات والنسوان فزاد مصابه وعظم اكتئابه فبادر ابن أخته بالعجل وأتوا بحلة من أفخر الحلل فلبسها له وقد اعتراه الخجل لا سيا رأى خاله على تلك الحال وهو بين الوزراء وسادات الرجال ولكنه تصبر فالتفت الملك إلى من حوله من الوزراء وقواد العسكر وقال لهم أتعلمون من فعل بى هذا الفعال واحتال على بهذا الاحتيال حتى بلغ القصد والآمال قالوا من يكون يا ملك الزمان فأخبرهم بوقعة الحال فطلب منهم أن يكونوا مستعدين للحرب والقتال فاستعظموا القضية واستغربوا النكلك العملية وكيف أن أبا زيد جاءه بتلك الوسيلة وانطلت عليه الحيلة فقالوا الأمر إليك وها نحن بين يديك فامر بدق طبول الحربيه والاستعداد للطعن والضرب فدقت فى الحال واجتمعت الفرسان والابطال وكانت نحو مائتى الف مقاتل فركبوا فى الحال واستعدوا للقتال وركب محمود فى مقدمة الجنود وخفقت على رأسه الرايات والبنود فقال له الفرمندا تبع بنى هلال الانذال وامنعهم عن المسير والارتحال فيهم ضرب السيف والنضال من اليمين والشمال وأنا أتبعك بباقى الرجال فى عاجل الحال ثم سار الوزير بالفرسان والابطال وجدوا فى قطع الروابى والتلال حتى أدرك بنى هلال فلما رأت بنو هلال العساكر المصرية قد أقبلت من تلك البرية استعدوا للحرب والقتال وركب الفرسان والابطال والتقت بعضها للبعض فى تلك الأرض وخرج الوزير محمود من بين الأبطال فصال وجال فى ساحة المجال وطلب براز الفرسان والابطال وقال لهم هل من مبارز هل من مناجز فلا يبرز لى كسلان ولا عاجز اليوم يوم هز الهزايز.

(قال الراوى) فلم يترك أبو زيد الوزير يتم كلامه حتى صار قدامه وانطبق انطباق

الاسياد بدون شعور ولا إنشاد فالتقاه الوزير بالعجل وهجم عليه وحمل وأخذ فى الطعن والصدام والمهاجمة والاقدام والمفارقة والالتزام واستمر على تلك الحال إلى وقت الزوال فعندذلك دقت طبول الانفصال فافترقا على سلامة ولم يعث أحدهما على الآخر بملامة وعند رجوع أبو زيد إلى الخيام سأله الأمير حسن على خصمه فقال هو بطل همام وليث ضرغام فقال الأمير حسن لا بد من ثانى الايام أن نهجم عليه بالمواكب ونذيقهم الويل والمصائب لأن الحريم والعيال مسبية وناس الأمير دياب وفى ثانى الأيام استعدت العساكر للحرب والصدام فنفخت الزمور ودقت الطبول وركبت الفرسان ظهور الخيل واعتقلوا بالسيوف والنصول وهجمت المواكب على المواكب والكتايب على الكتايب وتطاعنوا بالرماح فلله در أبو زيد فارس الصحاح وكذلك الامير زيدان وباقى الأبطال والفرسان فانهم قاتلوا أشد قتال ومازال السيف يعمل والدم يهدل فعند ذلك دقت طبول الانفصال فارتدت عن بعضها الابطال .

(قال الراوى) واستمر الحال كذلك مدة ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع انكسرت عساكر الوزير ولم يعد لها أدنى ثبات فولت فى جوانب البرارى والفلوات واتفق فى ذلك اليوم قدوم الفرمند بباقى الجند فلما أشرف إلى ذلك المكان ورأى ما جرى فاغتاظ وحمل على بنى هلال بمن معه من العساكر واحتاط بهم من كل جانب فنكس بفعاله الميامن والمياسر وحكم الطعن فى الصدور والخواطر وكانت العساكر المنكسرة لما رأت جماعتها ظافرة ارتدت إلى معركة الصدام وقاتلت بعد ذلك الانهزام وكان الملك الفرمند قد التقى بالامير حسن فى ساحة الميدان وهو ينحى الفرسان الابطال فتقدم اليه وهجم عليه فالتقاه حسن بالعجل وتطاعنا بأطراف الاسل وتضاربا بالسيوف على القتال حتى اختلف بين الاثنين ضربتين قاطعتين وكان السابق الفرمند فراحت خائبة بعدما كانت صائبة وأما ضربة حسن فالتقاها الفرمند فى درقة الفولاذ فسقطت على رقبة الجواد فبرتها فوقع الفرمند على الأرض وانحطم وصار هو وجواده كالعدم فعند ذلك هجمت فرسانه مثل سيل المطر وخطفوه وخلصوه من الخطر وفى الحال التقت الرجال بالرجال والأبطال بالابطال وتقاتلوا إلى الزوال فعند ذلك دقت طبول الانفصال فخرجت العساكر عن بعضها ونزلت كل طائفة من أرضها ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره

ولاح جمع الأمير حسن أكابر الديوان ومن يعتمد عليهم من الفرسان وقال لهم مرادى أن أكتب الآن واستدعى الأمير دياب ليحضر إلى هذا المكان يساعدنا على الحرب والطعان وإلا طال الحال وقلت الفرسان لأنه كما تقدم الأمير دياب كان قد سبقهم بالحريم والعيال فاستصوبوا رأيه وقالوا لقد أشرت بالصواب فلما كتب إلى الأمير دياب فعند ذلك كتب إليه يقول :

يقول الفتى حسن الهلالى أبو على	ونيران قلبى زايدات لهاب
على ماجرى فينا وقد أصابنا	وصرنا بحيرة والأمور صعاب
أيا غاديا منى على متن ضامر	فقل إلى الزغبى الأمير دياب
أتونا جموع كالجراد كثيرة	قروم شداد مثل سيل سحاب
نزل من الميدان فرمندو انتحى	وقال كل ينزل من الانجاب
فأين المسمى الأمير سلامة	وأين حسن ثم الأمير دياب
فقلت لبيك يافارس الوغا	ونزلت أنا لحربه يا أمير دياب
ضربته فى القرضاب ياأمير ضربته	ففتحت جواده وكادهو ينصاب
والتقى الجيشان فى ساحة الوغا	ويا ما قتلنا من شيوخ وشباب
مقال الفتى حسن الهلالى أبو على	أنا شعر رامى قبل وقته شاب

(قال الراوى) فلما انتهى الأمير حسن من هذا الخطاب ختمه وسلمه إلى النجاب وأمره أن يسير به الى عند دياب ويعود اليه بسرعة الجواب فامتثل وسار وجد فى قطع القفار حتى وصل إلى عند دياب فسلمه الجواب وطلب منه رده فلما فتحه وقرأه وعرف ما حواه احمرت عيناه وزادت بها بلاه وأمر بدق الطبول فى الحال وأقبلت اليه الفرسان والابطال فاعلمهم بجلية الأحوال وقال لهم استعدوا للمساعدة بنى هلال قبل أن يحيق بكم الوبال وتسبى الحريم والعيال فلولم يكونوا فى أشد الاهوال ما كان كتب لى حسن هذا الكتاب وأرسله للنجاب فلما سمعوا منه هذا الخطاب تحمست منهم جميع الجهال والشباب وركبوا فى ساعة الحال طالبين معركة الصدام وفى مقدمتهم البطل دياب ليث الغاب والبطل زيدان شيخ الشبان حتى أشرفوا على بنى هلال عند الغياب فلاقوهم بالاكرام والترحاب وشكروهم على ذلك الاهتمام وفى

ثانى الايام وكبت الابطال والفرسان وطلبت منهم معركة الطعان وكان أول من برز إلى ساحة الميدان وطالب براز الشجعان الوزير محمد ابن أخت الفرمند قائد الجنود ولما صار إلى ساحة المجال قال هيا يا بنى هلال أين فوارسكم المشهورة وأبطالكم المذكورة أين الامير دياب الذى تلقبوه بليث الغاب فما تم كلامه حتى صار دياب أمامه فعند ذلك أشار يهدده بهذا القصيد ويقول :

يقول الفتى محمود عما جرى له أنا ناطح الابطال يوم نكيد
يا ابن غانم أنت صرت غنيمتى فسوف ترى منى قتال أكيد
إن طعتنى اسلم بروحك يا دياب اخلع الدرع وما عليك من حديد
وارمى اسيفك مع رمحك والثياب واترك الخضرا لاتكون عنيد

فلما انتهى من كلامه فأجابه دياب على شعره ونظامه وهو يقول وعمر السامعين يطول

أنى دياب الخيل فى حومة الوغا قاتل الابطال وكل قوم عنيد
كم فارس جندلته بمهنـــدى وجهمات من بعد عزه فقيد
محمود لاتصلح تشوش لخيلنا من كان مثلك نجعله بين العبيد
لابد ماضربك لرأسك بالحسام واترك دماك على الفلاة بديد
مقال أبو موسى دياب بن غانم اسمع كلامى يا أمير لا تزيد

(قال الراوى) فلما فرغ دياب من هذا الشعر والنظام انطبق على خصمه مثل صاعقة الغمام والتقاه الامير كسبع الآجام وأخذ فى العراك والصدام ومازالا فى قتال شديد وضرب يشيب الطفل الوليد نحو ساعة من النهار وقد اختلف بين الاثنين ضربتين وكان السابق الأمير دياب ليث الغاب فجاءت الضربة على رأس الوزير فحل به الهلاك والتدمير فوقع على الأرض يخبط بعضه ببعض فلما رأت العساكر المصرية ما حل بوزيرها من البلية عظمت عليهم الأمور وانقضوا على بنى هلال مثل الصقور وأحاطوا بهم من اليمين واليسار وقال الراوى فالتقطهم بنو هلال كالجبال وتقاتلوا أشد قتال حتى جرى الدم وسال وعظمت الاهوال ومازالوا على تلك الحال إلى وقت الزوال فعند ذلك دقت طبول الانفصال فرجعت العساكر عن ساحة المجال أما الفرمند فانه بات مشغول البال وفى قلبه نيران الاشتعال على ما فقده من الرجال ولاسيما قتل

محمود ابن أخته فانه كان عنده أعز من مهجته فما صدق أن يطلع الصباح حتى برز الى ساحة الكفاح كأنه ليث البطاح ثم صال وجال فى ساحة المجال وقال لا يبرز لى من الأبطال غير أبوزيد فما تم كلامه حتى صار أبوزيد قدامه وانطبق عليه بقلب أشد من الحديد وأخذ معه فى الحرب والجلاد بدون جواب وانشادفالتقاه الفرمند بقلب كالجبال وأخذ معه فى الحرب والقتال وهان عليه الاحوال وبلوغ الآمال فقاتل قتال من استقبل فثبت أبوزيد لقتاله وفعل كفعاله ومازال فى الحرب والصدام مدة عشرة أيام وفى اليوم الحادى عشر ظفر به أبوزيد واستظهر فهجم عليه هجمة جبار وضربه على عنقه بالسيف البتار وإذا برأسه قد طار فوقع على الأرض قتيلا وفى دمه جديلا فلما رأى المصريون تلك الاحوال خابت منهم الآمال وأيقنت الهلاك والوبال واجتهدت أن تخلص جثة ملكها فما قدرت وقد أعماها ماراًت بابصرت وانحلت عزايمها وتأخرت واشتد عليها الحصر وخاب أملها من النصر فرجعت وطالت مصر وهى على أسوأ حال لا تعرف اليمين من الشمال فتبعتهم بنو هلال على الاقدام وفى مقدمتهم أبوزيد ودياب وزيدان شيخ الشباب وحكموا فيهم ضرب السيف القرضاب على الأجسام والرقاب حتى دخلوا البلد وهم فى حالة الذل والنكد فلما رأت أكابر المدينة والاعيان ماجرى وكيف أن الفرمند شرب كاس الهوان وما خرجوا الى عند السلطان حسن بن سرحان وطلب منه العفو والامان فأجابهم الى ذلك الشأن وأوصى الابطال والفرسان لا ينهبوا من أمتعة المدينة لا رخيصة ولا ثمينة بل يكونوا فى هدوء واحتشام إكراما للمزارات الاولياء ومقامات العلماء والعظماء وكان الفرمند ولد مقتدر اسمه الأمير منذر فأحضر اليه قبلة بين عينيه ثم ولاه مكان أبيه بحضور أكابر البلد والذوات والعمد بعد أن أوصاه أن يتصرف بحسن السلوك ويتخلق أخلاق الملوك ثم قامت الأفراح وزالت الهموم والاتراح وكان السلطان حسن قد استحسن مصر كل الاستحسان لكبرها وما فيها من الابنية الحسان فصمم أن يبنى له فيها على اسمه جامعا ليكون ذكرى له على طول الزمان فأمر البنايين والمهندسين ببناء الجامع المذكور فى ظرف ستة شهور فأجابوه الى ذلك المرام وبعد أن تم بتمام أمر أن يفرشوه بنفيس الفرش وينقش حيطانه بأحسن النقش فامتثلوا أمره فى الحال كما قال فكان جامعا عظيم المثال يزهو كالهلال وكان مكتوب

على بابه بالذهب هذا جامع الأمير حسن الهلالى سيد العرب وبعد ذلك بثمانية أيام أمر الأمير حسن بهدم المضارب والخيام فهدت فى الحال وركبت الأبطال ظهور الخيل والجمال وسارت العماريات بالنساء والعيال أمام الفرسان والأبطال وجدوا فى الترحاب قاصدين بلاد الغرب وما مغربوا بن مقرب وما زالوا سائرين حتى وصلوا إلى مكان يقال له الحاضة (قال الراوى) وبالأمر المقدر أن الماء فى ذلك المكان المسمى الحاضة كان فى ذلك الوقت عند السهول والبساتين والحقول وكان الأمير زيدان والنساء والعيال سائرين أمام الفرسان والأبطال وكان أبو زيد خلف جميع بنى هلال فعندوصولهم إلى هذا المكان تضعضعت أحوال الرجال والنساء والأطفال والشبان لأن الماء كان جاريا فى تلك السهول كالطوفان فوضعت الأحمال عن ظهور الجمال وصاحت النساء والعيال وصرخت الأطفال خوفا من الغريق ولم يعودوا يعرفون الطريق وقدموا السعادة والتوفيق فلما شاهد الأمير حسن تلك الحال خاف على الحريم والعيال وتضعضعت منه الحال وأيقن بالهلاك والوبال فقال لبعض القوم أين أبو زيد فى هذا اليوم فقال هو مع عمه حسن الجميرى فى آخر الظعن مع حريمه وعياله فأرسل واستدعاه اليه فقال له الأمير حسن قد اشتدت علينا المحن وأنا خايف الآن على الحريم والعيال من الغرق وأنشد يقول :

قال الفتى حسن الهلالى أبو على … تفكرت فى الدنيا وكل حواليها
رحلنا من نجد العدية بلادنا … نريد بلاد الغرب ابغى وصولها
أبو زيد الهلالى على الماء تزاحمت … كثير من العربان عرفت جمالها
هل هو حلال يا بو مخيمر أنه … تغرق إنسانا مع جميع أطفالنا
ترى إن كان لك حاجة تريد نوالها … خذ لك ثلاث حاجات منى بدالها
وإن كان صابك يا أمير مصيبة … بعلم القلم يا أمير عندى زوالها
وإن كنت خايف إن عليا تفارة … لك فاجعلها قدام وامشى قبالها
قول الفتى حسن الهلالى أبو على … ونيران قلبى زايدات شعالها

فلما فرغ حسن من شعره ونظامه وفهم أبو زيد فحوى كلامه صار يقول :

يقول أبو زيد الهلالى سلامه … فكم جهد قلبى ما يقاسى غباين

من قال لكم ياأمير تمشوا بالعرب ... وتمشون وسط الماء وأنتم طماين
أناتأخرت مع طعن عمى الجعبرى ... حسين أبو عليا وبعض الطعاين
تقول يا أمير يأتى مكدرا ... علامك يا ابن سرحان كاين
فاقف قليلا حتى أتيك بسرعة ... وآتى بعليا مع باقى الطعاين
وأجيب عمى فيمشى بقربنا ... هذا غريب الدار ياامير حازن
مقالات أبو زيد الهلالى سلامه ... من حزن قلبى صرت حاين

فلما انتهى أبو زيد من شعره ونظامه وفهم الحاضرون معنى كلامه قالوا عن فرد لسان. قطع أبو زيد للعربان فلكز الحصان وبين لهم طريق الأمان لأنه كان لا يعرف المكان قبل ذلك الأوان فجعلت توارد العزل وقد استأمنت من العطب وكان أول من غير. الجازية وعليا زوجة الأمير أبو زيد الغضنفر فاتفق ان هجنها تزاحمت بعضها ببعض حتى كاد يقعد على الأرض فتشاتما بالكلام وتخاصما أشد خصام وكانت الجازية ازدرته عليا وتكلمت معها كلاما لا يرضيها فاغتاظت عليا من الكلام ورجعت إلى الوراء وأعلمت أبيها غانم بما جرى وأشارت تقول :

قالت عليا ونار قلبى تسعرا ... اسمع كلامى يا أبى وتبصرا
ولقد جرى لى يا أبى مشاجرة ... من بنت سرحان كلاما منكرا
عند الخناصة هودجى زاحم لها ... وتحطمت أطرافه فتكسرا
نادت وقالت ياعشيقة عبدنا ... ردى لهودجك بغير تغيرا
رديت الهودج لأجل كلامها ... والدمع من عينى غدا يتفجرا
ارجع أبى عن هلال لأرضنا ... ولا نروح عن المغارب تخسرا
لا تحمل المعاير ياأمير الملا ... القلب منى أو الفؤاد تسعرا
عليا تقول وليس قولى كاذب ... ما عاد لى جلد به أتصبرا

(قال الراوى) فلما فرغت عليا من شعرها وفهم أبوها فحوى كلامها اغتاظ الغيظ الشديد الذى ما عليه من مزيد وعلم أن هذا كان من الجازية عدوان وافترى وأمر عربه فى الحال ترد الطعن وترجع إلى الوراء فامتثلوا أمره فى الحال ورجعت العربان بالنوق والجمال فى عاجل الحال فلما رأى أبو زيد الطعن راجعة وهى وراء

بعضها متتابعة اندهش وتعجب وسأل عن السبب فقالوا اعلم يا ابو العين هذه ظعن عمك حسن وهو قاصد أن يرجع الاعلال بالحريم والعيال فلما سمع أبو زيد هذا الكلام صار الضياء فى عينيه ظلام ثم ركب فرسه الخرا وقصد عمه حتى التق به فى الصحراء وقال له يا ملك ارجع إلى الوراء فبكى عمه وأنشد يقول :

قال الأمير الحميرى بما جرى	العرض منى هتك بين الملا
اسمع كلامى يا أمير سلامه	النار فى قلبى تهب وتشعلا
عند الحاضنة اجتمعت نساكم	وبناتكم فوق الهوادج تنجلا
فتزاحمت عليا وجازية بالهوادج	عند الحاضنة والمياه يتجدلا
شتمت عليا الجازية بكلامها	وعلت عليها المصائب والبلا
قالت لها عليا ما هذا البلا	منك أيا بنت سرحان العلا
أنا زوجة أبو زيد الفتى	هو ابن عمك فى الرجال بجملا
قالت فروحى ياعشيقة عبدنا	سأقطع رأسك ما أخاف من الملا
زادت على عليا كلام يغيظها	كسرت لحرمتها أنتنى ترفلا
فبكت وشكت وقالت ارتجع	فرديت ظعنى ياسلامة عاجلا
وحياة رأسك ما بقينا نرجع	للغرب وحياة النبى المرسلا

فلما فرغ حسين الحميرى من كلامه وفهم أبو زيد فحوى شعره ونظامه وكان ذلك عليه أقوى من ضرب السيف وأشد ولكنه أخفى الكمد وأظهر الصبر والجلد وقال له اعلم أيها العم المحترم أنه ليس على كل النساء ارتباط والتفت إلى زوجته وقال اعلمينى يابنت الكرام بما جرى بينك وبين الجازية من النفور والخصام فأعلمته بواقعة الحال وأوقفته على جلية الأحوال وكيف أنها قابلتها بوجه الغضب وشتمتها بدون سبب وجعلتها عبر بين نساء العرب فقال اخزى عنك الشيطان وقومى بنا حتى نرجع الآن قالت إذا رجع ابى رجعت أنا فجعل يتلطف بخاطر عمه ويطلب منه الرجوع فقال ان كلامك على العين والرأس إلا فى هذا الأمر فإنه غير مقبول ومسموع إلا بشرط أن تقطع رأس الجازيه وتعدمها الحياة فعند ذلك أرجع وأكون قد بلغت ما أتمناه فقال

أبشر بما طلبت يا عماه فعند ذلك رجع أبو زيد على الأثر والسيف بيده مشهور حتى دخل على الأمير حسن وهو فى الديوان وحوله الأمراء وأكابر الأعيان فسلم عليه وهو عابس فقال له السلطان حسن علامك يا زين الفوارس فانى أراك عابس غضبان فاعلمه بما جرى وكان وقال له فى آخر الكلام أن مرادى اقتل الجازية بحد الحسام واسقيها كاس الحمام على ما بدا وحدث من كلام الذم والافتراء وحدثه بما فعلت من الاول إلى الآخر فقال السلطان دع عنك كلام النسوان ولا تختاظ من هذا الشأن وقم بنا الآن حتى نستعطف بخاطر عمك وتعود ولا نجعل لشماتة العدو الحسود فأجابه إلى ذلك المرام وركب هو وإياه وعند وصولهما المضارب والخيام استقبلهما حسين الجعبرى بالترحاب والإكرام وأخذ حسن يستعطف خاطره بالكلام ويقول له ارجع يا ابن الكرام ودع عنك كلام النسوان ولا تشمت بنا الاعداء فى هذا المكان لاننا غرباء الاوطان ولا يجوز أن نختلف فى المكان فقال وحق الواحد الأحد إنى لا ارجع إلا برأس الجازية فقال ابشر بما طلبت وارجع بالعجل فانى ابلغك القصد والأمل فعند ذلك أجاب وامتثل ورجع معهما فى الحال بمن معه من العيال ولما بلغ الجازية هذا الخبر أخذها القلق والضجر وخافت من الخطر فسارت إلى عند القاضى بدير وسلمت عليه وترامت على قدميه وقالت أنا فى جيرتك وقد وقعت على حضرتك لانك كهف الانام ومن يلتجىء اليك فلا يضام فقال لها أبشرى بالسلامة والخير فقد صرت فى جوار القاضى بدير ثم انه أخذها إلى عند الحريم وزادها فى التكريم والتعظيم لانها من أشرف نساء العربان ولا سيما أنها أخت الأمير حسن عظيم الشأن ثم رجع وهو يتعجب من ذلك الشأن وحوادث الزمان وبينما هو كذلك إذ أقبل الامير حسن وأبو زيد فارس المعارك فالتقاهم بالبشاشة والترحاب وأخذ معهما فى الحديث والخطاب وقال لهما مالكما متكدران فاعلماه ذلك الشأن وان مرادهما قتل الجازية دون باقى النسوان فقال نفسى فداها فكيف يمكننى أن اسلمكم إياها وقد دخلت إلى دارى وصارت فى زمامى فهذا لا يصير ولو شربت كاس حمامى فقال أبو زيد لا بد من قتلها على وقاحتها وفعلها فتقدم حسن إلى القاضى بدير سرا وقال أخاف من رجوع أبو زيد إلى نجد إذا ما بلغناه غاية

القصد ونقع فى هذه الديار ويحل بنا الهلاك والدمار فقال القاضى من الصواب أيها الأحباب أن تحضر عليا والجازية للمحاكة والاستنطاق فالتى تكون منهما تستوجب القتل والاستحقاق ولا يعود يلومنا أحد من الناس لان هذا الأمر خارج عن حد القياس فلما انتهى القاضى من هذا الخطاب رأوه عين الصواب وهكذا استقر الحال ورجع أبو زيد إلى عند عمه فأعلمه بوقعة الحال وارجعه مع ابنته عليا إلى الديوان وكذلك حضرت الجازية المرافعة فى ذلك الشأن فجلست خلف الستار خوفا أن يقتلها أبو زيد بالسيف البتار فعند ذلك سألها القاضى عن سبب إهانتها لعليا وما هو الداعى الموجب لذلك المقال الذى يورث القيل والقال فأنكرت أمام الحاضرين بانها ما قالت لها كلاما يغيظ ولا يهين بل كان كلامها على سبيل العتاب وهو عادة الاحباب فالتفت إلى عليا وقال يظهر من هذا المقال بأن الجازية لم تتكلم فى حقك شيء يورث القيل والقال ان كان معك شهود فاحضريهم لكى يشهدوا عليها فذهبت البنات اللواتى كن فى ذلك الوقت حواليها واعلمتهن بما جرى وكان وطلبت منهن يحضرن معها للديوان فقلن نحن لا نذهب معك ولا نترك الجازية ونتبعك فعادت على الأثر واعلمت القاضى بذلك الخبر فقال هى بريئة ليس عليها أدنى حق وقد تكلمت بكلام الصدق ثم دخلت لعند الحريم ووجمت عليها العند أبيها وهى فى غم عظيم فلما رآها أبو زيد راجعة تنهد من فؤاد قريح وقلب جريح تعظمت عليه المصيبة وقال لو لم تكن معى عليا فى هذه التغريبة ما كنا ملكنا بح ولا ظفرنا بأحد ولو كنا أضعاف هذا العدد لأنى كنت إذا نظرتها وهى فى الميدان يمتد منى الجنان ولا أعود أشبع من الطعان ثم تنهد بعد ذلك وأنشد يقول :

يقول أبو زيد الهلالى سلامة إلى الترب قد سارت جميع الفوارس
أنا ثالث الاثنين ان جدت سيرهم ورابعهم وان حوجت كنت خامس
أنا مزعج الفرسان فى حومة الوغا وانى قوى العزم صعب المرابس
ويدم أبونا الملوك وجمهروا وقد أسروا الزينات ثم النواعس
وقالت عليا يا أبو زيد عيشنا أيا أمير لا تخشى حديث المجالس
ثمانين بنتاً من هلال أسارى بنات أمارا لابسين الاطالس

وقلن إلينا يا هلال انجدونا ... غدينا سبايا مع الوجوه العوابس
أبو زيد انجدنا واسترنا عيوبنا ... فتلك من يصلح الحرب الفوارس
فلما سمعت القول صاحت ضمايرى ... وقد ثار منى ما سارى هادس
فشجعت نفسى فركبت لى العدا ... ومكنت ضربتى لدروع الوابس
ولما رأت عليا مجرى على العدا ... فخافت أن أكون عالأرض ناكس
ناديت أيا زغبى فانجد سلامة ... أحاطت به الفرسان مثل الافارس
أتانى الفتى الزغبى دياب بن غانم ... يطارد الأعداء كاليث عابس
فخمسة منا طاردوا خمسمائة ... وفيهم أماجد ثم فيهم فوارس
فاولنا كان الخفاجى عامر ... وثانينا القاضى يكيد الفوارس
وثالثنا الهلالى أبو على ... ورابعنا الزغبى وانا كنت خامس
مقال أبو زيد الهلالى سلامة ... أنا راجع إلى نجد دون الفوارس

فلما فرغ أبو زيد من هذا الانشاد ركب ظهر الجواد وقال والله لقد مليت من الحرب وليس لى بعد حاجة فى بلاد الغرب ثم رأته الأمراء والفرسان قد رجع إلى الوراء وازدادوا غما وكدا واستعظموا الحال وعلموا أنهم بدونه لا ينفعون فى القتال فعند ذلك تقدم الامير زيدان وقال السادات نحن والله بدون أبو زيد لا نقدر على عمل الحيلة ولولاه ما كنا قطعنا كل هذه المسافه الطويلة ثم أشار يقول :

يقول الفتى زيدان عما جرى له ... أرى أبو زيد الهلالى راح
إذ راح أبو زيد الهلالى مشرق ... ما عاد لكم بين الأنام نجاح
أبو زيد ما له بالمغارب حاجة ... حتى يسير له ينجد ورواح
وان رجعتم يهلكوا أولادكم ... ويبقوا على وجه الأراضى طراح
ولنجد ما تقدر تعود بطعننا ... يوجد لنا أعداء بكل بطاح
أبو زيد ان عاد يذهب بينهم ... فى حيلة منه وضرب صفاح
قوموا اليه وادركوه بالعجل ... بكباركم وصغاركم الملاح

فلما فرغ زيدان من هذا الشعر والنظام وسمعه الامير حسن وباقى الامراء الكرام قالوا لقد تكلمت بالصواب وأشرت بأمر لا يعاب لأن أبا زيد سيفنا

الصقيل ورعنا الطويل وقال الأمير حسن مرادى أذهب إليه وألح فى الكلام عليه عساه أن يسمع ويرجع وإلا بدونه فلا اصلح ولا تنفع ثم ركب فى الحال وأخذ معه جماعة من الأبطال وسار إلى عند حسن الجعبرى وقد علم أن أبو زيد محق فى رجوعه وغير مفترى فالتقاه بالتعظيم والاحترام وأكرمه كل الاكرام وبعد ذلك قال له الامير حسن إن كل غاية مرادك أن ترجع إلى أرضك وبلادك فدفع أبو زيد يوصلنا إلى بلاد الغرب ولا تشتت شملنا ثم أشار يقول :

يقول الفتى حسن الهلالى أبو على ولى قلب بين الجوانح طار
أيا أمير قد جيناك نرجو لهمتك أيا لست أطول الأعمـــار
فأولادنا بالقيروانـــ وقابس وهاين وهم فى قلعة وحصار
تريد ترد أبو زيد ياملك بدلنا القيروان جهـــار
فادخل عليه لابد يعمل عزيمتك يا برمكى يا مكرم الخطار
حتى تروح إلى البلاد نجيبهم وتجعل بلاد القيروان دمـار
فقلبى على مرعى قد ذاب وانكوى وشبت بقلبى والضمائر نار
لأن سلامة خاضها لأوامرك وأنت معى أرجع وتنـدار
وخلى كلام الجازية أم محمد فلا بد أتركها تروح دثار
علشان مرعى هنت حالى وجيتكم واترك هلال كبارهم وصغار

فلما فرغ الأمير حسن من شعره ونظامه فهم حسين الجعفرى فحوى كلامه قال أنا لابد لى من الرجوع إلى ديارى وتلك الربوع ثم أنه التفت إلى أبو زيد قال بحياتى أن ترجع إلى قومك بنى هلال وتذهب معهم إلى بلاد الغرب وتلك الاطلال فقال سمعاً وطاعة ثم ودع زوجته وعمه ورجع من ساعته وكان قد تأثر على فراق عليا لأنها كانت أعز عليه من نساء الدنيا فبكى بدمع مرهاق من ألم الفراق فلما اشتد عليه الحزن اجتمعت الأمراء والأعيان ودخلوا على الأمير حسن فى الصيوان وقالوا ماهو رأيك أيها السيد المحترم فإن أبو زيد كثير القلق والغم فقال عرندس ودياب وجماعة من أكابر الجهال والشباب أنه من الصواب أن يتزوج فتزول عنه الشدة ويحصل على الفرح

فصار كل واحد منهم يقول أنا أزوجها بنتي وأشاركه في مالي ونعمتي ثم جمعوا بنات أمراء القبيلة وزينوهم بأحسن الثياب الجميلة وكان من جملتهم ثمانين بنت من بنات الأمارة وهم بنت الأمير دياب بنت الغاب وبنت الأمير حسن وبنت الرياحي وبنت عرندس الأسد المفترس وأسد الليث الكندي والقاضي بدير والجازية أم محمد التي بسببها حصل النزاع والنكد وأحضروهن أمام أبو زيد وأعرضوهن عليه وأوقفوهن بين يديه وقالوا له اختار لك واحدة من هذه البنات زوجة لك عوض عليا فإن كل واحدة منهن أجمل منها وأحلى وأنت أحق بهن وأولى فلم يرضى ولم يقبل أحد منهن ثم تقدمت الجازية إلى بين يديه وعرضت نفسها عليه وكانت كما تقدم عنها الخبر جميلة المنظر ومحبوبة من جميع البشر فقال لها ارجعي ارجعي على مرتين وإلا جعلتك بسيفي قطعتين فاغتاظت من هذا الكلام وكانت تظن أن يتزوجها وتبلغ المراد ثم خرجت هي والبنات إلى المضارب والأبيات وفي اليوم الثاني عبرت بنو هلال نهر النيل ومازالوا يقطعون البراري والبيد حتى وصلوا إلى بلاد الصعيد وكان الحاكم عليها في تلك الأيام رجل صاحب قدر ومقام وفضل واحترام قد اتصف بالجود والكرم ومحاسن الشيم وبجوده كانت تضرب الأمثال في الشرق والغرب واسمه الماضي بن مقرب وكان صاحب حسب ونسب وأصله من بلاد العرب وكانت إقامته في بلاد نجد المدية إلى أن تملكها بنو هلال بالقوة الجبرية وقتل ملكها الهيدبي عطية واستوطنوا فيها وانتشروا في جميع نواحيها فاصطحب الماضي من الأمير حسن وسادات بني هلال غير أنه لكثرة الرجال وازدحام المراعي بالنوق والجمال ارتحل الماضي من تلك الأرض وسار بأهله وعياله ونوقه وجماله ومن يلوذ به من رجاله وأتى إلى بلاد الصعيد وسكن في تلك البيد وكان ملكها رجل جبار صاحب بطش واقتدار وهيبة ووقار يقال له نصار فائتلف مع الماضي أشد ائتلاف وجعله نائبه في تلك البلاد كما تقدم التقادم وشاركه في ماله ونعمته وبعد موت الملك نصار تسلطن الماضي على الديار وكان محبوبا من الكبار والصغار فلما وصلت بنو هلال

إلى تلك البلاد كما تقدم التقاهم الماضي بالترحاب والاحترام وأظهر لهم مزيد الإكرام نظرا لما بينه وبينهم من الحب القديم والود وأنزلهم في بلاده مع رعاياه وأجناده وأخذ الأمير حسن ومن يلوذ بحضرته وأعوانه وأكابر عشيرته إلى سراياته وأجلسهم في أعز مقام وذبح لهم الطيور والأغنام فشكرته الأمراء على حسن اهتمامه ثم أخذهم إلى أبياته وأقام الأمير حسن في ضيافته مع أهله وسادات عشيرته مدة عشرة أيام في الاعزاز والإكرام وشرب مدام وأكل وطعام وبعد ذلك تفرقوا في بلاد الصعيد وانتشروا في البيد وهم في سرور وأفراح وبسط وانشراح فاتفق في بعض الأيام بينما كان الماضي جالسا على الطعام قال له أحد الأعوان اعلم يا ملك الزمان قد بلغني من بعض النسوان أنه يوجد في بني هلال امرأة بديعة الجمال عديمة المثال في الحسن والكمال والقد والاعتدال وفصاحة المقال لا يوجد مثلها بين الخلق لا في الغرب ولا في الشرق اسمها الجازية كأنها الشمس الضاحية إذا خطبتها منهم حصلت على السرور والأفراح لأن طلعتها تنعش الصدور والأرواح فقال الماضي ياقومنا ان طلبنا منهم يقولوا الماضي يريد حق ضيافته منا بنت من بناتنا فقال له الوزير ياملك الزمان الزواج بين الناس ماهو عيب والذي يتقرب من الناس خير من الذي يبعد عنهم فقال بعض الحاضرين وكان من الوزراء المقيمين انا سمعت أنا أيضا بخبر هذه الصبية وما فيها من المحاسن البهية ولكن اعلم أنهم لا يزوجونها بأحد ولو كان من الملوك وأعاظم العمد فإذا كان ولا بد لك أيها الملك من ذلك فاطلب أولا فرس دياب الخضرا التي لا يوجد مثلها في جميع الممالك وأنا أعلم أنه لا يعطيها الآن نفسه معلقة فيها وبهذه الحيلة يصير لك واسأله على أن تطلب الجازية وتنال المراد بعون رب العباد فلما سمع الماضي هذا الكلام تعلق قلبه بالجازية وكان استحسن هذا ورآه عين الصواب فكتب إلى الأمير حسن يقول وعمر السامعين يطول :

يقول الفتى الماضي بن مقرب و دمعي جرى من فوق خدي عايم
وغاديا مني على متن ضامر تسبق هبوب الريح ثم النسايم
إذا جيت إلى عند الأمير أبو علي حسن بن سرحان وفي الزمايم

وقول له اسمع يا أمير مقالتى — وافهم من الماضى معانى لوازم
فاقد بلغنى يا أمير بأنه — موجود فى قومك خيول أكارم
إلا فارسلوا من خيار جيادكم — أريد أنا خضرة دياب بن غانم
وإن كان تعطونى يا أمير نظيرها — فابقوا عطيتك الا يا أكارم
فقال الفتى الماضى على ماجرى له — أنا مستحى منكم والله أعلم

فلما انتهى من هذا الخطاب سلمه نجاب وأمره أن يسير فى الحال إلى بنى هلال ويسلم الكتاب إلى الأمير حسن فأخذه وسار حتى وصل إلى بنى هلال فدخل على الأمير حسن وسلم عليه وأعطاه الكتاب فلما فضه وقرأه وعرف حقيقة فحواه احتار من هذا الطالب ثم أعطى أبوزيد الكتاب وقال له كيف عادالرأى عندك أنا أعلم أن دياب ما يطلع عن الخضرة ولو ذهبت بنى هلال فلما سمع أبو زيد هذا الكلام أشار يقول :

يقول أبو زيد الهلالى سلامة — هذه أمور مشكلات صعاب
احضر أكابرنا وكل شيوخنا — ونسير إلى عند الأمير دياب
نطلب الخضرا منك يا ملك — وإن أبى لاتكون مرتاب
نرسل عوضها الجازية فى هودج — نهدى بها الماضى يا أحبابى
ونقول له رحلنا لعند الزغبى — من أجل خضرة الجميع ركابى
وأعطيه مال وأخيه سوابق — وأعطيه خدم وعود رقابى
قول الفتى المسمى الأمير سلامه — يا أبو على هذا جميع جوابى

فلما فرغ أبو زيد من كلامه والأمير حسن يسمع نظامه فقال أبو زيد إن الرأى عندى أيها الملك المهاب أن أذهب أنا وأنت مع القاضى بدير إلى منازل الأمير دياب ونعلمه بما تم وجرى ونطلب منه يتمم علينا بالخضرا وندفع له عوضها من الأموال والخيول والجياد والإسامات أحو الناوا انشغل بالنا فقال الأمير حسن دبر يا أبوزيد برأيك الحسن فركبوا وساروا فى الحال حتى أشرفوا على تلك الاطلال فالتقاهم الأمير دياب بالاكرام والترحاب وأولم لهم الولائم وقال أهلا وسهلا يا سادات

الا كارم وبعد أن جلسوا قليلا التفت الامير حسن إلى دياب بن غانم وقال له لى عندك حاجة أريد أن تقضيها و تبلغ آمالنا ثم أشار يخاطبه بهذه الابيات أمام الامراء والسادات :

يقول الفتى حسن الهلالى أبو على	يا أمير زغبى افهم أعلامى
أتانا من الماضى كتابا يقول به	سلاما ومن بعد السلام كلام
يقول أبو زيد حضرة دياب الغانم	أمير بنى زغبه غنــام
الا دياب خذ خيولى جميعهم	وبوشى وما لى يافتى وغنام
وخذ بنتى يا أمير جلمـلة	واسترنا يا ابن خير كرام
مقال الفتى حسن الأمير أبو على	أنى دخيلك يا ابو غانم

(قال الراوى) فلما فرغ الأمير حسن من كلامه فهم دياب فحوى قصده ومرامه وقال بحضور السادات يا أمير حسن كل شيء عندى فى قبضة يدك إلا الخضرا وما فيها تفريط لان روحى وروحها سوا فلما فرغ الأمير دياب من كلامه التفت اليه خاله القاضى بدير وقال له هتكت الامارة وكيف يجوا الى عندك وما تقضى غرضهم قال له يا خالى ان الخضرا أعز على من البنين والبنات فخذ عوضها مهما تريد من الخيول لانى لا أعطيها لاحد لو اجتمعت على كل الخلائق فاغتاظ حسن من هذا المقال وعول على الرجوع الى بنى هلال فمنعه الأمير غانم عن الرجوع وأضافه عنده بمن معه من الجموع وذبح لهم الاغنام وأكرمهم غاية الإكرام وفى ثانى الايام دخل على أبيه دياب وعاتبه أشد عتاب وعاقبه عليه فى الخطاب وأمره أن يعطيه الخضرا رغما منه وجبرا فأجابه لذلك المرام ولم يقدر يخالفه بالكلام ثم انه سرج الخضرا فى الحال وقادها الأمير حسن وأنشد يقول :

يقول الفتى الزغبى دياب الغانم	أنا صاحب الهمات يوم طراد
ياأبو على لست بخيل ولا أرى	ولا أنا بين الملا مرصاد
ولـكن جيتم يا أمير لنحونا	تريدوا الى الخضرا يا أجواد

وما طاق قلبى يا أمير فراقها ... وربيتها أحسن من الأولاد
وقلت ما هى عطية لأبو على ... وليس فيهـــا الأمير مراد
ولكن سيرسلها لابن مقرب ... أنا أحق فى فرسى من الابعاد
وقدرك كبير عندنا يا أبو على ... ونحن عبيدك كلنا بوكاد
تدى المال ثم الابل يا ملك ... إلى حضرتك يا أبو على تنقاد
أنا تحت أمرك يا أمير أبو على ... فافعل بنا ما تفعل الأجداد
مقال الفتى دياب الغانم ... وروحى فدتك والحشا تنقاد

(قال الراوى) فلما فرغ دياب من كلامه شكره الأمير حسن على حسن اهتمامه وأشار يجيبه بهذه الأبيات على مسامع الأمراء والسادات :

يقول الهلالى أبو على ... أجاد الفتى الزغبى أجاد
أجاد أبو وطفا دياب الغانم ... أميرها بين الأكابر ساد
غدوتك منى يا أمير قبالها ... ثمانين فاطر تعجب النقاد
خذ لك ميتين بكرة عديلة ... وميتين ذرعا من شغل بواد
وخذلك ميتين حمل من الذهب ... وحملين عنبر ثم حمل زباد
وخذلك بنتى يا أمير عطية ... يا ابن قوم جيدين جواد
وأنت عمرك ما بخلت بحاجة ... وأنت دياب سيد الأسياد
يا ليت عمرك الف عام من المدا ... تعيش ولا تنظر ألم ونكاد
مقال حسن الهلالى أبو على ... أتانا أطوق وطفا بلا ميعاد

فلما فرغ الأمير حسن من هذا المقال قال أبو زيد أكتب كتاب إلى القاضى وارسل له الخضرا فى الحال فكتب له يقول :

يقول الفتى حسن الهلالى أبو على ... حاشا لمثلى أن يكون بخيل
أيا ماضى الفتى حسن الهلالى أبو على ... أريد أنا خضره دياب عجيل
أرسلها اليك بسرجها ... والدرع والدبوس بالتكميل
وما مثلها عند الملوك جميعها ... وليس لها عند الملوك مثيل

أيا ليلها يا عم مباركة فوكل عليها يا أمير وكيل
مقال حسن الهلالى أبو على تمنيت عمرك أن يكون طويل

فلما انتهى حسن من هذا الخطاب سلمه إلى النجاب وأمره أن يسير بالخضرا لعند الماضى ويعطيه الكتاب فبكى دياب على فراقها وتقدم اليها وعانقها فأخذها النجاب وجد فى قطع الأراضى حتى وصل إلى عند الماضى فقدم له الفرس وأعطاه الكتاب فلما قرأه ورأى الخضرا تعجب من كرم الأمير دياب ثم أنه سلمها إلى اثنا عشر سايس ووكل بها جماعة من الفوارس والتمت من حوله أكابر قومه وهنوه من نحو الخضرا ونظروا إليها فلما رأوها ناظر بين الخيل فقالوا له ياأمير ماضى هنيئا لك بهذه الفرس الله يجعلها مباركة . فبينما هم بالكلام وإذا بنجاب مقبل من صدر البر وقد كان قاصد الماضى ولا يزال إلى أن وصل الى باب صيوانه فحول على باب الصيوان وسلمه كتابا وتمثل ووقف بين يديه ففتحه الماضى وقرأه بين السادات والعمد وإذا به من عند شكر الشريف بن هاشم زوج الجازية أم محمد يتضمن على سلام وافر وشوق متكاثر ومن عجب ما تضمنه وحواه هو تنازله عن الجازية وتقديمها له لتكون من جملة نسائه وكان السبب الذى وجب لهذا الأمر المستغرب الذى لم يسمع مثله فى الغرب والعجم هو أن بنى هلال عند وصولهم إلى مدينة الشام وحروبها مع شبيب التبعى كما سبق الكلام كانت الجازية أرسلت الى بعلها المشار اليه كتابا تسلم عليه وتعلمهم عن مسيرهم إلى بلاد الغرب وأنهم سيجتازون فى طريقهم على الأمير الماضى بن المقرب وانه بالكاد أن ترجع إليه وتراه فلما اطلع زوجها على هذا التحرير وقرأه وعرف حقيقة فحواه أوجبه الحال أن يكتب الماضى ذلك المقال لانه كان محبة ونور قربه فتنازل عن زوجته نظرا لفرط مودته وأرسل له أيضا صورة الكتاب على سبيل العهد والميثاق وهذه صورته :

قال الفتى شكر الشريف بن هاشم لى قلب من وسط الحشا موجوع
وعينى لاتنام ولاتألف الكرى جرى دمعها فوق الخدود ينبوع
وخصنى بحور العاشقين جميعها وانحط لى فى وسطهن قلوع

وهذه مقاديف المراكب في يدي — وابكي على فقد الحبيب دموع
مايح صبا قلبي وروحي مهجتي — وأصبح قلبي والحشا يتضوع
نعم أيها الغادي على متن ضامر — يجد السرى في سهلها وربوع
إذا جئت إلى الماضي بن مقرب — فأعطه مكتوبي وكون خضوع
أمير الملا سلطان كل بلاده — ومقري اليتامى في سنين الجوع
أيا ماضي جاك العرب فمن بلادنا — وأنت تراهم سائرين نجوع
عرب إن احتاجوا اليك تخاضعوا — وإذا استغنوا ما ينفعك نقوع
فيهم فتاة الجازية أم محمد — عليها ثياب الطيلسان لموع
إذا خيط الخياط وصنف ثوبها — تقول يا خياط زيد وسوع
أرسلت لك يا ابن مقرب حليلتي — صاحب الصيوان العالي المرفوع
يا ذخيرة المحتاج إن قل ماله — يا حاكما على بلدانه وجموع
أهديتها لك خذها زوجة — وأدخل عليها لا تكون جزوع
فهذه تكون مني لك عطية — فهي تحت تصريفي بلا ممنوع
فان عصوا فاحكم عليهم يا أمير جموعك — وجري عليهم في كثور جموع
نعم هكذا قال الشريف بن هاشم — سلامي عليكم ثم كل جموع

فلما فرغ القاضي من قراءة الكتاب وفهم الحاضرون ما حواه من الخطاب اعتراهم العجب وأخذهم الطرب وقالوا وحق علام الغيوب لقد جاء هذا الكتاب طبق المرغوب لأنه لم يخطر قط ببال أحد بأن شكر الشريف يتنازل عن الجازية أم محمد فاتفق رأي الجمهور بوجه الإجمال على أن الماضي يرسل الخضرا الى بني هلال ويعلمهم بواقعة الحال ويطالب منهم الجازية بدون امهال فاستصوب الماضي هذا القرار وأيقن ببلوغ الاوطار وكتب إلى الأمير حسن بهذا الصدد وأرسل الخضرا وطلب منه الجازية أم محمد وهذه صورة الكتاب وما تضمنه من الخطاب :

يقول الفتى الماضي بن مقرب — بدمع جرى فوق الخدود بدار
يا ربي عمرك ألف عام على المدا — تنال الهنا والخير والاسعاد

أرسلت لك خضرا ذياب بن غانم ... وأبذلت فيها أموال ثم جياد
وسامح بها من أراد منك جزاتها ... ولكن قلبه فيه كثير حقاد
تورث العداوة يا أمير وبعضه ... ونحو أمورا هالات شداد
إذا قصرت الشر والخلف بينكم ... وأطفيت نارا موقدة بوقاد
ونحن نعرف يا أمير مكارمك ... وكفك سخى طول المدا مداد
وأنت ابن الطالب عالى الحسب ... أريد منك النسك بلا ميعاد
أريد فتاة الجازية أم محمد ... وهى بنت عمى بغيتى ومرادى
تخدمنى ميتين فتاة الجازية أم محمد ... وميت حصان ادوجى شداد
وميت يمنى حرير صنعة اليمن ... وميت حمل من عمل بغداد
وميت عبد يا أمير وعبدة ... وميتين سرية من الأجواد
وميتين مملوك من الترك أصلهم ... وألفين سيف صنعة النهاد
وألفين حربة صنعة أبو جبارة ... مركبة يا أمير على أعماد
وميتين درع يا أمير وخوذة ... وألفين دبوس من البولاد
وخذ لك ثمانين من الدراهم ... ذهب مصرى يعجب النقاد
مقال الفتى الماضى بن مقرب ... وأنت انا يا أبو على إسناد

تمت هذه القصة ويليها قصة الزناتى خليفة

قصة الزناتي خليفة

حاكم بلاد الغرب ونزول بني هلال وما حصـــل لهم من الحروب والأهوال التي تشيب الأطفال وتدهش العقول وتحير الأفكار

(قال الراوي) لهذه السيرة أن الماضي كتب كتاب تقدم في الجزء السادس وبعد قراءته على مسامع وزرائه وكبار دولته أوجده مناسب وبعد ذلك سلمه إلى النجاب وسلمه الخضرا فرس دياب وأمره أن يسير إلى عند الأمير حسن ويأتيه بالجواب فامتثل وسار وجد في قطع القفار حتى وصل إلى عند بني هلال قبل الزاول فدخل على الأمير حسن وسلمه وطلب منه الجواب واتفق بالأمر المقدر أن الأمير دياب كان حاضر في ذلك المحضر فلما فتح الكتاب وقرأه وقال الحمد لله فقد زال العنا والكرب وقد حصلنا على بلوغ الأرب ثم التفت إلى الأمير دياب وقال له أمام الأمراء والأعيان هافرسك قد رجعت إليك فقم وخذها بأمان واشكر الإله الرحمن على هذا الجميل والاحسان فقال دياب إني ماذهبت قط في حياتي وعدت استرجعها إلى أبياتي فابقيها لك واجعلها من جملة خيولك فقال هذا لا يكون كثر الله خيرك فأنت صاحب المعروف وأحق بها من غيرك فعند ذلك أخذها دياب وسار وهو في غاية الفرح والاستبشار وبعد ذهاب الأمير دياب استدعى السلطان حسن بأخته الجازية فأتت ودخلت عليه وقبلت رأسه وبين عينيه وقالت له ماذا تريد أيها الملك السعيد فأخبرها كيف أرسل الماضي بطلبها ومراده يتزوج بها ولما سمعت هذا الخطاب تكدرت وقالت كيف يتم هذا الأمر وبعلي وهو شكر الشريف وأبو أولادي محمد وعمر وأنشدت تقول :

تقول فتاة الحي الجازية أم محمد بدمع جرى فوق الخدود بداد
أنا بعلي شكر الشريف بن هاشم سلطان مكة من أب وجداد
ورافقت أولادي بغير إرادتي وطاوعتك ما كان لي بمرادي
ومافرقة الأولاد إلا مصيبة فـــما يدخل عيني قط سهاد
وماشفت عمري من شكر اسكبة كلاما مغلظا ثم زود عنادي

وما طاقتي أويد مدله وصار بقلبي لهيب ووقاد
فوالله لست الشريف وأيدة ولكن ترى لي عنده أولاد

فقال فتاة الحي الجازية أم محمد وهكذا حكم ربي على عاد

(قال الراوي) فلما فرغت الجازية من كلامها والامير حسن يسمع نظامها كتب الأمير حسن هذا المكتوب يعتذر للماضي عن تقديم المطلوب .

(قال الراوي) فلما انتهى حسن من هذا الخطاب سلمه إلى نجاب ليأخذه إلى الماضي ويأتيه بالرد فامتثل وسار وجد في قطع القفار حتى وصل إلى الماضي فأعطاه اليه فلما قرأه وعرف معناه كتب إلى حسن بذلك الصدد وكيف ان شكر الشريف قد تنازل عن الجازية أم محمد ثم أرسل ذلك الشريف مع الرسول الذي حضر من عند شكر الشريف لما وصل اليه وسلم عليه وكان جالسا في الديوان وعنده جماعة من الامراء والأعيان وكانت الجازية من جملة الحاضرين في ذلك المكان فلما فتح حسن الكتاب وقرأه وعرف رموزه ومعناه تعجب وانتهز من ذلك الخبر الذي لم يخطر على فكر بشر ثم التفت إلى النجاب القادم وقال له كيف أحوال شكر الشريف بن هاشم فقال الحمد لله بخير وعافية وهو يهديكم جزيل الأشواق الوافية فعند ذلك أخبر الحاضرين بذلك التصريف وما كتبه إلى الماضي شكر الشريف فلما أطلعت الجازية على هذا الحال اعتراها الاندهاش وقالت هذا لا يكون أبدا ولو شربت كاس الردى فقال أبو زيد أنه من الصواب يا بنت الكرام أن نوسلك إلى الماضي بكل إكرام لأن له علينا جميل واحسان ولاسيما ان زوجك قد وخصص له بهذا الشأن فمتى صرت عنده حاوليه بأمر الزواج وأن أخلصك من هذه القضية وتذهبين معنا إلى الغرب بالسوية وهكذا انقضت الأشغال وتمت الأحوال واغتسلت الجازية بالأطياب ولبست أحسن الملابس وكانت كما تقدم الخبر بديعة المنظر تزهو كالقمر فازداد حسنها عن الأول لما تزينت بأخر الحال ولبست الجواهر تذهل البصائر ثم ركبت في هودجها بجماعة من النسوان وركب معها أيضاً الأمير حسن وعدة من الفرسان وجدوا في قطع الأراضي طالبين الماضي وأرسلوا يعلموه بقدوم الجازيه والأمير حسن عليه فأخذ الكتاب وسار وجد في قطع القفار حتى وصل إلى عند الماضي

فأعطاه إياه فلما قرأه زادت أفراحه وكثر انشراحه وأيقن بلقا الحبيب فى وقت قريب وأمر أحد وزرائه العمدان يركب العساكر والعدد ويلاق الامير حسن والجازية بر البلد فركب فى الحال بثلاث آلاف من الفرسان وسار يقطع القفار بالأغانى وسار معه جماعة من النسوان الذين لهم قدر وشأن فكانت النساء تدق بالدفوف والمزامر والفرسان تلعب بالرماح والسيوف البواتر إلى أن التقوا بعضهم البعض فى تلك الأرض فزادت بينهم الافراح وجدوا فى قطع البطاح حتى دخلوا نصف النهار وكان يوم يستحق الاعتبار لم يسمع مثله فى سالف الأعصار وكان الماضى قد زين القصر بأنواع الحرير والقماش الفاخر وعندوصولهم استقبلهم أحسن استقبال وأجلس حسن فى صدر المقام وجلست حواليه الأمراء الفخام وتزلت العروس عند الحريم وهى فى تعظيم ثم دارت الحلويات وكاسات الشربات على مائدة الأمراء والسادات وبعد ذلك حضرت سفرة الطعام وفيها من جميع اللحومات كالضأن والدجاج وبعد أن أكلوا وشربوا ولذوا رقصت النساء والبنات وغنت المغنيات بأنواع الاصوات فكانت لم يسمع بمثلها ولم يفعل أحد كشكلها واستمر الحال على هذا المنوال والقوم فى فرح وسرور وغبطة وحبور مدة ثلاثة ايام على التمام واتفق فى اليوم الرابع استأذن الأمير حسن من الماضى بالمسير لبلاد الغرب فقال الماضى أيها الملك تقوم عندى فى هذه الاطلال فبلادى واسعة كثيرة المراعى والأرفق نبق معاً .

فلما فرغ الماضى من كلامه شكره حسن على اهتمامه وقال لابد من المسير فعرفه الماضى بأن لابد لهم بالتوفيق وبلوغ الوطن ولما صممت بنى هلال على الذهاب والرحيل جعلت الجازية تبكى بدمع غزير لأنه لم يكن لها صبر ولا سلوان على فراقهم ساعة من الزمان فلما زاد عليها الحال كثرت من النحيب والأعوال انزعج الماضى من تلك القضية وسمح لها بالذهاب معهم إلى الغربية ففرح بذلك الأمير حسن وحالا أمر الفرسان بالركوب فركبت الفرسان ظهور الخيول وساروا قاصدين بلاد الغرب وتلك الديار فعند ذلك ركب الماضى بالفرسان وساروا بصحبتهم مسافة ٣ أيام ثم حلف حسن عليه بالرجوع فترجلت حينئذ الفرسان وودعوا بعضهم بعض فدعى ماضى

بالتوفيق والانتصار وصارت بنو هلال لبلاد تونس لخـــلاص مرعى ويحيى ويونس . قال الراوى ومازالت بنى هلال تقطع السهول والبوادى من بعد رحيلهم من عند الماضى حتى وصلوا لبلاد الغرب ودخلوها ونزلوا فى وادى اسمه وادى الرشاش وكان ذلك الوادى بين جبلين فلما نزلوا بنى هلال فيه مدوه جبل إلى جبل وكانت الوحوش بجفل منهم وكان الزناتى له ابن أخت يقال له العلام بن غضبة فالتفت الزناتى للعلام وقال له أخرج للصيد وأتنا بما تصيده فأجابه سمعاً وطاعة فقام وركب وأخذ جماعته ومعهم الكلاب والصقارة وطلع إلى الصيد فامضوا إلا قليلا وإذا بالوحوش من كل جنس بين أرجلهم فاصطادوا حتى حملوا خيلهم ورجع هو ومن معه فلما دخل العلام هو ومن معه وألقوا الصيد أمام الزناتى قال له يا علام ما هذا أنا أرى خبر لأن ما جاب هذا الصيد إلا العجايب فقال له العلام وأنا أقول إن ذلك العبد الذى حبست رفاقه راح وأتى لنا بقومه .

فلما فرغ العلام من كلامه والزناتى يسمع عاد فى الحساب وأمور صعاب ثم أنه فك الديوان وكل من طالب محله والأوطان والزناتى نام فرأى فى منامه ولذيذ أحلامه ان أتته عربان مثل الجان ولهم سلطان كبير الشان ومعهم العبد الذى أتى إلى عنده وراح وخلى رفاقته وشاف فارس اشقر مثل السبع الغضنفر على اسم الديب وقاضى العرب فى حكمه وملكوه بلاده وقتل اجناده فقام من مقامه طايش العقل واستعاذ من الشيطان وراح من باله هذا المنام واستدعى بابن عمه العلام وقال له رأيت منام فقال العلام ما يكون فاستحضر الرمل وحطه قدامه وحرز الاشكال على شرع البال وولد البنات من بطون الأمهات فبات عنده أحوال وضربه رمال وتصال من عرب كالرمل فيهم كل أمير يكتر جيش الجرار الكثير فقال :

يقول الفتى العلام ولد غضبة   لقد بان عندى ياأمير حروف
فهذا عربان الهلالى أبو على   عليهم الذهب وهم قاعدين دفوف
هذا ملكهم ابن سرحان يامالك   أمير ابن أمير سيد المعروف

فلما فرغ من كلامه والزناتى يسمع نظامه فعاد الزناتى فى هم ونكد وإذا بالمصيص قد قبل وأخواته بصحبته فقدم الزناتى ومن فى المقام لملاقاته واستقباله

وانزله فى أعز المقام ثم جلسوا على الطعام وأخذوا يتقارضون بالكلام فقال الهصيص يا اخوان مالى أراكم مغيرين الاحوال فأخبره الزناتى بما حله من الأهوال فقال وأنا حلمت بمثل هذا وأشار يقول :

منامًا حلمت بآخر الليل راعنى ... ينادين من حولى تزيد لهيب

وقد حرقت ذيلى وهبت بأرضنا ... وصار تحرق كل أرض خصيب

وقد أحرقت شجرة النخل وغيره ... وعاد لها بالفيران دبيب

ومن بعدها قد راعنى ديب أبيض ... فما مثله بين الكواسر ديب

وبعدها قد شفت فارس أحمر ... تحاربت أنا وإياه حرب صعيب

ضربنى رمانى عالوطا يا زناتى ... وراح جوادى من وراه جنب ديب

فلما فرغ الهصيص من كلامه والزناتى خليفة يسمع نظامه وكان حاضراً رجل اسمه سليمان خبير فى طرق وأراضى تلك البلدان. فقال ياسليمان اذهب واكشف لنا هؤلاء العرب وآتينا بالخبر عن حقيقة أمرهم وإن فعلت يكون لك جزيل الإحسان ورفعة الشأن فأجابه سمعاً وطاعة وركب جواده وخرج من تلك الساعة وما زال يقطع فى القيعان والأوعار والمسامع والأقفار حتى وصل إلى وادى الرشاش فوجدهم قد اكتسوا تلك الأرض فتخيل له يوم العرض راياتهم تخفق بين الوقوف وبيوتهم كالبحر الزاخر ولا ينظر لها أول من آخر فسأل عن بيت أمير العربان فأرشدوه فدخل على الصيوان نرآه مثل زهرة البستان وصاحبه الأمير حسن يترحب بكل من جاء ويودع من ذهب وأدهشه كرم ابن سرحان وما رأى فى بيت القاضى من الأموال فعاد إلى أن وصل أهله فدخل على الزناتى وسلم عليه وتمثل بين يديه فقال الزناتى يا سليمان اسمعنا عما خرجت اليه فأنشد يقول :

يقول الفتى سليمان عما جرى له ... أرى الهول يا جواد منه القبايل

ألا فاسمعوا إلى يامارك بما جرى ... أنا جيتكم يا عزوتى بالزعايل

حضرت لوادى الرشاش وأرضها ... نظرت القوم كأنى بحر جايل

يقولون معهم ميت الف مدرع ... وميتين الف فالقين الزوايل

وميتين الف بالصوارم والقنا ... عليهم من الحشمة لبس الكوامل

وقالوا أولادنا عند خليفة بالحبس أولاد الملوك الأصايل
ونحن قد جينا نخلص أولادنا من تونس جينا اليها نوازل
وقد طلب سلطان مصر أموالهم فقاموا اليه بالقتال والقبائل
ومنهم قابع أبو زيد الف قلعة و خلى دما الأبطال على الأرض سايل
ونزلوا المضى بن مقرب قدم لهم خيرات عادت جزايل
ورحلوا من أرض الصعيد لأجلنا وهذا خبر تحقيق ما فيه زلايل

فلما فرغ سليمان من كلامه والزناتى وأخوه يسمعون نظامه فصاروا فى حساب وأفكار صعاب وتغيرت من الزناتى ألوان وعادفى بلاء واحعان من هؤلاء العربان فقال الهصيص علامك يا أخى تغير لونك وارتعبت كونك وأنت سلطان هذه البلاد تحكم على الفوارس والاجناد وتحت يدك أربعة وعشرون أميرا وكل أمير يحكم على مائة الف عنان فقال الزناتى أكتب يا أخى إلى بلادنا فاستدعى الهصيص بقلم وقرطاس وأشار يكتب إلى ملوك بلاده يقول :

يقول الفتى الهصيص قام لحربى والنصر بالله والسيوف الحدب
يا حاضرين اسمعوا ثم انهضوا قوموا وسيروا لبلاد الغرب
وأنت يا علام روح بالاندلس إياك تحكى أو تنادى تسكبى
وأنت يا منصور روح لفارس هات لهم أبدال من صبى
وأنت يا زيتون روح لقاقه قول لهم أتوك ركبى
وأنت يا عضرون روح لناسة حتى يقفوا كأنهم بالضرب
وأنت يا ضرغام روح لمغيرة أيضا بلاد الكرم قوم النجب
وأنت يا مقداد روح المندرة وأرض زبلالى يجونا بقربى
وأنت يا شمعون روح لا كره وقول لهم القوم عادت قربى
وأنت يا طلهبان روح لباجة وقول لهم القوم عادت قربى
وأنت يا عماد روح لاغمداس والجبل ولد يروم ابن المتقى
وأنت يا جفال روح لسكسرة مثل الهبوب وقل لهم يا غضبى
وأنت يا رداح روح لمسراة المدير وسليمان المغربى

وأنت يا فراج روح وانهض ونادى لكركم ثم بلاد المنب
وأنت يا عجاج روح الغريب لأرض مراكش ثم لأرض السلب
وأنت يا بلهيص روح انورس إلى أرض ثم أرض القصب
وأنت يا حماد روح ونادر لأرض مكناس وبلاد الشهب
وأنت يا بولاد روح لحرية ودور كل دايره المنهدى
وأنت يا شداد روح لقابس دعهم يقيموا عند باب الدرب
وأنت يا عبود روح عن بجى ونادى بأعلى الصوت حاكم كربى
وأنت يا حماد روح مقصد واركب جوادك لبلاد الهدبى
وأنت يا سليمان أظهر الخبر فى قيروان وقابس الغربى
واظهر الأخبار بأعلى صوتك فى أجهر العلا تغبى

فلما فرغ الهصيص من كلامه والزناتى يسمع نظامه فبعث الزناتى إلى جميع الأمراء وأعلمهم فى هؤلاء العرب الذى مثل الجراد ورجع الكلام إلى الهصيص فركب هو والعلام وجردوا قوم الثمانية الف وقال إلى أخيه ابق مكانك وأنا أريح أفكارك وكل ما جاءك ورقة ارسلها حتى ما تخلى العرب تدخل جدارنا وسار الهصيص فى القوم وبعد أيام قليلة وصلوا إلى وادى الرشاش فقال الهصيص إلى ابن عمه العلام روح قدامنا بألف فارس واكشف لنا العرب أين نازلين فأخذ العلام الف فارس وسار قليلا وإذا مقبل عليهم فرسان مثل الجراد الزحاف وكان الأمير أبو زيد ومعه من الامارة الخفاجى عامر وزيدان بن غانم فلما نظر الامير أبو زيد إلى قدم العلام قال إلى رفاقه احترسوا من هؤلاء الابطال هذا هم قوم العلام بن الزناتى فوصل بعضهم ووقعت العين على العين ونزل العلام للميدان وغاص وبان وسقط اليه أبو زيد مثل سبع الجردان فقال له العلام من تكون من الفرسان جئت إلى تلك الاوطان أنت عبد الحابيس المردان قال نعم يا جبان فقال له أين الرجال وقال أبو زيد أنا مع الف والباقون خلف وأنا أبو زيد الهمام فلما سمع العلام هذا الكلام صار الضياء فى وجهه ظلام والتقوا البطلين كأنهم جبلين وحان عليهم الحين وزعق فوق رؤوسهم غراب البين فاختلفت بينهم ضربتين قاتلتين وكان السابق فى الضربة الأمير أبو زيد فى

ذلك الحمام فأخذ العلام في ترس البولاد فسقطت على رقبة الجواد فأبرتها كما يبرى الكاتب القلم فوقع العلام على الأرض فأدركوه قومه فأخذوه من قدام أبو زيد قام أبو زيد من اليمين والشمال وأهلك الابطال فولوا هاربين والنجاة طالبين وقعدوا فيهم بنى هلال حتى أدخلوهم فى الجبال وبقيت حالتهم أسوأ حال فرجعت عنهم بنى هلال كاسبين الخيل والأموال ولما أقبل العلام وقومه على الهصيص وهم على تلك الحال فصاح فيهم وقال أعلمونى بما جرى من هؤلاء العربان فأخبروه فطلع الهصيص ومن معه بالجبل مثل السيل إذا سال والبحر إذا جال حتى أقبلوا إلى بنى هلال فنظر أبو زيد وإذا بغبار قد حجب الأبصار فقال إلى قومه كثرت عليكم القوم يا شجعان فقالوا نحن فداك ونلتقى أعداك ونزل إلى الأرض وكرم أبو حزم خليلهم وجالوا فى الطول والعرض وشنوا على الأعداء غارة وعاسوا فى القوم والامارة وارموهم فى الذل والخسارة والغبار ملأ الأقطار والهودج كالأقمار والعماريات تنحى الفرسان على قتل الدشمان وأول ما أدرك أبو زيد الامير دياب ووراءه أقبلت جميع العربان فلما نظر الهصيص وقومه أعطوه كسرة وأرادوا الحرب فلما تكاملت العربان إلا أبو زيد كسرهم فى آخر النهار ورد الخيل الشاردة والعدد المبددة وعاد الهصيص إلى موضعه وكمن الليل وركب هو وقومه وكمب بنى هلال وأقاموا فيهم الرعية فقامت من العرب الصبيان وعلت الضجات من كل الجهات وادخلوا بنى هلال الابيات وأخذوا يوم الهصيص خيامهم والبنات والنوق وطلبت المغاربة الزواج فكان أبو زيد حالا جمع أربع كرات وركبت معه العماريات وسبق القوم ومسك لهم الطريق وإذ قد اقبلت عليهم الاعداء فتلاقوا الفرسان على الجازية أولئك البنات فردعليهم الأمير دياب فتلقاه الهصيص مثل الرخ العقاب وضربه بدبوس على الطاسة فحرك خصرته وولى من الهصيص هارب وإلى النجاة طالب ولحقه قومه بنى زغبة فمر على البنات فنظروه فنادته بنته وطفه علامك يا أبى هارب فاراد وخلاها وإذا بالقاضى بدير مهزوم هو وقومه فنادته الجازية لاتروح وتخلينا فقال ورا أخوكى وإذا قومه هاربين فنادته الجازية لا تروح وتخلينا فقال لها الهصيص يخلصكم من الأسر فاذا أبو زيد أتى عليهم فلما نظروه ضجوا عليه وقالوا له ما نظرنا فلما رأى أبو زيد عادت ايوانه مهملات ورجع هو

وقومه واطلق العنان وخشم الفرسان على اقاه لأعداه وحمت ظهر الشجعان فالتقاه الهصيص فى الميدان فوقع فيما بينهم ضرب شديد يفتك الزناد الحديد فقام الزناتى فى عز الركاب وضرب الهصيص بالرمح فشك فى درعه بتره ورماه على الأرض رخاه فهجمت قومه وخاصوه وصار طعن يفتك زرد الحديد والبنات تنادى وتبخى قوم أبو زيد وتزغرط لهم وأبو زيد أولهم فولوا القوم الهصيص شريد وأخذوا منهم بنى هلال خيلهم وأموالهم وعادوا الى أهلهم فلاقتهم الأولاد والبنات بالدفوف والصنجات وراحوا قوم الهصيص شتات وأما بنى هلال فاجتمعوا فى صيوان الأمير حسن صارت الجارية تشتم وتوبخ من هرب وتمدح من ثبت فقال لهم أبو زيد ياأحاويد هلال لاتحسبوا أن الهصيص قد انكسر وراح فلموا بعضكم واعطوا بالكم الى حالكم والذى وراه ماله عدو فاجعلوا حرس يحرس فى الليل وأما أبو زيد كان تعب من الكون وعرق وبرد فى الليل وهو داير فى الحرص فاعتراه وجع فى جوفه وما عاد يقدر يجلس على ظهر الجواد فوقف الخفاجى عامر موضع أبو زيد وبقى أبو زيد سبعة أيام ضعيف هذا ما جرى لبنى هلال وأما ما كان من الهصيص أخو الزناتى فجمع قومه وقال لهم والله أنا أريد عمل لهم حيلة تسوى قبيلة وأرمى الأسمر بينهم حتى ننال مرادنا منهم ولو يدرى أن أبو زيد نايم لغار عليهم بالنهار جهرا ثم قال لقومه اركبوا والحقونى وأتى الى ناحية بنى هلال من ناحية الشرق وأرسل الى الأمير حسن يخبره ان الزناتى عدونا ونحن جايين نهده معكم وسمى روحه الأمير مقلد وأشار يقول :

يقول الفتى المسمى الأمير مقلد	من أرض كرج بالكبار جميع
أتينا بيدى ياحسن مع قومكم	أمارة هلال كل قوم شجيع
أريد أسلفكم جميلا طيبا	ومن سلف الأجواد ليس يضيع
لما سمعنا بسيطكم جينا لكم	وتكسب غنايمهم وكل بخت رفيع
فلا تعملوهم الزناتى خليفة	أنا لكم عونا سريع مطيع
ولا بد نملك أرض تونس بلادهم	وندهى خليفة فى المجال يضيع
هذا كلامى ياأمارة افهموا	أنا مقلد بالطراد ولهيع

(قال الراوى) فلما فرغ مقلد من كلامه طوى الكتاب وختمه فى ختمه وأرسله إلى الأمير حسن فقرأه وعرف معناه وكان أبوزيد له ثلاثة أيام مريض وكان حاضر دياب وبنى هلال جميعهم فقرأ عليهم حسن الكتاب واعلم بنى هلال مافيه فقال دياب أتونا فى وقتهم وأشار حسن يكتب إلى مقلد ويقول :

يقول الفتى حسن الهلالى أبوعلى ... وأخبارنا فى كل أمر تشيع
فيا مرحبا فيما أتانا جميعهم ... لكم فضة الدنيا وكل رقيع
فيا مقلد أقبل اليوم عاجلا ... واركب معانا ثم أنا سريع
لأن الفتى الهصيص ياأمير هنا ... بحرب شديد ياأمير سريع
كسبنا بجنح الليل ارعب قلوبنا ... وذقنا مرار الهول والتقشيع
فاجابه سلامه والتقى بالقنا ... والروح فى سوق المجال تضيع
وضربه أبو زيد ورماه على الوطا ... فمن كان معه أدركوه جميع
فوصل مخوفا فى جموعه هارب ... من حرب أبوزيد الأمير شجيع
ولكن سلامة انعقد يامقلد ... وقد عاد من فوق الفراش وجيع
والحمد لله جيبك الينا عاجل ... وصرت لنا أخا رفيع تبيع
وان ملكت الغرب أعدتك نصفها ... وتصير عندى فى مكان رفيع
هذا ما قال الهلالى أبو على ... يامرحبا فى من أتانا وضيع

(قال الراوى) وركب الأمير حسن ودياب والقاضى بدير وأكابر بنى هلال نحو الف فارس يلاقوهم من غير عدد سوى المزارين لأن البدوى ماراح رمحه كتفه فلما قارب الهصيص ركب ولاقاهم ودق طبله ونشر الأعلام وشهروا الحسام وهجم على بنى هلال مثل السبع الغضبان وتفرقت قومه من كل مكان وغاروا على البيوت ونهبوا الأموال ومالوا يمين وشمال وأخذوا الخيل والجمال ومائة بنت فايقات الجمال وأخذ البيوت من أهلها وساروا نحو قومهم فرحانين كاسبين وقال الهصيص أناما نظرت الأسمر ولا سمعت صوته لعله يكون قد قتل اليوم أما أبوزيد فكان نايم من الضعف فسمع الضجة فقام من نومه وقال ما الخبر بهذه الصرخة فخبره فى حيلة الهصيص وما فعل فى بنى هلال وكيف نهب البوش والمال وسبى النساء والعيال وكيف هربت الرجال ومالو

عليهم فى الحال فصاح من قلب جريح وفؤاد قريح ونهض من ساعته ونهب حربة ودق طبله وعدل راية فاجتمع عنده بنى هلال اثنى عشر فارس والباقى كانوا هاربين على رؤوس الجبال وأخذ الحاضرين وساروا إلى القوم وربطوا لهم الطريق وصاح فيهم قومكم فرفرفت النساء على أبو زيد مثل رف الحمام وقالت الينا يا اصور الحريم فقالوا أبشروا يا بيض وقوم بايده عامود الحديد فصاح فى القوم وقال خلوا الحريم والمال هجم عليهم بالحسام فدعاهم وقام وكانت ساعة تحير الإنس والجان وغار على الفرسان كفرخ الحمام وهو يميل على الميامن والمياسر فأتى الهصيص إلى ناحيه أبو زيد مبادر وهو كالسبع الكاسر وتقابل مع أبو زيد واصطفت الجيوش ووقعت العين على العين وقال الهصيص أنت باقى حى وفى كل موضع أراك قال أبو زيد فى هذا الوقت أريك أفعالى وأشار أبو زيد يقول :

يقول أبو زيد الهلالى سلامة ... لى همة الضد أنا محييها
أيا ابن رزق الخيل قرم رفاقتك ... صور العذارى فى الوغى حاميها
هصيص اسمع كلامى وافتهم ... أنا خصمك جئت لارميها
بالذل يا بوق يقت بقومنا ... لازم اعلامك يا ردى أخفيها
تريد تأخذ مالنا ورجالنا ... من هو الذى لا حريمها
واليوم يا هصيص لازم أقتلك ... بين الحوافر جئتك القيها
ولا بد من قتلك وأخذ جوادك ... لى حربه بالسم أنا ساقيها
لاهلك يا ردى من بعدك ... من حد سيفى ما حد يحميها
قال أبو زيد الهلالى سلامه ... واليوم أفنى عصبتك وأرديها

فلما فرغ أبو زيد من كلامه أشار الملك الهصيص يقول :

قال الفتى الهصيص قول صادق ... فنى همتى نيران هبت فيها
أنا لى زمان أريد حربك والصدام ... لى همـــة لأجلك أنا مخبيها
أنت أبو زيد الذى قد جئتنا ... رواد جت لرفقتك تسميها
وحسبتهم حتى جبت فكاكهم ... ومدامعك من أجلهم تخفيها
سقتهم بكم سعدا أو كنت غاربه ... من أجل مرعى كاويها

وروحت يا أبو زيد نحو بلادكم وجيت قومك والنذل غاشيها
وجيتم وأميتم فى وسط الفضا شورك علم فى البلاد ماليها
لا بد عنكم يا هلال أمنكم وحريمكم لا بد ما أسبيها
ما فى المغارب يلتقى سطوتى أبطال قومى يشهدوا لى فيها
دونك يا أبو زيد سوق خيالها روحك بسيفى فى الوغا اشتريها
قال الفتى الهصيص فيما قد جرى سوق المجال متعوا حميها

(قال الراوى) فعندها التقى البطلين كأنهم جبلين وطار من تحتهم الغبار وقد خفت حوافر الخيل نار هذا الفريقين تنظر إلى نحوهم وحريم بنى هلال كوعظ على أبو زيد من وراه لكى يخلصهم من أعدائهم فعند ما صرخ الهصيص صوت دوت له الجبال وقام باعه فى المزراق وطوحه إلى أبو زيد فأخذه بالسيف أبراه كما يبرى الاقلام وأبو زيد ضايق الهصيص ولاصقه وسدعليه طرقه وطرايقه وهو بيده عود الوان حتى دق الكعب إلى السنان وطعنه من بين بزيه طالع من بين لوحيه ثم ثنى عليه بالسيف فطير رأسه ولما نظروا جماعته ما صار ولوا الأدبار وتبعهم قوم الاخيار وقتلوا مقتلة عظيمة وما بقى لهم قيمة وعاد أبو زيد وجماعته إلى الخيل الشاردة والعدو المبدوه وإذا بالامير دياب والامير حسن والقاضى وقومهم كانوا قد سمعوا أن أبو زيد لحق الهصيص برجال قليلة فتلموا ولحقوه وكان السابق إلى عنده الامير دياب فقال أين أصحو يا أبو زيد فقال اكتفيت بعون الله تعالى فدو لكم خيل أعدائكم فقال دياب يا أبو زيد أنت طول عمرك تفرج عن بنى هلال غمها فقال كونوا على حذر لأن الذين حاربناهم نقطة فى بحر لأن قوم الزناتى أربعة وعشرين سلطان وكل أحد يحكم على كرم مائة الف وأنا فى هذه البلاد أخبر منكم ولكن البوش يخاف عليه من العدا لئلا يأخذه ومرادنا نبعث معه أمير فقالوا يروح مع بوش وراه أم محمد لأن كانت لها ثلث الشورى فان أرميت السلام فردوا عليها السلام وأجلسوها فى أعز مقام ثم بعد ما دارت القهوة وكاسات الشراب التفت الأمير حسن نحو الجازية وقال لها قد أرسلنا وراك لكى نشاورك فى أمر البوش لأنه لنا مرعى لبوشنا فى هذه البلاد فرادنا نرسله لغير موضع غشورى علينا من يروح مع البوش أبو زيد ما لنا بعده تدبير وأن أكون أنا لا يصلح

لأني أمير ويخاف أن تطمع بنا الأعادي ويقولون أميرهم راعي والقاضي يدير أصابعه
مقطعة ولا يصلح إلا دياب لأنه يحميه من الأعادي فأخبرينا ما هو فقالت له هذا
رأس الشور فاشار السلطان يفجيه ويقول :

قال الأمير حسن والقلب في حرقه   من أجل بوش انا خيرين بسبب
نحن نخاف الزناتي عـــدا يشغلنا   ويصهر ما بيننا طعن وتخريب
والبوش تأتيه أبطال مسربلة   يأخذوا البوش منا وينهب نهيب
دياب يا أمير زغبي اليوم هو بنا   وارع لنا المال واحميه من الديب
وادي الغبار والغباين اقصدوه عدا   في ست آلاف عوج كالعواقب
وامكثوا فيه شهرين متتابعة   حتى تبرد لتونس وبلاد المغارب
نملك مداينها ونقتل فوارسها   أما الزناتي نتركه إلى الديب
ونسقيه كاس الموت من فعايلنا   ندعي قصور العهد تمدي محاريب
والقبب العالية لا بد نكسبها   وكل من جاء الينا راح تقصيبه
مرعي ويحيى ويونس نخلصهم   نجيب فشورينا مرديبه
تنظر انا دال أبوها مع خزاينه   واللبس أيضاً وأموال المغاريب
يصير مرعي إلى سعدا لها بغلام   قولا أكيد من غير تكذيبه
دياب من بطل يحمل الفلا غيرك   اليوم يوم الحشمة كن الديب
السيف ما ينظر إلى لحزنه   يوم الكريهة نظر الأعاجيب
يا ليت عمرك طويل زايد الأفراح   أما عدوك يرى عكسا وتنكيب

فلما فرغ الأمير حسن من كلامه ودياب يسمع نظامه عرف أنها مكيدة من الجازية
أخفى الكمد وأظهر الجلد وأشار يطيب خاطر حسن ويقول :

أنا دياب بن غانم يا حسن طيب   ولا تخافوا على لو سطى الديب
طيبا لقلبك على بوشك يا ملك   ولا تخافوا على في المخاريب
المال مال ما يدنو عليه أحد   إني مجرب بإذن الله تجريب
أنا ابن غانم وكل الناس تعرفني   فعل شهودي وتعرفه الأقاريب
وأنتم كونوا حذاري نحو أنفسكم   وحافظوا على حريمي والمراكيب

ثم احضروا الزناتى حين يطلبكم كونوا قوما عوابس فى المضارب
أنتم هــــلال ماحد يقهركم حكمتم الارض شرقا وتغريب
كم من ملك عدا عار ملكه قهرا ودعيتم قومه شرقا وتغريب
الهند والسند ثم السريب واليمن كل الملوك بقوا مهـــاريب

قال الراوى فلما فرغ الأمير دياب من كلامه والامارة يسمعون نظامه فشكروه وقالوا له من علينا صاحب المغارة ونرد عنا القوم فى كل غارة وأشار يقول :

قال أبو زيد المسمى . كلام أكيد من جهدى خذ البوش وروح ادعاه . وسير الى قصى الحردى تسلم المال ملوك هلال . كذا صعبان مع العبدى ومثلك من يحمى ذا البوش . همام مثلك ما أحد . إن كان توفى ها البوش . يا أمير أنا لك كالعبد تسود علينا يا عونا . ويبقى لك فخر الجدى . احفظ بنفسك والرعيان من أبطال ومن يرد أخاف عليك من الغارات نحوكم ليلا بالبرد إياك بالليل تنام إياك تخلى النوم مع الرقدى . وأكرم من جالك قاصد إياك بقولك ترتدى ومن يأبت منكم معنا ينال الخير والقصدى غدا خليفة بقانا وا كون له الجندى . نخاف يروح مال هلال ويأتى الهم مع النكد . أبو سعد يا قوم مجرب وهدية مثل الرعد هذا الزناتى وضربته ترتدى بأكر يصوح باقانا أف البود وفى الزرد ومعه جيش بانيا على خال ضمر كالجراد وأنا ياء واد احضركم بوزيد أنا السند أغنمكم منهم مكاسب لا تتعدى وتروح هوادجنا يفوح المسك مع الندى أنا أوصيكم يا فرسان كونوا عصبة مشتدى عدا أبو سعد أتينا لا يخشى ضربة حدى لا ترحل يا أمير دياب فتكون بعزمك مشتدى خذ البوش واشرع فيه بألف غلام تتعدى الذين فارس خيالة وثلاثين ألف جندى اصبر على الأهوال وتأتونا على العبد اسمع يا أبو وطفا ودياب يا ابن غانم اجتهد لولاك هلال ما سكنت دياب الغرب ولا تجد المال تكفل فيه وزغبى حوالك كالأسد .

كم وقعت اشفيت هلال انت يازكى الجدى

(قال الراوى) فلما فرغ أبو زيد من كلامه قال حسن يا أبو أنت خبير ودياب مشهور كالأسد اسكم دم لنا اليوم وأما الهموم كالعبد وقام الحرب بيوم السكر ب وطعن وضرب احل جهدى وخيل يجول ودم يسول وكم مقتول وعدى أبو زيد هوش

ولم جيوش بوجه بشوش بلاجردى وأخاف هول بليل دهو لاجميع ملوك ابم جلدى إن قام حراب إياب ونهاب . واسمع لدياب لما يبدى: وإن جاك صديق كن شفيق وأنت وثيق وكم بعدى فاسمع لدياب سبع الغاب أنت مهاب أنت السند وفى ركب دياب فى قوم زغبة تسعين الف فارس وكل الف راية بيضاء وسار أبو زيد بدله على وادى الغباين وساقوا البوش والرعيان وكانوا ست آلاف راعى وسار الجميع إلى أن وصلوا إلى وادى الغباين فلاقوا فيه الزهور فائحة المياه سائحة فنزلهم أبو زيد فى الوادى وأوصاهم من الأعادى وعاد ابنى هلال والأمير دياب فنصب صيوانه فى الوادى وأوقف رقباء على الجبال أربعة آلاف خوفا من العدا ويرجع الكلام إلى أمير بلاد الغرب فنظر ذلك أبو زيد وكان فى ألم شديد فنظر فى الزناتى وقال له من أنت حتى تنزل للسلطان أما أنت عبد المحابيس قال نعم فقال الزناتى أين المال فقال معى والفوق خلف قال انت رحت تجيب المال أو رجال فرد الجواب وبيده السيف :

يقول أبو زيد الهلالى سلامة	ألا يازناتى أنت فى الأحلام
لاكزناتى حافك الشر والبلا	اظنك بنومك قد رأيت منام
افيا يابنت تمتقناما كنت جيتكم	ولا كنت جيت القوم بالأحسام
فلو كنت تورد يوم أتينا بلادكم	ونحن ببستان لكم ومقام
فناديت الجلاد حالا فقادنا	لتحت المشانق فى حبال برام
للولا الصغير كانت راحت روحنا	وما لك علينا عفة وزمام
فـكنى جيت أوريك فعلما	أروى قومك فى البلاد هوائم
وأوريك حربا من يمين سلامه	وطعن يفك الزرع والالحام
وأنتم تروحوا مثل ماراح غيركم	بحد الصوارم ما ترون سلام
وتونس ترى فيها تخت الأمير حسن	هلال لكن عليك حرام
أنا أبو زيد الهلالى سلامه	أنا ما حق الابطال والخصام

فلما فرغ أبو زيد من كلامه والزناتى يسمع نظامه التقوا البطلين كأنهم جبلين وحان عليهم الحين وزعق فوق رؤسهم غراب البين فاختلف بينهم ضربتين قاطعتين

فكان السابق فى الضربة أبو زيد فأخذها الزناتى بطارقة البولاد فشحطت على رقبة الجواد فبرتها كبرى القلم فوقع الزناتى على الأرض فركضت القومين على بعضهم البعض وأقاموا الزناتى وخلصوه والتقوا الجيشين والتحم الفريقين وقاسوا الأهوال وبطل القيل والقال حتى أقبل الزوال ودقت طبول الانفصال وقعدوا القومين إلى الصباح فأعدوا بنى هلال ونزلوا طالبوا الكفاح ونزل الزناتى مع قومه الميدان فجمات الشجعان وظهر الشجيع وولى الجبان وطارت الرءوس عن الأبدان وهجم أبو زيد وقحم حتى خلى القوم عدم وبقوا على هذا الحال إلى وقت الزوال فدقوا طبول الانفصال وكل منهم طالب الأهل والأوطان فلما عادت بنو هلال جلسوا فى صيوان الأمير حسن بن سرحان فقال الأمير حسن لماذا يا أبو زيد تقاتل القوم أنت بنفسك وما تعطينى خبر أنت والله ماعدت تركب معنا وأمر فى قيده وقال يا أبو زيد إن كنت طائع الله يا أمير فضع رجليك فى هذا القيد قال أبو زيد سمعاً وطاعة وأنا اتبع كلامك فى كل ساعة وحط القيد فى رجليه وقعد فى بيت الأمير حسن فلما أصبح الصباح دقت بنو هلال طبولهم ونزلوا إلى الميدان فنزل الزناتى فلما رأى أبو زيد ليس معهم فطمع فيهم وغاز عليهم مثل أسد بالغنم وقتل منهم كل جبان وعق الفرسان ودخل فيهم فى باب من أبواب الجنان وشتتهم بين الروابى والآكام ونزل موضعهم وقام وأسدل عليهم وكسرهم حتى رحلهم سبعة مراحل وفى آخر مرحلة حمل عليهم وقام الرعب فيهم وقتل الرجال وأخذ الخيل والجمال والحريم والأطفال فراحوا بنى هلال إلى عند أبو زيد وهو مقيد فقالوا متى يا أبو زيد قم فك القيد من رجلك فأشار يقول قال أبو زيد اسمعوا يامن لقاى وجعوا القوم منكم يشفع اليوم يوم الحرب حسن دق طبول شد خيولك قوم الزناتى جولك فرسان قوم الغرب ياعبد هات الحرا والطواسى السمرا هات بنت الجرافى سرجها وركاب وسيفى اليمانى عند من عهد أبى وجدى محفوظ دائما عندى لأجل الوغى والحرب هلال ياشجعان يامنية الأعيان عدوكم جانى هيا نقيم فيه الرعى وقوموا بنا نلقاهم بسيوفنا نصحاهم ونفوز بكسب غنامهم بطعن والضرب وشوفوا الزناتى حاكم يريد سفك دماكم هذا العدو أتاكم قيموا عليه الحرب حطين

فى العيد وما كان وأيك جيدى مثل أميرى وسهدى وأنا حاكم فى السر فلما فرغ أبوزيد من كلامه والامارة يسمعون نظامه شكروه وقالوا له يامن بعدك ثم استعد الحرب ودق طبوله ونزل فى الميدان فسمع الزناتى طبول بنى هلال فنزل هو وقومه إلى ساحة الميدان فقال الزناتى لاينزل لى إلا أبو زيد فما أتم كلامه إلا وأبوزيد صار قدامه فقال له أين كنت متجنى يا ابوزيد صاحب المكر والكيد فقال له كنت غايب واليوم جيتك محارب فالتقى البطلين كأنهم أسدين درغامين وغنى فوق رؤسهم غراب البين حتى تعب منهم الساعدين وكلت من تحتهم الجوادين وداموا فى قتال وجدال إلى قرب الزوال ودقت طبول الانفصال كل فرقة وطاب حبه والاطلال وباتوا يتحدثون إلى أن أصبح الصباح فركب القومين واصطف الجيشين ووقعت العين على العين وصار قتال وأهوال قرب الزوال وبقوا على ذلك سبعة أيام حتى كانت منهم الزنود وذابت الكبود وفى آخر النهار ولى هارب إلى النجاة طالب فغار عليهم أبوزيد بقومه وبقى غاير حتى أربعة عشر مرحلة إلى الوراء وأدخلهم البلد فلما دخل الزناتى إلى المدينة دخل أبواب تونس وسكوها وراه وقال أنا ما بقيت أقاتل أبوزيد ثم استدعى بقلم وقرطاس ودواية من الذهب وأشار يكتب إلى الأمير حسن ويقول :

قال الزناتى طاره يامعشر الحطاره من أجل قوم جونا خلوا البلاد دماره الزناتى عندى أبطال ما تعدى الحرب عكم عندى يشبه ليب الشاريا بو على القاتى فى حومة الميدان لاريك طعن الزان ياما قتلت أماره ياحسن فى بالك أن الدهر يصفالك لابد ما تشوف حالك وتشوف شىء صاره ارسل بطعنك عادى فى عزوك وبوادى هذه البلاد بلادى لاالغيره داره إياك من أبو سعده يجيك مثل الرعده نجمه خدمه نجمك عليه غباره جاك الزناتى غاير من فوق أدهم طاير بيده حسام شاهر ان صاب وأسك طاره والله أنا سأفنيكم وبناتكم تنعيكم قصاب لاعمل فيكم واعمل لكم جزاره كم فارس مقتول من ظننا المزول وأبطال تأتى حول بالعزل تزكاره العز والناموس ثوب الفخر ملبوس ما يوم يخطى قوسى دايم كسبه ناره ياحسن على اشهر للحرب لاتتغير عند اللقا تتحير فى طعن مثل الناره .

فلما فرغ الزناتى من كلامه طوى الكتاب وختمه بختمه وأرسله إلى الأمير حسن فأخذه وقرأه وعرف رموزه ومعناه أشار يرد عليه بهذه القصيدة :

مقال الفتى حسن المسمى ... كريم الجد من فرع أصيل
كريم الجواد من فروع أصايل ... أمير صاحب القدر الجليل
نحن ما أتينا اليك عمـــدا ... ولاجزنا بلادك من قليل
فلولا حبست يحيي ويونس ... ومرعى ذاك إلى روحى عديل
فلولا طلقتهم نلت الغنـايم ... وتكسب يامالك منا الجميل
ولاكنا أتينا إلى بلادك ... ولا الغرب أبو زيد الدليل
وكم جبار من حربى قتل ... وكم أمير من سيفى قتيل
خذنى لك باكر لا توانى ... غدا مابيننـا يوم طويل
واسقى الشاربين وهم عكارى ... وأرواح الملوك وهم تزيل
أنا وإياك يابحر المكارم ... بميدان الحروب لنا هويل
أنا أمير وسيد آل عامر ... معز الجد حامى النزيل
وكم أمير أخربنـا دياره ... وكم صنديد خضع لى ذليل
ملوك الأرض خافت من لقانا ... بلاد الهند مع أرض الخيل
وفى الملا قد صار حـكمى ... ولولا أبو زيد مابعثنا دليل
ولا نخينا مطايا بأرضـك ... ولا السمر العوالى لك يميل
حبست أولادنا وقد عبت فينا ... وتهدد علينا يا هـــزيل
أما تأخـذونا يازناتى ... أما نحن فيـكم قد تميـل
غدا ينصب بيننا سوق المنايا ... ويبقى النصر من رب جليل
ونحـكم أرضـكم ونشيخ فيها ... ونحكـم بملدكم دهرا طويل
مقال الفتى حسن الدويدى ... ونيران القلوب لها شعيل

فلما فرغ من كلامه طوى الكتاب وختمه بختمه وأرسله إلى الزناتى فلما وصل اليه قرأه وعرف رموزه ومعناه قطع الكتاب ورماه وصاح على من عنده من الفرسان وأمر بدق الطبول والركوب على الخيول وأما الأمير حسن فبعدها أرسل

رد الجواب دق طبول الكفاح وطلب النصر من الله الفتاح ونزل هو وقومه الميدان فنزل الزناتى وغاص وبان وقال لا ينزل لى ردىء ولا جبان ولا يبرز لى إلا أمير العربان فلما انتهى من كلامه صار حسن قدامه فقال الزناتى أنت مثلى وأنا مثلك فعندها التقى البطلين كأنهم جبلين وحان عليهم الحين وزعق فرق روسهم غراب البين وداموا فى قتال حتى ولى النهار ودقت طبول الانفصال وعاد كل إلى مكانه ولما أصبح الصباح نزل أبو زيد إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فنزل اليه الزناتى وقال له من أمرك تنزل لحربى أنا طالب حتى اذيقه طعنى وضربى فقال أنا أبو زيد أنا خصمك جيتك فعند ذلك التقوا البطلين كأنهم أسدين أو جبلين وحان عليهم الحين وزعق فوق روسهم غراب البين حتى كلت منهم الساعدين وتعبت منهم الزندين وبقوا على هذا الحال إلى وقت الزوال وفى ثانى الأيام نزلوا إلى الحرب والكفاح فأما أبو زيد أراد الحرب على الزناتى خليفة ولكن الزناتى ما لقى أرب فدار رأس جواده وولى هارب وللنجاة طالب فانكسر قومه فداركه أبو زيد حتى وصل إلى مدينة تونس ففتح البواب للزناتى حتى دخل وغلق الباب فى وجه أبو زيد فقام أبو زيد من عزم الركاب وضرب الرمح فى الباب وعاد إلى قومه والأصحاب من بعد فرق خلقة وقتل منهم كل قوم عاتى إلى أن وصلت بنى هلال إلى بيت الأمير حسن ودار فيما بينهم من الكلام وشكروا أبو زيد الهمام ومن بعد ذلك مد لهم الطعام حتى اكتفى الخاص والعام وبعد ذلك أشار أبو زيد يقول :

قال أبو زيد المسمى بقلب قاسى ليس بلين ... أبو مرعى اسمع قولى وافهم قول القوالين

أبو زيد سياج الضمن غفير البيض حى المسكين كم أمير أهلكت وجيت لخيله عندى حين ملكنا الشرق بحد السيف وعدنا فيها حاكين ملكنا بحد السيف وهذه حصون الشاميين سبع قبائل شتتنا ولو امنها فرعانين ملكنا بعزم دياب أمير زغبى المضمونين أما حسن فيها سلطان حاكم فيها بالتمكين وسيفه طال فى الابطال ولم أهوال قساميين وطاب العيش وراق البال وقصاصين بنات هلال جمال ظرافه

كالغزلان العطشانين لما طلب السعد وراح جانا الحمل ودام سنين خمس أعوام علينا
دام متواليين جانى مرعى مثل السبع ويحيى ويونس كالشهبين الاث شبان كالعقبان
قالوا لتونس مشتاقين بسرعة السرية وفاضت دموع البكائين قطعنا جبال بجنح الليل
سلكنا أرض الرواضين ثلاث شهور نمشى ليونس جينا عيانين نزلنا فى بستان
قبلنا عبيد غضبانين ربطونا وقد ساقونا عدنا منهم فزعانين لاجابونا لعند الامير
الأمير نهرنى وقال يامسكين كيف جيتونا يامكار أتم جيتم جساسين قلت له اسمع
ياأمير تونس جئنا طالبين سمعنا فى ذكرك ياجيد إنك تكرم على المسكين غضب
ودعا الجلاد وجاء شيخ الجلادين ضربنا مثل النار وأشفى فينا الحسادين وقال أشنقهم
ياجلاد ودار غمز الغمازين شفعت فينا بنته سعده وعاد الاعادى حيرانين وقال
ياسعده خديهم سجن السجانين راحت أخذتنا سعده بقينا فرحانين قالت مرعى
محبوبى حبيبى دون الحبايين ركبت هجين أنا وسريت الهجانين وجيت لجد بهذا
الوقت لقيت هلال متعنا يقين قال حسن هوبت الطعن وحفظ لضعفك ضمانين ملوك
الأرض دهكناها بالضرب وطعن الطعانين دخلنا الغرب وقام الحرب وحميت
النار الشعالين وقام تسوق أبو سعدى ونادت أين الشربين وحسن يهز إلى القناه
حسن سلطان بلابو هين برزت الحرب يابن العم تقول سباع وغضبانين بمهدك لاجيعه
الميدان لقيت البغايين قالعه أنا أبو زيد البيك التعسانين على حرا جيتك الحرب
أشجع من سبع كمين وهاج الحرب وقال القرب وأصله نار الوقادين وجانى عايز مثل
الغول ومثل فهد الفهدين طعنته فى عزمى وطعنته طعن القاتلين ثانى طعنة بالعرفان
قطعت له الدرع المتين وثالث طعنة يافرسان بشهاب نار الشعلانين وتابعنا فى
الارواح تجار الحرب الياعين شربناها بمنامنه دليل البيع السرابين وغدا مرعوب
أبو سعده وحاله دون البوابين غلق ابواب خلفه وكانوا أربع بوابين ضربت الباب
بعود صلب يسمى عود الثلاثين حديد قديم يقيم سنين وكم حداد يجى اليها تعود
عينيه منقسمين فراح الباب ثمان كعاب وهيك داون الضاربين

(قال الراوى) فلما فرغ أبو زيد من كلامه والأمارة تسمع نظامه فقالوا ياويلنا
من بعدك ياأبو شيبان وياحاكم الاطعان ثم يرجع الكلام إلى الزناتى لما تحرب من ضربة

أبوزيد جاءت وقومه إلى عنده وقالوا له عن الضربة التي ضربها أبوزيد خربت الباب ثمانية كعاب فعاد الزناتي في حساب وأمور صعاب وجمع قومه وقال لهم كيف الرأي ثم باتوا في بلادهم أما أبوزيد ثاني يوم دق طبله واستعد للقتال وطلب اللقاء فدخل البواب الى عند سيده الزناتي وقال له من ينزل إلى الميدان فقال الزناتي احضر الأرباب من ينزل إلى عزرائيل قباض الأرواح ثم كتب إلى الامير أبوزيد كتابا وأرسله مع الوزير فلما وصل اليه أخذه وتوجه نحو صيوان الأمير حسن وأعطاه الكتاب فقال بحيث أن الزناتي خليفة ذل من حربنا بعث له أن يعتق أولادنا من الحبس ويرسل لنا إياهم فراح أبوزيد يكتب إلى الزناتي ويقول :

يقول أبوزيد الهلالي سلامة	ولي قلب أقوى من حجر صوان
ولي عزم بالهيجا إذا قام سوقها	ولي طعن ما كن يكسر السندان
وكم من مثلك كان مجرب	بطعن يهد العزم وراح مهان
من الشرق إلى الغرب راحت ملو	كها وكم ذل لسيفي أمير مع سلطان
خليفة تبعث الكلام تقول لي	هذا كلامك زور مع بهتان
إن كان ماقلته صدق مؤكد	اطلق لنا أولادنا من الآن
هذا مرادنا يكون منك ياملك	ونا منكم من ضرب عود الزان
فلو تزدع الحوادث ياولد صالح	حصدت بداله أربع وثمان

(قال الراوي) فلما فرغ أبو زيد من كلامه طوى الكتاب وختمه وأعطاه إلى المرسل فسار الى أن وصل لعند الزناتي أعطاه الكتاب فحمد الله الذي رضوا في فكاك الاولاد فبعث الزناتي إلى بنته سعدة وقال لها اطلقي المحابيس حتى نرسلهم إلى أهلهم فلما وصل الخبر أتى سعدة إلى عند أبوها وقالت ياحيف ياأبي أنك صدقت كلام العرب هؤلاء العرب ما بقوا يفارقوا هذه البلاد فقال لها والله لقد صدقتي لو عدمنا الحياة ماعدنا نرسلهم وكان تلك الساعة مرعى عندنا :

تقول سعدة بنت أمير تونس	وجرح الهوى قد عاقني حبايله
جرحني الهوى في قلب أهاني	وشعال نار الجد أشعل فتايله
أنا ما ضناني غير مرعى وذاني	فيارب تجمع شملنا واواصله

طوله يشابه الرديني إذا مشى   متى تسمح الايام وانظر حمايله
أنا خايفة يطلقكم وترحلوا   لأن سلامة كل يوم يزعله
فان كان يرسلكم تروحوا لأهلكم   وينظر لكم حسن ويهني نحايله
أنا خايفة يابطل حربنا مع قومكم   يفرح بمرعى حين ينظر حمايله
ما قالت سعده الهوى قد صابني   على حب مرعى فى فؤادى حمايله

(قال الراوى) فلما فرغت سعده من كلامها فأنشد مرعى يجاوبها ويقول :

يقول الفتى مرعى بعين وجيعة   لها بين نور الناجعين دراف
لأن حبك يامليحة ذابنى   وجانى هواك والغرام صداف
ولكن أبوك يامليحة أعانى   بالحبس صرنا موجوعين ضعاف
وان كان يطلقنا فلا يمنعه   حتى نروح لأهلنا وسلاف
واخبر حسن بما فعلتيه معنا   أبوك بين الملا عراف
ويرسل الينا أبوك نخطبك منه   واعطيك خيلا مع أموال ظراف
هذا مرادى يا مليحة ومنيتى   نريد الحلال وما نريد خلاف
وأما الخنا فليس فيه تطابق   لأنى أنا من نسل قوم شراف
ولا بد نملك أرضكم وبلادكم   وأخذك حقا بغير خلاف
فلا تحمل إلا هرا وغاية المنا   يداركنا الرحمن بغير خلاف

فلما فرغ مرعى من كلامه وسعدا تسمع نظامه فبقوا على ما كانوا عليه أولا فى النهار تنزل إلى الحبس وفى الليل تجيبه إلى عندها وتنام وإياه أما ما كان من بنى هلال القوا أولادهم ماطلعوا إلى الحبس نام أبو زيد ودق طبوله ونزل إلى الميدان فما أحد جاء اليه فغار فى جواده ودق باب تونس فردعليه البواب وقال من تكون قال أبو زيد أريد سيدك حتى آخذ روحه من جسده فراح البواب اعند سيده وأشار يقول:

قال خضر اسمع يامالك   قلبى احترق من الأمور بنار
جانا سلامه كأنه سبع كاسر   من فوق مهرة مثل طير طار
وقال لى حارس لاكسر واسطه   اسرع الى سيدك وهات أخبار

قوم انحدر اليه وكون صادم واسقيه كاساً حنظلا مرار
وإن كنت ماتنزل اليه أناله أجيب لك رأسه مع الأخبار
هات لى خوذا ودرعا مانعا وهات لى سيف يكون بتار
إن عانى ربى لأقطع راسه وأقيم أنا من فوق راسى طار
قال خضر فى كلامه صادق فى وسط قلبى اليوم هبت نار

فلما فرغ خضر من كلامه والزناتى يسمع نظامه فأعطاه درع وسيف وخوذة. وقال له ياخضر إن كنت تقتل أبو زيد أعطيك مدينة معاف وأعطيك سعدة فقال. ياسيدى أنا أكفيك شره فبرز إلى أبو زيد فقال له من تكون من الفرسان حتى تنزل الميدان. قال له أنا خضر بن موسى فضحك أبو زيد ووقف يشوف ماذا يريد فأشار خضر يقول.

يقول خضر بن موسى الذى شكا أنـــا الزناتى يافتى بواب
ترى خليفة ما عاد ينزل لمثلك ولا يلتقيك يا فتى بحراب
اوعدنى إذا جبت له راسك يعطينى ستحق بغير عقاب
وجيت اليك اليوم لكى أقاتلك ولابد منى ما تذوق عذاب
الأيام كلها اما تجى معك سعادة يوم به خير ويوم نكاب
والأبطال ياأبو زيد كلها سوى هذا فارس وهذا صعب مراب
أنت أبو زيد وأنى خضر باكر لاشك فى أنك قلت صواب
رد أبو زيد الهلالى يقول له احترقت بنار القلوب احراق
حرقنى الزناتى من فعايله وكان علينا باغيا مراق
نزلت الميدان للزناتى اقاتله لا بد منى ما يروح عتاق
ياأيها الرجل الذى جاء لحربنا غرقت فى بحر ماله وفاق
ان كنت فارس من خيل بنى حر بك لانك أتيت إلى الحرب مشتاق
ان ما يلتقينى إلا خليفة أميركم لأن الزناتى فارس سبـــاق
تكاونت أنا وإياه فى حومة الوغا ولا ما دخل قصره وراح عتاق
قد أرسلك لا يريد إلا هلا كك تضحى قتيلا تحت تل طباق

(قال الراوى) فاطبقوا على بعضهم فقام أبو زيد وحرك الجواد ولاطف إلى أن حصره وطسه أمارة تحت الحصان فقال الخضر أنا بجيرتك يا ابن الأجاويد فقال أبو زيد قم اشلح عدة الحرب ما تستاهل القتل لأن ما عليك مقدر فقام البواب وعاد وهو يبكى حتى وصل إلى عند الزناتى فقال كيف حالك مع أبو زيد فقال يا ملك الزمان كأنى رأيت مقام أحسب الحرب مثل فتح الباب وغلقه وراح يخبر الزناتى فاستدعى بقلم وقرطاس وأشار يقول :

قال أبو سعدة الزناتى خليفه ازدادت همومى اليوم ثم النكايد

جفتنا ليالى العز صارت رزيه ولا عاد تأتينا ليالى السعايد

أنازل عبيد فى حرب بلادنا من وقت ماجانا أبو زيد رايد

فمتقه عفوا وحالا فقد غدا وجابت ألوانا من قروم حدايد

حسرنى سلامة حسرة وهى حسرة ولا لى على حرب الهلالى جلايد

أيا غاديا منى على متن ضامر تجد الثرى فى قربها والبمايد

إذا جيت الهلالى سلامه فاخبره عنى أكيد النشايد

وقل ياعزيز قيس وعامر يامن على الأجواد فى الجود زايد

سألتك بحق ياأمير حيرتى لدينك إذا ما كنت للدين رايد

لأنك تعفو عن قتال وترجع ينالك طرى من طيبات

وأنا عتيقك ياأمير سلامة وكسب الثنا والجود هو لك عائد

(قال الراوى) فلما فرغ الزناتى من كلامه طوى الكتاب وأرسله مع عبده إلى أبو زيد فأخذه وصار إلى أن وصل فركع وباس يد أبو زيد وأعطاه الكتاب وأخذه أبوزيد وقرأه وعرف رموزه ومعناه وأخذه لعند الأمير حسن فقرأه أيضا وهم فى الحديث إلا وعبد من عند السلطان حسن اسمه غازى كان راح ودار بلاد الغرب الجوانى من يوم دخل بلاد الزناتى لأن بلاد الغرب الجوانى تسمى الشقور وفيها سبعة ملوك كل ملك يركب بمائة الف خيال وارجع وابتدأ يخبر الأسياد يقول:

قال الفتى غازى يا ملك جيتكم عساكر مثل بحر طافح

جونا ملوك المغـــارب كلها   من فوق خيلا صافنات قوادح
قد وحلت بلاد الغرب ورأيتهم   فانها كا رف الجواد السامح
أرسل أبو سعده جابهم   أتوه نجدات من بعد المطارح
من لم يقاتل عند غرضه يقتل   الجند لا يرضى فعل القبايح

(قال الراوى) فلما فرغ من كلامه والامارة يسمعون نظامه قال أبو زيد ارتاحوا على جميعهم وحدى ثم أنه نبه فرسانه وراح إلى صيوانه فقام السلطان حسن وراح لعنده وقال يا أبو زيد أنت ذاهب وأنا خايف من الزناتي يجينا ويأخذ حق الله منا فقال أبو زيد أحط لكم راية حمراء على باب تونس فلا يطلع اليكم ما دام الهوى يلوح بها وتمشى بالليل وتدق طبل حتى تلاقى وترمى فيهم الوهم فعاد الامير وأما من أبو زيد صبر إلى الليل وركب هو وقومه بنى زحلا ومشوا نحو ذلك العدوان مقدار سبعة أيام حتى وصلوا إلى موضع فيه ربيع ومياه فقال أبو زيد حولوا فحولوا وفرشوا له الحرام فنعس أبو زيد ونام وتوقع أن ذلك على وكر ثعبان فطلع وضرب أبو زيد فى فخذه وانقلب وأرمى سمه ففاق أبو زيد من ضربة الثعبان وقال بصوت من صميم الفؤاد يا جواد فركضت على اخوانه فبحثوا على الثعبان قتلوه وإذا هو عشرة وعاد فى قلب أبو زيد لهيب النار وعاد القوم فى أكبرهم خلوا وعادوا به إلى البيت فقامت عياله بالبكاء والنواح على هذا الأسد المسموم وصار الشكاب فى بنى هلال فعرف السلطان حسن وخاف من الزناتي وأما منه لما عرف أن أبو زيد مسموم ودياب غائب قوى عزمه وفرح وبات مستعد على حرب بنى هلال وأشار يكتب إلى السلطان حسن يقول :

يقول أبو سعده الزناتي خليفه   وقلبي عليكم يا هلال حقوم
قتلتم رجال فى المجال غصيبة   وعاد دماهم فى البلاد يدوم
قتلتم أخى الهصيص غد وبوقه   وهو كان ضد الظالمين عنود
ولى طار سالف من عهود قديمة   طاريء عندكم من زمان جدود
والله لاجرد عليكم عساكر   واحشد عليكم الانام حشود

وآسر حلايلكم وآخذ أموالكم وابدل لطيب عيشكم بنكود
أنا أبو سعده أنا قاهر العدا ولى فى تعالى يا كرام شهود
شهودى تهودى والقائم صارمى ببض الدمارى راخيات جمود
يا أبو على قوم التق بلا بطا وتروح من سيفى طعام الدود
خمسماية ألف عـــدة جموعنا عليهم من الزرد المتين بنود
يا أبو على ارحل بصفقتك من أرضنا وفوز بنفسك تبلغ المقصود
ما لك عندى إلا الطعن والقنا وضرب يشيب هامة المولود
فان عانى ربى سريعاً أهلكتكم واعقد عليكم كل يوم عقود
أنا أبو سعده الزناتى خليفة هنيئا لمن خالى عنا وحقود

(قال الراوى) فلما فرغ الزناتى من قوله طوى الكتاب وأرسله إلى السلطان حسن فلما وصل اليه كتب له الجواب فأنشد يقول :

يقول الفتى حسن الهلالى أبو على مضى العمر منا بشدة ونكود
مضى عمرنا بالطعن والضرب والقنـــا زمان مضى ما عاد ظن يعود
من نجد إلى تونس قهرنا ملوكها وكم جيش سلطان غدا مطرود
ما عاد غيرك يا زناتى مصادم كم واحـــد غدا بمدود
غدا والله ينصف ما بينى وبينك أجيك بدرع من عمل داود
وجرد لسيفى والقنا صارمى وحوله شباب يعمهون عهود
جاله وغازى يا بن مدكود فيهم على خيل ضمر بالطراد تجود
أنا حسن المسمى بن سرحان أبو على أنا للأعادى حنظلا مبرود
أنا سمكة أنا لوعة البـــلا بيوم يصير الزين منه حسود
وأنا ما انسيك يا زناتى خليفة ولا عن قتلك عاجز مطرود
ما قام انتظر الريشات فعل أبو على له فى صدور المدرعين قيود
غدل الفتى حسن الهلالى أبو على يا سعد من لا شاف يوم نكود

(قال الراوى) فلما فرغ السلطان حسن من قوله طوى الكتاب وأعطاه إلى

الشباب فأخذه الى مولاه وأعطاه إياه وقرأه وعرف رموزه ومعناه ولما أصبح الصباح دق طبله وركب وأطلق الغارة على بنى هلال فركبت بنو هلال خيولهم ودقت الطبول لهم فالتقى الفريقين وانحطت العين فبرز الزناتى إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فبرز اليه السلطان حسن والتقوا البطلين كأنهم جبلين وطار من تحتهم الغبار حتى سد منافذ الأقطار وقد حك حوافر الخيل نار وانكسرت بينهم الرماح والطبول والسيوف الثقال وكلت منهم الزنود وزعقت منهم الجلود وبقوا على هذا الحال حتى دق الانفصال فافترقا على سلامة وباتوا إلى الصباح يتحدثون فلما أصبح الصباح وضاء بنوره ولاح وطلعت الشمس على رؤوس الروابى والبطاح فبرز الزناتى للميدان وعال ضرب الطعان فأراد السلطان يبرز اليه فمنعوه قومه الامارة وقالوا نخاف عليك من الزناتى وأبو زيد ماسوع ودياب غايب وإن صار لك حادث تروح بنى هلال سرآ فى الجبال فقام الخفاجى عامر وطلب الزناتى فمنعه حسن وقال أنت نزيل عندنا والنزيل ليس له حرب فقام الخفاجى وأقسم يمين عظيم ان لم ينزل الزناتى يرحل بقومه عن بنى هلال فتركه وثانى يوم دق الزناتى طبله إلى الميدان فبرز اليه الخفاجى عامر فالتقوا البطلين كأنهم جبلين وزعق فوق رؤسهم غراب البين وفى اليوم الثالث كل الزناتى وولى هارب من قدام الخفاجى وكان عند الزناتى خطيب يسمى مطاوع فقال الزناتى اكرانزل اليه وأما مستخبى بين الزرد وإن انكسرت قدامه فيلحقك حتى يفوتنى فأجيله من وراه وأطعنه من قفاه وأعدمه الحياة وأما من الخفاجى فانه رأى مناما ان قدام بيته شجرة طويلة جاها نجار قطعها وحفر شلوشها فقام من منامه مرعوبا واستدعى دواية وامرأته قال لهم عن منامه :

يقول الخفاجى والخفاجى عامر ... رأيت منام منه عقلى طار
رأيت شجرة ثابتة فى وسط دارنا ... قطعها سريعا يوسف النجار
وقدم منشكه وحفر شلوشها ... وقطعها بالقادوم والمنشار
وأمس أرسل الزناتى يقول لى ... كلاما أكيدا وضح الأسرار
يقول لى يا أمير اترك قتالنا ... وبطل عنا جملة الاضرار
وعدنى بالمال والملك والعطا ... ورغبنى فى معــدن وابهار

فما ردت فی هذه العطایا دوایه　　وأرمت فی قلبی لهیب النار
یخاف أنهم حسبوا احسابی جیمهم　　وقوم الزناتی کلهم مکار
لأن منامی یا دوایه راعنی　　وأرمی فی قلبی لهیب النار
ولکن مهما یفعل الله جائزاً　　الله تعالی واحد قهار
قال المسمی الخفاجی عامر　　من ذا المنام بقیت کالمحتار
ردت دوایه بنت عامر تقوله　　اترك خلیة لا تزیدن أشرار
أنا خائفة ذا المنام یصیبنا　　ویرمی لنا بالهم والاضرار
نخاف علیك من الزناتی خلیفه　　لأنه أمیر بالملا غدار
له سطوة بالحرب ما شفت مثلها　　یشبه لسبع الفلا غدار
ما شفت قوم هلال فیما جری　　خلی دماهم علی الوطا فوار
فاهجم ولا تمنع والعد واعتد　　یا مصعب الفرقة وبعد الدار
ما قالت دوایه والبکا حیلها　　یا حسرتی ان راح عن الدار

(قال الراوی) فلما فرغت دوایه من کلامها وأبوها یسمع نظامها قال یا بنتی إذا رکبوا بنی هلال ماذا یکون الجواب وأنا حالف یمین أنی أحارب الزناتی عشرة أیام فقالت له عمل ضعیف یعذروك بنی هلال دقوا طبولهم ورکبوا خیولهم وفقدوا الخفاجی عامر فما وجدوه بینهم فسألوا عنه حسن فقالت الجازیة أنا أروح الیه فراحت تلاقی دوایه قایمة تبکی فسألتها عنه قالت أصبح مریضاً فرجعت أخبرتهم فقال حسن الخفاجی أقسم یمین أنه یحارب الزناتی عشرة أیام وحاربه ثلاثة أیام بقی علیه سبعة أیام فکان حاضر أمیر اسمه ظریف محب فی الخفاجی فقال أنا أروح الیه أنظر معانیه فراح إلی عند الخفاجی فلما وصل کان نایم فجلس علی حفیلة وقال له حول یا خفاجی تحول عن جواده فسأله عن حاله فاشار الخفاجی یقول :

قال الخفاجی ولد دیرغام عامر　　یا ظریف حول تعالی أضیف
وحیل ارتخی منی یا أمیر وانقطع　　وعاد جسمی یا أمیر تلیف
مرعوب مما نظرته فی منامی　　ولقد عدت من هذا المنام رجیف

رأيت شجرة طالعة وسط دارنا   أنا كل عرس نالف وظيف
جانا بجرى وقطع غصونها   وأحرقها بمنشاره تحريف
وشفت الزناتى راح منى هزيمة   وكنت عليه بالطراد جنيف
خايف يكون دبر علينا حيلة   ومهما تشوروه ما به تخليف
فرد المسمى ظريف وقال له   ألا يا خفاجى لا تكن خيف
شد واركب الزناتى وصادمه   وأخاف تصبح بين الأنام مخيف
ياأمير إن العمر من رافع السماء   مكن علينا ليس منه مخيف
ما دام لك أجل ما قط تقتل   ولو كنت نازل وسط بحر مطيف
حياة الفتى موته بظهر جواده   بيوم يكون الريق فيه نشيف
يقتل يكسب الحمد والثنا   يبيض لعرضه وثناه نظيف
انهض ولا تخشى المنايا جميعها   وإلا غشينا بالذل والتخويف

(قال الراوى) فلما فرغ ظريف من كلامه والخفاجى يسمع نظامه وثب كالأسد وشد على جواده وتقلد بالحرب والجلاد وسار مع ظريف فعندها زغردت البنات ودقت الماريات وحين شافه الزناتى أنشد يقول :

يقول الزناتى من فؤادى معمر   نيران قلبى زايدات وقودها
أنا الخليفة بالحروب مجرب   لى سيفا بالخيل أنا رادها
ألقى ألوف الخيل مانى خايف   أبطال تعرفنى بيوم طرادها
أجول حربى وحين طرادى   وتريد فى حربى ترى أسكاذها
ابشر بقصر العمر جالك وأكد   لابد ما تكن عيق لحالها
رد الفتى المسمى خفاجى وقال له   نار الحرب أنت قاتم بشرارها
أرسلت لك مكتوب كون صديق   وتعطينى تونس وكل جدادها
ما أرد اخون العيش يا أبو سعيد   أخاف ترخص عندنا أسعارها
أولا أكون الخفاجى عامر   فى جاه صغارها وكبارها
أصبح هزيل فى هلال عسخ   ويكشفون عروضها وصخورها

لكن اليوم جيت إلى حربك لا بد أسقيك كأس مرارها

فلما فرغ من كلامه التقوا الفارسين فى حرب وصدام وساروا فى حرب شديد يفتك زرد الحديد فانفك عزم الزناتى من شدة حربه فولى هارب والنجاة طالب وحكم ضربه نحو جناين الورد وكان الخطيب كان من بين السجايا وماسك الرمح بيده وإذا بالزناتى والخفاجى لاحقه فطالع الخطيب طعن الخفاجى بين كتفيه خرج يلمع من لوحيه فرماه قتيل وفى دمه جديل فغار الفريقين والتحموا الطائفتين وصاح على رؤسهم غراب البين وأما ظريف صديق الخفاجى فقد شوش عليه فلحق الخطيب وطعنه بالرمح أصاب الجواد ورماه على الأرض فرد الزناتى اليه وخلصه من بين يديه وركب الجواد ولازال بينهم القتال حتى ولى النهار فانفصلوا عن القتال وامتلأت الأرض من القتلى وأخذ الظريف خفاجى عامر الى بيته ومدده فأشار يقول :

قالت دراية دموع من مآقيها ابران قلبى من يقدر يطفيها
جادت علينا سلما من نواتبها وأسقت لعامر شربة من أوانيها
فابكت دراية دموعها لاجل والد هابنت الخفاجى من يقدر تبكيها
ياحيف رحنا ماشفنا منازلها ياحيف يابدار العز نخليها
أنا دراية أبو عامر الماجد أشد المكارم وقد شيد مبانيها
قد كان ملك فى أرض العراق له كم كربة من هموم الدهر يجليها
يارميه البين شتتوا لومنا حول الليالى تجهزنا لياليها
جاله مطاوع على شبه مبرشة تشبه لريم الملا السرج عليها
طعنه بحربه طول الليل يسقيها وراح عامر طريح الفراش ساليها
جاله ظريف سريع من فوق سابقه ضرب مطاوع ضربه جامدة فيها
واضحى والدى بالعرى منطرحا أطلن عدنا الأرض والشرق تغشيها
من ذا الذى يوصل الأخبار لأها ذا وعلام عامر ترى من عاديهميا
ماقالت دراية ونار القلب مشتعلة على أنواعها وعربها وتاليها

فلما فرغت من كلامها أفاق أبوها من غشوته وأشار يقول :

يقول الخفاجى بن درغام عامر ... بدمع جرى لا أظن مثله مدامع
نيران قلبي كلما أقول تنطفى ... يهب لها جوا ضلوعى لدايع
أنا مثل صقر زاببا تحت عشه ... من المحل جابته بروق اللوامع
نسى وكره لما طلع من بلاده ... وخلى فى وكره فروخ الجوازع
يبات ويمر طالب الصيد الملا ... يمنع حتى ما ترى الوفد جامع
وإن كان هذا الطير ضيع وكره ... وراح على ذكره مديد آل سايع
إذا جفاك الدهر يوم بقربه ... امال عن الأجواد إن كنت ضايع
ولا تنزل إلا فى بلاد رتيبـــه ... بلاد العديه حولها السم ناقع
وشبانها تنقل السيف مع القنـا ... على كل طافح برعب الخيل قارع
وشيوخها ترمى العدا فى المهالك ... بالروح ماهو بالمسهمات القوانع
قولوا للطير الذى فى بلاده ... أيضاً طيور قد تجينا تواجع
ماجاك يكسب الحد والثنـا ... تجينى وتأتينى بفعل رواجـع
يادراية إن كانت دنت منيتى ... فأوصى ظريفا يجعل القبر واسع
وبعد موتى ابعثوا الكتب لأهلنا ... عسى الخير منهم يجيكم مسارع
ولا أظن خبر يأتيك من بلادى ... بلادى بعيدة سهلها والبقالع
أبى وأمى كيف ترى حالهم ... ينتظروا رجوعى ولست براجع
ولا ولد من بعد منى بقى لهم ... دعوهم بعدى يسكبون المدامع
وقولوا لهم عظم الله أجركم ... ولدكم عامر عند ربه مطاوع
أوصيك ياحسن ياهلالى ... دول يتامى مالهم من مدافع
أنت شفوقا على اليتامى ومحسن ... يعطيك ربك عاليات المواضع
يا أيها الطير الذى طار بالفلا ... تسلا إلى الدهر الذى بك مطالع
تأكل ربيع بأرض مصر وزرعها ... وتبيض بأرض العراق المواضع
سلم على أبى وأمى وقل لهم ... يرضوا علينا فى صلاة الجوامع
واشهد أن الله لارب غيره ... فهو واحد وماله من ينازع

وان محمداً عبده ورسوله نبى أتى برحمة هاد شافع
أودعتكم الله ربى وخالق وفاتى قربت مالها مانع
وهذا مقالات الخفاجى عامر والروح من رب الخلائق ودائع

فلما فرغ من قوله شهق شهقة واحدة سلم الروح لله وكان حسن سامع كلامه فقام عليه الصياح والتفت عليه العربان من كل ناحيه حتى أملوا الروابى والبطاح وكسروا عليه السيوف والرماح وغسلوه وكفنوه وواروه بالتراب يرجع قولنا إلى الزناتى فانه دق الطبلة ونزل الميدان وطلب مبارزة الفرسان فما برز اليه أحد فقام حسن وقال علامكم يا بنى هلال ما أحد يبرز الزناتى فما حد رد له جواب فقال القاضى مرادى أكتب أوراق توضعهم فى جراب والذى تطلع ورقته ينزل غصب عن رقبته فقال هذا هو الصواب والأمر الذى لا يعاب فكتبوا الأوراق ووضعوهم فى الجراب ومد القاضى يده وشالها فقال ورقتى فقالوا انزل اليه فقال حضروا الى قبر الخفاجى لأن أجلى قد دنا وحل أو تحالى من هذه الدنيا ولكن أمر الله ما منه مهرب فقالوا له إذا لزم الأمر مالها من زيد ولا عمرو فقام اشتد واعتد وأرمى العمامه من راسه ونزل الميدان فقال له الزناتى من تكون من الفرسان قال أنا قاضى العربان قال له قاضى وتعرف الحق من الباطل وتهمل حربى وتنزل فاشار يهدده ويقول :

بهذا الجزء قتل الخفاجى عامر بالخيانة والغدر وما حصل له من رجال الزناتى

تمت هذ القصة ويليها قصة القاضى بدير

قصة القاضي بدير

ابن فايد وحرب مفضل مع الزناتي خليفة وقتــله بالغدر والخيانة وشفاء الأمير أبو زيد من لسعة الثعبان على يد سعده بنت الزناتي خليفة وحضـــور الأمير دياب وحربه مع مكحول وأبو خزيمة إخوة الزناتي خليفـــة وشجاعة بني هلال أمام رجال الزناتي خليفة

(قال الراوي) لهذه السيرة أن الأمير حسن بعد قتل الخفاجي عامر وجد أن قومه ملوا من القتال فعمل قرعة وأمر القاضي أن يخرج ورقة فأول ورقة كانت باسم القاضي فأخذها ونزل إلى الميدان فلما رآه الزناتي وبخه على ذلك وأشار يقول وعمر السامعين يطول :

قال الزناتي من فؤاد السكرى ... سيفي تجهى في رقاب الظالمين
كل الفوارس هنتها يوم الوغى ... جميع قوم هلال مني خائفين
خافوا جميع هلال من طعناتي ... من رعي ينفسح الصخر المتين
جونا هلال يملكون بلادنا ... أيضاً وقد كانوا مني مستهزئين
لاقيتهم بسرعة بجيش عرمرم ... ودعيتهم بأقصى البلاد تائهين
وهفت منهم كل قرم غشمشم ... عادوا الأمارى من حسامي هالكين
الا يا بدير أنت رجل قاضي ... كيف تتبع الرجال الجاهلين
أنت قاضي الشرع ما بين العرب ... تقرأ كلام الله والعلم المبين
كيف حال قتالنا في شرعكم ... عن أنتم يأمارة مسلمين
قال الزناتي مابقي لك مسلك ... وقعت في حربي وماعادلك معين
رد القاضي بدير وقال له ... ياخليفة كن في قولك رزين
نحن بشرع الله نحكم دائما ... نهدي جميع الخلق للحق المبين
لما جاءنا المحل زاد بلادنا ... وقد غشانا المحل في فوجد السنين
ساعة سنين ماجاءنا قطره ... ولازرنا برق ولا رعد مبين

قما بعثنا الأمـير سـلامة . رفاقه الاث شباب مجربين
صاروا يروروا فى البلاد جميعها . كل البلاد أتوا إليها والدين
ما أحد يعارضهم فى كل الطريق . إلا أنت حبستهم يامتين
فأرسلت تطلب من أبو زيد هلا . كهم جمال وراهم مع ذهب ثمين
ما رضينا الذل ترسل لك أموال . جينا لارضك يا زناتى واحلين
وأنت تخوفنا بحربك والنزال . أين فايد قد غدا منى طعين
قال الفتى المسمى بدير العابد . لا بد أدعيكم جميعا مجندلين

(قال الراوى) فلما فرغ القاضى من قوله والزناتى يسمع نظامه وقع فيما بينهم حرب شديد وضرب يقطع الزرد النضيد مقدار نصف ساعة فقام الزناتى فى عزم الركاب وضرب القاضى بدير على كتفه الايمن شقه نصفين إلى الخاصرة فوقع القاضى قتيل فى دمه جديل فلما رأوا بنى هلال قاضيهم قتيل التحمت الرجال بالرجال حتى جرى الدم وسال وفاضت الروابى والتلال وما زالوا على تلك الحال إلى أن ولى النهار وأقبل بالانسدال ودقت طبول الانفصال فانفصلوا الطائفتين عن القتال وحملوه إلى بيته وقاموا عليه الصياح وكثر النواح وصارت عزاء كأنه يوم القيامة ووقعت الحسرة والندامة فقال حسن ماينفع الميت هذا العديد لكونه شيء لا يفيد فغسلوه وكفنوه وفى التراب ودوه وعاد بنى هلال فى حسرة على القاضى وثانى يوم دق الزناتى طبله وبرز للميدان وطلب مبارزة الفرسان فقال حسن هاتوا الجراب فجابوه تقدم مفضل أخو القاضى بدير ومد يده طلعت ورقته لبس آلة حربه وبرز إلى الزناتى التطموا الفارسين فى حومة الميدان وبدأ فيما بينهم الحرب والطعان وما زالوا فى كر وفر حتى صار عليهم الغبار وسدت منافس الأقطار وقدحت حوافر الخيل نار وقد داموا فى الحرب والصدام مقدار خمسة عشر يوماً حتى انذهل الزناتى من حرب مفضل فضربه ديوان وقال لقومه من منكم يقتل الأمير مفضل يا فرسان وأشار يقول :

يقول ابن المرأن الزناتى خليفة . ويامًا قطرت عيوننا من نكادها
والسعد قد ولى وراحت أرواحنا . وقد راح من طيب الليالى رقادها
ليالى قطعناها بخـير ونعمة . حكمت المغارب مع بلادها

ولكن ردالشورى بالرأى ضرنى　　لومنا وبلغنا الأمارى مرادها
وجانا أبو زيد كان بجرد　　من الشرق جونا المغارب قصدها
واضحى يطاردنى بميدان حربه　　لقيته على كل البوادى سنادها
وبعده قتلت قروم هفيتها　　وأخذت لسوان لها مع أولادها
أنا كل ماجانى أمير بداله　　امارة شبيه النحل بالوكر حالها
يا قوم أعجزنى مفضل بحربه　　طعناته فى الحرب ما فى مثالها
كنت أقول مثل أبو زيد بينهم　　ثارى ما هوى نقطة فى بحر أسيادها
ان كان فيكم ياقوم من يحاربه يذ　　يق الفوارس والأعادى شرادها
ينزل الى الميدان يقهر مفضل　　ينال العطا منى وينال مرادها
أعطيه منى ما يريد ويشتهى　　ويعلى مقامى بين قوم أسيادها
ما قال الزناتى خليفه　　إذا ابيضت الدنيا جدد سوادها

(قال الراوى) فلما فرغ الزناتى خليفه من كلامه والخطيب مطاوع يسمع لنظامه قال أنا أنزل اليه وما يتفضل الا الخطيب ولما أصبح الصباح لبس الخطيب آلة الحرب والقتال وبرز إلى الميدان فنزل اليه مفضل وقال له أين الزناتى فقال أنا جيت بالنيابة عنه

فلما التحم هو والخطيب ووقع بينهم الحرب والطعن والضرب وقد تقطعت فى أيديهم الرمح واختلف بينهم ضربات شديدة قتاله فكان السابق الخطيب ضرب مفضل بالحسام على هامه حط رأسه قدامه فلما رأت بنو هلال قاضيهم قتيل التحم الجيشين وزعق فوق رؤوسهم غراب البين وأما بنو هلال فأخذوا مفضل قتيل من بعد ما راح منهم خلق كثير وأما الزناتى فعاد فى غاية الأفراح وزالت عنه الهموم والأتراح لكن بنته سعده ما هان عليها بقتل مفضل وكان عند أبوها حكيم اسمه فتوح فاستدعته لعندها وقالت له أريد منك دوا يبرى السقم من لسع الثعبان لانى عندى جارية انقرصت فجيب لها دوا يقطع آثار السم فاستدعت عبد من عبيدها وقالت له خذ هذا الخنجر واعطيه إلى أبو زيد وإياك أن تخلى أحد يدرى فيه ولك منى كل ما تريد فأخذه العبد وأعطاه إلى أبو زيد ورجع فشرب أبو زيد شيء قليل

منه فيرى لوقته وساعة الحال دقت الطبول وزعقت الزمور وذهبت إلى بنى هلال الهموم والكدر فسمع الزناتى وعرف أبو زيد الينا من يبرز منكم فقال الخطيب أنا له وألف من أمثاله فبرز الخطيب إلى الميدان وعرض وبان وطلب الفرسان فبرز اليه أبو زيد ثم التقى البطلين كأنهما جبلين وحان عليهم الحين وزعق على رؤوسهم غراب البين مقدار ساعتين فقام أبو زيد فى عزم الركاب وضرب الخطيب بالسيف على هامه حط رأسه قدامه فلما رأت قوم الزناتى مطاوع قتيل وفى دمه جديلى ولوا هاربين وإلى النجاة طالبين فالحقهم أبو صبره وبنى هلال وجعوا منهم القتلى تلول وجابوا خيلهم وعددهم وعادت بنو هلال لعند حريمهم بالعز والاقبال واما أهل الغرب فوقع فيها الذل فعند ذلك أرسل خليفة الأخبار إلى ملوك الشقور وكانوا سبعة ملوك وكل ملك يملك على ألف عنان وأرسل يقول لهم أنه قد أتانا عساكر وعربان ومعهم مكاسب لا يمكن يصفها اللسان فبادروا الآن لنأخذ فى حد السيف والسنان فلما وصل الخبر اليهم جاءوا عساكرهم بالحال فمشوا من يومهم فتواردت أخبارهم إلى بنى هلال فقال أبو زيد على فيهم وحدى بعون الواحد القهار وأشار بهذه القصيدة يقول :

قال أبو زيد الحجازى سلامه	اصغوا القولى يا جميع هلال
طمعوا بنا الأعدا جميعا واعتدوا	وجاهدنا فيهم بحرب طال
قتلوا جنود الدريدى وعامر	فرساناً واحوا بحد نصال
أنا كنت ملسوعاً من الحرب قاصر	أقاسى وجع فى الصبر والانكال
لما الفرج قد جانا من رب السما	ذهبت عنى الأوجاع والأهوال
نزلت لميدان الزناتى أصادم	من الصبح ناكر طالب الأبطال
أسرع وبارز الخطيب مطاوع	فغدا مطوح فوق تل رمال
وجهته فرسه خلف منه جنبه	والدمع فيها على فراقه سال
يا قوم هموا ثم قوموا واركبوا	متين ألف ثابتـــة فى الحال
اقصد ملوك الشكور ثم ابيدهم	قبل أن يضيقوا على هلال بحال
لا بد ما أنهر جميع ملوكهم	وانغنم جميع جمالهم وأموال

وأنت يا حسن الهلالى أبو على   هذا الزناتى حار فى الأهوال
قوم عنيـــد فاحذر حربنا   ولا تولوا من القتال ذلال
وان زحكم ارسلوا إلى بلاد بطا   أجى وادعى القتول دلال
ما قال أبو زيد الهلالى سلامه   لى قلب يشبه صخرها وجبال

(قال الراوى) فلما فرغ أبو زيد من كلامه دعو له بنى هلال بطول العمر والبقاء وركب فى قومه بنى زحلان وأخذ أولاده معه مخيمر وشيبان وأخذ معه من بنى زغبة القين عنان وساروا إلى ملتقى الملوك ثلاثة أيام وثلاثة ليال حتى وصلوا إلى وادى النسور وكنوا القوم فى الليل ولما أصبح الصباح أقبلت عليهم الجيوش مثل الغمام فعندها التقت الفرسان وركب أبو زيد فى أولهم والتقى القومين فعندها صاح أبو زيد بصوت ومال فيهم على الميمنة وشيبان وباقى القوم على الميسرة حتى خلوا القتلى تلول والدم نهور وقتلوا السبع ملوك وجيوشهم وكسبوا خيولهم وأسلحتهم والجموا فيهم نساءهم فعندها علم أبو زيد عسكره ونزلوا وربطوا فى الوادى خوفا من غيرهم فهذا ما كان من أبو زيد ورفقاه وما جرى لهم فيرجع الكلام إلى الزناتى فلما بلغه الخبر دق طبله وبرز إلى الميدان فبرز اليه زيدان بن هاشم شيخ الشباب فقال الزناتى من أنت وإلى من تنسب من الفرسان فقال الأمير زيدان بن غانم .

فلما فرغ خليفة من كلامه وقع بينهم الحرب الشديد ذاقوا الجهد إلى آخر النهار حتى دقت طبول الانفصال وثانى يوم وثالث يوم كذلك فجاء الأمير زيدان بالطرد فولى خليفة هارب وزيدان وراءه إلى باب المدينة فقفلوا الأبواب فى وجه زيدان وكانت خطيبة زيدان معه وهى بنت عمه واسمها ضيا فلما تزاحمت القومين جفل هودجها ورماه فأخذوه قوم الزناتى ولما رجعوا من القتال أمر الزناتى أن يحضر ضيا إلى عنده وأمر سعده أن تبقى ضيا عندها وتحفظها وأشار يقول وعمر السامعين يطول :

يقول ابن مهران الزناتى بلا خفا   أما فى المدامع فرح العين لونها
على ما جرى بينى وبين أهل عامر   فرسانها لو قاتلوا فى جنونها
كل يوم أذل أمير وأكيده   وأقول ما عدا أحد يصونها

يصبح يكلونى أمير وثانى وازداد علينا وأكثر من ألوانها
جانى الفتى زيدان من أصبح باكر ضربناه بالدرع أروت سنونها
زيدان يشبه أبو زيد بالوغا وطعناته تلك التى تعرفونها
ولا نظرت مثله فى هلال وعامر يشابه لفرخ الباز عند شبونها
تلقاه ببحر السرج يقلب الوطا يبقى يشابه الذى يحسبونها
ترجع ببحر عالسرج كأنه حمامة مبرقعة ما بان منها عيونها
ولى ثلاث أيام أقاسى حربه من الصبح حتى الشمس يصفر لونها
ضربنى ضربة من يمين صميدع قطع زرد درعى بطعن سالونها

(قال الراوى) فلما فرغ خليفة من كلامه وبنته سعده تسمع قالا أرسلا ضياء الابن عمها وأوصاتها امند أهلها وأما خليفة فقال لقومه كيف رأيتم يا فرسان من منكم يلقى طرد زيدان وكان لخليفة ابن أخت يسمى مطاوع فقال ياخال أناله فقال خليفة أنت است من رجاله ولا تقدر تلقاه فى مجاله فقال صدقت ياخال لكن دعنى اعمل مابد الى فأخذ مطاوع رجال وحفر له حفر وغطاها من الغد دق خليفة طبله وخرج إلى الميدان فخرج اليه زيدان فالتطم الاثنين كأنهما أسدان كاسران وحان عليهم الحين وصاح فوق رؤوسهم غراب البين فأراد زيدان يضرب خليفة بالرمح فولى خليفة وهرب إلى نحو الحفاير فجرى وراءه زيدان فوقع فى الحفرة هو والحصان فرجع له مطاوع وضربه على هامه طيبت رأسه قداعه وأرسل رأسه مع رؤوس الامارة على سور تونس فاشتبكا القومين وأطبقوا على بعضهم الفريقين حتى ولى النهار ودقت طبول الانفصال فرجع الفريقين وباتوا إلى الصباح وثانى يوم برز الزناتى للميدان وطلب مبارزة الفرسان فبرز اليه بدر بن غانم فالتحموا فى الحرب التحام وصار بينهم ضرب شديد يقطع الزرد النضيد إلى نصف النهار فوقع بينهم ماضربتين قاطعتين وكان السابق فى الضرب الأمير بدر ضرب الزناتى بالرمح فخلا منه وثنى عليه بالسيف فأخذها بدرقة البولاد وثلث عليه بالدبوس فخلا عنه ببراعته وكثرة شطارته فاعتدل الزناتى على ظهر الحصان وضرب بدر بالسيف فقطع رأسه وأرسله إلى تونس فوضعوه مع رأس أخوه زيدان وكان لبدر ولدين واحد اسمه عقل والثانى نصر وكانوا أفراس أهل وقتهم وأجل

أهل عصرهم فقال عقل لا بد أن أقاتل الزناتى فى غد وكانت والدة الأولاد أخت السلطان حسن تسمى هولا فسمعت عقل يقول ذلك الكلام فمرت الدنيا فى وجهها وخافت عليه من الزناتى لأنه بطل مغوار والمنايا متى غلب يدبر حيلة فى قتل من نازله فأشارت هولا تنهى عقل من حرب الزناتى تقول :

تقول فتاة الحى هولا الحزينة ... ودمعى جرى من مقلتى سخين
جسمى أنضى من لوعة البنا ولى ... قلب من جور الزمان حزين
ياعقل ارجع من مقالك واهتدى ... واصغى إلى قولى وكن فطين
أنت صغير السن ما ذقت لوعة ... ولوا فى خليفة فى الحروب متين
ما أنت ياولدى أراك قباله ... بينك وبينه يافتى خمسين
أما أبوك يافتى غدا وراح بيومه ... أنا خايفة يافتى أفقد اثنين
بالله عليك ياعقل رد كلامك ... قلبى صار من ذا الكلام حزين
ما قالت فتاة الحى هولا الحزينة ... قلبى انقطع من علة وعنين
رد الفتى عقل الذى هاج ما به ... قلب من فقد الزمان طعين
طعين من أبو سعده الزناتى ... قتل والدى وزيدان عمه دفين
ياأمى أنا بالحرب باكر أكر له ... بسرق المنايا ما حد لى معين
مهما قضى الله على العبد صابه ... وعمر الفتى يا أماه حصن متين
وشورك أنا ياأمى ما أريده ... شور المذلة للرجال يهين
فلا بد من قتل الزناتى خليفة ... بقول حقيق واكد يقين

فلما فرغت عرفت هولا بأن قولها لا يفيد فراحت عند الأمير حسن وعرفته أمرها فركب وأتى لعند عقل وصار ينهيه عن قصده فلم يرجع عن عزمه . فلما علم حسن أنه ماله خلاص قال له الله ينصرك عليه فلما أصبح الصباح لبس عقل ابن هولا آلة الحرب والكفاح وصار عقل فى الميدان وعرض وبان وطلب مبارزة الفرسان فبرز الزناتى خليفة وقال من أنت فقال الزناتى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم نقتل كبارهم يجونى صغارهم فالتطموا الاثنين كأنهم جبلين أو أسدين زافرين وحمى عليهم الزرد فعرف الزناتى أن عقل فارس لا يطاق وأمر من العلقم ومن صغر سنه خبير

بطعن السنان وضرب اليمان وصاروا الزينات يتخوا الوحى يحامى الزينات وعقل قد زاد حربه وأشبع الزناتى من ضربه وحمى الميدان بفعله ولازالوا فى قتال وجدال لحين الشمس حتى الزوال فدقوا طبول الانفصال ولما أصبح الصباح ركب القودين والتحموا الفريقين فبرزوا إلى الميدان وصاح على رؤسهم غراب البين وأما أبو سعده كل وذل وضعف قواه وانحل فألوى عنان جواده وولى هارب وإلى النجاة طالب فتبعه عقل وأطلق له من عمر راق وقلب مشتاق ولحقته الطعنة للجواد أرمى الزناتى على الأرض فأدركوه قومه وخاصوه فانحدف عليهم عقل وبنى هلال دعظم الحرب والضرب ولم يزالوا بالقتال حتى ولى النهار بالزوال وأقبل الليل بالاسدال فدقت طبول الانفصال فعاد مرهوج وعقد مرهوق وصار يوصى فرسان قومه على قتل عقل يقول وعمر السامعين يطول :

يقول أبو سعدة الزناتى خليفة	ونيراز قلبى زايدات ضرام
حرب الأعادى طال على ماجاله	وكل نهار طال فيه قتـــام
أيا صحبتى واهل الحشيمة فاسمعوا	وكونوا ياكرام فهام
وأعطيه سعده أن تكون حليلة	ويكون عندها فى أعز مقام
ويشفى منى الفؤاد بقتله	بالحشيمة ياملوك ياكرام
هذا مقال الزناتى خليفة	حربى من كيد العدا سجام

(قال الراوى) فلما فرغ خليفة من كلامه وقومه يسمعون نظامه فقام ابن أخته مطاوع وقال ياخال أنا له إن كان ما قتلته فى حومة الوغى أجيب سابقه يحرم على عقل الرمح مادمت مسالم ويحرم على الفرح والعز والهنا ويحرم على أنشر فوق راسى أعلام فقال خليفة الله يعينك عليه ولما أصبح الصباح ركب مطاوع جواده واعتدل فى عدته وجلاده ودقت طبول بنى هلال وركب الخيول الأصال وركب عقل أولهم وهو ينادى اليوم لاكل اليوم فلما شافوه الزناتى ولواهاربين وللنجاة طالبين وفى أولهم مطاوع فقال له خليفة لماذا انهزمت يا ابن أختى فقال انهزم معه قومنا وما ضل أحد فلما عقل وصل عند باب تونس فطلت بنت الزناتى الشامية وكان اسمها بسيا فنظرت إلى عقل وقع هواه فى قلبها وملك فؤادها وأنشدت تقول :

تقول فتاة الحى بسيا الذى شكت ... ونار الهوى لوع ضمير لهيبها
وحبك بقلبى عقل عنى حالى ... فأنت من روحى وأنت عديلها
خليفة لم أولاد ذكور كلهم ... بشوه مذكور كبير مع صغارها
وقال لهم ياغزوة الجود والسخا ... رمونا العدا فى حرب أبدا نكيدها
فمن منكم يبرز إلى عقل بالوغا ... ويسقيه من كأس المنايا عليلها
فنهض مطارع وقال ياخال أنا له ... وأسقيه الموت طالع بديلها
وقتوا على هذا الشور يا ابن هولا ... وان خليفة لازم لروحك يشيلها
وأنا علمتك يا عقل شفقة عليك ... لأنك صغير الوقائع جميلها
وأنا أرى يا فتى رد لأهلك ... وخالى البلايا كثيرها من قليلها
وهذا الخير يا عقل اصحى وافتهم ... وحبك زاد الروح منى غليلها
قالت فتاة الحى بنت خليفة ... بسيا اشتهت أن عقل يكون حليلها

فلما فرغت الست بسيا من كلامها فأشار الأمير عقل يقول :

يقول الفتى عقل ابن هولا المتيم ... جرح الهوى خلا الفؤاد نحيل
جرحنى الهوى يا بسيا على صبا ... ولا يلتفت لى بالغرام نحيل
وقد عدت يا بسيا من الوجد هايم ... ركبت الهوى عسفاً بغير دليل
وأنا ما أحب إلا الهوى كل كاعبه ... بنات الأمارة للعقول تزيل
أحب طراد الخيول وحرب اللقا ... إذا أصلت نار الحرب شعيل
أخوض غبار الخيل دارى عقيدها ... يرمق نحو كل طرف كحيل
أيا بسيا قولى كلامك واقصرى ... أنا عقل مانى بالشباب هزيل
لا تحسبى أنى أخاف من العدا ... ولا أنا من حروب الرجال حقيل
شايل عنى يا مليحة قرومك ... يفسبونك معى والقروم يميل
أبوك غدا مهزوماً منى فاخلشى ... وقد ذاق من حربى بلا تكليل
وراح وهجم ابن أخت مطارع ... ويريد قتلى بالطراد عجيل
فلو جاد لى بما الف مطاوع ... فاليوم يوم الحرب والتشكيل
وهذا كلامى يا مليحة فاسمعى ... ولا تشكرى لى المقال ثم القيل

(قال الراوى) فلما فرغ عقل من كلامه وبسما تسمع نظامه عاد مطاوع لعند العماريات وبرز إلى الميدان فاستقبله عقل وسحبوا الحسام وانعقد غبار حتى سد منافس الأقطار وهم فى حرب وصدام وافتراق والتحام وتجريح الزوام قدحت حوافر خيلهم نار وطار من سلاحهم الشرار فيا لهم من أسدين درغامين وبحرين متلاطمين أما مطاوع فرأى قدامه فارس كرار وأسد مغوار وشاف من عقل حرب حير عقول الأطفال فعول على الهرب والفرار فاشتاق عليه الزناتى خليفة فغار على عقل والثانى راح إلى مطاوع والثالث قدامه وحطوا عقل ابن هولا واسطة فالتفت عقل وضرب واحد منهم أرماه وغار على الذى قدامه فلازالوا الجميع من قدامه هاربين فنزل عقل على جواده وعقل فوق العماريات وغار على قوم الزناتى وكل فارس وقع أمامه زوروه المقابر فنزل إليه مطاوع والغلام وعلام بن جعدة اثنين من قدام واثنين من وراه وغدره مطاوع ثم طعنه وأرماه فقال الزناتى خذوه فتزاحمت عليه الرجال فراح عقل تحت نعال الخيول ما بان له أثر وانكسرت بنى هلال ودقت طبول الانفصال فرجع القومين إلى الأطلال وكان إلى عقل أخ يسمى نصر فقال غداً أنزل إلى الميدان آخذ ثارى من هؤلاء الغدارين فلما سمعت أمه هولا بكت بكاء شديداً وتحسرت على عقل وأشارت تقول :

تقول فتاة الحى هولا حزينة وفى القلب نيران تزيد لهايب

وحزن عقل الخيل أضنى لخالق فتى من جميع العالمين تهايب

فتى خليفة الأجواد قوم بجرب له فعل بالهيجا كسبع الغايب

غدره مطاوع والزناتى خليفة وخلى دموعى جاريات سكايب

فيا نصر انظر أخوك ابن والدك هفوة العدا تحت نعال تراب

فراح المسمى قبل مطاوع أتى مزرد من مس فينا عاب

أريد له يا ناصر تاخذ بثاره وتزيل عنى العار يا أحباب

أريد يا ناصر تقتل مطاوع وتدعى دمه على الوطا سكايب

فلما فرغت هولا من كلامها وولدها نصر يسمع نظامها أشار يقول :

يقول الفتى الذى قتت الحزن قلبه يا أم لا بدرى على عتاب

فلا تحسبي أني خائف من العدا ... أنا نصر يسمى قاهر الطلاب
فان كان أخي قد راح بيومه ... وليس الأجل ببعيد ولا بمتاب
وموت الفتى يعزه مثل عرسه ... إذا قام سوق الصافنات للطلاب
إذا كنت لم آخذ بثار ابن والدي ... أكون ردى الأصل والانصاب
غدا تنظري شبهة مطاوع جنوبتي ... ودماه من فوق التراب سكاب
ولا بد عن قتل الزناتي خليفه ... بثار شيخ أبطالها وشباب
أنا نصر الزغبي ما في عيا ... أبو على خالي وعمي دياب

قال الراوي فلما فرغ من كلامه قد طيب خاطر أمه وثاني الأيام برز نصر الى الميدان ونادى في أعلى الصوت وقال ابرز الأبطال فبرز اليه الزناتي وظن أنه عقل ما كان يعرف أحدهما من الآخر فصدمه الأمير نصر صدمة جبار لا يهاب فالتقاه بقلب أقوى من الصوان والتطموا البطلين كأنهم جبلين واختلفت بينهم ضربتين قاطعتين كان السابق نصر الزناتي بالسيف فالتقاه بالدرقة فنزل السيف على رقبة الجواد براها كبرى القلم فوقع الزناتي على الأرض فأدركوه قومه في جواد وأركبوه ومالت المواكب وهاجت الكتائب وما عاد يعرف العدو من الصاحب وكان يوم مذكور كأنه يوم النصر المنظور وبقى السيف القرضاب يعمل على الرقاب حتى ولت الشمس إلى الغياب فدقوا طبول الانفصال وباتوا الفريقين يتحادثون إلى الصباح فركب نصر وبرز إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فبرز اليه مطاوع والتهقوا بالحرب الشديد حتى حمى الزرد النضيد فاختلف بينهم ضربتين كان السابق نصر أوقع رمحا في صدر مطاوع فطلع السنان يلمع من ظهره فوقع قتيل وفي دمه جديل فعندها غارت قوم الزناتي وحملت أيضا بني هلال وزادت المصائب والأهوال والتحموا الفريقين في المجال وصار الزناتي وفرسانه يحاوروا نصر وأمر الزناتي في أناس تقاتل وأناس تحفر حفاير ومازال الحرب حتى وقع نصر في الحفير فغار عليه الزناتي وضربه بالسيف على هامه حطر رأسه قدامه فأخذوه وأمر ان يحطوه على سور تونس جنب رأس عقل فغارت القومين وتزاحم الفريقين وزعق على رؤسهم غراب البين ولم يزالوا في القتال حتى ولى النهار وأقبل الليل بالإنسدال رجعوا عن الحرب والصدام

واخذوا نصر يدفنونه فى جانب أباه ولحق بعمه وأخيه وأما أمه وأخته قصوا شعورهم وقاموا أحزانهم وأشارت أمه تقول :

تقول فتاة الحى هولا الحزينة بدمع جرى فوق الخدود بنار
على ما جرى فينا وقد أصابنا والفكر والعقـــل منى طار
على عقل عقلى راح مستقرة ويا نصر ما لى بعــــدكم أنصار
ونزلت دموعى كالأنها والجاريه وجانى البلا قاصد الأفكار
يا دمعتى جودى واجر صبابه على أخوين كانوا كالاقمار
فلو أن نهر النيل بالقلب يجرى وسيحون مع جيحون الأبحار
ونهر الفرات ودجلة والشط كلها وعاصى وحمص كل نهر دار
على نار قلبى ليس يطفى لهيبها وتزيد فيه حرقة وشرار
يا بنتى قومى اندبى طول عمرك على اخوتك كانوا حماة الدار
فيا طول حزنى كلما ذمت بالحيا إن جاء دياب الحى وسط الدار

فلما فرغت من شعرها أشارت بنتها فتنة تقول :

قالت فتنة بدمع جرى سجام يجرى على الخد شبه السيل طفاح
كنا بخير وعز قبل فرقتهم وفارحين غد ثم أفراح *
ودوم عقل إلى الخطار يكرمهم السيف والضيف موقف دوم دباخ
ونصر مثله ولا غيب يخالطهم هم غضاريف عدة الحرب وكفاح

فلما فرغت فتنة من كلامها أقاموها الناس هى وأمها من على القبور وقال غانم أنا من بعد أولادى لا أريد حياة ومرادى أنزل الزناتى وأحاربه إما أقتله وآخذ منه الثار وإما أن يقتلنى واستريح من الأحزان فبرز إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فبرز أولا الزناتى قدامه وأشار يقول :

قال الزناتى بن مهران صادق ولى قلب أقوى من حجر صوان
انتم علينا يا أمير اعتديتم زرتم بلادى وخربتم البلدان
قلت أولادك راحوا بذاتهم بدل الفتى المسمى أخو زيدان
أولادهم بوزوا يريدوا قتالنا عقل وأخوه زينة الشبان

قاتلهم راحوا بغامض الثرى   وصفت راس الكل على الحيطان
تسعين أمير صارت رؤسهم عندى   ورميت من بعدهم ثرى النسوان
ما عاد إلا أنت يا أمير جتنا   فأنت شايب بالكبر وزمان
فروح يا مسكين لا تقل عقلك   ما يلتقى حربى سوى الردان
فارجع روح صلى واعبد ربك   واختم لهم فى سورة الرحمن
أنا لا أقتلك وحطه حطك برقبتى   قتلك تراه ضد وعدوان

فلما فرغ من كلامه التقوا البطلين كأنهم جبلين ولم يزالوا فى قتال وجدال حتى ان الشمس ولت بالارتحال فدقت طبول الانفصال فرجعوا عن الحرب والكفاح ولم يزالوا على ذلك مدة أشهر على الكمال وبعد ذلك ما عاد غانم ينزل إلى حربه ولا أحد غيره فضرب الزناتى ديوان وقال لقومه ما رأيكم فتقدم ابن عمه العلام وأشار يقول :

يقول الفتى العلام ولد غضبه   أوصيك وأنت عارف ثم فاهم
أوصيك لا تأمن من زمانك لو صفا   وافعل فعال الخير مادمت قادر
ولا تأمن الدنيا الغرورة ولو صفت   ورجل يعاندها تخليه نادم
أيا نار قلبي يزيد لهيبها   يزيد شعيلها فى فؤادى ضرايم
على أيام أبو سعده الزناتى خليفة   زمن اجتماع الشمل كنا ملايم
فلا نعرف الشدة ولا نعرف لرخا   وكنا فى نعمة الخير دايم
ولا الليالى قد سمحت فراقنا   وطير الهنا فوق الديار حايم
بيوم أضمن للهلالى أبو على   بأربع كرات ألوف باغوا الغنايم
تسعين الف الهلالى سلامة   وتسعين للزغبى دياب بن غانم
وتسعين لبدر بن فايد   وتسعين لأبو على بالسعد دايم
تسعين الف له توابع وقدهم   يراعوا جميع البوش الغنايم
بدل بهم أبو زيد فى أرض تونس   وبهم أمارة كالجبال الصدايم
بهم كل قرم ينطح الف واحد   أجاويد شجعان بوقت المزايم
صبرنا لهم قلنا يقوموا يرحلوا   وهم قد أتوا طالبين الغنايم
وزحفوا علينا كالجراد إذا زحف   وتلاحمت بارنا أسمايم

أول نهار لا علينا ولا لنا   وثانى نهاركم تقطع جماجم

وثالث نهار لشمس ما بان ضوءها   وعاد السود شبه أول الظلايم

والثالث احمرت الأرض فالدما   تدوس الخيل ع الجثث والجماجم

ورابع نهار عند علينا غبارها   وما خاضه إلا قوى العزايم

وثامن نهار خاضت الخيل بالدما   وعاد عجاج الخيل وقت الظلايم

وقالت عزيزة يازناتى خليفة   أنا حلمت حلماً ماحلم به نايم

رأيت مناما ياأبى قد رأيت   سهرت وغيرى خالى البال نايم

رأيت طيور الشرق أتوا البلادنا   طيروا طيور الغرب ولوا هزايم

وفيهم طير مثل طير برج مشهر   ومن فوقه قوى العزايم

دخل قرار البيت وارمى عموده   قمت ضربت الرمل بان منه علايم

فذاك العمود أنت بلا خفا   والطير خضره دياب بن غانم

فقم يازناتى شد واركب   على سابق أشقر من العيب سالم

قالت بنات هلال بن سلامه   ينادون أبو زيد كل الحرايم

فلو يديه من القيد مدوح   على ظهر حمرا مثل برق الظلايم

كنزنا سبعة ثم سبعة لظهرها   وعاد علينا مثل سبع يزاحم

ولا يعتنى إلا بكل مجرب   ومن يضربه يبقى على الأرض نايم

أبو زيد مسك أرضها مع يمينها   وزيدان على اليسر يسوى العظايم

ومن يضربه زيدان ما يعود ينثنى   يعود على أعلى الدرجات حايم

وعقل ابن هولا يزح الخيل لو دح   من لحته يعرف جميع العمايم

ميتين طعنة لابن هولا حسبتها   ولا طعنة إلا ترمى الجماجم

ينادى ابن عشرة لا يموت ابن سبعة   ولا بد ما يقضى جميع اللوازم

يعمل ورانا حتى نخش قصورنا   وانلق الباب وكل المخارم

فيلعب حصانه عند باب تونس   من الصبح لثانى يوم وقت الظلايم

سياج العذارى لو يقع خيارنا   فيدعوا الله بالنصر يرتد سالم

وطلبت بسيا بلد سلطان تونس   تنظر إلى عقل الشجيع المخاصم

وقالت له ياعقل انى نصحتك — وأنا أخبرك بما كان يا ابن الأكارم
خليفه جمع أولاد مذكور كلهم — وأظهر لهم خبرك وكل العلايم
وقال لهم ياعزوة الجود والسخا — يا أهل المروءة ياكبار الحشايم
من منكم يقتل عقل ويجيب سابقه — أعطيه نصف الحكم مادمت سالم
واعطيه بصرة ثم رقائم تونس — واعطيه سعده بنت قاضى القوايم
وأوليه أسواق المدينة كلها — وأعطيه ياناس كل الغنايم
تنبه مطاوع الزناتى وقال — ياخال أنا أقتل بعقلى على الوازم
ان كان ما قتل عقل وأجيب سابقه — يحرم على دلعات الوشايم
يحرم على السرج والعز والهنا — يحرم على الزواج بين العوالم
مايقلقنى ويأخذ سـابقى — أما أجيب حصان على عقل المخاصم
وصوت الزناتى يرغب الخيل الوغى — يلاطم كراديس المنايا يلاطم
نادى عقل فى الميدان وقال له — مالك ومال الخيل فيه تخاصم
فتلاطموا الاثنين فى حومة الوغا — وعاد عجاج الخيل للجو قائم
فعاد الزناتى والفتى عقل راح — أنا مطاوع مشيد برج النعايم
ضرب بطعنة من قفاه رماه — وصاح لخاله اين ياخال هازم
رد الزناتى لعقل وطعنـه — دعاه مكبوبا على الأرض نايم
حلفوا الهلاليات ماتخلى قتيلنا — تتفرج عليه دايلات الوشايم
حلفوا الزينات ما تأخذوا — لو كان تخلى بالمواضى قسايم
بتنا طول الليل والحرب بيننا — وتزاحمت خيل الجياد الصوارم
إلى تانى الأيام والفنا يوقع الفنا — وخيل تقرقع فى حديد اللحايم
وراح ابن هولا بالحوافر واختفى — وما بان من جسمه رسول العلايم
يوم ابن هولا خاضت الخيل بالدما — وصار لها مثل التلول الجماجم
وتلاطموا عقده وطبل عجاجهم — وناد الظلام يشبه ليالى الظلايم
قال الزناتى سلمنا من ابن هولا — وقلنا بعد ما عاد فارس يخاصم
وجانا تانى يوم نصر ابن والده — طالب لتار الفتى عقـل هايم

طلعت هولا من الهوادج وزغرطت   حين شافت نصر على الخيل فاحم
قالت يا نصر الموت خير من الحيا   وعمرك ما جات مثل الهايم
أنت وأخوك الذين جيتم جملة   فى بطنٍ واحدة قد جيتم توائم
لا أنا ولا أبوك ولا حد هانكم   بمدة خمسه عشر سنة فى الحمائم
ولا شافت الجيران بهجة وجوهكم   حتى ركبتوا الخيل وصرتم عظايم
وخيلكم يا نصر ما فى مثلها   سلايل من خيل شداد العزايم
حصان عقل أحمر من خيل والدك   وأبو خضره دياب بن غانم
لما سمع نصر قولها ميل نحوها   يشابه عقاب الجو فى الصيد حايم
مرة اشارات الفتى عقل ينتخى   ومرة لعين وابلات الوشايم
فأتى إلى مطاوع والطراد وصيده   وصار عليهم عظم البلا والقتايم
ضرب نصر المطاوع برمح محكم   رما تحت السراج عالأرض نايم
وراحت معه شيبة مطاوع جنبيه   واخذ اثار عقل وافى الزمايم
عمامه وابوه وأجواد كاسبه الثنا   نعم هم قوم من اصل الأكارم
قتل مطاوع زادنا عليه حسرة   وبعد مطاوع ما دلنا غايم
أنا أقول ان الدهر فينا قد لوى   وبعد مطاوع يشنع أدوم نايم
وقوم هلال فعلهم دوام زائد   أجاويد طلابه الحرب دايم
قوم أفلالين ما فيهم غبا   ملاعين ضرابين للسمر دايم
أنا اخاف يبنوا الشور بينهم   يودوا يجيبوا لك دياب بن غانم
وقد صار لهم عندك ديون كثيرة   يريدوا وفاها ما يرد لك غنايم
وهو الفارس ما فى البوادى مثاله   قد بان لى عنه بالكتب علايم
ايا خليفة إن سلمت منه   فهان عليك الصعب يا أبو الهائم
فهذا حسابى والذى دوم حسابه   سهران من كيد العدا لست نائم
ما قال الفتى العلام ولد عديه   ويا نار قلبي زايدات الضرايم

فقال الزناتى ما قتل دياب مع الذين قتلناهم قال العلام دياب ما هو حاضر وهو فى وادى العباين مع بوش بنى هلال قال الزناتى مرادنا نرسل له من يقتله ويجيب

البوش منه والتفت إلى واحد من إخوته وكان يسمى أبو خريبة وهو فارس شديد فأمره الزناتي في الركوب إلى وادي الغباين ويجيب البوش منه فقال سمعا وطاعة فركب من ساعته وأخذ معه عشرين ألف فارس قروم عوابس ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا إلى وادي الغباين وغاروا على قوم بني هلال وعلقوا ضرب السيف فيهم فقامت الرعيان بالعياط والصراخ فلما سمع دياب ركب جواده وطلعت فرسانه وراه فلما التحم الحرب بينهم بطعن يقصف الأعمار وصار بينهم ضرب مثل النار فعندها قام دياب في عزم الركاب وضرب خريبه بالسيف على هامه حط رأسه قدامه فوقع على الأرض بدماه يختبط طول وعرض ولما شافوا قومه أميرهم قتيل ولوا هاربين وإلى النجاة طالبين فلحقوهم بني زغبة وعملوا السيف في أعناقهم وأعدموهم أحبابهم وأصحابهم حتى وصلوا إلى عند الزناتي وأخبروه عن قتل أخيه فاستدعى أخاه الثاني وكان اسمه مكحول وقال له خذ قومك وامضى إلى دياب بن غانم خذ ثأرك منه وانهب بوش بني هلال ومهما جبت من هؤلاء يكونوا راهبة منى إليك فركب بسائر عسكره مقدار خمسين ألف همام وغار حتى وصل إلى الوادي وكان دياب وقومه في الصيد وما بقي من البوش إلا مقدار ألف فارس فثارت عليهم الخيل مكحول اولهم وساقوا البوش جميعه فراح الصوت إلى دياب وأعلموه في الخبر فعندها صار حتى وصل إلى القوم وبرز إلى مكحول والتطموا في الخصام وتجرعوا شرب كاس الحمام فضرب مكحول دياب في الرمح فقام دياب رجله من الركاب وأخذها من تحت فخذه في عزم الركاب وطعن مكحول في الرمح فأراد أن يخلي منها مثل دياب فجاه الرمح في صدره طلع يلمع من ظهره فوقع قتيل وفي دمه جديل فأخذ درعه وجواده وغار على قومه وبدأ يذبح فيهم حتى مقدار عشرة آلاف فارس وهزموا الباقي حتى وصلوا لعند الزناتي وأعلموه بقتل أخيه فغضب غضباً شديداً ثم في ثاني الأيام برز إلى الميدان وعرض وبان وطلب مبارزة الفرسان ما حد رد عليه .

(قال الراوي) فلما فرغ حسن من قوله وإذا بغبار علا وطار حتى سد منافس الأقطار وبان من تحته فرسان على خيول غزلان وإذا هو الريشي مفرح الذي كان مع أبو زيد في غزو ملوك السفور وخول وسلم عليهم فسألوه عما جرى له فصار يخبرهم من أول

الكلام وإذا ببيارق حمر قد طلعت وأبو زيد بأول الخيل فلاقاه الأمير حسن وبنو هلال وهنوه فى السلامة وفرحوا فى ملقاه وطلت النساء والأولاد وأهالى القتلى الذين قتلهم الزناتى وقعدوا على المقابر لابسين السواد هاتكين الستور باكيات نائحات ووصلت الخيل التى أتى بها أبو زيد من الأعداء والمكاسب والغنائم. وأخبر الأمير أبو زيد بما فعل فيهم الزناتى وكم أباد الفرسان فلما سمع أبو زيد قول حسن صار الضيق فى وجهه كالظلام وحزن حزناً شديداً على من قتل من الفرسان وعندما قام ومر على المقابر وشاهد النساء والبنات فلما شافوا أبو زيد رفعوا أصواتهم فى البكاء وصاروا إليه بما أصابهم فطيب خواطرهم وقال لهم إن أراد الله تأخذ لكم بالثأر وأترك ديار الزناتى خراب فعند ذلك دعوا له وبات ثانى الأيام وقسم الغنائم والأموال وأعطى حسن جزء وشال إلى دياب قسم ثانى يوم برز أبو زيد إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان وتعرض تحت أبواب تونس ونادى الزناتى يبرز إلى الحرب والطعان وأين رجال الحرب أصحاب الطعن والضرب فما أحد رد عليه فوقف تحت زغلة الباب والأبواب مسكوكة لا أحد يخرج ولا يطلع سوى النسوان التى فوق الأسوار يتفرجون فعندها صاح فى البواب افتح وأرسل مولاك فسار البواب لعند الزناتى قال له قم كلم أبو زيد واقف بالباب يواجهك فقال الزناتى يا بواب من يقدر يشوف عزرائيل حتى يقبض روحه قال البواب افتح له لكى يواجهك دبر مالك حالك يا مقصوف العمر وهات المفاتيح التى معك فعند ذلك أخذ مفاتيح أبواب تونس وضمها عنده وخباها له وقال اقعد خلف الباب ولا تفتح لأحد وإذا أحد سأل عن سيدك فقول له ما يطلع فعاد البواب وأعلم الأمير أبو زيد الكلام يرجع الكلام إلى الأمير حسن التفت إلى أبو زيد وقال له مادمت جيت ما بق الزناتى يفتح الباب ولا يطلب قتيل وفى غيبتك ياما يعمل بدايع ثم ان الأمير أبو زيد قال لهم قصدى أعمل حيلة تسوى قبيلة فقال له الأمير ستكون فقال أبو زيد ادعوا الجارية ثم أنهم دعوا اليها فحضرت بين أيديهم فالتفت إليها الأمير أبو زيد فقال لها مرادى تجمعى مائة بنت من أحسن بنات العرب واحضريهن فى الليل فمن ساعتها أحضرت مائة بنت إلى الأمير أبو زيد فقام ولبس ثياب بيض مثل النسوان

والبس درعه والحزم بسيفه وصار هو والبنات والجارية وكان نصف الليل إلى أن وصلوا بوابة تونس فقال أبو زيد اقرعى الباب فنادى البواب من يقرع أبواب تونس في هذا الليل فقالت الجارية نحن من بنات العرب جايين معنا بضايع لكى نبيع واشترى من عندك على قدر احتياجنا فقال لها البواب روحوا ما افتح لكم الباب في الليل ثم انها تدخلت على البواب فافتح وإنما راح إلى عند الزناتي وأخبره الذى صار على الباب فقال روح إياك تفتح لهم أنا قرأت كتبهم قبل أن حضروا إلى هذه البلاد لأن هذه الحيلة من حيل أبو زيد ثم أن البواب رجع إلى عند البنات وأخبرهم بما قال الزناتي ثم أن الجارية ابتدأت هي والبواب وأشارت تقول :

يا بواب صاره . افتح للعذاره . جنا منفدر إلى حد السورة . وروحى يا ظريفة شاورى لنا خليفة . له جرية رهيفة . تقسم الحجارة . يا بواب منصور افتح باب السور . ندخل بدستور . ونبيع العطاره . المفتاح ما هو بيدى افتح كون طايع . جبنالك بضايع . وتحف بدائع . تصلح للامارة لا أفتح ولا شوء . ولا عقلى بلاشى وان كنت عطاشى . روحوا للبياره . يا بواب افتح على الباب مصفح الزينات تصفح وتنظر للعذارى . قال عند الريا . ثم هندى . نجلا ثم سعدا . تصلحوا إليهم حوار افتح لى شويه . وشوف الحسن فيه . تجيك رزيه . قدشك حاره . روحى يا مليحه أنا أخشى الفضيحة . وأنى تبق مستريحة . وانا اقع بناره افتح لا تبالى . ما معى جبنالك عالى وحزه المهارة . فان روح الله ربى عنك ما أخى افتح الباب وعى مالى يا بواب افتح يا حبيبى . وجودك لا تغيبى . ارحم للغريبى كلنا بكارة السلطان حكالى وقال لا نفتح ولا لى . دول بنى هلال من قوم مكاره . افتح خاب ظنك خللى الحرج عنك قيداره وصاره قال أخاف افتح يجينا رجال طالبين يجوا عابرين على ظهر المهارة افتح يا مغترو لا الكبار تمبر مائة بنت تحضر أمامك جواره لا كون غالب والأمير غايب ومن طلب المكاسب يقع في الخسارة افتح يا ابن عمى . حتى يزول غمى حزامى فوق تمى . ثاره فوق ثاره . روحى يا حمامى لا تزيد في الكلام . خايف من سلامه خيلانه كثاره . افتح يا أغاتى . لا تزيدوا اللغات جلتنا بناتى . مافينا ذكاره سلامه معاكم سابع لغاتى . هو واقف حدا لم مع بنات الامارة .

(قال الراوى) فلما فرغت الجارية هى والبواب من المنادمات والبنات يسمعون كلامهم أخذهم الأمير أبو زيد ورجع إلى دبمة يرجع الكلام إلى مرعى وسعدو حاد مرعى قالت لسعده لا أبكا الله لك عين فقال لها يا سعده إلى متى الانتظار وقد طال علينا المطال وأبوك لا يطالع إلى محاربة أبو زيد ولا يفتح الباب فضحكت سعدة وقالت أنا أفض هذا المشكل لأن مرعى ما يقتل إلا الأمير دياب لأن بان عندى فى الكتب ولكن ما أروح الليلة لعند أبوك وأدعيه يحجب دياب فلما دخل الليل استعدت سعده على أربعين بنت من بنات الأمارة مثل الأقمار فلما حضروا أقبلوا ونادتهم وقالوا ما تريد فقالت لهم أريد آخذكم معى تتفرجوا على بنات هلال والأمير حسن أبو المحاسن الذى عندنا ونرجع فى هذا الليل فقالوا سمعا وألف طاعة ثم أمرت لهم بأربعين خلعة من خاص الحرير والديباج الملون وأمرت بأربعين جواد من خيل الجياد فصاروا يأخذوا العقول وركبت سعدة أمامهم مثل البدر المنير لأنه ما كان يوجد فى عصرها أحلى منها وتقلدت البنات بأفخر السلاح وساروا حتى وصلوا إلى باب البلد وقالت للبواب افتح الباب إياك تتكلم قدام أحد وأعدمك الحياة فقال لها ياستى ما فى تعب من فتح الباب إن أردت تروحى أو تعدى ولكن المفاتيح مع أبوك أخذهم منى فقالت أنا لا احتاج إليهم وتقدمت للباب وضربته انفتح من وقته وخرجت هى والبنات وأمرت عبدها الطواشى يقعد على الباب لحين رجوعهم فقفل الباب وقعد ينتظرهم إلى الرجوع فعند ذلك سارت سعدة هى والبنات حتى وصلوا لعند الحارس فقال العبد ما هذا الخيل فى هذا الليل فقالت له سعدة ضيوف فقال مرحبا بالضيوف فقالت أين ملوك الأمير حسن فقال لها نايم فقالت له ادخل عليه وقل له سعده بنت الزناتى تريد توجهك وترجع بالليل فقال لها انتظرى وراء الستار ودخل لعند جارية اسمها مباركة وقال لها اعلمى أن بنت سلطان تونس حضرت لعندنا ودخلت واعلمت مولاها حسن فتعجب حسن من حضورها بالليل فخرج وقال لسالم مالك فأنشد سالم يقول

يا أمـــير جانا ضربة خطارة ... ملوك منتظرين قطارة
يا أمير جانا من بلاد بعيد ... وأنا بأمرى يا ملك عتارة
ارتاح قلبى من نظرهم يا ملك ... شبهتهم يا أمير شعلة نار

ما واهق إلا الخيول ولبسهم وكلهم يا أبو على عالمهارة
ولبسهم ديباج بلون واحد من الذهب فوق الصدور زرارة

(قال الراوى) فلما فرغ العبد من كلامه والأمير حسن يسمع نظامه فرح فرحاً شديد ما عليه من مزيد وقال للعبد اعزمهم فراح العبد عزمهم ونزلوهم عن خيولهم وربطها ومشى قدامهم فسلمت سعدة على السلطان وعرفته بنفسها ورفقتها فسلموا عليه وسلم على سعدة ومن معها من الحريم وأما أم مرعى لاقتها وضمتها إلى صدرها وقالت لها دخلك مرعى كيف حاله وقبلتها بين عينيها وسلمت عليها سلام الأحباب وأما حسن سلم على سعدة وصار يبكى ويقول :

يقول الفتى حسن الهلالى أبو على ... وفى قلبى نار تزيد ضرايم
على ما جرى فينا وما قد أصابنا ... من المحل سرنا فى أمور عظايم
أرسلت أولادى وأبو زيد أسد ... كم يدور لنا أرضاً بها الخير دايم
مسكهم أبوك يا مليحة وهانهم ... واجحف عليهم كان بالحكم ظالم
وجانى أبو زيد وجاب لى خبرهم ... فصدت أنا بالليل جنح الظلايم
يا سعدة بالله كيف أحوالهم ... مرعى عديل الروح والرب عالم
وأبو زيد حكا لى عن أحوالهم ... وأخبرنا عن أفعالك والظلايم
وأنت شفوقة يا صغيرة عليهم ... وخلصتيهم من جميع الوهايم
مقال الفتى حسن الهلالى أبو على ... على فقد مرعى عينى سجايم

(قال الراوى) فلما فرغ حسن من كلامه وسعدة تسمع نظامه قالت يا أبو على لا يكون عندكم افتكار لنحو مرعى ورفقاه لأنهم فى أعز مكان وإنما الرأى عندى أرسلوا لدياب ابن غانم فشكرها الأمير حسن وأثنى عليها وارسل إلى أبو زيد حالا حضرت امنده سعدة وسلمت عليه وشرحت الكلام اليه ودعت حسن وأبو زيد وخرجت عليهم ترسلوا وراء دياب وذهبت هى والبنات معها حتى وصلوا القصر هاهذا ما كان من سعدة يرجع الكلام لحسن وأبو زيد بعدما ذهبت سعدة قال حسن كيف يكون الرأى يا أبو زيد فقال كلامها صدق ولكن أنا إن أهلكت بنى هلال وأرسلت وراء دياب قال حسن وأنا كذلك لم أرسل وراءه ولا أريد عينى أن تراها فقال أبو زيد أحضر

البنات وأمرهن أن يكتبوا الى دياب ويستدعوه إلى أخذ الثأر فأول ما تقدم درابة بنت الخفاجى عامر كتبت مكتوب وقصت شعرها ووضعته فيه وحطته قدام غانم أبو دياب ثم تقدمت بعدها وطفا كتبت مكتوب وقصت شعرها ووضعته قدام جدها غانم قال اكتب مكتوب إلى والدك لكى يفرج عنا لانه خاصنا من المسبة فأنشد غانم يكتب إلى والده ويقول :

يقول الفتى غانم على ما جرى له … بدمع جرى فوق الخدود سكيب
ونيران قلبى كلما أقول تنطفى … يهب لها جوى الضلوع لهيب
على ما جرى فينا وما قد أصابنا … وأمر جرى فينا تراب عجيب
يا من يودى إلى دياب رسالتى … إلى الأمير بالوغا غريب
وقوله فارس الناو كلها … ويا عز من نال القنا وقضيب
أنت الندا ابن الندا حابك الندا … أبيك الندا وبجرب تجريب
وأنا كبرتى ما بقى لى حيلة … وعزمى غدا منى وراح ذهيب
وعمك مسلم عم الشيب رأسه … ما عاد له عزم ولا ترتيب
عمك عوندس فارس الخيل والوغا … وأبوك امحنى ما عاد فيه نحيب
وبدر وزيدان أميرين اخوتك … قتلهم الخليفة أمس وقت المغيب
عقل ونصر أولاد أخوك قتلوا … وقد دعاهم فوق الوطا سكيب
وأخرب أبو سعدة جميع مساكنا … وما عاد لنا سامع ومجيب
دار كا الدرلاب وولد غانم … ينادى دياب من لقانا هريب
قد طاردته ثلاثة أيام ثم أربعة … شمس الضحى بعد الدموع تغيب
قتلت جواده طالب الشمس باكر … جاء من قدمه سريع عجيب
الا يا دياب الخيل أسرع نحونا … واقتل خليفة يا امير غصيب
قتل خليفة ابن عمك زامل … واخوك عند ما عاد فيه نصيب
وخالك مفضل بن عق … وكان مفضل فى الحرب وديب
ثلاثة عشر يوم والحرب بينهم … وراح الزناتى من لقاه هريب
يوم الرابع عشر أرسل خليفة … خطيب لقد كان قوم نجيب

ضرب مفضل ضربة أباده　　وراح على وجه التراب يجيبه

ياما جرى لبنت الأمير مفضل　　انا كل ما حال الظلام نحيبه

ثمانين أميراً من هلال وعامر　　دماهم أبو سعدة برع كعيبه

لا السقى إلا وعلى بدر مهجتى　　وزيدان راحوا يا دياب غضيبه

قتلهم أبو سعدة الزناتى خليفة　　ادعى دماهم على الوطا سكيبه

وانزل معيقل للزناتى وحده　　وقلنا معيقل بالطرد اصيبه

تبحر على جمع الزناتى خليفة　　تلقى أبو سعدة كثار لهيبه

وثالث نهارى السكون بينهم　　من الصبح لما طيب المغيب

ورابع نهار طار راس معيقل　　ومن رجفته راح بمرق كثيب

غلبه الزناتى بعد ما كان غالبه　　معيقل نعجة والزناتى ديبه

ضربه معيقـــل ضربة عامرية　　القاها على الوطا قالباً وقليبه

ونادوا على الأندال أين أميركم　　وما عاد فيكم يا هلال نجيب

نزل لهم يا أمير خالك بلا بطا　　بدير بن فايد عاجلا وقريب

ضربه الزناتى ضربة شال رأسه　　غدت خوذته والدرع منه سكيب

وجتنا سعدة آخر الليل بالدجى　　ومعها بنات أربعين نجيب

وهم لابسين بزى مردان كلهم　　خلو عقول العالمين تغيب

ونزلت بصيوان الأمير أبو على　　ونادت على أبو زيد جاها يجيب

وقالت لهم أن الزناتى خليفة　　على جموعكم يا أسير عطيب

ولا يقتله إلا دياب بن غانم　　وهذا كلامى ما به تكذيب

الينا الينا يا دياب بن غانم　　وإلا أنت يا دياب غريب

فأنت عود البيت ونحن طنابه　　وما جتنا ملاح وقت مشيب

وجتنا لسام والبنات جميعهم　　والع فرارع والدموع سكيب

جانى حسن البيت على اقا　　أبو زيد جانى صاحب الترتيب

دعوك الامارة يا دياب جميعهم　　دعوك الامارة يا دياب أجيب

ورهنت لسانى للبنات بلا خفا　　بنات لهم بينات وتخريب

يا آل الزغبى انجد هلال وصونهم   تنال العلا والفخر والترتيب
وإن لم تفرج همومنا بعد كربنا   تقول بك الزينات وقول مصيب
قال الفتى غانم على ما جرى له معه   ولى قلب طول الليل بالتعذيب

(قال الراوى) فلما فرغ غانم من كلامه طوى الكتاب وختمه بختمه ووضعه فى مكاتب البنات وقال لعبده خذ هذا المكاتب إلى مولاك دياب ولا تجبنى إلا وهو معك وإن رجعت بلاه أعدمك الحياة فعندها أخذ المكاتب وسار طالب وادى الغباين فوصل وجد مولاه وقبل أياديه ووضع المكاتب بين يديه قال له ياسعد رفعوا الطعام فدخل على مولاه دياب على الطعام والعرب حوله من كل جانب فصبر حتى أرى وجهك أصفر ما عندك من الأخبار وأشار يسأل العبد ويقول :

يقول الفتى الزغبى دياب بن غانم   الأيام ما ترى فى أحد من حذارها
غلامك يا سعد الدهى مغير   كأن المنايا ساقيتك كاس مرارها
أسألك عقل ونصر كيف أحوالهم   فما بعد لحقوا الوقائع فرارها
وتدور أخى زيدان كيف أحوالهم   بخير وإلا المنايا مزارها
أيا سعد أنا بعقلى وفكرى وخاطرى   بأن تورسنا قد غاب منها قارها
اعرف إن قام حرب مع العدا   ما يعطيها غيرهم عند نارها
لأنهم جهال لا يفرقوا اللقا   وكم جاهل جهله رماه بشارها
فان كانوا راحوا أخوانى ذات يومهم   وإن عشت أنا ياسعد آخذ بثارها

(قال الراوى) فلما فرغ دياب وبدأ ينظر إلى كاتب واحد بعد واحد حتى انتهى فقال إنى أرى مكاتيب البنات ومكتوب والدى فأين مكاتب الأمير حسن أبو زيد فقال يا مولاى هذه ثمانين مكتوب حيجيبوك حتى يرسل لك حسن وأبو زيد فقال دياب جيت هذا المكان برأيهم ماجيت بشور البنات فكيف أروح على كلام البنات حتى يقول لى حسن وأبو زيد إلى أين جيت ومن أرسل وراك وحساب حسن وأبو زيد قربته ومحبته من زمان فقال العبد إن البنات ما كتبوا إلا بأمر حسن وأبو زيد بحضورهم فقال له أنا إن رحت على كلام البنات وقتلت الزناتى لا يعيدوها إلى وإن تكلمت يقول لى من بعث وراك فاذا يكون جوابى لهم وهذه آخر

الواقعات بيني وبين الزناتي وما هو قليل ومرادي أملكهم الغرب كما ملكتهم الشرق وبعد أن أكون سيدها طبول في عرسها فان مقصد بني هلال حضوري هات لي مكتوبين وحجتين من حسن وأبو زيد حتى أروح وأصنع نار وأحرق مكاتب البنات قال العبد أنا إن رحت وأنت ليس معي يقتلوني البنات أنا ما بقيت أقعد هنا نخ في العبد وقال له أكتب لي الجواب فأشار دياب يقول :

يقول أبو وطفا دياب الماجد	والدمع من عيني على الخد سيول
إن جيت يا عبد إلى غانم والدى	اعطيه هذا الخط من قبل النزول
وقل له يا أمير غانم استمع	من أبو وطفا وما بيدى يقول
يا أبى مالك عقل اترك النسا	وتزيد كلامك يا غانم والفضول
كتب النسا يا أبى جول حقيق	وكتاب وطفا منك وصول
والله لو قتلوا هلال جميعهم	ما رحت اليوم ولا أرجع أقول
لو أن العامر عنى يرسل لى كتاب	كنت أسمع الكلامه عجول
وكنت أركب خضرتى بالسريع	أترك خليفة وجمعه يغدوا قتول
يا أبى قد ضرنى حزن اخوتى	دمعى لاجل فراقهم نازل هطول
وبشروا ذاك الفارس دياب	يخوض فى العدا عرض وطول
قول الفتى دياب الماجـــد	والنار فى قلبي تزيد شعول

(قال الراوى) فلما فرغ دياب من كلامه طوى الكتاب وختمه بختمه وأعطاه للعبد فأخذه وسار طالب بنى هلال فوصل إلى غانم وأعطاه الكتاب ففضه وقرأه وعرف رموزه ومعناه فاستدعى البنات وقرأ عليهم المكتوب وقال إنه لم يجيء إن لم يرسل حسن وأبو زيد له مكاتب وإذا ما أرسلوا له ما يجيء ولو تقطعوا بنى هلال فرجعوا البنات ودخلوا عند حسن باكين صارخين وقالوا له يا حسن ارسل لنا وراءه فى هذه الساعة لكى يأخذ لنا بالثأر ويكشف العار عنا وإن لم ترسل وراه اروح كلنا لعنده فعند ذلك استدعى أبو زيد وقال انظر هؤلاء البنات وما مرادهم واكتب لهم مثل ما يريدون واسترح منهم فقال أبو زيد يا حسن أنا ما أكتب ولا أرسل وراه لان ما احبه ولا أطيق ذكره فقال حسن وأنا كذلك فأرسل وراه أبو غانم

وندعه يروح وراه فعند ذلك أرسلوا وراه غانم خضر وحياهما بالسلام فقاموا له على الأقدام فقال حسن يا غانم مرادنا منك تروح ورا إبنك دياب تجيبه فقال يا حسن ابنى ما يجى مالم تكتبوا له أنت وأبو زيد فلما أصبح الصباح عول والد دياب على السفر فاستدعى بقلم وقرطاس ودواية من الذهب الخالص وحرر المكتوبين على لسان حسن وأبو زيد إلى دياب وحطهم معه وركب هو وامرأته وساروا طالبين دياب إلى وادى الغباين وأرسل عبد يعلم ابنه فى قدومه إليه هو ووالدته فلما وصل العبد إلى دياب أخبره بقدومه اليه فلاقاهم وتوجه إلى أمه وأنزلها من الهودج وقبل رأسها وقال من الذى جابك الينا فأشارت تقول:

تقول فتاة لوع البين قلبها ارجع إلى قومك واصل الزمام
ونحن يا أمير جئنا لعنــــدك فهذا المرجو منك يا ابن الأكارم
ضيعت خــــق والدك وسفهت قولى يا قليل الحشايم
ولو كنت يا ابنى حافظ مقامك فلا كان العدا دعونا هوايم
غفلت غانم يا أمير وفظتنى وعاد دمعى فوق الخدود سجايم
ترى الزناتى قد قتل من رجالنا قتل اخوتك راحوا رمايم
وخالك بدير مع الخفاجى وعامر ومن غيرهم كثرة أمارة أكارم
فقم بنا نرجع إلى نجع أرضنا نعيش بها من غير فضل بن غانم
ما قالت فتاة لوع البين قلبها ونيران قلبى زايدات الضرايم

فلما فرغت الأم من كلامها أشار دياب يقول :

يقول الوغى دياب الغانم غضبتم علينا يا وجوه الأكارم
أنا لأجلكم أقتل خليفة بشيق وادعى دماه فوق الأرض عايم
وآخذ لثأر زيدان بساعدى وادعى خليفة عالثرى نايم
وأنت يا أمى افرحى وابشرى أنا جيتكم ما عاد فيها هزايم
فلا بد أنصركم وأشفى قربكم من فوق خضرا مثل طير الغمايم
وأقتل أنا خليفة حقيق مؤكد أنا سيد الفرسان عند العزايم
وتعرفنى الفرسان فى حومة الوغـ ـى إذا جيت الميدان ولوا هزايم

فلا بد أن آخذ بثارات إخوتى وثارات خالى والقروم الأكارم

فلما فرغ دياب من كلامه وأمه تسمع نظامه فطاب خاطرها وتوجهت إلى الخيام ولتى بعد ذلك أبوه فلما وصل إليه سلم عليه وقبل يديه وقال السلام عليك يا أبى فقال له لا تكلمنى أنا لا والدك ولا أنت ابنى وأنا بريء منك لو كنت ابنى كنت سمعت كلامى وأخذت لى ثارى من الزناتى الذى قتل أخوك وأولادى وأحرق فؤادى وأكبادى وأشار يقول :

يقول الفتى غانم على ما جرى له بدمع جرى فوق الخدود سكيب

يا ولدى هذا الزناتى خليفة أهلك فوارسنا وكل نجيب

ثمانين أميراً من قومنا مضوا ودعام طعام الرخم والديب

وجتنا تسام يا أمير قوازع بهم حسن إلى بلاد تكذيب

جانى أبو زيد الهلالى سلامة أبو زيد هو لك يا أمير حبيب

وكيف يا أمير ما جيت بالعجل وخليت هذا البوش دعه يعيب

وأرسلت لك يا أمير تحضر لثارهم وما أظن من قصدك الملوك يخيب

وظنيت فيك ظنا بلا خفا وقلت أبشروا يا بنات قريب

ولما أتى سعد يا أمير خايبا فقد زاد فى الحى البكا ونحيب

جانى الفتى حسن أبو على وجانى أبو زيد أمير مصيب

أتونى الأمارة يا أمير خواضع وقالوا روح إلى دياب وجيب

وعطفا لها مكتوب كتبته بخطها تقول الوحا قبل الحريم ما تسيب

(قال الراوى) فلما فرغ من كلامه وولده دياب يسمع نظامه فقال لأبيه إذا كنت ما جيت ما أروح ولو ما فضل أحد من بنى هلال فأعطاه المكاتيب ففضها وقرأها وعرف معناها وعزم على الحضور من بعدها وأمر بذبح الأغنام وعمل الولائم والضيافة ثلاثة أيام فقامت أم دياب وابنها يمشى خارج الخيام فقالت لولدها يا ابنى أبوك خرف ما عاد له عقل وقد دعى عليك قدامى وما هان على وحلفت أن أقول لك فقال يا أماه والدى مجنون ودعاه على ما فى بأس لأنه من حزنه على أولاده وثاناياه مقهور من الزناتى وثاناً من فراقنا ولكن إن اراد الله تعالى أروح معكم وأطلب

رضاكم وما عدت أخاافكم وآخذ لكم بالثأر بعون العزيز الجبار والشديقول :

على ما قال أبو موسى دياب ... شربنا الخمر فى صافى القداحى

وكم ندل أتى وقت المعارك ... يبقى هاربا يطلب رواحى

أسألك يا إلهى أكون طيراً ... عقابا كى أخفق بالجناح

أطير بهمتى وأنزل سريعاً ... وأعدى بين مشتبك الرماحى

لآخذ الثأر من حالى بديرِ ... وبدر وأخوه زيدان الرباحى

وما فعل الزناتى بالامارة ... فطار العقل من نايم وصاحى

أنى معذور يا أمى حقيقة ... دعيه يقول فى عرضى قباحى

غدا أرضيه فى قتل الزناتى ... وأبدل حزنكم بالإنشراح

قولى الهلال النصر جاهم ... نهار الأحد أعزم الراحى

(قال الراوى) فلما فرغ دياب من كلامه وأمه تسمع نظامه فرحت وقالت ياغانم مرادنا نسير لأن بنى هلال فى انتظار فقال تأهبوا حتى نسير ونعلم بنى هلال أن دياب يحضر يوم الأحد لعندهم فركبوا وساروا حتى وصلوا إلى بنى هلال فطلعوا الجميع لملاقاتهم فكانت ضجة قوية فنظروا غانم وحرمته وحده فقالوا أين دياب فقال غانم أبشروا بالغنيمة يابنى هلال نهار الاحد يصل إلى عندكم وأما دياب بعدما راحوا والديه من عنده أمر الرعيان بلم الهوش من كل جانب ومكان وساروا الجميع قدامه وسار طالب بنى هلال وفرسانه الذين معه قالموا الصوان وأمر الحكام بسيفه وبنصبه على أبواب تونس فى نصف الميدان ودق طبوله ونشر أعلامه وسار حتى بقى بينه وبين هلال يوم كامل وكانوا جميعهم فى انتظاره وثانى يوم الأحد خرجوا الأربع تسعينات ألوف وتابعيهم ولاقوه وما فضل من هلال لا كبير ولا صغير حتى طلع ملاقى الأمير دياب وخرجوا بالطبول والنوبات السلطانية وزالت عنهم الهموم والاتراح وبظلوها بالافراح بقدوم دياب وأدخلوه إلى الحى بنوبة سلطانية عظيمه وأما أهل القتل فأنهم اجتمعوا على التراب وهم فى السواد وأثواب الحداد لكى يشكوا إلى دياب ما فعل الزناتى بهم وأما حسن وأبو زيد ظلوا فى الصيوان ما خرجوا إلى الخيام وأما دياب لما وجد حسن وأبو زيد عرف المضمون وإنما أخذ الكمد وأظهر الصبر والجلد ولم يزل سائر فى الموكب العظيم

حتى وصل الى أبواب تونس فرجت منه تلك الأرض فى طولها والعرض وطلعت الحريم على الأسوار الفرجة على الزينة وارتعدت من الزناتى خليفة ومن عنده القلوب وانحلت المفاصل وقال الله يعيننا على حربه وأما دياب رفع رأسه إلى سور تونس فوجد رؤوس الأمارة ثمانين رأس مشكوكين على الرماح فسأل من يكونوا هؤلاء فقال له عمه عرندس هؤلاء رؤوس بنى هلال الذى قتلهم الزناتى . وهم أولاد عمك فقال كل هذا جرى فى غيابى وظل سائر إلى التربة فلاقوه أهل القتلى والبنات وشالوا البراقع وحدفوها إلى دياب فطيب خاطرهم وأنشد يقول :

قال أبو موسى دياب المفتخر فارس الهيجاء وخيال الوعر
حامى الزينات سور المحصنات مفرج الكربات فى يوم العسر
منه الخطار فى من الفلا مشبع الجيعان زاكى منتشر
زال عنكم همكم ياذا البنات والزناتى حل فى عمره قصر
وآخذ الثار من أبو سعده حقيق وجميع قومه من حسامى الأبتر
واخبرونى يا بنات بما جرى واعلمونى بحقائق تسكر
ما لكم على القبور جوالس وشعوركن على الكتاف ينتشر
كم من أميرة شقعت ثوب الحيا وقبل هذا اليوم كانت تنستر
لمن هذا القبر يا بنت الكرام من هذا الذى من تحته انطمر
هل أبو زيد والأمير حسن كم ربيع هدموه وصبح منذثر
الا بدير العامر خالنا يا نحيف وجهه بعد نور ينفطر
فابشروا بالثار أنتم يا بنات فى ما مضى لحدين بولاد اندكر
أنا عليهم مثل سبع كاسر من هد اليوم يا عذارى انحدر
وانظروا فعل دياب يا بنات بعون من أمره علينا قد قدر
افرحوا اليوم يا بنات وابشروا وخاطركم المكسور منى ينجبر

(قال الراوى) فلما فرغ دياب من كلامه تقدمت فتنة بنت خاله بدير تقول :

قالت فتاة الحى بنت القاضى ودمع عينى فوق خدى منحدر
أصبحت حيرانه وعقلى زايل والقلب منى يا جماعة انفطر

والبنات جمع حالى مثلهم انظر فى عينك فينا وافتكر
من فعل أبو سعده الزناتى خليفة قتل الأبطال فى سيفه سكر
وإن كان تأخذ ثارنا بسيفك يبقى ثناك على العوالم مفتخر

(قال الراوى) فلما فرغت بنت القاضى من كلامها طيب بخاطرها وسار مع الموكب حتى دخل البيوت فر على صيوان الامير حسن وأبو زيد فلقاهم يتفرجوا فلما وصل دياب إلى عند الصيوان دخل وسلم على حسن وأبو زيد فقاموا له على الاقدام وحيوه بالسلام وأكرموه غاية الإكرام وبعدها قام دياب وركب إلى بيته وتفرقوا كل واحد لمحله فرجعت بنت الأمير حسن وصارت تخبره وتقول:

قالت فتنة بنت سلطان الملا اسمع كلامى أنت ياسلطان العرب
طلعت بنات هلال وجميع النسا الجازية طلعت وارخت النقاب
بجنب وادى اقد وقفوا الجميع ينظروا لدياب قوم مفتخر
لما طلع ضوء النهار وانجلى اقبل دياب الخيل من حوله سرب
والخيل شهبا يا بوى وأقبلت وفوقها من كل فارس منتخب
أما الفتى الزغبى أمامهم الفين طبل من وراه تضرب
والجال لخيولهم خاص الحرير وكل من خلفه حصانه قد سحب
لما رأنه بنات قيس يا أبى قومن كل العذارى على التراب
وولوا ومسكوا ركابه يا فتى انهد ان قد جاك قاصد للطلب
ان الزناتى قد أباد قرومنا ودمهم فوق الأراضى قد سكب
ونريد أخذ الثار يابو موسى ونحن عندنا نيحات كل العطب
قال لهم يا بيض غدا فابشروا والهم عنكم يا عذارى قد ذهب
لا بد عن قتل الزناتى يا بنات قد زال بيت العز عنه وانخرب
أنا دياب الخيل طعان العدا أنا مريح الخيل مفرج الكرب

فلما فرغت من كلامها وأبوها يسمع نظامها قال مرادنا من يروح اعند دياب لنا يأتى بالخبر وتكشف كيف يقول فى حربه للزناتى فقامت داية الحريم وقالت أنا أكشف لك عن ذلك وسارت للصيوان ووصلت اليه فوجدته نائم له بنت صغيرة اسمها نجية وهو

يلاعبها ويقول أين أطعن الزناتي فقالت له في عينه فقال قولك مبارك وحياتك ما اطعنه إلا في عينه فرجعت الداية إلى عند الأمير حسن وأخبرته عن مارأت ثم افتكر وأطرق رأسه إلى الأرض ساعة من الزمان وفاق وتنهد وأنشد يقول:

يقول الفتى حسن الهلالي أبو علي   الأجواد تختبر ايوم النوائب
وما سندنا إلا دياب بن غانم   لأنه صميدع من خيار القرائب
ونرجو من الرحمن يفرج همنا   لأن العرب وقعوا معظم المصائب
عسى من الزغبي يجينـــا غاية   ويقتل خليفة بين جميع الكواكب
دياب أمير وابن أمير وأمير   ولا مثله في شرقها والمغارب
قال الفتى حسن الهلالي أبو علي   وقلبي فرح في ملتقى الحبايب

(قال الراوي) فلما فرغ حسن من كلامه وامرأته تسمع لنظامه وكان اسمها نافلة أخت دياب استلقت على حسن انه دخل الحسد من أخوها فعند ذلك أنشدت تقول:

ماقالت التي قالت نالت رجالها   ودمع عيني فوق الخدود سجام
سعدنا في بني زغبة دياب   شبيه البحر موجه حايلاطم
فلما أقبلت خيله علينا   ففرحي البيض دقاتين الوشايم
طبول حوله يا أمير تضرب   شبيه الرعد بوسط الرعد قايم
وخافوا أعادي حين شافوا   بني زغبه وهم نسل الأكارم
قال الزناتي لأهل تونس   يصيروا أهلها لنا خدائم
قالت التي قتل رجالهـــا   ماتعيب ياحسن في ابن غانم

(قال الراوي) فلما فرغت نافله من كلامها والأمير حسن يسمع نظامها قال لها يانافلة عسى الأمير دياب يقتل الزناتي ونملك أرض تونس ونخلص أولادنا فهذا ماجرى للأمير حسن ونافلة فيرجع الكلام لدياب فانه التفت إلى القوم وأصرفهم إلى المنام قال لهم باكر ارجعوا احضروا جميعكم قالوا سمعا وطاعة ولما أصبح الصباح نهض الأمير دياب وطلب مبارزة الفرسان ولاعب الخضرا في أربعة أركان الميدان وجال وصال ولعب بالرماح حتى حير عقول الشيوخ والشباب والأبواب مستكرة لاحد يخرج ولا يدخل فتقدم دياب إلى أبواب تونس ودق في عكاز الرمح فارتج السور فقال البواب من الداخل

فرد دياب وقال له روح أعلم سيدك الزناتى يخرج لحربى لأجل أن يوفى الماس ديونها وان سألك عنى فقل له دياب قاتل اخوتك خويبة ومكحول وأبو زاليه وخذ تارهم فمضى البواب واعلم سيده الزناتى فضاقت فى وجهه الدنيا وما عاد يبقى على حاله لأن كل منية لها أسباب والزناتى منيته على يد دياب فأرسل أحضر ابنته سعده وقال لها ياباغية ما أحد جاب لنا البلا خلافك فلو كان من الأول تركتنى اقتل المحابيس وأبو زيد كنا ارتحنا من بنى هلال ولا نظرناهم وأنا لا أخاف إلا من دياب فقالت سعده ياأبى لاتخاف منه أنا أرده عنك ثم مشت على شراريف القصر لفوق دياب فنظرته يلاعب الحصان فنظر إليها وكف وجهه منها لحسن صورتها وقال ما اسمك وما تريدين فقالت له وأنت من تكون وما تريد فأشار دياب يقول :

يقول الفتى . الزغبى دياب	ولى قلب يشبه بيضة البرلاد
وعزمى كسبع الغاب فى الميدان	رامى بوزان شاهخات بولاد
ألا ياصباح الخير ياوجه البها	أنت تشبهى ريما بالفلا شراد
اصغى لى واسمع نظم قصتى	وردى جوابى بعد كل مراد
واليوم يكون السكون بينى وبينكم	واليوم نار الحرب تزيد وقاد
دياب جاكم اليوم وعرف دياركم	وقد كان برا قائم الاطراد
ولاخائفا منكم ولا من جمعكم	بعون المهيمن صاحب الأعياد
وقد جيته اليكم طالب شركم	واليكم بعد البياض سواد
ألا ياصغيرة الدهى لابوكى	وقولى دياب الخيل جاء وعاد
قولى له ينزل لحربى بلا بطا	ويلبس الدرع المقمع وزواد

تمت هذه القصة ويليها قصة قتل الزناتى خليفة

قصة قتل الزناتى خليفة

من يد الأمير دياب بعد الحرب الشديد الذى يشيب رأس
الطفل الرضيع وفيه قصة الأمير صبره بن الأمير أبو زيد
وقتل الغلام وما حصل لهم من الحروب والأهوال التى
تشيب الأطفال وتدهش العقول والأفكار

(قال الراوى) فلما فرغ الأمير دياب من كلامه وشعره الذى تقدم فى الجزء الثامن عادت سعده تجاوبه :

تقول سعده بنت أمير تونس ألا يا دياب الخيل يا صنديد
حسبنا حساباً قبل جميعنا جتنا علاماتك وانت كنت بعيد
وتشهد لك الأبطال فى توبها بأنك صميدع فارس صنديد
فاعفى عن الزناتى خليفة وخذ ما تشتهى وتريد
وخذ ملكنا أم الرزق كله بساتين تونس قريبها وبعيد
فيطل عنان الكون يا ابن غانم فبلغ من الخيرات كل مزيد
ما قالت بنت أمير تونس الله يفعل ما يشاء ويريد

(قال الراوى) فلما فرغت سعده من كلامها أشار دياب يقول :

قال الفتى الزغبى دياب بن غانم ولى عزم يقطع الصخر والجلمود
ولى همة تعلو على كل ماجد بيوم الوقائع للقروم أصيد
أبوك قد أباد قرومنا فوارس أمارة بالطراد تزيد
فلا بد من حرب الزناتى خليفة لو أنه جوا ألف حصن حديد

(قال الراوى) فلما فرغ الأمير دياب من كلامه قالت له سعده قف عندك حتى أرسل لك أبى وعادت لأبوها تحثه على حربه فأشار يقول :

يقول أبو سعده الزناتى خليفة ونيران قلبى زايدات وقيد
وعن ثبات عادمه لذة الكرى لأن بها ابلى الجديد حديد

أيا سعده حربة دياب بن غانم سمعت بها بأقصى البلاد وهيد
أيا سعده حربة دياب بن غانم لها سن يفلق الصفا الجلميد
أيا سعده حربة دياب بن غانم تغنى بها الشعراء لهم قصيد
أيا سعده حربة دياب بن غانم فما قط ينظر أحد وبعيد
أيا سعده حربة دياب بن غانم بها السم ناقع والفعال سديد
أيا سعده حربة دياب بن غانم بها تقتل الأبطال حقا وأكيد
أيا سعده حربة دياب بن غانم كم راح منها ابن سعد وسيد

فلما فرغ الزناتى من قوله ركب الجواد وبرز إلى الميدان صار على دياب يقول:

يقول ابن سرحان الزناتى خليفة لى قلب أقوى من رهيف صقال
فما شئت ما قد صار بتونس قتلت فوارس من فوارس هلال
قتلت القاضى بن فايد وبدر مع زيدان والأبطال
وقتلت أيضا الخفاجى عامر وعقيل ونصر والفتى سرحان
ثمانين أميراً قد قتلت بصارمى دميت دمائم فى البوادى سال
أنا فارس الهيجا إذا قام سوقها أخلى البوادى عالوطا وتلال
رد الفتى الزغبى دياب الغانم أنا ولد غانم أنا الدلال
أنا تعرف الفرسان عزمى وسيرتى أنا فارس الهيجا بيوم قتال
جانى أخوك خايبه قتله وأرميته مطروح فوق جبال
من بعد مكحول جانى مطاوع طعنته بحربة عن جواده مال
اليوم يومك يا زناتى خليفة فلا بد من سبق تروح شلال

(قال الراوى) فلما فرغ الأمير دياب من كلامه والزناتى يسمع نظامه فالتطموا البطلين كأنهم جبلين وتصادم صدام الأبطال وضربت فى حربهم الأمثال وقاق الزناتى من حرب دياب ورأى منه أبواب ما كانت تخطر له بحساب ورآه بحر ماله قرار وتيار ماله عيار فاحتار الزناتى بأمره وغاب عن الشدة وماز الوا فى الحرب والطعان والضرب وهم فى أشد ضيق وقتال ونزال إلى نصف النهار فراد الأمير دياب على الزناتى بحربة وعاد يقتله وهو على الخضرا مثل الصاعقة فخاف الزناتى وانحل عزمه وولى

من قدام دياب هارب وإلى النجاة طالب إلى أبواب تونس ودخل وهو وعسكره وفتحوا له الطريق ودياب لاحقه مثل الأسد الكرار فهجم دياب وعسكره على الزناتي والتفت الرجال بالرجال وجرى الدم وسال إلى الجبال وراح صاحب الجلات اضرب الحرب والكفاح فيا لها من وقعة تشيب الأطفال وراح من الفريقين عدد كثير من الفرسان والشجعان وكان لتونس ثلاث أبواب أحدها خلف الآخر ففتحوا حتى دخل الزناتي الأبواب وسكروهم فضرب دياب الباب بالرمح ففرق أربعة أكعب فاطبقت قوم الزناتي على قوم دياب فالتقاهم بسيفه القرضاب وجندل منهم الشيوخ والشباب فهزموا فى زغبة وعظمت الأهوال وطال القيل والقال إلى أن واجهت الشمس الغياب ودقت طبول الانفصال فولت قوم الزناتي من خارج السور هاربين وإلى النجاة طالبين ورجع الأمير دياب وقومه إلى بنى هلال فهنوه بالسلامة وأكلوا وشربوا وحضر الأمير حسن والأمير أبو زيد لعند دياب وعانقوه وهنوه بالسلامة وجلسوا معه فى المنادمة والكلام وأمر دياب بالذبائح وعمل الولائم فسألوه عن حرب الزناتي فتبسم الأمير دياب من قولهم وقال أبو زيد هل خوفكم الزناتي وارعب قلوبكم بعناية البارى تعالى أنا أكفيكم شره وأقصر عمره فقالت الأمارة أجارك الله يا دياب غداً التق الزناتي واقتله وملكنا الغرب كاملكنا الشرق فقال ان اراد الله تعالى ولكن يا حسن الذى يقتل الزناتي يكون سلطان العرب فقال الأمير حسن نحن أولاد عم وبين الأهل لا يوجد فرق والرزق واحد والحكم واحد بعد ذلك انصرفوا إلى حالهم ولما أصبح الصباح برز دياب إلى الميدان فبرز الزناتي وانطبقوا على بعضهم انطباق الغمام وطال بينهم الطعن والصدام من شروق الشمس إلى ونت الظلام فدقت طبول الانفصال وانفصلوا الفريقين عن القتال كل منهم عاد إلى محله والاطلال فلما أصبح الصباح طلعت بنى هلال من خيامها وركبت سوابقها وأما الزناتي أغلق أبواب تونس وما عاد يفتح ولا عاد له قلب للخروج إلى الميدان لخوفه من الأمير دياب وأما الأمير دياب قام من نومه وتقلد سلاحه وركب الخضرا وبرز إلى الميدان فحين نظره الزناتي تحركت فى رأسه مروءة الرجال وهانت المنية عليه فبرز الزناتي الدياب وصدمه صدمة الجبار لا يهاب نزول الأخطار وهاش الزناتي كالجمل وطلعت

زبده إلى أشداقه لأنه تذكر رزقه وأملاكه فهانت المنية عليه فتلقاه دياب بالسيف وصده أو يفتخر على الشيوخ والشباب فحملوا على بعضهم وطارقهما بينهم الغبار حتى سد منافذ الأقطار وحجبت عنان السماء والقوا الحرب والصدام إلى الظلام ودقت طبول الانفصال وافترقوا على سلامة واستداموا على هذا الحال شهرين وفي آخر الأيام برز الاثنين إلى الميدان فغضب دياب وزاد به الغضب فقام في عزم فمال الجواد على الأرض وبقي الزناتي مطروح وقد أيقن بذهاب الروح فأدركوه قومه في جواده من الخيل وأركبوه ومال عليهم دياب بالسيف القرضاب وزاد نار الحرب التهاب وقطعت منهم الزنود والركاب وساقهم دياب سوق الغنم ودخلوا المدينة وسكوا أبوابها فطلع الزناتي إلى قصره وأيقن بزوال عمره فنام على فراشه غارق في الأفكار لنصف الليل فقام مرعوب نادى ابنته سعدا فأتت ولما شاهدت حاله بكت وندمت وصارت تشجع والدها على حرب دياب وثاني الأيام نزل إلى الميدان فبرز إليه الأمير دياب فأشار الزناتي يقول:

يقول ابن سهران الزناتي خليفة	ولي قلب من جواز الزنان جريح
تسعين أمير من هلال وعامر	وكل أمير بالوغا رجيح
أسقيهم كاس الحمام بلا خفا	لسام عليهم بالظلام تصيح
سأقطع لراسك يابن غانم بهمتي	وأشرح لحمك والحشا تشريح
وآخذ الخضرا وراثي جنبيه	وأسكر بدمك كالمدام وأصيح
فاعطوا عشر المال والخيل والنسا	وتبقوا رعايانا على التوضيح
جرى بساط الصلح بيني وبينكم	ومن يطلب الصلح عاد مليح
رد الفتى الزغبي دياب وقال له	ترى المرج بين العالمين فسيح
لي تار عندك يا زناتي خليفة	وقد بان في قومي بكا وتنويح
قتلت هلال والقروم جميعهم	وقتلت منا كل قرم رجيح
تسعين أمير من هلال وعامر	غدرا وتطلب أن أكون رجيح
وتطلب مني يا زناتي أصالحك	أنا والنبي بين الرجال سميح
فمن يعتق الحية يضره سمها	ويضحى فؤاده بالسموم طريح
أين بدير العامري بن فايد	أين اخوتي زيدان وبدر مليح

أين ساحان الخفاجى عامر   قد كان بيوم الطراد رجيح
وتحتى خضرا يقطع الورد عزمها   متسربلة فى أماكن الترشيح
ما أظن يلحقها الطير بالسما   أنا بها بين القروم نطيح
وأنا لك منطاح يا زناتى خليفة   على سرج خضرا ثم فيك أصيح

فلما انتهى الأمير دياب من كلامه والزناتى يسمع نظامه التقوا البطلين كأنهم أسدين كاسرين وما زالوا فى حرب وصدام إلى وقت الظلام فدقت طبول الانفصال وثانى الأيام برزوا الاثنين إلى الميدان وأنشد الزناتى يقول :

يقول الزناتى يا دياب الغاره   حالا الزناتى مثل شعلة نار
جاك الزناتى فوق أدهم ضامر   لو كان فيه جناحين لطار
تسعين أمير أمن هلال قتلتهم   صفيت رءوس الكل على الأسوار
زيدان مع بدر الأمير قتلتهم   أيضاً وحالك كان هو الجار
واليوم لأزم أذبحك بمهندى   وأسقيك يا دياب كاس مرار
إن طعتنى انزل وبوس ركابى   وادخل إلى كى تكون جار
رميت نفسك فى حرب خليفة   فصاب عامل فيكم جزار
رد الفـــتى الزغبى وقال له   ألا يا زناتى لا تكون فشار
من نجد حتى أرض تونس كلها   وملوكها وأبطالها وأمارا
لى ثار عندك يا زناتى خليفة   أحرقت قلب رجالنا بالنار
أتيت بســـيفى وسن قناتى   لأن أمورك بالملا تذكار
وأملك لقصرك والبلاد جميعها   وآخـــذ حريمك كلها جوار
فالك عنـــدى يا زناتى هلر   لابد أضرم فيك لهيب النار

فلما فرغ الاثنين من الشعر والنظام ولم يزالوا فى حرب وصدام حتى أتى الظلام فدقت طبول الانفصال وثانى يوم برز البطلين وأنشد الزناتى يقول :

يوم أبو سعدة الزناتى خليفة   لى عزم فى البيد كسبع الغاب
أنا القرم أنا الضرغام قاهر الـ   ـعدا أنا ملك الأبطال يوم حراب
أنا البطل المسمى الزناتى خليفة   كم من ملك جانى وظنه خاب

حكمت على كل الملوك جميعهم وتركت كل خلق تحت ركاب
ياذياب الخيــل الظر همتى لأزويك أصعب الأعجاب
كم من ملك جيوشه قهرتها عادت دماهم ع الوطا سكاب
أنا اليوم خصمك يا ابن غانم لابد عن قتلك تروح ذهاب
مالك غير الطعن فى سمر القنا والضرب من سيف اليمانى طلاب
ما قال أبو سعده الزناتى خليفة لابد أذيقك ياذياب عذاب
رد الفتى الزغبى دياب الماجد ولى عزم أمضى من سنان رماح
وكم من ملوك قد قهرت بصارمى وكم من مثلك يازناتى راح
فراح فى حد السيوف مجندل خليت دمه ع الوطا سباح
وراح منجد والهيدبى ومفرج خليت دماهم على الثرى سباح
وان كان ما أشفى غليلى منك يحرم على وصال بيض ملاح
قال أبو موسى دياب بن غانم أنا لا مهزار ولا مدعى ملاح

فلما فرغ دياب من كلامه والزناتى يسمع نظامه أخذوا فى حرب وصدام حتى أقبل الظلام فدقت طبول الانفصال وثانى يوم برز دياب إلى الميدان وطلب الفرسان فبرز إليه الزناتى وصار يقول :

يقول الزناتى أفرس الفرسان فى القلب منك يا دياب نيران
بليت فيكم يا هلال بليه ربى بكم دون الملا أبلانى
قتلت منكم قوم مالهم عدد راحوا طعام الوحوش والغربان
صادف رؤوس رجالكم أنظرها على السور منشورة كما الصوان
أنا خليفة يا دياب تحــذر ياما قهرت أبطال مع شجعان
انزل عن الخضرا وبوس ركابى وتعيش بخدمتى تحت أمان
إن طعتنى وخدمتنى بنصاحة أعطيك أوز وتكون عليها سلطان
وإن لم تطعنى أقتلك بسيفى وأسقيك كاساً طافحاً مليان
واوضع لرأسك سور فوق بلادى وأقول رأس دياب قد أكفانى
رد الفتى الزغبى وقال له أقصر كلامك لا تكن وهمان

أنا دياب والدما هو مشربى كاس شربته إلى الفرسان
لى ثار عندك يا زناتى قاصد رمحى وسيفى فى الدما غرقان
خالى بدير وأخى الخفاجى عامر مع بدر أخى والفتى زيدان
أولاد هولا يا زناتى خنتهم فى ماضى الحدين ضرب يمان
واشفى غليلى منك يا أبو سعده حول من الزينات لا تنسان

(قال الراوى) فلما فرغ دياب من كلامه التقوا البطلين فى الحرب والصدام وهقوا البلاد والعدم حتى مل الزناتى وبعد هذه ذل وعرف حاله مع دياب أنه فارس مغوار وبطل كرار لا يصطلى له بنار فبقوا فى قتال شديد حتى ولى النهار وأقبل الليل بالاعتكار دقت طبول الانفصال وافترقوا من المجال .

ورجع كل واحد منهم إلى قومه وقد ذل الزناتى بعد عز وبكى على أحواله وملكه وبات تلك الليلة فى هم وأنزاح إلى وقت الصباح فنهض من وقته وطلب دواية وقرطاس وكتب كتاباً يطلب الصلح وأرسله إلى دياب وكان دياب قد برز إلى الميدان وجميع أمارة بنى هلال راكبة معه فلما وصل الرسول أعطاه الكتاب ففضه وقرأه وعرف رموزه فعند ذلك لوى لجام الخضرا وتوجه لعند السلطان حسن وعرض عليه كتاب الزناتى فقرأه أبو زيد على رءوس الأمارة فبهتوا جميعا مقدار ساعة فقال أبو زيد يا أمارة الزناتى طالب الصلح ماذا تقولوا فقالوا الرأى عند حسن وعندك يا أبو زيد فقال أبو زيد رأيت انكم تصالحوه ومن أبى عن الصلح يغلب الجازية فلما سمعت هذا الكلام من الامارة التفتت اليهم وقالت أذل الله الحاكم من بنى العربان ذليتم عن حرب الزناتى ودياب أيضا من قتل أخوته وأولاد عمه ذل معكم وهو شاطر فى ركوب الخضرا وتعريض الصدر وحالا نادت النسوان دونكم اركبوا الخيل ونحن نقهر الزناتى ونأخذ ثارنا منه والتفتت إلى دياب وقالت له انزل عن الخضرا حتى أركبها وأقاتل الزناتى وقالت هذه الأبيات :

تقول فتـــاة الحى أم محمد وأنا على قتال الزناتى جهاد
أنا بنت سرحان الأمير بلا خفا أخى حسن سلطان ع القوم صايد
الا يا بنات اسمعوا شرح قصتى ودقوا طبول القتال مثل الرعايد

ذليتم من قتال أمير تونس ... أجاريدكم راحوا ولوا شرايد
تريدوا صلحاً بعد تسعين أميراً ... حريمهم عليها قايمين العدايد
وفرحوا فيك يا ولد غانم ... وقالوا دياب الخيل يابو العدايد
ما قالت فتاة الحى أم محمد ... فلا بد من حرب خليفه أكايد

فلما فرغت الجازيه من كلامها والأمارة يسمعون نظامها فعند ذلك تبادرت البنات إلى الخيل وكل واحدة مسكت لجام فرس وقالت لراكبها انزل واركب موضعى فى الهودج وأنا أركب جوادك وأما الجازية فعادت على دياب وقالت أنزل وأنا أركب موضعك وأحارب خليفة فغضب الأمير دياب وقال لها لا تقولى هذا الكلام فكم مرة خلصتك من السبى ولو صالحوه كل بنى هلال ما أفوت ثار أخواتى وأولادى ولا صالحت خليفة قومى وارجعى هؤلاء البنات وصار يكتب للخليفة رد جوابه يقول

يقول الفتى الزغبى ولد غانم ... وذم الفتى بعد الفعال حرام
وحمد الفتى بعد الفعال مذمة ... وحمد الفتى بعد الفعال تمام
أنا دوم ممدوح بفعل الأكارم ... بخير وجود بالفلا خصام
كم فارس أنا بقناتى قتلته ... وادعيه داخل اللحود ينام
من نجد إلى تونس أبداً فروعها ... سلاطين ابنو للضيوف خيام
وأخذنا إلى أموالهم وظعونهم ... وأنا مكاسبهم كل غانم
وما عاقنا من نجد أن تونس ... عوايق ولا خيل بها هجام
سواك يا أمير من بنى هلال قتلتهم ... فتكتب فينا فى قنا وحسام
تسعين أمير من بنى هلال قتلتهم ... وراحوا طعام الأوهام
وباعت تصالحنى من بعد عروقى ... فهذه أمور مبعدات عظام
أتينا بلادك يا زناتى خليفة ... أصبحت تحاربنا بغير لزام
تسعين أمير أنت ناسى عددهم ... أريد ألوفاً منك بعد حسام
ولا بد عنك يا زناتى خليفة ... ولو كان حولك مثل ألف غلام
وإن طردت أو فرت ولا بد منك ... ولو كنت جوا ألف برج رخام
إذا اصطفت الخيلان واشتبك القنا ... ونصرت الاسلام بيوم زحام

فانزل إلى الميدان من غد باكر لأوريك طعنا يقطع الاوهام
وخذ من يمينى طعنة قوية يحدثوا بها الشعار نظم الكلام
ويظهر خبرها فى البلاد جميعها تشق الحصا طعنات أبو غنام
انا فارس الشرقين والغرب واليمن وذكرى ملا مصر وأرض الشام
فلا بد ما أملك بلادك كلها وقومك تصير عندنا خدام
ماقال الفتى الزغبى دياب بن غانم غدا التقينى إلى وفا الازمام

(قال الراوى) فلما فرغ دياب من كلامه طوى الكتاب وأرسله إلى الزناتى خليفة فلما وصل إليه فتحه وقرأه وعرف رموزه ومعناه انخمدت أنفاسه وزاد وسواسه ولما أصبح الصباح دقت طبول بنى هلال للحرب والكفاح وبرز الأمير دياب إلى الميدان فنظر الزناتى فأشار يكتب إلى دياب يقول :

يقول أبو سعدة الزناتى خليفة والهم قد جانا مع الوسواس
نادى دياب الخيل يا طيب الثنا يا أمير حامى حومة البرجاس
فاصفح عن حربى وخذ ما تريد أموال خذ منى وكل الجناس
وأعطيك القيروان وقابس تونس وقابس ودير المكانس
وبالحال أرسل المغاربه جميعاً وأنادى اسمك فى جميع الناس
واحكم أنت بلادنا وأرضها على الخلايق كلها والناس
أقسم عليك بجاه ربى تجيد وبحق إله العرش رب الناس
وأصير عبدك وعبد عبدك للأبد وفضلك على أعياننا والناس
وبطل الحرب عنى ولا تلومنى وديني بقولى ما أنا دلاس
ما قال أبو سعدة الزناتى خليفة دياب توافق يا شديد الباس

(قال الراوى) فلما فرغ الخليفة من كلامه طوى الكتاب وختمه بخاتمه وقدمه للأمير دياب فلما قرأه مزقه وداسه وصرخ فى الخادم صرخة أرعبته وقال لولا مايكون قتل الرسول حرام لادعيك على الثرى مقتول ولكن ارجع لمولاك وقل له ماعنده جواب إلا السيف القرضاب فرجع النجاب وأعلم مولاه بذلك وأما دياب بات تلك الليلة إلى الصباح فهب من نومه ونزل إلى الميدان وعرض وبان وطلب الفرسان

فما أحد رد عليه جواب فعند ذلك عاد دياب إلى بوابة تونس فحكمت طريقه على
خندق كبير فلما نظره حول عن الخضرا وقاس فطلع عمقه خمسة رماح ووسعه
ثلاثة فعرف أن الخضرا تقفزه فعند ذلك على بظهر الخضرا وأرجعها إلى الوراء
وصار يلاعبها حتى صارت أربعتها تنحط المسد ورأسه صوب الخندق حتى وصلت
إلى حافته ونخسها بالركاب فقفزت إلى الجانب الآخر وظل غاير إلى الباب لقى
البواب نائم فلكزه بكعب الرمح ففاق البواب فوجد فارس فوق رأسه قال له الأمير
دياب اليوم قفز الخضرا فوق غد يقفزها السور فراح البواب وأعلم مولاه ودياب
رجع إلى قومه فعند ذلك نزلت دموع الزناتي وصار يبكي على حاله وأرسل وراء
سعدا ابنته لكي يودعها وكان قصده قتلها وايس اليها وصول وكانت سعدا ضربت
الرمل فعلمت أن منية أبيها قد قربت فأتت الشباك فرآها وقالت طب نفسا وقر عينا
الآن بان عندي بالرمل أنك منصور على دياب وفي ثاني الأيام دق طبله وبرز إلى الميدان
وفيه الأمير دياب والتقوا البطلين كأنهم جبلين وغنى فوق رؤوسهم غراب البين
فوقعت بينهما ضربتين قاطعتين كان السابق في الضربة الزناتي ـ امن دياب بها الرماح وأخلى
منها فأصابت الخضرا فوقعت على الأرض ووقع كأنه طود من الأطواد فطمع
الزناتي فيه وسحب السيف من غمده وهجم عليه ليعدمه الحياة فكانوا بنو هلال
أدركوه وقدموا له جوادا من الخيل الجياد فعندها ركب وانفرد على الزناتي في قلب
لا يهاب ومازال السيف بينهم إلى وقت الظلام فانفصلوا على سلامة الحرب والقتال أما
دياب فانه حزن على الخضرا كثيرا وأمر أن يغسلوها ويكفنوها بشقق الحرير ويدفنوها
وبنى على قبرها قبة عظيمة وذبح على قبرها ألف ناقة وفرقها على الفقراء زكاة على سلايلها
وأولادها وثاني يوم نهض دياب واعتد في عدة جلاده وركب على ابن الخضرا وكان مهر
رباعي طويل الباع وبرز إلى الميدان كأنه فرخ جان وطلب مبارزة الزناتي فبرز إليه لأنه
فرح بقتل الخضرا وظن أنه يملك أربه من دياب ويقتله كما قالت سعده وأما حسن وبني هلال
تحقق عندهم أن دياب في هذه المبارزة يقتل الزناتي لا محال لأجل ثار الخضرا فركب الأمير
حسن مع سائر بني هلال وركبوا العماريات والهوادج واصطفت العساكر قبال بعضها
البعض والزناتي ودياب في حرب شديد يقطع الزرد النضيد من الصباح إلى أن صارت

الشمس فى قبلة الفلك الأعلى فثارت فى رأس دياب نخوة الرجال والهمة الكافية العالية وولاه مولاه على الظفر على من عاداه فسحب الدبوس من تحت فخذه وبرمه فى يده وضرب الزناتى على رأسه فطيرت أضراسه ونفذ طلسه البولاد ونزل على هامه فدار رأس جواده وعول على الفرار من عظيم الألم فاعاد يدرى كيف يتوجه فلاجل نفوذ الأحكام فلما هرب الزناتى قام دياب من عظيم الركاب وأطلق به لرمح لأن الزناتى كان هاربا فالتفت لكى ينظر إلى دياب كان لاحقه فأصاب الرمح عينه وعدت الحربة من قفاه فتذكر الأمير دياب وقت قول ابنته سعدة حين قالت له أنه طعنه بعينه فمال أبو سعدة عن الجواد وعول على الوقوع فسلب دياب من فخذه سيف وضربه على هامه أرمى رأسه قدامه فأخذ دياب الرأس على رأس السنان وعادهو ورجال بنى هلال على قوم الزناتى فبدلوا أفراحهم بالكمد فلما شافوا الزناتى على الأرض مطروح كثرت عليهم المصائب والأهوال ما عادوا يعرفون اليمين من الشمال فولوا هاربين واما قرايب الزناتى وقومهم فانهم دخلوا وصاحوا الأمان ودخلوا واقعين على دياب ورموا سلاحهم وسلموا أرواحهم وطلبوا الأمان وأولهم كان العلام وطلبوا من دياب مكان يقيموا فيه ويلمون حريمهم فأعطاهم مدينة الأندلس وما حولها وهم على أتقات الأقوال ورحل العلام وقومه الحريم والعيال وقطنوا بذلك المكان ورجع الأمير حسن والأمير أبو زيد وبنى هلال نحو تونس لينظروا كيف قتل أما دياب ملك تونس وبالحال نادى عبده خليل وأعطاه الرمح وأمره أن يوضعه فوق تونس وينادى أن الأمير دياب وكل من لا يدخل تحته يقتل ففعل كما أمره مولاه وصار ينادى بنداه فسرت سعده بقتل أبيها ولبست أفخر ملبوس وصارت تتمختر كأنها العروس حتى أتت إلى عند الأمير مرعى وهو يتمشى بجنباين القصر عند العصر وهو لابس الملابس الحرير وهو على رأسه طربوش مغربى حسب عادات أهل الغرب ومنتظر الفرج والتيسير من هذا الأمر العسير ثم دخلت عليه سعده وقبلت يديه وقالت له اعلم أيها الأمير الخطير قد جاء الفرج بعد التعسير فتعهدت وإياه أن لا يأخذ غيرها من النساء ووعدته أيضا أن لا تأخذ غيره من الرجال ولو قطعت بالسيف الثقال وبعد ذلك ودعوا بعضهم البعض وكل واحد ذهب إلى حال سبيله فانه ورجع الكلام إلى الأمير دياب بعد قتل الزناتى أمر بتعليق رأسه على رأس

السرور وأمر بتنزيل امارة بنى هلال ليدفنوهم وملك دياب تخت الزناتى وحاز الملك والمال والنوال والخدام قدامه وأمر باطلاق مرعى ويحيى ويونس وخلع عليهم وارسلهم لعند أهلهم وجلس دياب على تخت الزناتى ولبس التاج وهذا التاج مصنوع من قديم الزمان من أيام مهران خليفه وهو مرصع كله بالمرجان الأحمر والياقوت الأخضر ومنسوج بالدر والجوهر والذهب الأصفر واجتمعت حوله بنى زغبة صفوفا صفوف مئات وألوف وأتوا الجميع حيوا ايده فلما سمعت سعده بجلوس دياب على كرسى أبوها خافت وارتعدت فرائصها وخاب ظنها بمرعى وندمت حيث لا ينفعها الندم وتوجهت لعند الأمير دياب وحبت يداه وترجته فى دفن أبوها فقبل طلبها دياب أن يدفنوا أبوها بين قبور أخوته بدر وزيدان وطيب خاطرها وأدخلها بين حريمه فأكرموها غاية الإكرام هذا ماجرى الى دياب وأما ما جرى الى حسن وأبو زيد وهم راجعين الى تونس سبق منهم ناس وشاهدوا رماح دياب والمنادى ينادى اسم دياب والعبد خليل حين رأى الأمير حسن أو الأمير أبو زيد مقبلين ارتعد نداه ورجع شاورمولاه فقال له دياب ارجع ونادى كما مر تلك فرجع العبد وصار ينادى أن لا سلطان إلا دياب وكل من لا يدخل تحت رعه يعدمه الحياة فحين سمع حسن هذا الكلام قال كيف الرأى يا أبو زيد ندخل أم لا فقال أبو زيد هيئة يا حسن ندخل وانما شال الرمح فكان عبد الأمير حسن وراه ضربه بالرمح قطعه نصفين فضربه العبد خليل قطعه كما قطع الرمح وأما حسن هجم على ديوان الزناتى فوجد دياب جالس على التخت وحوله أكابر بنى زغبة والخدم والعبيد بين يديه والتاج على رأسه فلما نظر واحسن هجم مثل الجمل الهايج وقال ماهذه السعادة يا دياب أما كفاك مرقتى من تحت رعاك وتلبس التاج على رأسك وتريد تورثنى وتعزلنى من منصبى ورثة جدى وأبى ونحن من الذى قصر منا عن حرب الزناتى لا بد عن قتلك يا خسيس بعد هذا العمل وانحدف على دياب فوقف أبو زيد والرجال بوجه حسن وقبلوا أياديه وقالوا يامولانا ان دياب غلطى ومنك المسامحة فهذا كله جرى ودياب جالس على الكرسى ما هو مفتكر فيه ولا فى كلامه فزاد حسن فى الاضرام وقال اتركونى حتى أقتل هذا العايب فقال له دياب أنت يعدفيك هذه الشطارة فلما قتلت الزناتى وملكت ملكه ولاى سبب أرسلت ندخل على أنت وأبو زيد وكل بنى هلال حتى قتلت الزناتى

ومهدت لكم البلاد فقال حسن أنا والامير أبو زيد ما أرسلنا وراك ولا أحد من جميع بنى هلال إلا البنات وأبوك غانم فقال دياب المكاتب عندى فقال حسن كذبت وحق البيت والحجر والركن المطهر لا بد من قتلك وهم فى هذا الكلام فتقدم أبو زيد وقال

يقول أبو زيد الهلالى سلامة ... فمالك يا حسن سرحان وهايش
تريد تقتل دياب يا أبو على ... هو حامى طعننا من كل هايش
لانه جمل رمحه على باب تونس ... فهذا ما هو ذنب يا أمير طايش
حريمنا بعثوا براقيهم لدياب ... ليدعى أبو سعده بدمه يشااش
جانا على خضره جندل عدوانا وأخـ ... ـذ بشارتنا فى ماضيات الطرايش

(قال الراوى) فلما فرغ من كلامه تقدم دياب وقال له يا ابن العم المبين لا تعلو من الحاجب قوم حتى تركب حسن على الكرسى وتقسم البلاد فعند ذلك قام دياب مسك حسن وأخذه أبو زيد بباطنه وأقاموه على التخت واجلسوه وتقدم الأمير دياب وأشار يقول

يقول الفتى الزغبى دياب بن غانم ... والنار من جوا الضلوع شجونها
أيا أبو على لولا دياب بن غانم ... عدا ظنكم حرب الزناتى رهونها
ولما قتلت الهيدبى وأنت شاهدو ... أبو زيد حاضرها كيف تنكرونها
طعنته رميته والقنا يقرع القنا ... بيض العذاره شاخصات جفونها
وملكتم أرض العديه وأرضها ... وقفت بها العذاره يفتنونها
تكاتفت أنا والزناتى خليفة ... وما تعلم الأرواح من هو زبونها
وقد راحت الخضرا وشطبها الينا ... من طوى عمرى العدا أصونها
وجاوا بنى هلال وعامر ... وجاءوا إلى الخضرا يكفنونها
حفرت لها فى الأرض قامة ومثلها ... خايف وحوش البر ينهشونها
ان مت والله ادفنوني جنبها فى ... وسط روضة موضع ان دفنتونها
عسى نلتقى بيوم القيامة جميعنا ... وأقبل الخضرا وامسح عيونها

(قال الراوى) فلما فرغ دياب من كلامه فاعتذر له الامير حسن وقال يا أمير دياب الخطا يقع قلب دياب والخضرا أخذ عرضها مدينة تونس من غير حساب وأقسم الك الثلث الغرب الذى تريده وأنا مثلك وأبو زيد مثل خضر واجميهم الديوان تقاسموا الجميع

بالاسوة من دون تونس للأمير دياب من غير حساب والعصر فواعلى هذا الحال أما مرعى فانه اجتمع مع أبوه وسلم عليه وقامت الافراح وذهبت الاحزان وعملوا الولائم وذهبوا الأغنام إلى الخاص والعام ونادوا بالأمان فى جميع البلدان وسلطنوا العلام على فاس ومكناس وتلك البلاد وبعد ذلك أمر حسن ببناء قبة عظيمة على قبر الزناتى وأمر باحضار الحفارين والنجارين والذهابين وجميع أرباب الصنائع يبذلوا المجهود فى تزيين تلك القبة على قبر الزناتى وأن يكتبوا عليها أسماء الله الحسنى فزينوها بالفضة والذهب وصنعوا له مشهدا ومروا على قبر الزناتى وتقاسموا البلدان حسن وأبو زيد ودياب وولوا على قابس ومكناس وهذا ما جرى من أمر بنى هلال وأما ما كان من قوم الزناتى هم والأمراء وائل ومحمود ورائد وغيرهم من الحكام الذين يحكمون على سبعة تخوت بلاد الغرب والأربعة عشر القلعة لما سمعوا بتسلطن العلام وقتل الزناتى هاجوا وماجوا واجتمعت القوم من جميع جزائر الغرب وأتوا إلى ملكهم ناصر وهو أخو خليفة وكان حاكم الاربعة عشر قلعة وعلى سبعة تخوت بلاد الغرب فدخلوا عليه وقبلوا الارض بين يديه وأخبروه عن بنى هلال وعن قتل خليفة أخوه فهاج وماج وزغرغ وصاح واسودت الدنيا فى عينيه وحالا أمر فى تجهيز العساكر والابطال وأرسلهم امنة العلام ليتهيأ إلى حرب العربان فلما وصلوا اليه قبلوا الارض بين يديه وبكوا على ملكهم خليفة وأظهروا له الحزن والهم والكدر والغم وأنهم خسروا ملكهم خليفة وقالوا ياذلنا من بعده والله لنأخذ بالثأر ونكشف عنا العار ونرجع تونس بالسيف البتار لانه أرسلنا اليك ناصر أخو خليفة حتى تتهيأ للحرب والقتال فكان جواب العلام القوم انى كليت من الحروب والاهوال وليس لى عزم على ملاقاة الابطال والرجال فافعلوا ما بدا لكم وأنا أمدكم بالأموال وهكذا وأرسلوا يعلموا ناصر أخو خليفة ولما بلغه الجواب أخذ وافى تجهيز العساكر فى الحال من الغرب وما مضت مدة من الزمان حتى تجهز عنده ستمائة ألف مقاتل بين فارس وراجل فنهض بهذا العسكر الجرار الذى يشبه موج البحار وقصد بنى هلال ومازال سائر حتى وصل أطراف تونس هذا ما كان من أمر هؤلاء وأما ما كان من أمر دياب فانه دخل يوما على قصر خليفة فوجد سعدة تبكى وتنوح من فؤاد مجروح على فقد أبيها وعلى

فراق مرعى ويحيى ويونس لما كان عندها لهم من الحب والهيام ومزيد الشوق والغرام فلما نظرها الأمير دياب على هذا الحال حياها بالسلام قال اليها وزاد غرامه فيها وأراد أن يأخذها زوجة له فقال طيبي نفساً وقرى عيناً حيث أنك صرت في ملكي وتحت حكمي أريد أن آخذك لي زوجة مطيعة ولأوامري سميعة وأشار يقول:

يقول أبو موسى دياب بن غانم	ولي عزم في الهيجا كليث رهيس
لي عزم أمضى من الحسام إذا سطا	مالي ردي الأصل ولا خسيس
ألا فابشري ثم ابشر يا ابن غانم	أنا صرت حاكم في دريد وقيس
ألا يا سعده قومي وافرحي	أنا صرت بملك دون كل قيس
عليك أمان الله مادمت سالم	على ظهر شهبا قايمة البرجيس
فلا تحزني من بعد خوفك وافر	حتى أنا هو دياب لوقت عكيس

(قال الراوي) فلما فرغ من كلامه وسعده تسمع نظامه اغتاظت غيظا شديدا مما عليه من مزيد وأشارت تقول :

تقول سعدة بنت سلطان تونس	سطا البين وتعدى علينا ومال
يازمان الهنى راح وانتهى	تعال الينا يازمان تعـــال
أيا من يرى سعده وأبوها خليفة	زمان اعتدال الدهر قبل ما مال
أنا كنت أميرة بنت أميرة وأمير	وقصري على شرافتين طوال
ذنبي برقبتك يا دياب الغانم	قتلت والدي بالصارم النصال
تقتله وتريدني لك حليلة	فهـــذا منك يادياب ضلال
فإن أخذتني يا أمير نواظري	فاني أعجل لروحي بشنق حبال
ولا الناس يقولوا أخذت عدوها	ولا أنسبك لي يا دياب رجال
ولا أريد الزغبي دياب بن غانم	الا مقطع فوق رؤوس جبال

(قال الراوي) فلما فرغت سعدة من كلامها ودياب يسمع نظامها اسودت الدنيا في عينه كالظلام وقال لها تجاسري على هذا الكلام يا بنت اللئام وحينئذ أمر عبيده بضربها وأن يشغلوها الاشغال الشاقة ويطحنوها الملح ويلبسوها الملابس الخشنة وتركها ومضى ففعلوا كما أمرهم به وبقيت على هذا الحال مدة عشرة أيام وفي اليوم

الحادى عشر دخلت عليها نافلة بنت دياب فلما رأتها على هذا الحال سألتها عن حالها وما جرى لها فأخبرتها سعده من ظلم الأمير دياب وكل ما جرى لها وأشارت سعده تخبر نافلة تقول لها :

تقول سعده بنت سلطان تونس ... وتجرى دموعى فوق خدى بوابر
أبكى أبويا الزناتى خليفة ... وعلى قومنا راحوا بحد البواتر
أصيب بحربة من يمين ابن غانم ... فبكت له بين العيون والنواظر
ولما قتل ولت أجاويد قومنا ... وراحوا كما الطير فى الجو طاير
ودياب يريدنى أن أكون له حليلة ... ويقتل أبوى فوق خيول ضوامر
فوالله ليس بخاطرى أن أقابله ... ولست أن أرضاه والرب حاضر
بكيبه على دمرى الذى خاننى ... ومن حين ولوا لم جبرلى بخاطر
ويا ما جرى من بعدك يا خليفة ... طحنت الملح مساء وباكر
ويا من يعزينى على قتل والدى ... ويوضع سعده فى لحود المقابر

(قال الراوى) فما تمت سعده كلامها إلا ودياب أمامها وكان قد سمع منها الخطاب لأنه كان واقف خلف الباب فأمر غلمانه أن يزيدوا عليها الأشغال ففعلوا كما أمر وبقيت على هذا الحال ١٥ يوم وهى تبكى وتنوح وكان أكثر بكاها على مرعى لأنه نسيها وما فكر فيها وكان عندها عبد تعرفه اسمه مرجان من عبيد أبيها فاستدعته اليها وقالت له مرادى أن تأتينى بقلم وقرطاس ودواية من نحاس لأن مرادى أكتب إلى السلطان حسن كتاب فقال لها على العين والرأس وأتاها بما طلبت فأشارت تكتب وتقول :

تقول فتاة الحى التى خاب ظنها ... سعده التى خانت أبوها وراح
يا غاديا منى على متن ضامر ... إذا مشى يسبق هبوب رياح
خين وصولك للهلالى قل له ... يا كامل المعروف والاصلاح
اسيمة الصغيرة ياهلالى أبو على ... ومعكم ترى ما فعلت قباح
ألا فاذكروا يوماً أتونا أولادهم ... إلى الغرب وادوهم برأى الفلاح
أراد الزناتى أن يشيل رؤوسهم ... ويريد يخطف منهم الارواح
تشفعت فيهم ام واحـــدا نعمة ... ولولاى كانوا غـــدوا شراح

قد قال مرعى آخذك لى حليلة — وحياة راسك جد غير مزاح
نظرهم أبوى كيف باد جوهكم — وكان عليكم بالوغا نطاح
لجازيته بالقتل يا أمير لأجلكم — وسرى لكم يا أمير صار مباح
فأنا ملكتكم بأرض تونس — وخذت أبوى ذاك مات وراح
فقال دياب آخذك حايلة — فأبيت أمره يا حسن وقباح
فأخذنى دياب وحطنى فى مذلة — وتضربنى عبيد فى مسا وصباح
وأحمل على ظهرى الحطب — وأحمل جرار الماء بالأتراح
واليوم اعلم حالتى ابن غانم — يهاملنى بالشر كل صباح
ومعونى يا ابن سرحان يا أبو على — فكيف تجازون المليح قباح
نسيتونى والذى ما نسيتكم — وفيت بعهدى جد غير مزاح
مرادى أكون بقربكم يا على — وأخدم لتختك مسا وصباح
تقولى فتاة الحى سعدة التى شكت — وفى القلب نيران وهب رياح

(قال الراوى) فلما فرغت سعدا من الكتاب طوته وأعطته للنجاب فأخذه وسار إلى حسن ففضه وقرأه فحينئذ اغتاظ من دياب وأرسل وراء أبو زيد ما تقدر وصوله أعلمه بما حصل سعدا من الأول إلى الآخر فقال أبو زيد ما تقدر تجيب سعده إلا بواسطة قسمة البلاد وفى اليوم الثانى ركب الأمير حسن وأبو زيد مع جماعة من الفرسان وتوجهوا نحو دياب وما زالوا سائرين إلى أن وصلوا إليه فطيبوا خاطره وسلموا عليه فالتقاهم بالترحاب والإكرام وأجلسهم بأعلى مقام وصار يرحب بهم ويقول:

يقول الزغبى دياب بن غانم — أهلا وسهلا يا صاحب الدار
أهلا بمن قد شرفوا لمحلنا — أبو زيد السلطان والأمار
أهلا بسلطان الأعارب جميعهم — مقرى اليتامى فى سنين عسار

(قال الراوى) فلما فرغ دياب من كلامه شكره الأمارة على قوله وبقوا على ضيافته ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع قال حسن لدياب مرادى نقسم بلاد الغرب فقال دياب الأمر لأبو زيد فقال أبو زيد مرادكم اقسم بلاد الغرب له قدامكم مصاعب ومتاعب كثيرة فانكم ملكتم تونس وهى من جملة الممتلكات والباقى سبعه تخوت يجلس

عليها متوكئين على أربعة عشر رقاعة وبينما هم فى الكلام إذا قبل عليهم العبد مرجان ابن أبى القمصان مخضب بالدماء ومهشم الأعضاء فسألوه ما الخبر فقال لهم إن الشباب قد هلكت وقد نزلت عليهم قوم الأمير ناصر أخو الزناتى الذى من تحت يده سلاطين سبعة تحوت بلاد الغرب فإن لم تدركوهم بسرعة ذاقوا الوبال فلما سمع حسن هذا الحديث صار النور فى عينيه ظلاماً وكذلك أبو زيد ودياب اغتاظوا الغيظ الشديد وفى الحال دقت طبول الحرب واجتمع عند الأمير حسن فرسان الطعن والضرب فأخبروهم بهذه النجاين وأعلموهم بما أجرته المقادير فهاجت الأبطال واستعظمت تلك الأحوال وركبت جموع بنى هلال للحرب والقتال وفى مقدمتهم العبد مرجان بن أبى القمصان وفى مقدمتهم الأمير دياب والأمير أبو زيد ليث الغاب وما زالوا سائرين يقطعون البرارى والقفار هذا ما كان من شباب بنى هلال وهم موسى ابن دياب وصبرة بن أبو زيد وأخوته شيبان وغيرهم فإنهم كانوا خرجوا للصيد والقنص منهم عشرة من أولاد الأمارة وبقوا مدة ثلاثين يوماً يجولون فى البرارى والقفار والسهول والأوعار يقتنصون من الوحوش والطيور وبينما هم بالصيد إذ وصلوا إلى عين توزر فنزلوا عن الخيول لأنهم كانوا تعبانين وجلسوا على شاطىء النهر فقام البعض منهم يوقد النيران والبعض يذبحون الغزلان وهم فى أرغد عيش وأهنأ بال إلا وقوم الأمير ناصر والعلام مقبلين عليهم وهم مثل الجراد المنتشر لا يعرف أولهم من آخرهم وكان السبب بقدوم ذلك العسكر الجراد هو أن الأمير ناصر والحابلى بن مقرب أتوا ليأخذوا بثار الزناتى وأخذوا معهم العلام بالحيلة لأنه كان خبير تلك الأراضى ولسبب المقادير صادف طريقهم عين توزر فالتقوا بشباب بنى هلال فأحاطوا بهم من اليمين والشمال فحينما رأى الأمير صبرة وموسى ابن دياب تلك الأعداء أحاطت بهم من كل جانب صاحوا رفاقهم اركبوا ودونكم الخيل من أمام قبل ما تدركنا الأعداء فحينئذ ركبت الأمارة ظهور المهارة وتقلدوا بالسيوف والنصال وهجموا على تلك الفرسان وقابلوهم بالذل والهوان ونزلوا عليهم بضربات قاطعات تهدم الجبال الراسيات وفرقوا الميامن والمياسر حتى ما كان الواحد منهم يعرف الآخر وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وبقوا على هذا الحال لحين الزوال

فافترقوا عن بعضهم والامارة جمعوا اهاليهم فى تلك الارض فوجدوا صبرة مجروح وشيبان أخو صبرة مقتول ومرجان بن أبى القمصان مفقود لانه غير موجود وبقوا يحرسوا بعضهم حتى أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح فلما نهض صبرة من النوم وجد عساكر الاعداء حايطينهم من كل جهة وصاروا يهجمون بعضهم البعض فركبوا ظهور الخيل وتقلدوا بالرماح والنصال وهجمت عليهم قوم الامير ناصر فالتقوا الابطال بالجنود كأنهم الاسود وما زالوا فى أخذ ورد وقرب وبعد وضرب شديد يشيب رأس الطفل الوليد وما زالوا على هذا الحال عشرة أيام وفى اليوم الحادى عشر هجموا شبان بنى هلال على جيش الجايلى من كل جهة ومكان وقابلوهم بالذل والهوان ونزلوا عليهم فى طعنات قاطعات وضربات والحرب الشديد حتى أن الشباب قتلت من عساكر الامير ناصر مقدار خمسة آلاف فارس وفى اليوم الثانى كانت الشباب قل عزمها واضمحلت قوتهم فأحاطتهم عساكر الامير ناصر من كل مكان ونزلوا عليهم بضرب شديد وكانت واقعة عظيمة لان قوم الامير ناصر تأتيهم النجدات من العلام ومن السبع تخوت وقتل بتلك الواقعة ثمانية من شبان بنى هلال وقبضوا على الامير صبره وقيدوه بالسلاسل والاغلال وأحضروه قدام العلام فلما رأى صبرة أمر باطلاقه لانه كان مساعد مع الامير أبو زيد فلما لحظ الامير الجايلى فعل العلام قال يا علام لماذا هذه المطاولة فأخذوا بثأر أزناتى لانه ابن عمك وهو لحمك ودمك وقد قتلوا منكم أضعاف فسحب الجايلى الخنجر بيده وضرب صبره فى صدره طلع يلمع من ظهره وقال للفرسان الذين حواليه دونكم رفاقه الذين فيه فوجد موسى بن الامير دياب واقع فى جملة من الفرسان ونازلين عليهم بضرب مثل وخ المطر وهو يدافع عن نفسه من حلاوة الروح ويقول يا أبو زيد يا حامى الميدان لو تكن حاضراً بين يديك يا أبو دياب لو ترانى تخلصنى من هؤلاء لانه قال وبينما هو فى ذلك الحال رأى يقتلوه ولا يبان فى بنى هلال عطلت والسيوف لمعت والعساكر تقدمت وفى أولهم الامير دياب فى بنى زغبة وخلفه الامير أبو زيد فى بنى زحلان وكان السبب فى مجيهم بأن مرجان أبو القمصان أخبرهم بذلك الشان وعند وصولهم قد طشت تلك الارض بالطول والعرض فرجع الامير موسى ابن الامير دياب بينما

على خيله الردى فلما نظر دياب هذا الحال صاح على الأبطال وهجم على أعدائهم من الميمنة وأبو زيد من الميسرة وبقية الرجال هجموا على الأعداء بقلوب قوية وهجم عليه وتقدم الامير سرور وابن القاضى نشل الأمير موسى من بين الأعداء وقبله بين عينيه وهنأه بالسلامة ثم أخبرهم بما حصل لهم من الاول إلى الآخر وعن قتل صبرة وشيبان ثم ارتدوا على الفرسان بالسيف والسنان ما كنت ترى السيف غابرة والرؤوس طائرة والدما فائرة والفرسان بأنفسهم حائرة ودارت على نفس الجاهل الدوائر وبقى القوم عاقد وإبليس جهد راقد ولا تسمع إلا قعقعة السلاح ورد الرماح وبقوا على ذلك الحال إلى أن أقبل الزوال فباتت بنو هلال فى الأرض يحرسوا بعضهم إلى أن أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح وأشرقت الشمس على الروابى والبطاح فوجدوا الأعداء حايطينهم من جهة ومرادهم أن يكسروهم لانه قد أتتهم نجدات من جزائر العرب وتلك الجهات وسطوا على بنى هلال من اليمين والشمال ونزلوا عليهم بطعنات قاضيات وضربات قاطعات وكثرت الاهوال على بنى هلال وشتتوهم فى تلك الروابى والجبال حتى انكسروا بنى هلال سبعة مراحل إلى الوراء ولما أمسى المساء فاجتمعت الفرسان عند الأمير دياب وقالوا له كيف الرأى يا أمير دياب فقال الرأى عند الأمير أبو زيد فحينئذ تفكر أبو زيد بقتل ابنه صبرة فاجت رأسه ونخوة العرب الجاهلية وصاح على الفرسان إن شاالله ننزل اليوم بالسيف البتار ونلحقهم الدمار ونأخذ منهم ثار الأمير صبرة وصار يحثهم على قتل الابطال يقول:

يقول أبو زيد الهلال سلامة	بدمع جرى فوق الخدود سيال
الآن وقت الطعن فى سوق القنا	بضرب الشواكر وسيوف نصال
الا فارجعوا ردوا الأعادى بعز	مكم بعزم قوى يهلك الأبطال
ولاقوهم بالسيف وبيدوا جميعهم	وخلوا دما الاعدا كسيل سال

فلما فرغ أبو زيد من كلامه ثارت فى رؤس الابطال نخوة الرجال وفى الصباح اصطفت الجيشين والتقى العسكرين ونصبوا سباق المجال فانحدر أبو زيد إلى ساحة الميدان وطلب مبارزة الفرسان فسقط الامير كأنه قلة من قال أو قطعة فصلعه من جبل وصدم أبو زيد صدمة ترعج الجبال فاشار أبو زيد يتهدد الجاهل ويقول

ألا ما قال أبو زيد الهلالى أنا ليث للهامع والجبال
أنا ليث الحروب بكل واقع افرجها إذا وقع القتال
ألا يا جابلى اسمع اقولى ورد علينا شعراً مع مقال
اعلم أنى ليث قدير دويس الخيل هزام الرجال
فلى قلب كما الصوان ثابت أكيد الخصم حقاً لا أبال
وحق الله خالق البرايا اله حكيم فى الملك عال
لاقطع حيرهم وأسبى نساءهم ويل القـــوم يرى القتال
واقطع جنسهم بال حســير ولا أبقى رجال ولا عيال
وآخذ ثار شيبان وصـــبره وأجرى دمكم فوق الرمال

فلما فرغ أبوزيد من كلامه انحدف عليه الجابلى من غير رد جواب وساروا يتحاذفون فى الحرب والصدام من الزمان حتى أراد الجابلى على أبو زيد فى الحرب والصدام كما أراد كانون الشتاء فى الرعد وكلما فتح أبوزيد باب من الحرب يسده الجابلى حتى قفل عليه اثنان وسبعون بابا من أبواب الحرب وبقوا على هذا الحال إلى وقت العصر فصاح الجابلى على أبوزيد وضربه بالرمح راحت الضربة خائبة بعد ما كانت صائبة فثنى عليه بالسيف فأخذه بطارقة البولاد فانكسر السيف شقتين فحينئذ تعدل أبو زيد على ظهر الحرا وقال له خذها من الامير أبو زيد صاحب المكر والكيد فارس العجم والترك والديلم وضربه بالرمح فقلب الجابلى تحت بطن الجواد فراح الضرب خايب فثنى عليه بالسيف القرضاب فحكم على محكم الرقاب فأخذ الرأس والخاصرة سويا وسقط السيف على الجواد فقطعه قطعتين فالتقت الابطال على الأبطال والفرسان على الفرسان من اليمين والشمال حتى ضعفت رجال الجابلى لما رأوا ملكهم قتيل وفى دمه جديل فحل بهم الدمار والهزيمة والفرار ولازالت بنى هلال تضرب فيهم بالسيف البتار ولاحقتهم فى تلك البرارى والقفار حتى كادت تمحى منهم الآثار إلى أن وصلوهم الديار وكان قد ولى النهار وأقبل الليل فباتوا الفريقين يحرسوا بعضهم البعض إلى وقت الصباح ونزول الحرب والكفاح فنزل الأمير دياب إلى الميدان وعرض وبان بقلب أقوى من الصوان وطلب مبارزة الفرسان فانحدر إليه

الأمير ناصر وأخذوا فى الحرب والصدام إلى نصف النهار فغار الأمير دياب على الأمير ناصر وضربه بالسيف فخلا منه فأتت على رأس الجواد فبرته كما يبرى الكاتب القلم فوقع ناصر على الأرض فانحدر العلام أمام الأمير دياب لأنه كان معاهد هو وإياه فى سفة الزيادة فصار يتجاول هو وإياه فضرب الأمير أبو زيد رأس العلام فأوقعه على الأرض فأتت قومه وأركبته جواد آخر وصار يتجاول هو وإياه إلى وقت الغياب وبقوا على هذا الحال عشرة أيام وكان كل يوم يقتل له فارس بضربة آخر النهار حتى ضجرت العرب من قتالهما وحينما افترقا على القتال أتت الجازية إلى أمارة بنى هلال والأمير أبو زيد وقالت له لماذا هذه المطاولة أيها الأمير وصبرة قد قتل بواسطة العلام وقد قتل منا تسعين أمير من أمارتنا وحينئذ التفتت الجازية نحو أمارة بنى هلال وأنشدت تقول :

تقول فتاة الحى الجازية أم محمد	ألا فاسمعوا لى يا هلال الأكابر
أبو زيد العلام ينزل يحاوبه	من الصبح لما الليل يردعا كر
فينزل يحاربه ويقتل جواده	ويترك العلام على الأرض حاير
لأنه عارف غدره لا يخونه	ومتعاهد وإياه والعهد ظاهر
ولا يحاربه مدى العمر يا بطل	ما يقتله أبداً ولا له بقاصر
ولو مات منا كل يوم قبيلة	فما زال أبو على على العهد ساير
وذنى علمته القوم كايل ما جرى	كأنى أقول الحق والحق ظاهر
ورأيتم أبو زيد الهلالى يحاوله	فصيحوا على العلام وأعطوه شظاير
وأدعوه على الغبرا قتيل مجندل	فى نار صبره عز قيس الأكابر

فلما فرغت الجازية من كلامها والأمارة يسمعون نظامها انتبهوا إلى ما كانوا عنه غافلون فحينئذ اجتمع عشرة من بنى هلال وضربوا الرأى مع بعضهم أنه فى الغد إذا نزل أبو زيد للعلام فليجتمعوا العشرة وليضربوا العلام بعشرة رماح سوا حتى لا يقع اللوم من أبو زيد على أحد الأمارة لأنه معاهد هو والعلام ففى ثانى الايام برز إلى الميدان فبرز إليه الأمير أبو زيد بطارات الأمارة من أبو زيد هذه الأحوال عجمته

على العلام من اليمين والشمال وضربوه بالعشرة رماح فوقع على الأرض فحزن الأمير أبو زيد عليه وتقدم اليه وقبله بين عينيه ورجعت الفرسان وكان قد أقبل الظلام ودقت طبول الانفصال فأخذه إلى الخيام ورجع الأمير ناصر وقومه حزينا حسرانين على فقد العلام وأما أبو زيد حمل العلام إلى الخيام فحينئذ فاق من غشوته وأنشد يقول

يقول الفتى العلام وله عديه فهذا الذى قد كنت به موعود

وأخبرتك هنا ألا يا سلامة سنة الزيادة حين أتيت ترود

يضر ملاحم ناطق الشكل صابر ورضيت باحتكام العلى المعبود

عرفت أن ذا يجرى ألا يا سلامة وحق الذى قد لان له الجلمود

ألا يا سلامة العرب عادت منازلك أحكم بحكم الله ليس عنود

وأنا الذى خاين على العرب وحليت مواثيق بيننا وعهود

فجازانى الإله بما حصل وأمسيت من فوق الثرى ممدود

فأنى أوصيك وصية يا سلامة وحق من غساق بماء وورود

وادرجنى بالقطن والطيب والكفن وأوويته بيدك عميق لحود

وأنا رحت ما عد الرجوع بخاطرى وأمسيت من بعد الحياة فقود

وأشهد أن الله لا رب غيره الله تعالى واحد معبود

فلما فرغ من كلامه تنفس الصعداء وسلم الروح فحزن أبو زيد عليه وبعد ذلك دفنوه بالإكرام لأبو زيد فلما سمع ناصر بموت العلام حزن حزنا شديداً فولوا الادبار وركبوا إلى الفرار فتبعهم بنو هلال مدة عشرة أيام حتى شتتوهم فى البرارى والقفار وبعد ذلك اجتمع أبو زيد مع دياب وبقية الأمارة وعملوا مشورة تلك الليلة فقال أبو زيد لدياب إننا صرنا فى نصف بلاد الغرب وقد بعدنا عن حريمنا وأوطاننا وحولنا جزائر بلاد الغرب وقد كثرت أعدائنا وما لنا ناصمين إلا المغاربة لأن ليس لهم كثيرون فى الديار ونخاف أن يعملوا علينا حيلة ويهلكوننا لاننا وجدنا بهذه الديار وأمامنا أربعة عشر قلعة حصنين فماذا يكون عندك من التدبير فقال الرأى عندى أن تخبر الأمير حسن بهذا الشأن وتوصيه فى المال والعيال لأن قدامنا أربعة عشر قلعة وسبعة تخوت بلاد الغرب فقال أبو زيد

لا بأس بذلك أيها الأمير فحينئذ أرسل أبو زيد كتاب يعلم الأمير حسن بقتل صبرة ورفاقته ومن قتل الجابلي وكيف أن العلام خان العهد والميثاق وكيف طعناه الامير ناصر أخو الزناتي وعن الحروب التي حصلت اليهم من الاول الى الآخر وسلم ذلك الكتاب للنجاب فأخذه وسار حتى وصل الى حسن وسلمه الكتاب فقرأه وعرف معناه وقال إنا لله وإنا اليه راجعون واحضر قلم وقرطاس وجعل يقول :

يقول حسن الهلالى أبو على والنار فى قلبى تهب وتشتعل

حركت عندى يا هلال مركبا واصبحت من هذا الكلام فى وجل

فان احتجت لدياب بالعجــــل تلقيه جيلك مثل قطعة من جبل

وان احتاج اليك فروح له فى عسكر من فوق خيل بالعجل

وأنتم سيروا يا سلامة فانى داعى لكم طول الزمان لم أزل

إن شاء الله إله العرش ينصركم وينجيك باللطف وبلوغ الامل

الله يفعل ما يشاء بخلقــــه ويجيب دعا عبد فقير إذا قال

يا هل ترى عاد الزمان يلمنا وتعود لمة وشمل مشتمل

فلما فرغ الأمير حسن من تحرير الكتاب أرسله الى أبو زيد فحين وصوله قرأه أبو زيد على رؤس الامارة والفرسان ثم قال لدياب أنت تتوجه نحو كويج وتلك القلاع بشرط أن يكون علمكم معى وعلى معكم فان شاء الله وملكت أنا قابلا لا أرحل إلا أن ارسل علمك ويكون الاتفاق على هذه الحالة حتى نملك الاربعة عشر قلعة فحينئذ قرأت الفواتح وأمر أبو زيد بدق الطبول ونفخ الزمور فركبت الفرسان الخيول وتقلدت بالرماح والنصول فركب أبو زيد بتسعين الف من زحلان توجه إلى قابس وركب دياب فى بنى زغبه وساروا حتى وصلوا إلى كويج فنصبوا الخيام ورفعوا الاعلام يستدعى دياب بقلم وقرطاس من النحاس فأشار يكتب الى ملك كويج وكان اسمه والى يقول :

يقول الزغبى دياب بن غانم ولى عزم أمضى من سنان حراب

فكم من أمير ابن أمير وأميرة أسكنته بيدى عفــر تراب

سلاطين نجد أرديتهم بعد عزم وخليت منازلهم يكونوا خراب

وقتلته أبو سعده الزناتى خليفه وخليت سعدة فى بكا ونحيب
فان طعتمونى تسلموا لى جميعكم وإلا تهيأ لحرب الأمير دياب

(قال الراوى) فلما فرغ دياب من تحرير ذلك الكتاب وطواه واعطاه للنجابه وطلب منه رد الجواب فتوجه النجاب نحو الأمير وائل فلما وصل اليه تمثل بين يديه وأعطاه الكتاب فأخذه الأمير وائل وقرأه وعرف مضمونه ومعناه ولكن اغتاظ الغيظ الشديد واستحضر قلم وقرطاس ودواية من الذهب الخاص وكتب إلى الأمير دياب كتابا وأعطاه إلى عبده تلبيس وقال ائتنى بالجواب فتوجه العبد وسار وجد فى قطع القفار حتى وصل لعند دياب فأعطاه الكتاب وطلب منه الرد ففتحه وقرأه وعرف رموزه ثم التفت نحو العبد وقال له أخبر سيدك أنه ليس عندنا جواب غير السيف القرضاب وغدا نلتقى فى ميدان الحرب ففى الحال توجه العبد وأخبر سيده بما أجابه الامير دياب فلما سمع وائل ذلك الكلام صار الضياء فى عينيه كالظلام وفى الحال أمر بدق طبله وتحصين بلده بالمدافع والابطال ونشر رايته فى الحال ولبس درعه المانع وتقلد بسيفه القاطع وعلا فوق ظهر الحصان كأنه فرخ جان أو عفريت من عفاريت سيدنا سليمان وكذلك ركبت الفرسان ظهور الخيل وتقلدت بالرماح والنواصل وتأهبت الابطال للحرب والقتال وكل رفيقه صاح كأنه عزرائيل قابض الأرواح وبعد ذلك انحدر الأمير وائل إلى الميدان وحوّل وبان وطلب مبارزة الفرسان وهو يصول ويجول كأنه الغزال فبرز اليه دياب فأشار الأمير وائل يقول :

يقول الفتى الوائل عن ما جرى له ونيران قلبى اشتعلت لهيبها
أنا فارس الفرسان فى حومة الوغا بيدى أسقى القوم كاس عطيبها
أنتم تعديتم وجيتم بلادنا لاوض كوبج قصدكم تملكونها
بخيول فوارس بكل عزمهم تقول سباعا زايدة فى عصيبها
فارجع وإلا يا دياب قتلتكم طعنات وائل ثم ضرب حدادها

(قال الراوى) فلما فرغ من كلامه والامير دياب يسمع نظامه اغتاظ الغيظ

الشديد الذى ماعليه من مزيد حتى صارت عيناه تقدح نار الوقيد وصار يهدده ويقول

يقول أبو موسى دياب بن غانم حماة الخيل فى يوم الهوائل
فكم قوم أنت ترغيب قتالى الاقيهم بفرسان جحافل
واشتت شملهم وأفنى عددهم وآخذ مالهم وخيلا وسلاسل
وأنت تهيننى وتطلب رجوعى إلى تونس بفرسان سوايل
لابد ما قتلك وأملك بلادك وأقطعكم بضربات النصايل

فلما انتهى الامير دياب من كلامه انطبق عليه وائل كأنه فرخ جان وابتدأ وافى الطعن والضرب وقتال يشيب رؤوس الاطفال حتى تناصف النهار فانهزم دياب أشد هزيمة من أمام الأمير وائل وارتد إلى الوراء هو وقومه وتبعوهم قوم وائل بطعن الرماح وضرب السيوف والصفاح والطبقت الجيوش على بعضها البعض وانتشب القتال والطعان كل من جهة ومكان حتى جرى الدم وسال وصارت القتلى كالتلال فكانت واقعة مهولة لايعرف الابن أباه والاخ أخاه ولكن لله در الامير وائل فانهم هجموا على قوم دياب وأبلوهم بأعظم مصاب وما زالوا منهزمين وقوم وائل لاحقينهم بضرب السيف حتى شتتوهم فى تلك الاوعار حتى ولى النهار وأقبل الليل بالاعتكار وارتدت الفرسان عن بعضها البعض ونزلت قوم الأمير دياب المنهزمين فى جهة من الأرض وصاروا يجتمعون بعضهم البعض وقام دياب وجمع أكابر قومه وكل من يعتمد عليهم وصار يحمسهم بهذا القصيد ويقول :

يقول أبو موسى دياب بن غانم امير الخيل فتى مايهيبها
وسلطاننا حسن الهلالى أبو على تضرب له مثال ما يثنى بها
ثمانين قلعة قد حضرت فتوحها ولا قلعة إلا هدمت حصونها
ملكنا من نجد إلى قاع تونس بطعن يورث الاعدا عطبها

فلما فرغ دياب من كلامه والامارة تسمع نظامه هاجت برأس الأبطال نخوة الرجال وكثر القيل والقال فى ثانى الأيام برزوا الطائفتين إلى الميدان وحل الضرب والطعان وهجموا على بعضهم فكثرت الضجات وعلت الصيحات فكانت موقعة عظيمة ما عادت تنظر إلا الرؤوس طائرة والدماء فائرة والفرسان غائرة ودارت على

قوم وائل الدائرة حتى قتل منهم عشرة آلاف ومن قوم دياب ١٠٠ وبقية قوم وائل ولوا هاربين وإلى النجاة طالبين فتبعوهم قوم دياب وشتتوهم فى البرارى والقفار وأدخلوهم البلد وهم فى حال الذل والكدر وذلك من سيف الهمام الأسد الضرغام دياب وما زال القتال على هذا الحال إلى قرب الزوال فدقت طبول الانفصال فدخل وائل المدينة حزيناً ليس معه معين خاصة لما رأى عساكره بجندلة وعلى الأرض ممددة فتقدمت إليه الحجاب والوزراء وتقدم إليه الوزير الأكبر وقال له إن شاء الله غداً أنزل إلى الميدان وأبليهم بطعن السنان وأكفيك شر هؤلاء العربان بعون الله الواحد الديان وأما قوم دياب دخلوا عليه وسألوه عن خصمه فقال لهم إنه فارس شديد وقرم عنيد ولكن غداً إن شاء الله أنزل إليه وآخذ روحه من بين جنبيه وفى ثانى أيام أصبح الصباح وتقلدت الجيوش بالرماح ونزلوا إلى محل الكفاح فانحدر الوزير دهقان إلى ساحة الميدان كأنه فرخ جان وطلب مبارزة الفرسان فنزل إليه أمير من أمارة بنى هلال وكان اسمه الهابب فقال دهقان من أنت من الفرسان وما اسمك فقال اسمى الهابب وصنعتى حداف الرقاب فحينئذ انطبقوا على بعضهم كالأسود بقلب كالجلمود وتجاولوا مدة من الزمان حتى كلت منهم الزنود وطلعت منهم ضربتان ماضيتان وكان السابق مهابب فضرب دهقان بالسيف أخذها بطارقة البولاد فأتت على رقبة الجواد فبرتها كما يبرى الكاتب القلم فأتاه دهقان على جواد آخر وسقط عليه بالسيف وضربه على رأسه شقه إلى تكة لباسه فنزل إليه فارس آخر فقتله والثانى جندله والثالث محقه وما زال يجندل فارساً بعد فارس حتى جندل خمسين فارساً وأخيراً نزل إليه دياب وكان قبل الغروب فتجاولا هو وإياه ساعة من الزمان حتى عرف دياب قوته فلاصقه وضايقه بالسيف على هامه رمى رأسه قدامه وحينئذ دقت طبول الانفصال ورجع الملك وائل فى حالة الغم لفقد أخيه دهقان وحين وصوله إلى الديار سألوه عن قومه وخصمه فأجابهم يقول :

يقول الفتى وائل بعين مريرة	ونيران قلبى زايدات لهيب
على ما جرى فينا وما قد أصابنا	ولكن تصاريف الزمان عجيب
سقانا الدهر خمرة عتية مكروهة	سكرنا بها من بعد عز وطيب

أتينا فوارس ما عرفنا صفاتهم وقادمهم اسمه على اسم الديب
يسمى أبو موسى دياب بن غانم فلله دره من همام نجيب
تلاقيت أنا وإياه فى حومة الوغا أثاريه فى يوم الطراد صعيب
تهمز علينا همزة فى حومة اللقا كما سمع كاسر فى اللقا عصيب
يغيب ضرباتى ويعطى نظيرها بطعن يورث فى فؤاد عطيب
غداً ألتقى وإياه فى حومة اللقا بطعن يحير كل فكر لبيب
ان قدر الرحمن أخطف روحه وأدعه من فوق الجواد قليب

فلما فرغ وائل من كلامه وقومه تسمع نظامه فوقع الوهم فى قومه من دياب وأما ما كان من دياب فإنه لما رجع الخيام فسألوه عن خصمه فقال لله دره من بطل شديد وقرم عنيد فقالوا له قومه هل يكون أشجع من الزناتى فقال لهم الزناتى ما وجد على الأرض فارس مثله ولكن الملك وائل أقدر وأخبر وفى موضع الطعن أشطر وأجسر وما زالوا فى هذا الحديث إلى أن أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح فدقت الطبول ونفخت الزمور وركبت الفرسان وانحدروا إلى ساحة الميدان طالبين الحرب والطعان فلما وقعت العين على العين التقى دياب بوائل فانطلقوا البطلين كأنهم جبلين وحام عزرائيل فوق رؤوس الفريقين فتكسرت بأيديهم الرماح وسحبوا السيوف الصفاح ولعبوا بهم ألعابا أحيرت الشيوخ والشباب إلى أن زهقت الأرواح فضربوا بعضهم الاثنين فطارت من أيديهم السيوف فسحبوا الدبابيس فتكسرت بأيديهم من شدة الضرب وما زالوا الاثنين فى صيحات مرعبات وضربات هائلات فيا لهما من بطلين ضرغامين وأسدين كاسرين فتعلمت منهم الفرسان أبواب الحرب والطعان وبعد ذلك خرج من الاثنين ضربتين قاطعتين فكان السابق وائل ضرب دياب بالرمح فغطس تحت بطن الشهبا فراحت الضربة خايبة فحينئذ تعدل دياب وضرب وائل بالسيف على هامه حط رأسه قدامه فوقع وائل قتيل وفى دمه جديل

(قال الراوى) فلما رأت قوم وائل ملكهم قتيل ولوا الأدبار وركنوا إلى الهزيمة والفرار فتبعهم قوم دياب وجردوا فيهم السيف القرضاب إلى أن وصل دياب إلى البلد وجمع الأكابر والعمد وجلس على كرسى المملكة ونادى بالأمان فى جميع المدن والبلدان بعد ذلك استدعى بقلم وقرطاس وكتب إلى السلطان حسن

يخبره بما جرى وصار فلما وصل الخبر إلى السلطان حسن وقرأ كتاب دياب على رؤوس الامارة والسادات حينئذ فرحوا فرحا شديدا وعملوا عرضة عظيمة لها قدر وقيمة إكراما لدياب لأنه يملك تخت كريج إلى نائب السلطان حسن وتوجه من كريج ومازال سائر إلى أن وصل إلى ناحية برج الدمع فهناك أمر العسكر بالنزول وتصبيح الخيام ورفع السناجق والأعلام وأحضر قلم ودواية من الذهب الخالص وأشار يهدد الأمير بكار ملك برج الدمع بهذا القصيد يقول :

يقول أبو موسى بن غانم	ونيران قلبي زايدات لهايب
نعم أيها الغادى على متن ضامر	إذا جيت إلى بكار عالى المراتب
فقول له الأمير دياب يقول لك	حامى العذارى من البلاد الكتايب
إذا كنت تريد النجاة فسلموا	وإلا أباديكم بعظم المصايب
وأخرب مدينتكم كما صاب قبلكم	أدعى دماكم عالارض سكايب
فياما جرى فى أرض كريج وقع	وقتلت وائل كان قوم محارب
فان طعتموني نلتم الخير والرضا	وترتاحوا من شر حرب دياب

فلما فرغ دياب من نظامه طوى الكتاب وأرسله مع النجاب فهذا ما كان من دياب وأما ما كان من الأمير بكار سلطان برج الدمع أنه كان جالساً فى الديوان وإذا بجملة من فرسان كريج الذين سلموا من القتل دخلوا عليه وقبلوا بديه فقام لهم بكار على الأقدام وسلم عليهم وأكرمهم وسألهم عن سبب قدومهم إليه فأجابه أحدهم وكان يسمى فايد بما جرى :

يقول الفتى فايد على ما جرى له	ونيران الحشا زادت شعال
أمير بكار أنظر لى وافهم	واصغ لقصتى واسمع مقال
أتانا قوم ما يحصى عددهم	يهزوا فى الرماح وفى العوال
وكبنا والتقينا جميعـــاً	بطعن يورث الاعدا خبال
كبير القوم يسمى ابن غانم	أمير دياب شيال الحمال
قتل وائل والقاه جريحــاً	وقد ردى الوزير بلا محال
فولينا هرباً من لقـــاه	ولا طقنـــا لهم أبداً قتال
فهذا ما جرى خبرت عنه	وهذى قصتى وآخر مقـــاله

فلما فرغ قايد من كلامه والأمير بكار يسمع نظامه حزن الحزن الشديد ما عليه من مزيد خصوصاً على قتل الأمير وائل وابن عمه ومن لحمه ودمه ولكن استغاث بالله الجبار على قتل هذا الإنسان القهار وبينما هم بحال هذا الخطاب قد أقبل عليهم نجاب الأمير دياب وبيده الكتاب فدخل وسلم بأفصح لسان تكلم وسلم الكتاب للأمير بكار ففضه وقراه وفهم جميع ما حواه فكثر عليه الحزن وازداد عليه نيران الغضب وأمر القواد والعساكر أن يكونوا تحت الطلب وأمر باحضار قلم وقرطاس ودواية وأشار يقول

يقول الملك بكار والنار فى الحشا	ونيران قلبى زايد اللهايب
فيا أيها الغادى على متن ضامر	إذا جيت للزغبى دياب المطالب
فقل له بكار أرسل يقول لك	أتانا كتابك يادياب المحارب
على ما جرى بأرض كوينج وما وقع	قتلت وائل كان عز الصحايب
فطار عنى وارجع بعزوتك	وإلا نبادر بضرب القواضب

قال الراوى فلما فرغ الملك بكار من كتابه أرسله مع نجاب إلى عند دياب فلما وصل النجاب إليه سلمه الكتاب ففضه وقراه واطلع على رموزه ومعناه فزاد به الحقد والغضب وعند الصباح أمر بدق الطبول ونفخ الزمار وأمر الرجال بالتأهب للحرب والقتال فحضرت الفرسان ركبوا ظهور الخيول وساروا قاصدين الميدان ومحل الضرب والطعان هذا ما كان من هؤلاء وأما ما كان من الملك بكار حضر جميع العساكر والقواد ساروا بهم إلى خارج البلد لأجل المحافظة من الأعداء والدشمان وبينما هم على هذا الحال إذ أقبلت عساكر دياب فلما وقعت العين على العين انظروا الاعراض وبان إلى حومة الميدان الملك بكار نصال وجال على أركان الميدان ونادى بأعلى صوته هل من مبارز هل من مناجز لا يبرز لى كسلان ولا عاجز فما تم كلامه حتى صار الأمير دياب قدامه قال الراوى فلما فرغ دياب من كلامه وهجم على الملك بكار وصدمه صدمة جبار وفا التقاه الملك واصطدما اصطدام الأبطال وتطاعنا بالرمح انجرح جرح بليغ فوقع دياب على الأرض فجرد الملك بكار الحسام أراد أن يكمل عليه فخلصه الأمير محمود بن دياب وجلس به فى ساحة المجال وبقى فى معركة القتال إلى قرب الزوال فرجع محمود إلى عند أباه وسأله عما جرى عليه فأجابه قد استحضرنا الحكيم الهندى وأعطانى شربة تمر هندى واليوم الجرح خفيف بعون الإله اللطيف فعند ذلك تولى الفريقين إلى أن أصبح الصباح

بنوره ولاح فبرز محمود للميدان فنزل اليه بكار وما زال هو واياه فى حرب من الصباح إلى الزوال فرجعوا للخيام وفى ثانى الأيام نزلوا للحرب والصدام وبقوا على هذا مقدار سبعة أيام وبعد ذلك اغتاظ محمود وقال وحياة رأسى أنى لازم أن أسيل دمه وآخذ أنفاسه بهذا النهار ولحقه البوار فلما دقت طبول الحرب نزل الأمير محمود والأمير بكار إلى ساحة الميدان فتطاعنوا بالرماح وتضاربوا بالسيوف الصفاح حتى زهقت منهم الأرواح وما زالوا فى أخذ ورد وقرب وبعد وكسر ونصر لقرب العصر فاشتهروا الاثنين من تحت الغبار فتطاولت لهم الاعناق وشخصت لهم الاحداق إلى أن راح من الاثنين ضربتين قاطعتين فكان السابق بكار فغطس الامير محمود تحت بطن الجواد فراحت ضربة خائبة بعد أن كانت صائبة فاعتدل الامير محمود على الجواد وضرب الامير بكار بالسيف على رأسه فشقه نصفين وألقاه على الارض قطعتين فوقع قتيل وفى دمه جديل فصاح دياب لاشلت يداك ولاشمت بك أعداك يا محمود وهجم بنى زغبة على عساكر الاعداء من كل ميل وأبلوهم بالذل والويل ودخلوا البلد وجلس الأمير دياب على الكرسى واستلم أموال القلعة (قال الراوى) فلما فرغ الامير دياب من العساكر بدق الطبول وركب الخيول فركب الفرسان وودعهم وسار قاصد برنيجة وتلك الاقطار فما زال ساير إلى أن وصل تحت برنيجة فنصب الخيام واستدعى بقلم وقرطاس ودواية من الذهب الخاص وجعل يطلب عشر المال من الملك زايد بهذه القصيدة وأشار يقول :

يقول الفتى الزغبى دياب بن غانم	بجاه العذارى من عنا وسقام
قرم مجرب ماله من مناطح	يخلى الفوارس ناحبات دوام
سلاطين نجد قهرتهم من بعد عزهم	أخربت منازلهم مع الاكارم
كسرت الخزاعى فى حلب قومه	وبرجيس مرمى فوق تل ردام
قتلنا شبيب بوسط قصره	وكان شديد العزم بيوم صدام
ولما جعلنا مصر اثننا ملوكها	ومصر أخر من حلب والشام
ورديت عقيد القوم بن متوج	وكم قتلنا من ملوك عظام
ويوم تونس ياما قد جرى	وكم راح منا فارسا مقدام
جاه أبو خريبة إلينا واعتدى	صاروا الذين لهم فى القبور أعوام
الزناتى قتل ثمانين امير مجرب	خلا نسانا نايحات دوام

نزل لى خليفة فوق ظهره مبرشمة   وجاء كسبع لصيده حام

بقينا عشرة أيام والحراب بيننا   تاهت الفرسان من ضرب الحسام

ضربته من فوق مهره عجلة   وخليته وسط اللحود ينام

وبعد الزناتى اسمعوا ما جرى   فى حرب كويج من واين حسام

ملكها والى من قروم غشمشم   مناطح الفرسان يوم صدام

فقتلته ودميت دمه على الوطا   وملكنا أراضيه وكل مقام

ألا أيها دى بلغ بما جرى   لزايد أخبره بصدق كلام

يدع لنا عشر المال بلاخفا   وعشر الجمال وجملة الأغنام

وإن كان لايقبل جهز بالعجل   وألق لطعناتى وضرب حسام

ونملك ملككم وكل براجها   ونأخذ الأموال مع الأغنام

ما قال أبو موسى دياب المسمى   عضيد الفوارس فى نهار صدام

(قال الراوى) فلما فرغ دياب من كلامه أرسله مع نجابه إلى الملك زايد فهذا ماكان من أمره وأما ما كان من ملك برنيعه بينما كان فى بعض الليالى إذ رأى منام مزعج فنهض من الرقاد مرعوب خائف الفؤاد فاستدعى بالحارس وأمره باحضار الرمال مرزوز فذهب وأحضره فسأله الرمال ما الخبر أيها الملك السعيد فقال له إنى قد نظرت مناما مهولا وأشار يقول :

يقول الملك زايد بقول صادق   كلاماً يؤرخ فى الكتب سطور

لنا مدة أرغد العيش والهنا   بركبه خيول فى نفخ زمور

رأيت منام أبدل اللذة والهنا   بغم وحزن دائماً وكدور

حلمت أنى واسع البر والفلا   ملق طريحا ودمائى تفور

فوقى دياب مثل سبع كاسر   وبقيت معه فى الخلا ماسور

ضربنى ضربة جاءت على كأنها   مدفع خرج من وسط وصور

فرحت على الأرض منطرح و   أضحى دمائى على التراب يجور

فاضرب يارمال رملك بالعجل   وخبر كلام الصدق يامسرور

(تمت هذه القصة ويليها قصة السبع تخوت)

قصة السبع تخوت

وتملك بنى هلال الأربعة عشر قلعة وقصة سعده بنت الزناتى ووقوع الفتنة بين بنى هلال وحبس الأمير دياب وشنق الزغابة

(قال الراوى) فلما فرغ الملك زايد من كلامه والرمال مسرور يسمع نظامه ففتح كتب الرمل وقال اعطينى الأمان ياملك قال عليك الأمان فأشار الرمال يقول:

يقول الرمال فيما قد جرى ... وعبرات عينى على الخدود حدور
نفسر منامك ياأمير فافتهم ... وهذا المنام جدد على أمور
تقول إنك كنت فى البر والخلا ... وسبع كاسر قد أتاك يغور
فارس هرمرم يفرح الخيل بالقنا ... يخلى الدما يجرى شبيه نهور
يسمى أبو موسى دياب بن غانم ... فارس صيدع فى اللقا مشهور
يجينا بقومه وينزلون بأرضنا ... ونبقى معاهم فى بلا وشرور
تتكلون أنت وياه فى حومة الوغا ... وتمشى معه ياملك مأسور
ويظفر علينا ياملك برجاله ... ويدهى الفوارس فى عميق قبور
فهذا منامك ياأمير مؤكد ... من يستطيع أن يدفع المقدور

فلما فرغ الرمال من كلامه والملك يسمع نظامه فتوجه إلى الديوان وجمع الأكابر والأعيان وأخبرهم بالمنام وعن الأمير دياب وقال كيف العمل فى هذا الفارس القادم علينا والواصل إلينا فنهض أكبر وزرائه وكان فارس مشهور وبطل مذكور يقال له له الوزير ماجد وقد قال له ياملك الزمان أنا سمعت أن هذا الفارس دياب قد قتل الأمير والى مالك تخت كويج وقتل الملك بكار حاكم برج الدمع وهو قاصد إلينا الأوفق أن نسلم له المال والخيل والجمال وإلا يبيد عساكرنا ويهلك أبطالنا لأن معه تسعين ألف فارس من بنى زغبة فلما سمع الملك زايد هذا الكلام قلبت الدنيا فى وجهه ظلام وقال ويلك ياكسلان تخوفنى من رجال وفرسان التى هى

عندى شبه النسوان فوحق ذمة العرب وشهر رجب ما أترك أحد ينزل إلى حربهم وقتالهم بل أنزل اليوم وأضرب الأمير ماجد على هامه أحط رأسه أمامه فشكروه على شجاعته وسطوته وفيما هم فى الحديث وإذا هم بنجاب الامير دياب دخل ومعه كتاب وقبل الأرض بين أيادى الملك وناوله الكتاب فلما فضه وقرأه وعرف رموزه ومعناه اغتاظ الغيظ الشديد وقال الرسول اذهب إلى مولاك قل له لم يوجد عندى جواب سوى السيف القرضاب ولو لم يكن عار قتل النجاب لقطعت رأسه فذهب الرسول واخبر مولاه دياب فاغتاظ الغيظ الشديد وأمر بدق الطبول فاستعدت الفرسان للحرب والنزال وساروا قاصدين الميدان وأما الملك زايد بعدما أرسل الكتاب إلى الامير دياب تجهز إلى الحروب الطعان وسار إلى خارج البلد فبينما هم فى ذلك وإذا بفرسان الامير دياب كأنها أسد الغاب فلما التقت العين بالعين نزل الامير زايد إلى الميدان فصال وجال وطلب براز الفرسان فانحدر الامير دياب كأنه أسد الغاب فقال الملك زايد من تكون من العربان يا أنذل الفرسان فقال له لا تزيد فى الخطاب فما قدامك إلا حداف الرقاب الامير دياب فأشار يهدده ويقول :

يقول الأمير زايد ونارى بالحشا	والدهر وافانى والسعد مقبل
اليوم جيتوا انأخذ ثارنا	وندعو دماكم عالأراضى سايل
واخلى سروج الخيل من ركابها	وتبقى الأراضى تحتنا تتزلزل
أتيت لحربى يا دياب وهتى	لأجل رجالك من حامى مجندل
وأبيد قومك بالحسام جميعهم	واسقيهم كاس القضا المنزل
فوز بنفسك وارتحل من بلادنا	بقومك وإلا عن قريب تقتل

فلما فرغ زايد من كلامه والأمير يسمع نظامه فقال دياب يا أبو زايد خصمك لا يروعه كلام ولا يهزم من صدام فوحق الملك العلام لا بد ما أفنيكم بهذا الحسام وأدعكم مشتتين على رؤس الروابى والآكام وأشار يرد عليه ويقول :

يقول الفتى الزغبى دياب بن غانم	أنا فارس من الفرسان يوم زحام
إن أردت أن تسلم من حربى والقنا	وتفوز بنفسك ولا تنضام
تنزل وتأتينى ليلا خاضعاً	وأعطيك اليوم منى حسن زمام

واكتب العشر من مال العرب   وتكون مرتاح مدى الايام
وان كان تخالفنى وترفض نصيحتى   أتيته قبالى والتقى لصدام
فانى سافنى جموعكم من مهندى   وادعى الفوارس فى عنا وسقام
وتنظر إلى عزمى وتعرف همتى   وتسكر يا أمير بغير مدام

فلما فرغ الامير دياب من قوله التقوا البطلاين كأنهم جبلاين وحان عليهم الحين، وغنى على رؤسهم غراب البين كأنهم كفتين ميزان وهان تارة يتباعدوا وتارة يتقاربوا فما زالوا فى هزل وجد وأخذ ورد إلى وقت الظلام ودقت طبول الانفصال وفى ثانى الايام نزل الامير دياب إلى الميدان فبرز اليه الأمير زايد والتقى البطلاين كأنهم جبلاين وحان على رؤوسهم غراب البين وكان الملك زايد قد استظهر على الأمير دياب فجرد الحسام فى يمينه حتى حك الركاب وضرب على ظهر الجواد وأراد أن يضربه فتلقاه زايد بالعمد بيمينه واطاق عليه الضرب فخلى دياب من الضربة وأتت فى قصعة السرج من خلف طيرتها ووقع العمد من زايد وقال خذها من يد الامير دياب حداف الرقاب واطاق عليه الضرب أتى على رأسه جميع اضراسه وأخذ أنفاسه وألقاه على الارض قتيل وفى دمه جديل ثم إنه صاح بقومه وهجموا على قوم الأعداء فبينما هم فى قتال شديد يفتك الزرد النضيد إذ التقى الامير دياب بوزير الملك زايد وكان اسمه نافع فتجاولا بساحة الميدان وتطاعنا بالسنان إلى أن الامير دياب ضايقه ولاصقه وسد عليه طرقه وضرب يده بجليات درعه اقتلعه من سرجه كأنه العصفور فى الباشق الجسور وضربه بالارض ادخل طوله بالعرض واوقعه قتيل وحمل على بقية العساكر فلما نظرت قوم الملك زايد هذه الأحوال ولوا الادبار فتبعهم قوم الامير دياب بالنصال وفتكوا بهم فتك الديب بالاغنام ودخل الامير إلى البلد واحضر الاكابر والعمد واستلم الأموال والذخاير وجلس على كرسى المملكة فبعد جلوسه أشار يخبر الأمير حسن بهذا :

يقول الفتى الزغبى دياب بن غانم   وروحى كالبولاد طير شرها
الا ايها الغادى بلغ رسالتى   لحسن الهلالى عن عز قوم ملاها
أخبرك يا أبو على فيما جرى   بارض المغارب من عظم هوالها

أتينا برنيجة ونبغى أخذها — أثارى بها زايد كشعلة نارها
أتانا إلى الميدان يا أمير على — كا برج مبنى فوق سورها
ضربنى بيده يا أمير أبو العمد — لو جاء على قلعة لهد جدارها
ضيعتها وخليت عنها بهمتى — فراح عمده من يمينه وطارها
فأخذت أنا العمد حالا وجيته — وشديت عليها يمينها وشمالها
ضربته على رأسه راح مجندلا — دعيته ملقى بأعلى جبالها
ملكنا أموالهم وحصورهم — وأخذنا قلعتها وكل عمارها
إنى أخبرتك على ما قد جرى — وأطلعتك على جميع أسرارها
فارسل نائب يجينا بلا مهل — وادعى لنا بالنصر يا مغوارها
لكى نذهب ونقصد خلافها — وتطلب من المولى الكريم أنصارها

فلما فرغ الأمير دياب من كلامه طوى الكتاب وأعطاه إلى النجاب أخذه وراح حتى وصل إلى الأوطان فدخل على صيوان السلطان حسن وسلمه الكتاب ففضه وقرأه على رؤوس الامارة والسادات فشكروا فعل دياب ودعوا له بالنصر وأما الامير حسن استدعى الامير رضوان وأخلع عليه وقلده وظيفة قائم مقام على قلعة برنيجه فعند ذلك أخذ الامير رضوان مائة أمير من عشيرته للمسير بصحبته ولما أصبح الصباح ودع الامير حسن وقبل يديه وطلب منه الرضا وقال مراهى أرسل إلى دياب كتاب وأخذ يكتب إليه بهذه القصيدة وأنشد يقول :

نعم أيها الغادى على متن ضامر — كفرخ حمام فى البرارى فريدها
سلم على الزغبى دياب وقول له — يا فارس الفرسان يوم عاد بدها
ونيوجة منها وتطلب خلافها — بضرب السورم ثم بطن حديدها
والله ينصرك دوما على العدا — بحربه نبى خير البرايا وسيدها

فلما فرغ الامير حسن من كلامه طوى الكتاب وأعطاه للامير رضوان فعند ذلك ركب وتوجه إلى ناحية برنيجة وما أن سار إلى أن وصل إليها فدخل على الامير دياب فاستقبله وأكرمه غاية الاكرام وأجلسه على كرسى المملكة وأمر المنادى أن ينادى فى البلد باسم الامير رضوان ويكون حاكم عليها فأمر بدق طبل الرحيل

وودع أهالي البلد وتوجه إلى أن وصل إلى ناحية قلعة فضرب هناك الخيام وركز الأعلام واستدعى بقلم وقرطاس ودواية من النحاس وأشار يكتب إلى الملك محوده يطلب منه عشر المال ويقول :

ما قال أبو موسى دياب بن غانم	كبير القوم قيدوم النواجع
ألا يا غاديا من فوق ضامر	يجد السير في وسط البلاقع
أوصل كتابي للمسمى	الفتى محود قيدوم الربايع
وقول له نريد العشر منك	فقدم لنا ما نريد وكون خاضع
فاوزن عشر مالك والغنايم	وعشر الخيل مع عشر البضائع
وإن خالفتني فابرز لحربي	وألقى الطعن في يوم الهزايع
وأجرد في هند يماني	وأجي راكب على أدارع
وأفنيكم على بكرة أبيكم	وأخلي دماكم مثل القواطع

فلما فرغ دياب من شعره طوى الكتاب وختمه وأعطاه إلى النجاب فأخذه وسار يجد في قطع القفار حتى وصل لعند الملك محود فقبل الأرض بين يديه وسلمه الكتاب فأخذه وقرأه وعرف رموزه ومعناه فقلبت الدنيا في عينيه ظلام والتفت إلى الرسول قال له اذهب لعند مولاك وقل له إن ماله جواب إلا السيف القرضاب ورمي الرقاب فسار الرسول حتى وصل لعند مولاه الأمير دياب وأخبره بما قاله محود فاغتاظ من هذا الجواب ولما أصبح الصباح ضربت طبول الحرب والكفاح من الفريقين ولما وقعت العين بالعين حملت على بعضها الطائفتين فقام الحرب على ساق وقدم وشابت اللمم وجار ملك الموت وحكم وجرى الدم وانعجم وصار وقود القوم عدم وجرى للقوم واقعة عظيمة تشيب الأطفال وتقصر الأعمار الطوال وما زالوا على هذا الحال ١٥ صباح وكان قد هلك من الفريقين عساكر ما لها عدد حتى دارت على قوم محود الدائرة فدخلوا البلد وسكروا الابواب والامير دياب وقومه حاصروهم من خارج السور وعند المساء جمع الملك محود أكابر الديوان وقال لهم كيف العمل مع هؤلاء العربان الذين كأنهم مردة الجان فأنا مرادي أطلب منهم الامان فقالوا له الرأي رأيك نحن طائعين لأوامرك فحالا استدعى بقلم

وقرطاس يكتب إلى الأمير دياب ويطلب منه الصلح ويقول :

يقول حودة من قلب وجيع ابيات قالي زيدات نيران

اسمع كلامى يا ابن غانم وافهم يا عز قيس وجملة العربان

إنى اتيت طايعاً يا سيدى فاقبل خضوعى واعطنى الأمان

ونبق عندك يا أمير إلى المدى ونعيش بظلك بكل أمان

فاعفوا عنا يا دياب وسامح فانى أتيتك طائعا منهان

ثم إن الملك حودة أرسله للامير دياب فلما قرأه عرف رموزه ومعناه أمر بالأمان واجتمعت إليه الاكابر والعمدوسلم حوده لدياب الخزائن والقصور وبعدما استلم دياب الخزائن والقصور ولى حودة على تخت بشرط أن يدفع له الجزية فى كل عام وأرسل دياب بجواب أعلم حسن بن سرحان بما حصل فرد عليه حسن وقال له افعل ماتريد فحينئذ ودع باب الملك حودة وسار قاصد قلعة طنجة ومازال أن اقترب إلى قلعة طنجة فأمر بنصب الخيام وجلسوا الراحة وأرسل دياب من يكشف له خبرها إلى طنجة وقعد فى أكل وشرب مدة ثلاثة أيام إلى ان رجع الجاسوس فقال دياب ما معك من الاخبار فقال له اعلم أن ملك طنجة يقال له نايل وهو فارس شجاع وأما أسوار المدينة فهى عالية وعساكره لا تعدولا تحصى وقد علم بوصولنا من الرديان وقد جهز عساكره للقتال والحرب والنزال فلما سمع دياب هذا الكلام دق الطبول وركبت الفرسان إلى ساحة الميدان ونظر الملك نايل قوم الأمير دياب أمر بدق طبوله فاجتمع فى الحال عنده ثلاثة ميات الف من الابطال فخرج بالعساكر إلى خارج السور إلى أن التقت العين على العين فنزل الامير درغام وطلب براز الفرسان فما أتم كلامه حتى صار الملك نايل أمامه وقال له من تكون من الفرسان قال له أنا الأمير درغام ابن الأمير زيدان وأنت من تكون من الفرسان فقال له أنا فارس من القبائل ومهلك الجحافل حاكم مدينة طنجة الملك نايل ثم التقى البطلين كأنهم أسدين وقام الحرب وزاد الضرب إلى تناصف النهار فرجع نايل على خصمه فلاصقه وضايقه وسد عليه طرقه وضرب بيده جلبات درعه اقتلعه من بحر سرجه وحذفه إلى الوراء فأخذه قوم نايل أسير وقيدوه بالاغلال والجنازير فبرز الأمير زيدان فتلقاه الملك

وأخذوا فى ضرب الصفاح وطعن الرماح حتى زهقت الأرواح فضربه بعقيب الرمح
فقلبه وسلمه لقومه أسيرا وأخذه ذليل حقير فبرز إليه آخر أذاه وثانى أعدمه الحياة
وثالث بدد أمعاه ورابع غرقه بدماه ومازال يقتل حتى قتل عشرين وأسر ثلاثين حتى
قبيل الظلام ودقت طبول الانفصال ورجع الأمير دياب وهو غائب عن الصواب من
عظم ما جرى عليه من فرسانه وعلى من قتل منهم ثم شجع الفرسان على الحرب والطعان
وتخليص الأسرى من الذل والهوان فلما أصبح الصباح ضربوا طبول الحرب والكفاح
فبرز الأمير نايل إلى ساحة الميدان ونادى هل من مبارز هل من مناجز لا يبرز للميدان
لا كسلان ولا عاجز فما أتم كلامه حتى صار الأمير دياب بن غانم قدامه وقال له
بالهلاك فقد أتاك الأمير دياب فتشاتموا بالكلام ودار فى أياديهم الحسام وانطلقوا
انطلاق الغمام فراح بينهم ضربتين قاطعتين وكان السابق الأمير دياب فوقعت الضربة
فى صدر الأمير نايل أرماه قتيل وفى دماه جديل فولت قومه هاربين وإلى النجاة
طالبين فدخل الأمير دياب البلد وقد خلص الأسرى وجلس تحت طنجة وأمر أن
ينادى فى البلد الأمان وجمع الاكابر واستلم الأموال والذخائر واستولى على الملك
واستدعى الأمير عقيل وأجلسه نائبا على البلد وخرج قاصدا طنجة ومازال سائرا إلى
أن وصل إلى سهل واسع الجنابات فسرحوا الأغنام ونصبوا الاعلام عدة أيام .
(قال الراوى) هذا ما كان من أمرهم وأما ما كان من الملك مزيد ملك قاعدة
طنجة فانه قد توارد عليه الأخبار بما فعل الأمير دياب من الحروب والأهوال
فاستدعى وزيره الأكبر وكان اسمه عمر وكان هذا الوزير عاقلا خبير وصاحب رأى
وتدبير فقص عليه مافعل الأمير دياب بكوج وبرج الدور ونيمة واجه طنجة فلما
سمع الوزير هذا الأمر صار قلبه مثل لهيب الجمر وقال للملك الأوفق أن تخلى اهم
البلاد وتحجب دماء العباد وترتاح من هؤلاء الأوغاد فقال الملك رأيك ليس صواب
وانك خايف من هؤلاء الانذال ففى الغد إن شاء الله أترك قتلاهم كالتلال وفى الحال
أمر بدق طبول القتال فحضرت العساكر عنده والفرسان فلما كان اليوم التالى عند
الصباح وبرزت الطائفتين للحرب والكفاح واصطفت الصفوف وإذا الملك مزيد
وهو مضيق اللثام كأنه قطعة من غمام راكب على جواد أشقر فبرز إلى ساحة الميدان

وطلب مبارزة الفرسان فبرز اليه دياب وهو راكب على الشهبا وقال له من تكون أيها الفارس فأجابه دونك بحومة الميدان أنا الملك مزيد فارس عشيرته وحامى قبيلته وأنت من تكون من الفرسان يا نذل العربان .

عند ذلك حملوا البطلين كأنهم جبلين وغنى عليهم غراب البين مدة سبعة أيام وفى اليوم الثامن إذ دياب على خصمه الدرهم قنطار وجذب الحسام وضربه على رأسه فهوى السيف إلى بطن الجواد فألقاه على الأرض أربعة أقسام وحمل على العساكر ومن وراه بنى زغبة ورياح وفتكوا بهم فتك الديب بالغنم ودخلوا البلد وجلس دياب على الكرسى وضبط الأموال وجمع الغلال ووضع عليها أمير يسمى خليل وقال له أنت تكون نائب على مدينة طنجة وتقوم مقامنا بالأحكام وترسل لنا الجزية فى كل عام وحينئذ أمر دياب بدق طبل الرحيل وجد السير إلى اللغة الحائجة وكان الملك عليها اسمه سليمان فعند ما علم بقدوم دياب أمر حالا بتجهيز العساكر فبينما هم فى الانتظار وإذا بجيش دياب بن غانم فلما وقعت العين بالعين ونظرت بعضها الطائفتين هجمت الفرسان واصطدما الفريقان وتضاربا السيوف وتطاعنا بالسنان لمدة عشرة أيام وفى الحادى عشر برز إلى الميدان فبرز اليه الملك سليمان وكل واحد طبق على رفيقه مقدار ساعتين من الزمان فطلع من الاثنين ضربتين قاطعتين وكان السابق الأمير دياب فأخذ الرمح وطعن الملك سليمان فى صدره فطلع يلمع من ظهره فوقع إلى الأرض قتيل فلما نظرت عساكر الملك سليمان إلى ملكها قتيلها أبطال بنى زغبة حتى شتتوهم ورجعت عساكر الأمير دياب إلى البلد وجلس على كرسى المملكة واستلم زمامها وأموالها فعند ذلك ولى عبد الجليل الوباجى نائب من قبله وأوصاه بأحكام البلاد وراحة الناس وبعد ذلك حضرت عند الأمير دياب جميع بنى زغبة وذبحوا الذبائح وعملوا الولائم والافراح من الحروب والكفاح فكان من أمر الأمير دياب فى تلك السبعة القلاع وبلاد الغرب فسمته :

﴿ هذه حرب الامير أبو زيد مع أهالى الغرب ﴾

(وأخذ السبعة قلاع)

واسمع ما جرى للامير أبو زيد بعدما غادر الأمير دياب حينما قرأوا الفواتح

وتوجه كل واحد لأهله بملك قسمته أبوزيد من هناك قاصد بلاد حوس عند الملك
ونصبت خيامه وأحاط كل البلد من جميع الجهات فلما أصبح الصباح قامت أهالى
البلد ونظرت بنى زحلان كأنهن مردة الجان فارتعشوا من هذا الأمير وأخبروا
الملك فياض وكان شديد البأس قوى المراس فلما سمع منهم هذا الخبر هدر وزمجر
وصاح على الفرسان وأمرهم بالخروج إلى القتال فركبوا الخيول وتقلدوا النصال
وركب الملك فياض بمقدمتهم وخرجوا خارج البلد وصاحوا على العربان ونزلوا
عليهم كما لسع الثعبان فلما رأى الأمير أبوزيد وقدامه الزحلان والعساكر أقبلت
فهدروا على ظهور الخيول وصاروا يحملوا الفرسان بالعرض والطول بينهم فى قتال
مغير بهذه القلاع الحصينة التى الأمير أبوزيد بالأمير فياض فتشاغلوا بالقول
ووقع بينهم القتال والتقوا الفرسان وأخذوا فى القتال ولكن لله درهما من بطلين
ضرغامين وأسدين كاسرين فشخصت لهم الأحداق وتطاولت إليهم الأعناق وتعلمت
منهم الفرسان بيان القتال والطعان فما تناصف النهار حتى صار الدم جارى كأنهار
هذا والأمير أبو زيد وفياض يتضاربان بالسيف البتار فقام الأمير فياض أبو ضربه
الأمير أبوزيد فخلى منها فراحت الضربة خائبة بعدما كانت صائبة واعتدل الأمير
وزيد على ظهر الحصان كأنه فرخ جان وضرب الأمير فياض على هامه حط
رأسه قدامه وهو وقومه على الدشمان راوتى كأنه صاعقة نزلت من السماء وكل
عباصر الأعداء بالدماء وما ولى النهار حتى عسكر الملك فياض وولت الأدبار وارتكنه
إلى الفرار فتبعوهم قوم الأمير أبوزيد حتى دخلوا البلد وملك الأمير أبوزيد إلى
الديوان واستلم ذخائرها وأموالها وطاعت لهم جميع سكانها وطلع الأمير أبوزيد
إلى الديوان وجلس على كرسى السلطنة وأحضر أميرمن بنى زحلان اسمه الأمير
حمزة وولاه قايم على تخت قابس ثم ودعه وسار قاصد مدينة سوت وكان الحاكم ملك
عظيم الشأن ذو جند وأعوان يقال له البهلوان وكان قد وصلت له الأخبار بما جرى
للملك فياض من يد الأمير أبوزيد فارس بنى هلال فجمع العساكر والأبطال
ونصب خيامه خارج البلد وهو منتظر قدوم أبو زيد .

(قال الراوى) وما مضت ثلاث أيام حتى الغبار وغبرت والخيل أقبلت والطبول

ضربت والزمور انفخت والرايات انتشرت والأعلام رفعت والأبطال زعقت وقوم الامير أبو زيد على الأعداء حملت والرجال زحفت والرماح للصدور خرقت والسيوف والرماح قطعت والدماء دفقت وضربات أبو زيد الفرسان تحفت وصرخاته الجبال زلزلت ومنه الفريقين برب الخالق تعوذت من أهلك الأبطال بطعناته وأفناهم بضرباته وأبهرهم بصرخاته وشتتهم بحملاته فبينما هو يصول ويجول صرخوا صرختان ارتجت من عظم صرخاته الوديان وصاح أبو زيد على خصمه وفاجأه وضربه بحسامه فبدد امعاه وأعدمه الحياة وجعل القبر مأواه فلما نظرت عساكره هذا الحال وأن ملكها ممدد على الرمال ولوا الادبار واركنوا إلى الفرار فتبعهم أبو زيد للبلد وملك أبراجها وأسوارها وولى عليها أمير يقال له الأمير عمران واجلسه على كرسي المملكة وأرسل أخبر الأمير حسن بما جرى ورحل من هناك طالب قلعة مغوار هذا ما كان من أمره وأما ما كان من أمر المنهزمين من قوم الأمير البهلوان فانهم مازالوا سائرين حتى وصلوا مغوار وفدخلوا على ملكها وأخبروه بما جرى له مع الأمير أبو زيد وكيف قتل ملكهم وملك قلعتهم وأخبروه أن هؤلاء العربان هم الذين قتلوا الزناتي وملكوا البلاد وسبوا العباد فلما سمع الملك منهم هذا الكلام قال لهم ياقوم الرأي عندي أن نترك لهم البلد ونذهب إلى مدينة القيروان لعند الملك زهير لأن اراضينا لا تحميها العساكر وذلك من كثرة الخوف والفزع فذهبوا وتركوا البلد وقصدوا مدينة القيروان فلما صاروا اليها ودخلوا على ملكها الامير زهير وأخبروه بواقعة الحال وما جرى لهم من الأهوال فقال لهم إن هذه الأرض لا تكفينا فالأوفق أن نذهب الى الاندلس لأنها واسعة حصينة وبها قلعة متينة فاستصوبوا رايه وسارت الرجال والأعمال إلى الاندلس لعند الامير حماد وأخبروه بواقعة الحال وما جرى لهم فالتقاهم بالاكرام وأنزلهم بأحسن مقام وأمر بتحصين البلد وتبريز الخيام إلى الخارج وجلسوا بانتظار الأمير أبو زيد هذا ما كان من أمرهم وأما ما كان من أمر الامير أبو زيد فانه مازال في رقابهم سائر إلى أن وصل إلى قلعة مغوارة فخرجوا أهالي البلد وهم رابطين عمارم الامان في رقابهم فسألهم عن ملكهم فقالوا له أنه لما سمع بقدومك هربوا العساكر من البلد وهربوا الى مدينة قيروان

لعند الملك زهير وحينئذ أعطاهم الامان ودخل البلد وضبط الاموال وولى الامير مروان على تخت القلعة ودخل طالب مدينة القيروان ومازال سائراً إلى أن وصل اليها فاستقبلوه الاهالى وفى رقابهم المحارم فسألهم عن ملكهم فقالوا انه ذهب إلى الاندلس فحينئذ أعطاهم الامان وضبط الاموال والقلعة وولى عليها الامير مسعود وأوصاه بالاحكام ورحل طالب قاعة الاندلس ومازال سائراً إلى أن وصل إلى البلد فنظر العساكر كانهم قطع الغمام فأمر بنصب الخيام وكان أقبل الظلام فباتوا الفريقين يتحادثون تحت مشيئة الرحمن إلى أن أصبح الصباح ضربوا طبول الحرب والكفاح وركبوا الجواد القداح وتقلدوا بما يلزمهم من السلاح واعتقلوا بالسيوف والرماح فبرز الامير حماد إلى ساحة الميدان ولعب بالسيوف والسنان حتى حير عقول الفريقان ثم طلب براز الفرسان فبرز اليه الامير أبو زيد فالتقوا البطالين كانهم جبلين وصاح الامير أبو زيد على خصمه وفاجأه بضرب الحسام وأتاه حتى حلك الركاب بالركاب فلاح الحسام بيمينه وارع الضرب على الملك حماد فأتت الضربة على رأسه فقتلته فلما رأوا قوم الملك حماد ملكهم قتيل ولوا إلى الهرب ورجعوا قاصدين إلى البلد وهجم الامير أبو زيد وهجمت من وراءه بنى زحلان الشجعان وتبعوا الدشمان بضرب السنان حتى دخلوا البلد فنزلوا عليهم بضرب العمد وجردوا فيهم السيف البتار حتى صار الدم فى المدينة كالانهار وبعد ذلك رجعت عنهم الفرسان وجلس أبو زيد على كرسى المملكة وحينئذ طلبت منهم الاهالى الامان فأعطوهم الامان وطابت لهم مكان الاندلس والقيروان وحينئذ الامير أبو زيد ولى وطوى ابن مالك قديماً تلك القلعة ووصاه بالاحكام وصاروا قاصدين مدينة مركاش فلما وصلوا اليها ونصبوا الخيام من حواليها وركزوا الاعلام فيها بلغ مالك قدوم العربان جمع أكابر دولته وسألهم عن سبب قدومهم فقال أحدهم انهم من قوم بنى هلال الذين قتلوا الزناتى خليفه والعلام وملكوا جميع البلاد وهم رفقات الذين تملكوا السبعة قلاع ناحية الشرق وقد اتوا يملكوا أرضنا وبيننا وبينهم فى الحدود وإذا برسول مقبل فدخل وقبل الارض بين أيادى الملك وقال له ان سيدى الامير أبو زيد يقرئك جزيل السلام وهو يقول لك ان تسلم البلد والا يحل بك كما حل بغيرك من ملوك البلاد فلما

سمع الملك من الرسول هذا الكلام خاف الخوف الشديد والتفت إلى أكابر البلدان وقال ما عندكم من الرأى فقالوا له الرأى عندنا أن اصالحهم ونسلمهم البلد فالتفت الملك إلى العبيد وقال لهم خذ الرسول إلى بيت الضيافة وجهزوا حالهم وخرجوا إلى ملتقى الأمير أبو زيد الامراء والوزراء وضربوا طبول الملاقات فلما رأت بنى هلال مقبلين بدون سلاح عرفوا انهم سلموا البلد فلاقوهم بنى هلال أحسن ملاقاة وسلموا على بعضهم البعض وضافوهم قوم مالك وقام بواجبهم أحسن قيام مدة ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع طلب أبو زيد البلد حالا فقدموا له الدفاتر والاموال فاستلمهم أبو زيد واجلس مالك على كرسيه بشرهم ان يدفع الجزية فى كل عام وبعد ذلك ودعوهم وصاروا وما زالوا سائرين أول يوم والثانى والثالث بعد الصباح وصلوا إلى مدينة حصينة بالخيرات سكنه فيها ابراج وانهار واطيار تسبح الملك الغفار ونظروا خارج خيام منصوبة ورايات مرفوعة سرادق مضروبة واسمها قلعة زوارة وكان يحكم عليها ملك عظيم الشأن وجند وعربان يدعى الأمير كامل وكانت قوم ملك المنهزمين فلما قبلوا عليه فى عشرة وعشرين واخبروه بما جرى عليهم من الحروب من الأول إلى الآخر وأخبروهم بأنهم قاصدين اليه فبالحال أمر بتجهيز العساكر والمهمات والذخائر وان يحضروا الأبطال إلى ملاقاة الحرب والقتال واستدعى بقلم وقرطاس ودواية من الذهب الخالص وأشار يتهدد بنى هلال ويقول :

يقول الفتى كامل على ما جرى له ... فى نيران قلبه شاعلات الضرايم
فيا أيها الغادى توصل رسالتى ... إلى حسن سلطان قيس الاكارم
وقول له الملك كامل يقول لك ... بأى سبب لأرضنا جيت قادم
فان كنت تطلب السلامة ارتجع ... وهذا ختامك ثم ارتد سالم
مرادكم قلعة زوارة وملكها ... فيها قروم ليسوا يخشوا الصوارم
نهارك اختيارك الحرب فى الوغى ... آجى كما سبع للصيد حايم

فلما فرغ كامل من نظامه أرسل الكتاب فلما وصل الجواب لعند الأمير أبو زيد فضه وقرأه وعرف ما حواه فأمر بدق طبول الحرب ونزلت الفرسان لمحل الطعن والضرب فلما سمع كامل صوت الطبول أمر بدق طبوله وحضرت فرسانه

إلى ساحة الميدان فلما التفت الطائفتين ورمقت العين على العين برز كامل إلى الميدان كأنه الأسد الغضبان وكأنه فارس الفرسان وبطل درغام وأشجع الشجعان فبرز اليه أبو زيد فتقاتلوا حتى كلت منهم الزنود وقدحت لهم الأعيان وتعلمت منهم الفرسان أبواب الحرب والطعان ومازالوا في حرب شديد يفك الزرد النضيد ويشيب الطفل الوليد مدة عشرة أيام حتى ضجرت الابطال من هذا الحرب والقتال وفي اليوم الحادي عشر برز أبو زيد إلى الميدان فصال وجال وطلب براز الأبطال فبرز اليه كامل كأنه القصاص الجادل فالتقوا البطلين كأنهم قلعتين حصينتين وابتدروا بضرب السيوف وطعن يرعب بكل قلب ماهوف حتى تحيرت من قتالهم الفرسان وتعلمت منهم الحرب والطعان وما زالوا على هذا الحال إلى قرب الزوال فطالع من الاثنين ضربتين قاطعتين وكان السابق كامل فضرب بها أبو زيد فراحت خايبة بواسطة الحيل والوى لقام أبو زيد بعزم الركاب وضربه بالسيف على هامه حط رأسه قدامه وحينئذ هجم وهجمت من وراءه الفرسان وفاروا على الاعداء من كل مكان ومالوا عليهم بطعن يشيب الأطفال وضرب يكسر الصوان إلى أن أدخلوهم البلد فبالحال أبو زيد جلس على كرسي المملكة وضبط الأموال واستلم جميع الأحوال وأحضر الامير هادي ووضعه حاكم على قلعة زوارة وأمر باشهار المنادي وهو الحاكم عليها بكل حفظ وأمان وبعد ذلك جهز أبو زيد الأموال وحملهم على الجمال وأمر بدق طبل الرحيل وساروا الجيوش والمواكب والفرسان والكتائب ومعهم الأغنام والمكاسب ومازالوا سائرين يطوفوا الفيافي والقفار حتى وصلوا إلى عين تورزو هي بنصف الطريق فجلس لأجل أخذ الراحة وأمر بذبح الأغنام وشرب المدام وبينما هم على هذا الحال إذ طلعت عساكر دياب من ناحية الغرب الجنوبي فلما التقى أبو زيد بالأمير دياب هنوا بعضهم بالسلامة واخبروا بعضهم بما قاسوا من الحرب والأهوال وجلسوا ثلاثة أيام وقاموا وجدوا المسير حتى وصلوا إلى تونس فلما علم حسن بقدومهم خرج لملتقاهم بالنساء والرجال وجميع الذين كانوا بالأطلال وعند ملتقاهم هناهم بالسلامة ودخلوا بموكب عظيم ودارت البشائر في جموع بني هلال وفرحت في قدومهم النساء والرجال وبعد ما استراحوا سألهم

الأمير حسن عن الأحوال التي جرت لهم فخبروه من الأول إلى الآخر بما قاسوا من الحروب والأهوال في تملك سبعة تخوت بلاد الغرب وحينئذ أمر حسن بعمل وليمة كبيرة وبذبح الاغنام وتروق المدام ودعي اليها الخاص والعام وبعد مدة من الزمان قسموا بلاد الغرب بينهم بالسوية بين أبو زيد وحسن ودياب كل واحد الثلث وأما تونس لدياب من غير حساب عوض الخضرا رجع حسن الى القيروان وجعلها عاصمته وأبو زيد جعل الاندلس عاصمته وحينئذ جلس كل واحد مملكته بكل أمان (قال الراوي) تقدم الكلام في قصة الزناتي بأن بني هلال تملكوا تخوت بلاد الغرب الاربعة عشر قلعة لنرجع الآن الكلام إلى سعده بنت الزناتي فانها كانت باقية بقصر أبيها عند حريم دياب تقاسي الذل والعذاب كما ذكرنا الكلام لما رأت حسن نسيها وما عاد يفتكر فيها ولا أبو زيد فجعلت تكتب للامير حسن وذكرته بخلاصها من دياب وأنها مظلومة عنده للغاية وقد سلمت الكتاب صحبة نجاب فلما وصل الى حسن أعطاه الكتاب ففضه وقرأه وعرف رموزه ومعناه فتغيرت منه الاحوال والتهب به الغضب بالحال وحينئذ أرسل عبده سرور إلى أبو زيد وأخبروه بالقضية فحالا أبو زيد ومعه خمسة آلاف فارس من بني زحلان كأنهم من الجان فلاقاه حسن وسلم عليه وبعده ارتاح أبو زيد قال للامير حسن حتى أرسلته لي فحينئذ فأعطاه كتاب سعده فلما قرأه أمر باحضار النجاب فلما حضر بين يديه قال له أخبر الست سعده أننا بعد ثلاثة أيام نكون عندها فسار العبد وأخبرها بأنهم آتين ليأخذوها ففرحت وقامت تنتظر قدومهم وأما حسن وأبو زيد ركبوا في ثاني الايام وساروا حتى دخلوا إلى تونس الغرب فلما نظرهم دياب نزل ولاقاهم بالترحيب والإكرام وأدخلهم القصر وذبح الذبائح وأقاموا بضيافته ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع قال لهم دياب لقد شرفتونا بمنازلكم وكان الواجب أرحل أنا الاول اليكم وأقدم الواجب علي فقال حسن نحن ما أتينا إلا لأمر مهم ثم أشار يقول :

يقول حسن الهلالي أبو علي	ولي قلب من جور الزمان كواه
ولي عين طول الليل لا تألف الكرا	ودمعي فوق خدي سجاه
يا دياب الخيل اسمع مقالتي	واصغى لقولي وافهم معناه

قتلت الزناتي كان هذا مقدر ... من عند ربي من أعالي سماه
وجيت رعك فرق باب تونس ... وقصدت تدخلها بغير جاه
ومن بعدها قد كنت حاكم مكانه ... وكل هـــذا الفعل ساعناه
فان عطينا ثلث الغرب ومهما تريده ... أنت وأنا وأبو زيد أخواه
أخذت تونس بدل خضرة أصيلة ... وما عاد قط لك حق سواه
وسعده بقت عنده وديعة لبينا ... يروق منا البال نقيم هناه
طلبته منها أن تكون حايلتك ... هذا فعال العيب لا ترضاه
وجعلتها عند الجوار لخدمتك ... وتطحن للملك والحطب ومياه
عيب ترى هذه الفعال جميعها ... وما هي مروءة الرجال تراه
سعده مرادي أخذها لضعونا ... وأزوجها مرعى بأحسن جاه
وهي يتيمة يا دياب بن غانم ... أبوها قتلته أنت وسط فلاه
ما قال حسن الهلالي أبو علي ... فأي تحمل جور ثم أساه

فلما فرغ حسن من كلامه ودياب يسمع نظامه اغتاظ دياب الغيظ الشديد من ذلك ولكنه أخفى الكمد وقال ان سعده باقية كما هي وأما قولك إني طلبت أن أتزوجها فهذا كذب فقال حسن هذا كتاب سعده اقرأ فقرأ دياب واغتاظ أكثر من الأول وقال يا حسن هذه سعده بواقعة وحالته فالتي تخون أبوها لا يكون فيها خير لأحد فالواجب اذلالها فقال هذه خطيبة أخو يامرعي فاطلب أن تعامني إياها والا يقع بيننا أسباب ماهي في حساب فعندها أنشد دياب يقول :

يقول الزغبي دياب بن غانم ... ولي عزم أمضى من حسام شقاه
ولي همة في الحرب ان قام سوقها ... أدعي دم الأبطال شبه قناه
يابو علي اسمع كلامي وقصتي ... اصغى إلى قولي وافهم معناه
لما دخلنا الغرب يا أمير أبو علي ... نسيتم فعالي واخترقتم علاه
فقلتم دياب الخيل يرعى جمالنا ... ونحن نكون للزناتي بلاه
فتحتم مبادي الوغا مع خليفة ... نعم أبو سعده شديد لقاه
وجعتم علاتم الزغابة حيلة ... دعاهم أبو سعده بسيفه عفاه

قتل يدين الخيل عالى واخوتى زيدان مع بدر الأمير سواه
تسعين أمير من قرايب قتلتهم وأبو زيد ناظر لا يريد طفياه
قتل عقل سلطان الفوارس كلها فيالهفى يا عقل روح هفاه
فوالله أرض الشرق والغرب كلها فيالهفى يا عقل روح هفاه
مضى عقل ونصر وأنا كنت غائبا هوابس تسوق الخيل وقت لقاه
ولما عجزتم عن خليفة وحربه وقاتم ماغير أبو موسى يلقاه
بعثتم براقع شعور بناتكم وما جيت إلى بعجتين سواه
منك ومن أبو زيد فهم تقولوا يا للوحى يا أمير زغبى تعاله
وجيتكم من فوق خضرا كريمة عالجرى يسبق برقها ولمعاه
اقانى أبو سعده الزناتى خليفة من فوق أشهب مثل طير بلاه
٣ شهور السكون عافت بيننا ويااما جرى بيننا ودماه
قتل خضرتى تسوى المداين كلها وقعت على الخضرا أكبر بكاه
طعنته بحربة مثل نار تنطفى فى وسط عينه نفذت من قفاه
وراح أبو سعده قتيلا على الوحى وراحت الخضرا حبيبتى معاه
تقول عطيتونى اتملك ملكه أخذته بضرب السيف والقناه
وتوبخنى من أجل بنت خليفة إذا كنت أرضاها فبعض نساه
طعنها الملح هذا جـــراها وهذا جزاه من يخون أباه
تقول تأخذها لعندك ياحسن وهذا ترى ما لا يصير والله
أنا قايل السكوى وأنت غايبا والجور تحرق فى مكان رماه
ملكتكم الشرق والغرب كلها وما بان لى معكم جميل تراه
فهذا أبو زيد حاكم بيننا وابى لحكمه ياحسن أرضاه
ما قال الفتى دياب ولد غانم ومن يعاندنى الحسام دواه

ثم أرادوا أن يهجموا على بعض فنعهم أبو زيد وقال ماهذا الفعال تتقاتلوا الأجل بنت عندى رأى حسن فقال الأمير دياب ماهو نحن نوضعها فى مكان بعيد فى آخر الميدان ونقف راكبين خيولنا بأول الميدان ونطلق الاعنة فالذى يوصل إلى سعده

قبل الآخر تكون ملكه ويأخذها وقصد الاسمر أن يأخذها عنده وقال فى نفسه
ان خضرة دياب ماتت لا بنتها صغيرة ما هى مثل خيلنا وأخذتها أعطيها الحسن وينحسم
الشر لاننا ضيوف عند دياب ولا يليق أن نأخذها بغير رضاه فقال حسن رضيت
ودياب رضى أيضاً ثم اتفقوا على ذلك وفى اليوم الثانى أحضروا سعده إلى الميدان
ووقفوها فى آخره ووقفوهم فى أوله وأعطوا البعض اشارة فخرجوا كأنهم لشايب
وكان دياب راكب الشهبا إبنة الخضرا وكانت أحسن من أمها فراحت أمام الجميع
ومن خلفه الاسمر الآخر على الحصان وكانت المسافة مقدار ساعة فلما وصل اليها
قالت له سعده أنا أختك يا دياب وكان الاسمر علمها أن تقول ذلك فلما سمع كلامها
عرف المضمون فشهر حسامه فجرحها جرحاً بليغاً فصار به حسن وقال ماذا عملت
هكذا يا دياب قال أنتم قلتم ان الذى يسبق اليها تكون ملكه وهى صارت ملكى
فأتصرف كيف أشاء وبما أنها خاينة لا أريد أن أبقيها عندى ثم نزلوا إلى سعدة
فوجدوا فيها روح فحملوها وساروا حتى دخلوا القيروان واجتمعت البنات والنسوان
لما عرفوا بقتل سعده وكذلك مرعى فانه مزق ثيابه ونتف شعره وسار كالمجنون
وأما سعده فانها فتحت عينيها من حلاوة الروح وأشارت تودع الدنيا بكلام
يفتت الاكباد حيث تقول :

أنا كنت أسعد الناس كلها	شبيه القمر إن بان تحت غمام
مولعة بالعز والغنى والصبا	أنا وأبى فى لذة وأنعام
فلما أتى أبو زيد للعرب ردها	ومعه أمارة خيرين كرام
علمت بهم من قبل أن يأتوا بلادنا	ضربت تحت الرمل والافهام
جاءوا إلى سلطان قابس الضحى	وأبو زيد من سهر الليالى نام
أتوهم عبيد السود وقفوا حولهم	وهم ساحبين خناجر وحسام
وشدوا أياديهم كتافا إلى ورا	وأخذوا صوارمهم مع الاغنام
وقد عرضوهم للزناتى خليفة	ملك ملوك الارض كالضرغام
نهرهم وقال جيتم تزوروا بلادنا	فقالوا نحن شعار نقصد الاكرام
فقال شلحوهم يا عبيد ثيابهم	وامضوا بهم إلى المشنقات قوام

ونادى عليهم فى شوارع تونس ودلوا حبالا ما كنات يرام
فطليت من شباك قصرى أشوفهم وأنا مثل بدر مستهل تمام
تعلقت فى مرعى لمـــا نظرته سلب مهجتى والقلب منه هام
وقد أصلت نار الغرام بضامرى وقد هاج بالبلى وزاد غرام
نهضت أنا من منزلى نحو والدى وقلت يا أبى لا تكن ظلام
فما ذنب شعرا أمرت بقتلهم مساكين فقراء كلهم أيتام
فقال جاءوا يزوروا بلادنا لكى يملكوها فى قنا وحسام
أشرت على أبويا شور أطاعنى ومن يأمن الأنثى يروح عدام
لبست من الصندوق ثوباً مذهباً وأرخيت من فوقه رفيع أكمام
وفى وسط قصرى يا أمير وضعتهم وأبو زيد قد راح يجيب أغنام
وقلت لهم لا تحملوهم والذى عليكم منى الف الف سلام
وجبت لهم من كل ما يشتهونه من اللبس والشاشات والهندام
إذا اف مرعى الشاش من فوق راحة فيقطع حبلى ما أطيق قيام
أشوف وجهه كالهلال إذا بدا وجبهته تضوى كبدر تمام
مضى وما مضى إلا وأبو زيد عائداً ومعه جموع مثل فيض غمام
وعدم تسعين الف ومثلها وتسعين فى تسعين الف همام
زرعوا أرض تونس والبساتين كلها وابنوا بيوتاً عالية وخيام
فقاتلهم أبويا ثم أخذتوا بلادنا قتله الفتى الزغبى أبو غنام
تملكتم تونس وقابس أرضنا ولا تحفظوا لى يا كرام مقام
وما نلت من مرعى مناى وبغيتى نسينى ولم يرعى إلى زمام
يارب من كان السبب بفراقنا يقتل وفوق الأرض دمه يعوم
قد احرمونى لذة العيش والهنا وشملى تفرق مابقى له لموم
فلا تلومونى الصغيرة إذا بكت أبكى على أهلى وكل عموم
زرعت جميلا قابلونى بضده وكيف من زرع الجميل يضام
أيا أبو على قد كان منى تحاكم وملكتكم عشرين تحت تمام

فما عاد إلا الموت يا أمير أبو على ... سأرحل عن الدنيا بغير مرام
يا أبو على هات لى مرهى أشوفه ... وأودعه قبل أن أذوق حمام
ياليت أبقى لمرهى خـــدمة ... وأكبس لرجليه بوقت منام
أيا أمير جازى دياب بفعله ... ولا تتركه يرتاح ياصمصام
مذبح لأولاده على صحن صدره ... ومن بعدها يمضى بلا مقام
يارب جازى من سبب موتى ... وأنا بعز عمرى ما بلغت مرام
تقول الصغيرة بنت سلطان تونس ... عليكم منى الف الف سلام

فلما فرغت سعدة من كلامها حتى شهقت شهقة واحدة وماتت فقاموا عليها الصياح والنواح ثم غسلوها ودفنوها وصار حسن فى قلبه من دياب نار الالتهاب وأما دياب فانه طغى فى الحكم لأنه ملك فى آخر عمره وكان يبغض على أهل العرب وهم كلهم يبغضونه وما عرف كيف يتصرف بالملك فأفسد عليه أهل بنى زغبة وصاروا يوشون امهم حتى صاروا أكثرهم يبغضوه ولكن ما احد منهم قدر أن يحكى كلمة لأنهم يخافون من بأسه وسطوته ودامت الاحقاد بين دياب وحسن وأبو زيد ولكن فى الظاهر كانوا يظهرون المحبة والمودة ويخفوا ما فى قلوبهم .

(قال الراوى) هذا ماكان من دياب وبنى هلال واسمع ماجرى إلى زعيمة ست الغرب أخت الزناتى فانها لما علمت بأنه وقعت البغضة فى بنى هلال قصدت أن ترمى الفتنة بين الأمير دياب والأمير حسن وفى الحال جمعت عشيرتها وأخو العلام وقال ايه ياقوم لقد فقدنا أخى الزناتى والعلام والجابلى بن مقرب وفتحوا بنو هلال الفتوحات وملكوا السبعة تخوت بلاد الغرب وماخلوا لنا ما نسكن فيه قد حزنى موت سعده إبنة أخى وكسرت ظهرى وكانت كل أملى فيها أن تعزنا وتكون ملجأنا فالآن مرادى أتوجه إلى بلاد بنى هلال وأرمى فيهم الفتن فقال لها أخو العلام ياست زعيمة نخاف عليك من أبو زيد لأنه حيال مكار ومكره غلب مكر المغاوب فقالت لا تخاف على من هذا القبيل وحملت وودعت قومها وسارت إلى عند بنى هلال بصفة شاعر ان ترمى الفتنة بينهم وما زالت سائرة حتى وصلت إلى تونس الخضرة فدخلت على الأمير دياب فباست يديه وسلمت عليه وقالت له

يا أمير قد شرفتني سلامتك وفرحت بقتل الزناتي لأنه أكثر أصـــدائي قتل أهلي و يتم أولادي وأخذ مالي وعدت حزينة غريبة في أقصى البلاد فلما علمت أنه مات ركبت ناقتي وقصدت منازلكم العامرة وأنا عندي هذه الارض والبلاد عين سلوان وغيط المهرجان وأنا خاطري أقسم لك هذه البلاد و يكون لك الغيط من قسمتك فانه يكون لتمام حظك عين سلوان فقال لها ما يكون هذا الغيط وفي أي بلاد فقالت له غدا صباحاً نتوجه وأريك إياه وبقوا يتحدثان عن الغيط إلى أن أصبح الصباح فركب الأمير دياب في جماعته والعجوز وجدوا بقطع القفار إلى أن وصلوا إلى ذلك الغيط فانبسط الأمير دياب وانشرح لما نظروا تلك الغدران التي تدهش البصر وتلك القصور العامرة والأشجار الفاخرة وصار الأمير دياب في غيط المهرجان وعين سلوان يجني الاثمار و يقطف الازهار وأما العجوز قالت إلى الامير دياب أرجو أن تسمح لي أن أذهب إلى عند أولادي وآخذ لهم حمل من الفواكه فقال لها إفعلي ما بدالك ولكن لا تطولي علينا غيابك يا أماه فحينئذ أخذت سمت العرب من أخر أثمار الغيط وذهبت إلى عند الامير حسن والامير أبو زيد وجدت في المسير حتى وصلت اليهم وسلمت عليهم وقبلت يديهم وقدمت لهم الهدايا وأشارت ترمى وتصف لهم الغيط والمهرجان .

(قال الراوى) فلما فرغت من كلامها والامير حسن والامير أبو زيد يسمعوا شعرها ونظامها وقع الحسد في قلوبهم من الأمير دياب ثم انعموا على العجوز وأصرفوها في حال سبيلها وقال الأمير حسن والله يا أمير أبو زيد إن الامير دياب حاز أخر ملك العرب ومرادنا أن نرتب في الابطال نقصد في عاجل الحال وننظر هذا الروض وصار حسن يخابر أمراء العرب على الفتك بدياب وفي ثاني الايام جمعوا الفرسان والأبطال وركب هو والامير أبو زيد وما زالوا سائرين إلى أن وصلوا عند الامير ودخلوا غيط المهرجان وعين سلوان ولما نظر الامير حسن وأبو زيد هذا المنظر وعلو القصر وجميع ما ذكرت عنه العجوز تعجبوا غاية العجب ولما علم الامير دياب بحضورهم لاقاهم وقال لهم الامير أبو زيد يا أمير دياب نحن ما سكين البقرة من ذنبها وأنت تحلبها فقال الامير دياب باذن الله أعطى من يمنع وإذا منع من يعطى

فقال الأمير أبو زيد فان شئت يا أمير دياب تعطي هذا الغيط إلى الأمير حسن فاقال دياب بذلك فاغتاظ أبو زيد من دياب وشاف الجمال وهجم على بعض فهدموا الاسوار وردموا الابيار وكسروا الأشجار ولما نظر دياب هذه الفعال غضب في الحال وجمع بني زغبة وفي نصف الليل حضر الاثنا عشر ألف ثعالب وذهبهم بالزفت والكبريت وشعلهم في أذنابهم وأطلقهم بين زرع بني هلال وكان أيام الحصاد فاشتعل الزرع والعب في بعضه البعض فوصل الخبر إلى الأمير حسن فخرج وقومه ليطفوا الحريق ولكن كان احترق أكثره وما بقي إلا القليل فغضب حسن وعرف أن هذا الفعل فعل دياب فجمع قومه وراح يستشيرهم على حرب دياب وقال الجميع الأحسن أن ترسل وراءه فان أطاع السلطان يحرم قتاله وإن أبى نركب إليه جميعاً في عاجل الحال فأرسل نجاب اليكم استدعى دياب فلما وصل النجاب أبى ولم يحضر وأشار يكتب إلى الأمير حسن يقول:

يقول أبو موسى دياب بن غانم	صحيح كلامك يا أمير دياب
لكنك قلبت حظي وقيمتي	وأصبحت في قلة وقول وواب
تبعث لي راعي الجمال يجيني	كأن عقلك من دماغك غاب
إذا لم تجي ألفين وألفين مثلها	مشاة وركابها مع الركاب
ما جيتك ولو كنت من ما تسكن	لا والله ما لك إلا وطاب

فلما فرغ دياب من الكتاب أعطاه للنجاب وقال له أعطيه إلى الأمير حسن فأخذه وسار حتى وصل إليه فقرأه على رؤوس الامارة فقالوا له الجميع افعل ما تريد فعند ذلك أشار يحثهم على حرب دياب وقتله يقول :

يقول الفتى حسن الهلالي أبو علي	ولي قلب من جور الزمان ملان
فما قولكم يا قوم في ولد غانم	دعانا بلا قدر كالنسوان
قتل أبو سعده وخان عهودنا	فلا خير للصحاب في خوان
فقوموا ودقوا طبول حروبنا	نأخذ بتارات لنا بسنان

فلما فرغ حسن من كلامه وبقية الامارة يسمعون نظامه قالوا كلهم الحق على دياب غدار وما علاج الغدار إلا ضرب البتار كل هذا وأبو زيد ساكت فقال له حسن لماذا يا أبو زيد أنت ساكت فقال أبو زيد أنا لا أرى من الموافق

فقاتلوا دياب لأنه منا وفينا ولا أحب أفنى بعضنا ونحن طول عمرنا عايشين سوا ودايما أنا وهو نتعاون على الخير والشر فاذا حاربته فاما أن أقتله وأما أن يقتلنى ومن قتل منا تخسره بنى هلال وأنا الرأى عندى أن نصلح بينكم ويذهب كل شيء إلى سبيله فقال حسن أنا لابد من قتاله لأنه ما كفاه خارج عن طاعتى ووضع وجهه فوق قوس ليرقنا من تحته لأنه استخف بناجدا وقتل سعده خطيبة مرعى أمامى وهى صارت من حريمنا وقد طمع فينا وأراد أن يأخذها فقال أبو زيد أنا اروح معكم ولكن لا أقاتل بل أصلح ثم إنهم جمعوا قومهم وذهبوا إلى قتال دياب فلما وصلوا اليه وعلم بهم خرج بقومه لقتالهم فلما التقوا الجيشين وبرز حسن إلى الميدان فبرز اليه دياب فالتقوا البطلين كأنهما جبلين وحان عليهما الحين وغنا على رؤوسهم غراب البين وسار الغبار وسد منافذ الأقطار وقدحت حوافر الخيل نار وكلت منهم الزنود وزهقت منهم الكبود وأطلقوا الأعنة وقوموا الأسنة وعدت لهم ضربات مثل مطرقات الحدايد مقدار ساعة من الزمان طلعت من الاثنين ضربتين قاطعتين كان السابق بالضربة الأمير دياب وقعت ضربة على فرس حسن تزلت على جواده كالعدم فأدركه أبو زيد وخلصه وأما مرعى فانه لما نظر السلطان قد وقع على الأرض أراد أن يهجم على دياب ضربه بالحربة جت على لبة فخده فأرماه إلى الأرض ثم أن دياب بعد ذلك لوى عنان جواده ورجع قاصد بلاده وما حد تبعه ثم اجتمع بقومه وقال لهم عرفتم ما قد صار بيننا وبين حسن فما الرأى عندكم قالوا الرأى عندنا أن ترجع وتغيب لك مدة من الزمان حتى تصلح الأحوال ويروق البال لأنك تعديت على حسن وعلى أخيه مرعى وربما حضرت الأمير أبو زيد فتوقع الحروب وأهوال وتفنى بعضنا وتشمت الأعادى فينا فقال لهم الأمير دياب لا أرحل من هذه البلاد ما لم أقتل حسن وما قدره الله يصير فهذا ما كان منه وأما حسن قام من وقته وجدا به مجروح فحمله مع قومه وأخذوه إلى القيروان وصار الأمير أبو زيد يلوم حسن ويقول له أنت تعديت على دياب وكان مرادك تقتله وهذا أخونا من الموافق أن تصغوا القولى وترفعوا الحقد بينكم ثم إن أبا زيد أصلح بين حسن ودياب ولكن بقيت البغضة كامنة فى قلوبهم إلى

يوم من الايام جمع حسن قومه وسادات عشيرته وقال مرادى أزف ابنى مرعى على عطر بنت أبو زيد فنادوا فى جميع العربان مدة العرس شهر تمام لا أحدياً كل ولا يشرب إلا من عند حسن فذبح حسن الذبائح وعمل الولائم ثم استدعى فى عشرين فارس من أولاد عمه وقال مرادى أرسلكم إلى تونس لتعزموا دياب وكتب له كتاباً يعرفه فيه بالحضور وسلمه إلى أمير من أولاد عمه وقال لهم لا ترجعوا إلا ودياب معكم فأخذ المكتوب وصاروا يقطعون الروابى والهضاب قاصدين دياب وأما دياب فى تلك المدة حلم حلماً هائلا فاستدعى ابن عمه مسلم فلما حضر بين يديه سأله عن الخبر فأشار يعلمه بهذا القصيد :

يقول أبو موسى دياب بن غانم	الايام ما تبدى بيوم سعيد
رأيت مناماً يا أمير مسلم	انكد علينا غاية التنكيد
ورأيت خلخالا على الساق فضة	يدور على الرجلين بالتوكيد
ورأيت جماعة من الرجال عدمتهم	وما شفتهم بالامين يا صنديد
ورأيت إنى وسط قاعة مربعة	ومصفحة أبوابهـــــا بحديد
فسر لى منامى يا أمير مسلم	واشرح منامى يا أمير وكيد

(قال الراوى) فلما فرغ دياب من كلامه التفت زيان إلى عمه دياب وقال له لا تفكر ياعمى لأن هذه أضغاث أحلام ما هو إلا من ثقل الطعام وبعد مدة من الزمان أقبلوا عليه عشرون أمير من عند حسن فدخلوا وسلموا عليه وأعلموه عزيمة حسن وأعطوه الكتاب فلما قرأه وعرف رموزه ومعناه انسر وانشرح جداً وسألهم عن صحة الأمير حسن وأبو زيد وعن أخته نافلة وعن بقية جميع بنى هلال فقالوا الجميع بخير يهدوك السلام والتحية وكان قد سمع بهذا الخبر فلا ظن بسوء فقال لهم انى بعد ثلاثة أيام إن شاء الله أكون هناك فسلموا على الأمير حسن واهدوه منى جزيل السلام ولما تأكدوا مجيئه رجعوا وأخبروا الامير حسن فذبح حسن الذبائح وأولم الولائم واجتمعت القبائل عنده وهم فى بسط وانشراح إلى أن كان اليوم الثالث نظروا الغبار من جهة تونس فارس من بنى زغبة الانجاب فخرج حسن التقاهم ولما وقعت العين على العين سلموا على بعضهم البعض وكان دياب شيخ جليل

لابس جبة من الحرير الاخضر وشالح على كتفه برنس أحمر وعلى رأسه عمامة من البرفيل والارجوان ثم دخلوا على الأمير حسن فترحب فيهم غاية الترحيب وجلس دياب على كرسي من العاج كأنه الذهب الوهاج وقومه من حواليه ثم أمر الأمير حسن باحضار القهوة والكاس والشراب وأحضر مائدة من الطعام مصحوبة بألف فارس ضرغام أجلسوا على المائدة وجدوا المناسف مغطاة فرفع الأمير دياب الغطا عن المنسف وجده فارغ من الطعام وفيه قيود من الحديد فقال الأمير دياب ماهذا ياحسن فقالوا الواجب أن تتقيدوا إلى السلطان بالاطاعة ولو ساعة فعندها وضع الأمير القيد برجله وفعلت باقى الامارة كفعله وبينما هم كذلك إلا اندفعت فرسان دويد لداخل المكان وبيدهم الخناجر والسيوف ومن جرى من ذلك فصار دياب كالملهوف فعندها أمر الأمير حسن بنصب المشانق والحبال وقال اشنق جميع هؤلاء الرجال فذبحوا ستين أمير غانم ردياب والبقية أمر بشنقهم أما الأمير غانم ودياب كاد تتفقر مراراتهم من كثرة الحزن ولكن ماطلع بيدهم شيء حيث أنهم مأسورين وخاليين السلاح وبينماهم فى تلك الأحوال دخل القاضى سرور إلى الديوان فلما رأته أخته بدلا فسلمت عليه وأشارت تقول :

تقول بدلا عند ماشوطها النبأ	أيا أمير عرمى ثم سعدى راح
أبات طول الليل قلق حزينة	ودمعى يجرى مثل الصباح
فأول حزنى فقدت بدر بن غانم	غدر خليفة الفارس الجحجاح
ويا ما فعل فيكم الزناتى خليفة	وعابه عليه الواحد الفتاح
طعنته يا دياب فى وسط عينه	وعاد فيك بعد التعب مرتاح
وملككم عين الخطيرة تواس	وقاس ومغراوة وكل بطاح
فسر أمارتكم وفرحت جيادكم	قد زاد فيكم الآس والأفراح
وكله سعد الأمير بن غانم	قدوم زغبة كلها ودباخ
يهازيه حسن بالغيب يا ابن فايد	يشنق أمارة خيرين ملاح
وهؤلاء أولاد معلقين على بكر	وحبل القضايب تقلب به الأرياح
شنق الفتى زيان ومدار باطل	اشفع لنا بنزولهم ياصاح

داريهم ﴿ يا الحود يا ابن فايد واجرك على كريم فتساح

فلما سمع سرور كلام عمه اغتاظ ودخل لعند الأمير حسن فاستاذن بتنزيل القتلى فأمر حسن بتنزيل المشنوقين فأنزلوهم وأخذوهم بنى زغبة وأوروهم التراب وبعد ذلك صاح حسن على أبى الفردوس اشنق دياب فقال له القاضى الشفاعة فى دياب فقال السلطان حسن مافى شفاعة اليوم لأنه حرق الزرع وقتل سعدة وغصب وقطع الطرقات ومشى فى أمور ماشافها أحد قال القاضى لدياب أنت قتلت إخوته وحرقت الزرع وقتلت سعدة ابنة الزناتى خليفة ونصبت الرمح فقال دياب نعم قال القاضى رضى أن يلقيك يا دياب أنا ماقلت لاتغير على أحد فقال دياب أنا مالى ثمان دعوات وأشار يقول :

يقول الفتى الزغبى دياب بن غانم	ولى عزم أمضى من حسام البواتر
أمر انحدر ليثهم مد عزمهم	وأدعيتهم تحت الأراضى دوامر
وكان يجنى لك ياهلال كتابهم	تحت الجربل وأنت مغلوب صابر
بيدى قتلت الهيدبى بن زايدة	وكان عليهم باغيا ثم ظافر
دعوتك ستة أنا لى ثمانية	شرحت واحدة من الضماير
وثانى دعوة قتلت العقيل حنضل	ووليت منه ياحسن وأنت حاير
وفى حلب الشهباء نصبت خيامكم	وجاءكم خزاعى عربيد ضامر
وأردى أبوزيد بن رزق ملامه	وخاصته خزاعى والسود عاكر
هذا ثالث دعوات ياأمير أبو على	والله عالم فى جميع السرائر
ويوم مطر حيث قيس جميعهم	وتشهد بها سائر هلال وعامر
فى يوم قتيل خمسة وخمسين فارس	وأفنى فوارسكم بضرب الشواكر
ورابع دعوة يا أمير أبو على	قتلت الفتى الفرمند والحق ظاهر
وخامس دعوة يا أمير أبو على	سلمتونى البوش برسم الدفاتر
أنى أبو خريبة معتدى ياأمير أبو ع	لى فارضيته لما أنى على البوش فاير
وكان سباع البر يا أمير أبو على	ومن مالكم ماغاب فرد قاطر
وسادس دعوة ذالكم مع خليفة	وأنتم معه كالغنم فى المحاور

وكبت وجيته فوق خضرة مبرمة ... وجانى على أشهب أقلب الحوافر
ضربته بحربة سلم الله مقاتل ... من حربتى قد صار أعمى النواظر
وسابع دعوة قالت قيمتى وحظى ... وغارت على مالى دريد وعامر
وثامن دعوة يا ابن سرحان هنتنى ... أخذتهم غيظى كان نامى وثامر
فهذا مقدر يا أمير أبو على ... ومن لا يموت اليوم يموت باكر

فلما فرغ الامير من كلامه والامارة يسمعون نظامه فقالوا إلى القاضى بماذا أصدر الحكم على دياب فقال الشريعة تحكم على دياب بحبس سنة كاملة فلما سمع حسن ذلك الكلام استدعى ابن جواح سجان وقال له خذ دياب إلى السجن فأخذه إلى السجن ووضع قيود الحديد فى رجليه وعنقه (قال الراوى) ولما وصل الخبر إلى أبو زيد أتى من الاندلس إلى حسن فسلم عليه ورحب به غاية الترحيب ثم سأله أبو زيد ما فعل فقال له الأمير حسن ما عملت مع دياب الأسجنه فإن كنت قتلت أولاد عمه واخواته فانه قتل أخى وخطيبة مرعى وجرح مرعى وجرح قلبى عليهما فقابلته بمثل ما قابلنى وجرحت قلبه عليهم ثم إن الأمير حسن بعث ألف فارس إلى تونس وأمرهم أن يحضروا له خزانة تونس وسلاح دياب وأثاث بيته وكل ما فى قصر الزناتى يحضروه فالا ذهبوا وأحضروا ما أمرهم به الأمير حسن وقد اترك دياب الجميع وما عاد يتفكر فيه لاشريف ولاوضيع غير أهله والخلان أبو غانم ليث الميدان هذا ما كان من هؤلاء واسمع ما جرى للامير أبو زيد وحسن فقد طابت لهم الأحكام وراق لديهم الزمان واصبهم صروف الحدثان .

(قال الراوى) ففى ذات يوم كانوا مجتمعين حسن وأبو زيد فى الديوان ومن حولهم السادات والأعيان وأمامهم الفرسان فدخل عليهم نجاب وسأل عن الأمير أبو زيد فأحضروه عليه فتقدم وتمثل بين يديه فسأله أبو زيد من أين ياوجه العرب قال من تجد عند الست عليا بنت حسن الحميرى أم شيبان وهى تهديك التحية والإكرام وقت فراقك هى تطلبها السادات والفرسان والآن تهديك عرسها على الأمير نوفل فارس الميدان وقد قامت الزينات من الحى فى كل مكان وعليا غير راضية بهذا الشأن غير أن نوفل كتب كتاب من لسانك ما عادلك بعليا أرب وما

عدت ترجع من أرض المغارب فتزوجها لمن تريد وعندما بلغ عليا هذا الخبر اسود عيناها ثم أخرج الكتاب وباسه وأعطاه إلى أبوزيد ففضه وقرأه ولما وقف على معناه غرغرت عيناه بالدموع فلما نظر حسن وبقية السادات وما جرى وما جرى قالوا ما جرى عليك يا أبوزيد وما هذا الكتاب فإننا صرنا بانذهال عظيم فبالله عليك تطلعنا على فحواه وما تمناه فحينئذ ناول الكتاب إلى ابن أخته عزيز القوم لأنه كان بجانبه فأخذ يقرأ كتاب عليا على رؤوس السادات فلما فرغ عزيز القوم وسمعته الأمراء والسادات فقال حسن والله يا أبوزيد الحق مع عليا لأنك قطعت عنها المخابرات وقد حرمت من رؤية أولادها وأنت ما عدت ذكرتها من اليوم الذى تخاصمت هى والجازية ورجعت من مصر مع أبيها حسن الحميرى إلى نجد وليس هذه أفعال الأمراء الكرام فأجابه أبو زيد هذا هو الحق والصواب فأخذوا العبد وساروا يضيفوه ثلاثين يوما فعندها تحرك حج العرب للزيارة فنهض العبد إلى أبوزيد وأخبروه بالمسير إلى بلاد نجد صحبة الحجاج فأعطاه أبو زيد عطية ثمانية دينار واستدعى بقلم وقرطاس وأشار يخبر عليا يقول :

يقول أبو زيد الهلالى سلامة	طير الهنا حكم بقلبى غلابه
من البعد والفرقة ياما أصابنا	وكيف حال المرء فارقوه حبابيه
أيا غاديا منى على متن ضامر	تجد السير فى البر تجرى ركايبه
إذا جيت نجد العادية وأرضها	فسلم على عليا وباقى قرايبه
وقول له ما منية القلب والحشا	شخصك مصور فى فؤادى مشائبه
ولابد من قاضى يشرع الحكم بيننا	ويبان المغلوب من غالبه
تعذبيى بالبعد والبعد خوية	إذا طال عمر المرء تكثر متاعبه
فقال أبو زيد الهلالى سلامة وأ	ناعبد من يحفظ على العهد صاحبه

فلما فرغ أبوزيد من انشاده طوى الكتاب وختمه بختمه وأيضا شيبان واخوته كتبوا مكاتب لأهاليهم ووالدتهم وأعطوهم للنجاب وسار وامعه سفريومين حتى وصل من الحج للقدس الشريف ومن هناك إلى مكة والبيت الحرام وبعد ذلك رجعوا وصار العبد يقطع البرارى والقفار حتى وصل لنجد ودخل على عليا فترحب به

وسألته عن أبوزيد وعن أولادها فأجابها بكل خير وناولها الكتاب فلما رأت كتب أولادها نزلت دموعها وطلبت من الرحمن أن يفرج همومها هذا ما كان من هؤلاء وأما ما كان من أبوزيد من بعد ذهاب العبد زادت بلابله وأشواقه لمشاهدة عليا ودام على هذا الحال شهر كامل وفى اليوم الحادى والثلاثون طلب البعض من جنوده وأصحابه ليرافقوه لبلاد نجد فأبوا وقالوا نحن ما صدقنا وصلنا الغرب واسترحنا من الطعن والضرب فاغتاظ أبوزيد وطار من عينيه الشرر فحينئذ قام الأمير عزيز القوم فارس وحامى الميدان الذى شهد له الأقران بالحرب فى بطايق الجولان وهو ابن خالد بن شيحا أخت أبوزيد وأبوه قتل فى مصر بتغريبة بنى هلال بواقعة الملك فرمند وربى عند أمه بينما فى حى أبو زيد حتى اشتدت أوصاله ورواقعت أحواله فصار فارساً عظيما هابته الفرسان فى الحرب والطعان وكان ابن سبعة عشر سنة أمرد لا نبات بعارضيه وكان يضع برقع على وجهه خوفاً من النساء تطرح من حسنه فتقدم إلى أبوزيد وقال له يا خال أنا رفيقك لنجد وكذلك يونس قال أنا معك ياعم لنجد ففرح أبوزيد واستبشر وأيقن ببلوغ الوطن وفى ثانى الأيام ودعوا أهاليهم وجدوا فى قطع الروابى والآكام مسافة تسعون يوم وفى اليوم الحادى والتسعون وصل الصحراء وأرض قفرة خالية من الماء فحرقهم الظماء من شدة الحر فى ذلك البر ففى اليوم الثانى نظروا من بعد بئر ماء له علامة بتلك البيد فقصد يونس ووجد دلو وحبل على جانب البير وأراد صعوده فانقطع وسط البير فهم عزيز القوم بالنزول فمنعه أبوزيد وقال له هذا بئر مملوء من الحشرات المؤذية فدعونا السير إلى أن يفرجها الله تعالى فقال يونس وحيات رأسك لابد من النزول إلى البئر لأنى صرت على تلف من كثرة العطش فقال أبو زيد إن الروح ما هى حشيش حتى يتلف موضعها والحشرات المؤذية لا يعرفون لا أمير ولا سلطان فقال يونس دعك من هذا الكلام ما حد ينزل إلا أنا ولو أشرب كاس الحما فقال له أبوزيد افعل مرادك فحينئذ أخذ الحبل ونزل إلى البير فلأجل نفوذ القضاء والقدر راح الدلو وهم بالصعود فخرج عليه من جانب البئر ثعبان أزرق اللون شنيع المنظر وضربه بفخذه فلما استحس يونس بضربة الثعبان غاب عن الوجود وزعق بصوت

أرتج منه ذلك المكان فغاب الثعبان عن عيونه كان أبوزيد واقف على جانب البير فقال مالك يا يونس وما جرى عليك فقال له لدغنى ثعبان فى هذا المكان فحينئذ نهض لخارج البير وحس أن قلبه قد احترق بنار السعير وشكا حاله لأبوزيد وعزيز فنزلت دموعهم حرقة عليه وحينئذ أشار إلى أبوزيد يقول :

يقول الفتى يونس على ما جرى له ... بدمع جرى من مقلة العين عايم
بكيت على عزى وجاهى وهيبتى ... تذكر أيام مضوا من قدايم
وكبنا وجدينا السير على عجل ... لنجد العدية طالبين العلايم
وكان سيرنا يا أمير تسعين ليلة ... إلى أن وصلنا لنجد وقت الظلايم
وصلنا إلى بير عتيــــق معتم ... كبير وفيه الماء زايد وعايم
إلى عزيز ينزل البــــير عاجل ... منعه أبو زيد كثير الفهايم
حلفت أن أنزل البير قال لى ... أبو زيد ارجع أو تقع فى الندايم
منعنى وأنا خالفته فى كلامه ... ما رأيت بعملى والجزا إلا ملايم
نزلت وأنا ظمآن والحر كادنى ... شربت ورويت الحشا والزلايم
مليت الدلو وأنا سليم النيا ... وهميت أن أطلع لعند الزايم
وإلا بثعبان أتانى على عجل ... ضربنى بنابه ثم أرمى السمايم
ضربنى بفخذى ثم أرمى مفاصلى ... وغاب منى عقل والذهن عايم
أيا عم هذا اليوم آخر كلامنا ... آخر عهدى يا ابن الأكارم
ترى الموت كاساً لاغنى عن شرابه ... ولو عاش مهما عاش ذاق الحمايم
ولو عاش عمر النسر يا عم بالفلا ... الفــــين عام والله عالم
يا عم خالفتك وجرى ما جرى ... وقد كنت لنفسى يا أمير ظالم
يا أمير البدورا أنت منيتى ... وأنا عدت ضيفك يا وفى الزمايم
يا عم احفر لقبرى ووسعه ... الـــله يبقى قاضى الخادم

(قال الراوى) فلما فرغ من كلامه والأمارة يسمعون نظامه بكوا عليه بكاء شديداً فنظر كالمودع وسالت من عينيه الدموع وشهق شهقة فأسلم الروح فشقت الأمارة ثيابهم وزاد بكاهم وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه وقبروه وعقروا ناقة على قبره

ثم ساروا حتى وصلوا لنجد عند المساء ودخلوا الحى الأمير حسن الحميرى فوجدوا
فيه نفخ الزمور ودق طبول والحى يموج ويموج مثل أيام يأجوج ومأجوج فلبثوا
متعجبين وإلا مرت من أمامهم عجوز شمطاء لابسة حلة بيضاء فحياها أبو زيد بالسلام
فردت عليه السلام وبالغت فى إكرامه فقال لها هل للمنام يا نخبة العرب الكرام
فقالت أهلا وسهلا بكم ياشعراء العرب وسارت إلى منزلها وبعد أن جلسوا قال
أبو زيد مالى أرى الحى فى فرح وسرور وبهجة وحبور فقالت له اعلم يا أوجه العرب
ان هذا عرس كريم وهو عرس الأمير نوفل فارس الجحفل على السعد عليا ابنة
الأمير حسن الحميرى المشهور وكانت سابقاً زوجة الأمير أبو زيد زحلان دريدى
وكان ولدى راعى لإبله والآن متحرقين له اهديه من حين أنه نجد وسكن بلاد الغرب
ولا عاد له بعليا مآرب لو يصل خبر زفاف عليا لكان يحضر ويقتل نوفل فقال لها
هل لك السر موضع قالت فى بئر عميق ماله قرار فقال لها أبو زيد واعلمها بجلية الخبر
فلما سمعت ذلك الكلام قالت له أهلا وسهلا بعزنا وحامينا ولكن كم يحرق بعليا من
الفرح والسرور لو بلغها خبر قدومك بالسلامة فقال لها أبو زيد وكيف نقدر
بالوصول إليها وهى بين تلك الجموع الغفيرة فأجابته عند المساء تلبس عزيز هدوم ابنتى
لابسه وتأخذوها لعند عليا وعندها يفرز المنزل من الجميع يلبس عزيز ملبوس
وتجالسه عروس مكانه واحضر أنا وعليا لها ولا يعلم بنا أحد فاستصوب أبو زيد
هذا الرأى وعندما أظلم قامت وفعلت ذلك وعند انصراف الجميع تقدمت العجوز
إلى عليا وبشرتها بقدوم أبو زيد وهذا عزيز القوم فلما نظرت عزيز وحققت الخبر
تقدمت وسلمت عليه وحبت يديه فقالت لها الآن ليس وقت سلام بل المراد منك
تنزعى ثيابك وتلبسهم لعزيز القوم لأنه نظير بالحسن والجمال وهو يقوم مقامك
ثم نذهب أنا وأنت لعند الامير أبو زيد ففعلت وسار فلما الأمير لقاهم مقبلين ورأى
عليا لم يملك من السرور فخرج لملاقاتهم وقبلها ما بين الأعيان وشكر الله على التلاقى
هذا ما كان من أمر هؤلاء وأما ما كان من عزيز فانهم بعد ذهابهم أخذ يستنظر
قدوم العريس وبينما هو يفكر بهذه الأفكار إذ دخل عليه الأمير نوفل ولاقاه وأخذ
يكلمه وجلس بجانبه ومد يده إليها فنفرت منه وقالت ليست هذه أفعال العرب يا قليل

الأدب فقال ما هذا السبب حتى تبادريني بهذا الكلام يا نخبة العرب الكرام فقالت له اعلم أن العروس لما على العريس اقوط وأنا اليوم الذي أخذني أبو زيد أعطاني ألف دينار وأنت تكون أمير وابن أمير وياحيف أجفل من تنمير فلما سمع منها ذلك صار الضياء في وجهه كالظلام وقفز واقف على الأقدام وأراد أن يضربها بالحسام فقامت العروس ومسكت العريس ورفعته على زندها وضربت به الأرض كادت تدخل طوله بالأرض وأوثقته بالحبال وربطته بالعمود تقتضي الوبال وهو يذوق العذاب الأليم إلى أن أصبح الصباح العليم فأطلقت سبيله ودام على هذه الحال يأتي الظلام طمعا بالوصول ولا اطلع أحد على أمره إلى اليوم الرابع بينما هو خارج من الدار فالتقى نعمة الحدار وكان رجلا اختيار عليه شيمة الوقار فحياه بالسلام فرد عليه سلامه وبالغ في إكرامه وقال مبارك يا عريس إن شاء الله تكون نلت مبتغاك وقهرت مبغضك وأعداك فتنهد نوفل من فؤاد حزين وصاح يا أجواد يا أكرام فصاح به عمه وقال قول من أبآك ومن بسره دماك فقال له اعلم يا عم ومن كاشف الهم أن كل يوم أذهب إلى العروس بنت الحرام طمعا ببلوغ المرام فتوثقني بالحبال والقيود وتربطني على العمود وها قد أطلعت سري عليك وكشف أمري إليك فأجابه الشيخ هل من يقدر عليك بالقوة فقال السيد الجليل أنه لا يوجد أحد أن يقدر يكفي إلا عزيز القوة وهو الآن في المغاريب فهل يمكن أن يأتي في هذه الأجانب ولا سيما يقاسون الأهوال والمتاعب فأجابه الشيخ أيها الأمير ان أردت تكشف عنك هذا الغم وتزيل عنك هذا الهم اصنع لك شيشين احدهما من دم الأحمر من سم فبينما تذهب وتطلب منها الوصال تريد أن تكشف الخيال فاضرب بها بشيش الدم فإن كانت أنثى تذل وتنفر وأن كان ذكر يهوش ويتقدم فإذا رأيتها بادرت إليك اضربها بشيش السم فيذل ويقع بالندم فاربطه بالعامود وقيده بالسلاسل والقيود فشكره على ذلك وذهب للبيت ومعه الشيشين فلما نظرته العروس قالت له أحضرت الفلوس قال لها ما عندنا يا ابنة الأنذال وعندما تقدمت إليه اتكتفه فضربها بشيش الدم فهاجت فلما نظرها بهذا الحال الـ عليه أتى عليه بالثاني فحينئذ تقدمت إليه وربطته من حلاوة الروح وحينئذ غير عزيز ملبوسه وتركه بحاله وذهب لعند أبو زيد وابتدى يعرفه ويقول :

يقول الفتى عزيز ما جرى ٭ له ودموع عينى زايدات سكايب
ونيران قلبي كلما أقول تنطق ٭ يزيد لها جوا الضلوع لهايب
من الغرب قد جينا حقيقاً بلا خفا ٭ لنجد العدية طالبين المكاسب
فقدنا الفتى يونس وكان رفيقنا ٭ من بعده ما أظن نبلغ مآرب
وأتينا الى نجد العدية وأرضها ٭ وجدنا بها الافراح من كل جانب
وقالوا عرساً دايرا فى بلادنا ٭ عروس الأمير نوفل من القرايب
فقلنا من هى العروس واسمها ٭ قالوا عليا راخيات الذوائب
لما سمع أبوزيد القول أضرب ٭ وعادت فى قلبه يزيد لهايب
لبست مثل عليا وذهبت لعندها ٭ وعرفتها بحالى كل الطلائب
فلما عرفتنى بسرعة قد أتت ٭ لعند الأسمر شيخ العرائب
ولبست ملبوسها بلا خفا ٭ وتزاينت بزينات أم العصايب
أتانى نوفل عند مغرب الضحى ٭ يريد وصالى كالنسا ياعرايب
وبطلته على العامود وحدى بهمتى ٭ ودعيته للصبح يقضى العذايب
وفى ثانى الأيام أتانى بلا خفا ٭ فادعيته على الأرض مرمى غايب
وفى رابع الأيام أتانى على ثقا ٭ ضربنى بشيش الدم يا ابن الحسايب
ضربنى فياليت أنا ضربته ٭ ثنى على بشيش من السم ذائب
جرح القديم ياخالى ضامنى جـ ٭ رح الجديد يشد عليك المصائب
وقد أخبرتك ياهلال سلامه ٭ هيا بنا نرجع لأرض المغارب

تمت هذه القصة ويليها قصة ديوان الأيتام وفيه قتل السلطان حسن
ورجوع الأمير دياب من عند الملك جوهر الحبشى

قصة ديوان الأيتام

(قال الراوى) فلما فرغ عزيز القوم من كلامه والأمير أبو زيد وعليا يسمعون كلامه فوقع مغشيا عليه لأن عليه السم لعب فى بدنه فحزن أبو زيد وتكدر وطار من عينيه الشرر ورشوا عليه الماء حتى فاق من غشوته وصارت عليا تمزق القمصان الحرير وتربط الجروحات فالتفت أبو زيد إلى عليا وقال لها إذا مات عزيز لا أقدر أن آخذك معى لأن الطريق خطرة والمسافة بعيدة فقالت لا بد لى من الذهاب معك وإن مت أموت ولا أدع أعداءك تشمت بك فافتكر أبو زيد مدة من الزمن ثم عول على أخذ عليا معاه لكى ينطفى خبرهم ولا أحد من القوم يقتفى أثرهم ثم بدأت عليا تدهن الجروحات بالمرهم وعند نصف الليل قام عزيز من منامه ووجد عليا والأمير أمامه فعند ذلك راقت أحواله وسكن ألمه وقال لهم قم بنا يا خال نسير قبل الصباح لئلا نعدم التوفيق والنجاح والحمد لله راقت أحوالى وقاموا وركبوا مطاياهم وودعوا العجوز وأعطتها عليا عقد من الجوهر يسوى ملك بنى الأصفر وجدوا فى قطع الروابى والقفار يسيروا بالليل ويكمنوا بالنهار مقدار تسعين يوم قطعوا حدود نجد إلى أن وصلوا لحدود غزة وتلك البلدان الأراضى خالية من السكان وفرغ منهم الماء واشتد عليهم الظمأ فحاروا فى أمرهم فى تلك البيد فقال عزيز يا خال أنا معاهد بئر فى هذه الاطلال وهو قريب من تلك التلال فذهب أبو زيد إليه ومعه القربة ولما نزل إلى البئر وجد شيئا يختبط بذلك المكان وله صريخ كصريخ الجان فارتد راجعا إليهم وعرفهم أن البير جاف من عهد القدماء فتعجبوا من ذلك غاية العجب وقال يا خالى إنى أعاهد ذلك لا يخلو من الماء لا صيف ولا شتاء ثم أخذ الرمح بيده وتوجه إلى البئر فوجد شيئا يتخبط فضربه بالرمح ونهض على الستار وإذا هو جدى ماعز غرقان فشرب وملا القربة وذهب لعند خاله وقال ها هو ذا الماء فشربوا وذبحوا الجدى وأكلوا وكان يوميا أبو زيد يغير جروحات عزيز القوم عند المساء وفى ذلك اليوم بينما كان يغير جروحاته خال الرباط حتى أنه يموت بأغلب الأوقات لأنه خجل من عليا فكر فى نفسه وقال متى وصلنا لتونس تلك الأطلال خبر عزيز قصتى لكامل

الرجال فينحط قدرى عندهم ولما انتصف النهار أحس عزيز قلبه احترق بالنار وحقق أن السم وصل لقلبه ولا فائدة فى طبه فندم أبو زيد وتحسر من فعل هذا وقال عزيز القوم سلامتك ياخال فقال مابها سلامة ثم سالت عيناه بالدموع وأحضر دواية وصار يكتب إلى أمه شيحه ويوصى خاله ويقول :

يقول عزيز القوم والنار بالحشا	دموع عينى زايدات سكايب
اسمع كلامى يا أمير سلامه يا	فارس الفرسان مذرى الكتايب
فإن أتيت لأرض المغارب وشقتها	سلم على الإخوان يم الحبايب
وسلم على الدويد أبو على	وقبل أياديه وحب الركايب
وسلم على أولاد خالى جميعهم	وسلم ع القاضى سرور الحبايب
وسلم على زيدان الأمير وأمه	وسلم على الزغبى دياب المحاوب
وسلم على أمى الحزينه وقل لها	تبكى على بالدموع السكايب
وإن سألوك يا خالى قول لهم	غدا رهين الموت تحت الترايب
هذا ترى يا خال آخر كلامنا	والله يحاسبنى وقت الحسايب

فلما فرغ عزيز القوم من كلامه وأبو زيد وعليا يسمعون نظامه فبكوا عليه بدموع سجام ثم أن عزيز شهق شهقة واحدة وسالت عيناه بالدموع ونظر إلى أبو زيد كالوداع وأسلم الروح لله فقاموا عليه البكاء والنواح حتى ارتجت من صريخهم الروابى والبطاح ثم غسلوه وذبحوا ناقة على قبره ودام أبو زيد وعليا يندبون عليه مدة من الزمن ثم رحلوا طالبين الديار يقطعون البرارى والقفار وقضوا فى طريقهم التعب من إعترة الطرقات حتى أشرفوا على بلاد الغرب فذهب الرعيان وأخبر حسن وبقية السادات بمجىء أبوزيد فركبوا جميعهم ورجال الحى فلما وقعت العين على العين ترجل حسن وباق السادات وسلموا على أبوزيد وعليا وكان فرح شيبان وأخوته بملاقاة عليا أمهم أما حسن فسأل أبوزيد على الامارة يونس وعزيز فعندها نزلت الدموع من عين أبوزيد وأخذ يقص عليهم ما كان من أمرهم وما جرى فلما فرغ أبوزيد من كلامه وهم يسمعون فوقع عندهم الصياح والبكاء والنواح وكسر السيوف والرماح وجزت شعور النساء والبنات وعاد

أبو زيد لمنزله وتبعوه الرجال والنساء وصاروا يعزوه فى أولاد الامارة ويهنئوه بعودته بالسلامة ودامت الناس تتقاطر على أبو زيد مدة من الزمان .

هذا ما كان من أمر هؤلاء وأما ما كان من أمر دياب بعد ذهاب أبو زيد إلى نجد ليحضرها يا كتب إلى الامارة كتابا ليشفعوا به عند حسن فكان تعبه وقد مضى فى السجن ثلاث سنين يقاسى العذاب المهين وفى السنة الرابعة كتب إلى حسن يقول :

يقول أبو موسى دياب بن غانم	ولى مجلس بين الرجال شديد
أيا غاديا منى على متن ضامر	تسلم على حسن الفتى صنديد
وقل له يا عز قيس وعامر	أيا من بسيفه ذل كل عنيد
أنا قتلت مناعه ما هى عداوة	وأنت فى كل الأمور شهيد
ضربته فى الميدان والسوق منتصب	وقد كان فى ذاك النهار عنيد
مشينا بالصلح بألفين ناقة	وألفين تبعها خدم وعبيد
من بعد هذا نوفلة بنت غانم	شبيه الثريا فى النهار فريد
بعثوا لكم زياد منكم وسافروا	وكان أبو سعده لهن رصيد
جوا الفتى يحى ومرعى ويونس	وأبو زيد قد وافاه التنكيد
وقال ارجعوا ما عاد من نجد عيشة	ولا عاد فيها يا هلال مقيد
رحل تجعنا من أرض تونس كالدر	نقول عارا طامية وتريد
وسرنا مليئا الأرض من كل جانب	وأبو زيد قدوم لنا وقليد
وطابت لنا من نجد إلى قاع تونس	حتى أتينا إلى بلاد حديد
وجاء أبو خريبة لمالنا	وقد كان حتى بالطراد عنيد
وجاء أبو خريبة ينهب المالنا	وخليته تحصه التراب لحيد
لجانى سعيد العبد فى الحال قال لى	أعزتنا فى إخواننا يا سيد
ركبت على ظهر الجواد كأنى	أحاكى سكران بغير شرابه
وجتنى إلى حرب الزناتى خليفة	وجتنى قنوع ودمها يزيد
مبتهين عذرا يا هلالى سلامة	ولا واحد إلا قال قصيد
يقول الزناتى اليوم أهنى لقومنا	دمانا لاخلا فى تمديد

وأنت إن أخذت الثأر يا بو موسى نعطيك ما تشتهى وتريد
ونعطيك أخت الهلالى أبو على مع عين نورز للشراب تريد
وندخل الكل تحت طاعتك نجوز ولا يبقى على ايدك ايد
فقلت لهم ابشروا زال همكم وفى ظنى ماخاب فيكم قصيد
وجانى أبو سعدة الزناتى خليفة على ظهر أشهب بالطراد يكيد
ضربته بحربة سنها يخرق الحصا وخليته تحت التراب وقيد
وملكتكم على البلاد بصارمى ولا عاد سر ولا تنكيد
جازينى بالحبس يا أمير الهلا وهذا منك يا أمير ما يكون مفيد
شنقت إخواتى وأولادى وخنقتنى وخليت نساهم فى بكا وعديد
شكيتك لله يا حسن من يوم ما شنقتهم لو كنت خالص من قيود وحديد

فلما فرغ دياب من كلامه طوى الكتاب وأرسله إلى حسن فلما قرأه وعرف ما حواه صار يرد جوابه ويقول :

يقول الفتى حسن الهلالى أبو على نيران قلبى زايدات وقود
إذا جيت إلى الزغبى دياب فقل له وقمعه وما عاد الكلام نفود
فاصبر على حلو الليالى ومرها حتى يجود الدهر بالمقصود
وحيات رأسى يا دياب بن غانم وأنتم على يا كرام شهود
لابد ما أفنى جميع رجالكم وأخلى على نساكم أكبات شرود

فلما فرغ حسن من الكتاب وأرسله إلى فسلم أن أمره مع حسن بالمحال ولا يلبث منتظر الفرج القريب حتى مضت عليه السنة الخامسة فاستدعى بقلم وقرطاس وصار يكتب إلى شبل الدريدى ويرجوه أن يتشفع فيه عند حسن ويقول :

يقول أبو موسى دياب ولد غانم بدمع جرى فوق الخدود حدور
فينا ينجد فى سرور وفى هنا تجينا الفواكه من جميع زهور
فجينا إلى أرض الزناتى خليفة وقتل منكم كل قرم جسور
وتحاربت أنا وياه فى حومة الوغا وأدعيته مرمى بوسط قبور
فجازانى حسن الهلالى أبو على فى حبس مظلم والزمان قهور

فبالله يازحزاح بلغ رسالتى لسيد ابن فارسا وغيور
لعله يقبل يا أمير شفاعتك ويطلعنى وتنسال أنت أجور
رحلت عن الناس يا أمير كلهم ولا عاد يأتينى خايل يزور
وقد أرسل حسن بثقل قيودى ولا يسلم أن الزمان غرور
متى ترجع الأيام نرجع لأهلنا ويحدث من بعد الأمور أمور
وأقتل حسن الهلالى ابو على ويمسى فى الوادى طعام طيور

فلما فرغ دياب من تحرير الكتاب أرسله مع الزحزاح إلى الأمير شبل فلما وصل الكتاب اليه قرأه وفهم ما حواه توجه لعند الأمير حسن وصار يتشفع بالأمير دياب ويقول :

يقول شبل الدريدى بما جرى ألوم نفسى ومالى أحد لائم
رجيتك يا حسن واقبل حديثى أيام همام يا ابن الأكارم
ألا يا ابن سرحان أنت ذخرى فنحن من الأقارب واللزائم
فسامح عن دياب وفك قيده وسامح ذاته وامحى الجرائم
إن دياب فى الحبس يا أمير قل حيله وحالاته تشابه حال خادم
ووطفا وأخته تلق حزينـــة ينحو سوارها لهم فى الحى راحم
وأمه ضرها سهر الليالى وأبوه صار هذا اليوم نادم
هى من شاف من نجد العدية زمان الزول وراح هازم
فلا تأمن صروف الدهر يا من غدا بالجود للعربان حاكم
أنا جيتك دخيل اسمع كلامى وفك قيود أبو موسى بن غانم
لأنك بالسخا والجود كامل فاسمح عن ذنوبه والجرائم

فلما فرغ من كلامه وحسن يسمع نظامه قال له أنا ما نسيته قتل أخى مناع وحرق الحدائق وما فعل مع سعدا خطيبة ولدى مرعى وحرق الزرع فى تونس وروض المهرجان وقطع الطرق عن العرب وصار يخبر شبل بهذه القصيدة :

يقول الفتى حسن الهلالى أبو على والهم ما بين الضلوع شديد
أيا شبل جيت تشفع فى ابن غانم يا امير ترك دياب عاد بعيد

وقتله أخى مناع أنا ما نسيتها　　وهو كان فارسنا فتى صنديد
وحرق حدائق البورجان وغيره　　وخلى جميعهم بالتنكيـــد
وأخذ سعدا من قصرها ليمزها　　لجاراها بالضرب والتشديد
يموما بالمعروف عن حرم فعله　　عصا وانفرد هنا وعاش فريد
يمكن نوى يملك الغرب كله　　ويبقى على أمره هلال يسيد
فان عاني ربي قتلت ابن غانم　　وتركت أهله في بكاء شديد

فلما فرغ حسن رجع شبل وفخر الزحزاح بما قام حسن فرجع الزحزاح وأخبر دياب بالذى صار فحينئذ قال دياب لا حول ولا قوة إلا بالله ودام بهذا الحال حتى مضت عليه السنة السادسة فاستدعى بقلم وقرطاس وأشار يكتب إلى سعد الرباحى ويترجاه أن يتشفع به أمام حسن ليطلعه يقول :

يقول دياب من قلب موجع　　ونيران الحشى متوقـــدات
بليت بالذل من بعد المعزة　　وعدت أسير من حبس الزناتى
وابن سرحان مايرفق بحالى　　وقد أمر بضربى بالحصاة
وتقول دياب قد أمسى حقيرا　　ففك قيوده يا أبو الصفاة
أما تذكرونى فى سوق المنايا　　على الخضرا فى يد قنـــاتى
أو قد سلمونى البوش كله　　ابرى فى البرارى المعيشاتى
وسار الطعن من وادى لوادى　　نصبوا خيلكم بأرض الزناتى
قتل يوم الوغا تسعين قوما　　ومسكنهم قبور مظلمات
وعدتم ترسلوا نحوى الرسائل　　برفـــع الدماء مخضبات
لى حلت وجيت أنا من فوق شهبا　　عليها قتلت أبو سعدا الزناتى
فناته والعذارى يشهدولى　　وأولاده ينوحوا مع البنات
يجازينى بحبسى باهالى　　وان الدهر هوما فانيات
وأجازى إلى حسن من سوء فعله　　وأذوقه كما ذاق الزناتى
وعلى عياله من بعده حيارى　　ويندبه النساء مع البنات
فمن جانى يبشرنى السلامة　　كسوته من ثياب المتمناتى

فلما فرغ دياب من تحرير الكتاب أرسله صحبة النجاب فلما وصل إلى سعد الرباحى

وقراه وعرف ما حواه فحينئذ توكل على صاحب العز والجاه وصار طالب حسن فلما وصل اليه صار عليه وقبل يديه وأشار يتوسل اليه بخلاص دياب يقول :

يقول الفتى سعد الرباحى بما جرى — ونيران قلبى زايدات قديح
كنا بنجد فى سرور وفى هنا — بنعم واحسان ونسب ومزاح
رحلنا من نجد فى سرور وفى هنا — وقلنا من الشدة عسى نرتاح
ولما أتينا القيروان وقابس — أتوا الزناتى جاذبين سلاح
وحاكم أبو سعدة الزناتى خليفة — على ظهر أشهب مثل طير راح
قتل منك يا قوم تسعين فارس — وخلى العذارى فى بكا ونواح
وأرسلتم الى دياب المراقع — أخذهم سعد على الهجين وراح
أنا دياب الخيل من فوق خضرا — وقل للزناتى ذاك مات وراح
وملككم ذاك البلاد جميعها — وأربعة عشرة قلعة يا حجاج
جازيته بحبس يا أمير أبو على — فما كان واجب حبسه يا صاح
فاقبل حديثى فى دياب بن غانم — فهى شيخ زغبى كلها ورياح

فلما فرغ الأمير سعد الرباحى من كلامه والأمير حسن يسمع نظامه قال له يا ابن عمى اطلب منى ملكى فلا أعزه عنك ولا تفتح لى سيرة اطلاق دياب وقال :

يقول الهلالى نادى الوجه أبو على — ولى عزم فى الهيجا لمن حاربمارك
دنا ضد خصيمى يا رباح ومهندى — وأنا مذهى يغنى عن الشيخ مالك
دياب يعاندنى فى الغرب بملكه — لما نصب رعمه فى عين المهالك
بحق الصفا والمصطفى سيد الوفا — وأقسم لمن للانس والجان مالك
الزغابة لا بد بالحسام أبيدهم و — أخلى أمير القوم فى الأرض بارك
ويا سعد أو نالك مقام رهيبة — وأنت على الأقران نقر ماسك
رميتك بشورى فى بحورى عميقة — لكن أنا يا سعد للمهد ماسك
خلى دياب فى السجن يرتاح خاطرى — ان قام هو جملى وان ضل بارك

فلما فرغ حسن ذهب عند الزحزاح واخبره بما قال السلطان وكذلك أخبره بدلا بما كان من أمره مع حسن فرجع الزحزاح الى دياب واخبره بما حصل وأما

بذلا فقد أخذت معها جملة من نساء العربان وتوجهت نحو الصيوان وصارت تتشفع دياب وتتذكر الأهل والأحباب الذين شنقهم حسن على الأخشاب فقال اما أنا ما كنت على نفسي حتى حبست دياب ولا أطلقه من السجن فهذا الحديث بطال وقولك بالمحال فارجعي إلى الاطلال وعوالك من المقال وكوني من هذا القبيل براحة بال فحينئذ توجهت مع النساء إلى محلها وأما دياب فانه ما زال يقاسي العذاب وهو منتظر الفرج من الملك الوهاب حتى انه بلغه خبر قدوم أبو زيد من بلاد نجد فقال والله ما حد يقدر على خلاصي إلا أبو زيد فاستدعى بقلم وقرطاس ودواية من الذهب الخاص وصار يكتب إلى أبو زيد ويقول :

يقول أبو موسى دياب بن غانم	ونيران قلبي زايدات ضرايم
والله يا أبو زيد بلغ سلامي	الى حسن سلطان قوم كرام
وقول له يا عز قيس وعامر	تطلق انا الزغبي أبو غنام
يا ما حمانا والقنا يقطر بالقنا	والأجواد من تحت العجاج هرام
لو قد علمت بأن هذا يصيبنا	من نجد ما أتينا بلاد الشام
ويوم الزناتي خليفة كل طعونكم	وقتلته وأولاده وراه يتام
وملكتكم هذه البلاد بصارمي	في حد مرهف بالوغى صمصام
تجازيني بالحبس يا سيد الملا	وقد صار بالحبس سبع أعوام
فيا ليت ما شفت المغارب وأرضها	ولا نظرت منكم لوعة وسقام
وما زال شاش الجيد يلعب به الهو	ى يشيل أسارى من سجون ظلام

فلما فرغ دياب من كتابه ختمه بخاتمه واعطاه الزحزاح وقال له سير إلى نجد واعط أبو زيد هذا الكتاب فأخذه وسار وجد في قطع القفار إلى أن وصل لصيوان أبو زيد فدخل اليه وسلم عليه وناوله الكتاب فقرأه وعرف رموزه ومعناه فتكدر أبو زيد من حسن والتفت إلى الزحزاح وقال له بشر الأمير وقل له متى انتهت الزيارات عني اذهب إلى حسن واترجاه يدعو دياب فان اطلقه والا اخرجته غصباً عن رغبته فقبل العبد أياديه وسار إلى ان وصل إلى دياب فأخبره بكلام أبو زيد ففرح دياب وأيقن ببلوغ الامر هذا ما كان من حسن وبني هلال الاسود

فنى يوم من الأيام كان عند العربان والأمارة مجتمعة عند الامير حسن فى الديوان فأخذوا يذكرون الوقائع المشهورة والفوارس المذكورة وصاروا يمدحون فروسية دياب وكيف بانه ملكهم بحد السيف القرضاب وحمى البرش من الدشمان وقتل الزناتى فى ساحة الميدان ويستحق أن يذكر مع الفرسان وكان موجود فى أولاد الأمارة والشبان الذين لم يسمعوا بذكر دياب الا باللسان فتشوقوا إلى مشاهدته وهاموا لرؤيا طلعته ولو ساعة فترجوا السلطان وساعدوهم الأمارة والنسوان فقبل السلطان حسن رجاهم وأمر أن يأتوا بدياب مكبل بالقيود والحديد وفى الحال أحضروه وبالجنازير وأمام السلطان أوقفوه وإذا هو أصفر اللون بهيئة الموتى فصاروا أولاد الأمارة يضحكوا عليه ووصلوا الأذية اليه فقال السلطان حسن كيف ترى أمورك الآن بالذل والهوان فقال مادمت راض على وبعد مداولة طويلة أراد أن يرجعوا الأمارة إلى السجن فقال دياب أنا شمسية تهزنى ولا قمح تسكدنى بغربالك فان كان الذئب يصفى الغنم أنت تصفالى وانا اصفالك فصاح حسن ويلكم دياب امسكوه وإلى السجن ردوه فعند ذلك أخذ دياب يرتجف مظهراً الخوف الشديد فوقع على الأرض مغشياً عليه كمن قارب الموت فعند ذلك ترجوا الأمارة الأمير وقالوا له إن دياب فى حالة النزع فأمر ان يدخلوه دار الحرايم لعند أخته وفلة وما أتم كلامه إلا وحضرت الرجال ورفعوا دياب بكل إكرام إلى بيت اخته فلما نظرته على هذا الحال وهو محمول على أيادى الرجال صرخت بالبكاء وأنت واشتكت ومزقت ثيابها وأخذت تقول :

حرام لقد جاروا بالعداة وبغوا ... علينا ونحن بالكروب أسير

لقد كنا فى عزتنا بنعمة ... وكنا برغد ما عليه عسير

فبيننا نقاسى الهم والويل والضنا ... وتجرى الدموع على الخدود غزير

وقد كنت يا أمير الأمارة وسيدهم ... كسبع الفلا بالماضيات تشير

إذا هاج سوق الحرب كنت أميره ... تكرى على الاعداء مثل الزير

وتهتك خضرا مثل فرخ نعامة ... تدق البرى فى رجالها وتطير

فما كان ظنى يا دياب بن غانم ... أشوفك بهذا الحال والتأخير

تشال على أيدى الرجال كميت وتبقى تقاسى الذل والتأخير

ومازالت نوفلة تردد الأشعار وتسكب العبرات حتى قتلت الأكباد وأحنت الأجسام فبكى معها كل من حضر والله يحق أن نعمل أكثر لأن الأمير دياب فارس مشهور وبطل غضنفر وأخذوا يطيبون خاطره وبسلامة دياب يطمنونها فما زالت دمعها ولا زالت نكبتها وما خفت مصيبتها بل أسرعت ومدت إلى أخيها فرش من ريش النعام وأخذت ترش عليه من ماء الجذام وهو ينتفض ويرتعش وبقى على هذا الحال ثلاثة أيام لا يذوق طعام ولا يقابل منام وهو يستغنم الفرصة حتى تناصف ليل اليوم الثالث فدخل على حسن وهو غارق فى منامه فعند ذلك السفرة التى كانت معه فى مدة حبسه وهو يحضرها لمثل هذا الوقت فاطرح على حسن وذبحه من الوريد وتركه يختبط بدمه وسار يجد السير تحت ظلام الليل إلى أن وصل إلى قومه وعشيرته وعند الصباح فرحوا به كثيراً وانسروا لرؤيته وأخذوا يسألوه عن قصته وعن كيفية إطلاقه من سجن حسن فأخذ يقص عليهم القصة ويخبرهم كيف صار من البداية للنهاية يقول :

يقول دياب قهار العداوة	وكل مقدر لا بد آتى
ومن يعمل جميلا يجازى	عليه بمثله فى الآتياتى
أنا قامتى لآل قيس وعامر	بحد السيف يوم المكاتى
سبع سنين لى محبس ابن شما	سبع سنين عدة كاملاتى
ترى الفعل بما قد دهانى	والنحول عشش فى عياتى
فلا حسن أرثى إلى مصابى	ولا أبو زيد يسعى فى فلاتى
أنا بالحسن قاسيت البلايا	واسكن قلبه صبراً يا حياتى
أولاد الامارة قد أتونى	يسوقوا دياب عز المحصناتى
لما شفت أن السجن قصرى	أتيت المكر من بعد الفراق
جسمى قد صبغته بمائتين	وصرت أمشى وعكاز عصاتى
بى استهزوا كل الامارة	مع أولادهم حتى البنات
والسلطان حسن لما رآنى	دعانى كيف حالك طيباتى

ونادى يا دياب دليته قل لى من الخنزير خالى السابقاتى

كيف الجيس أخبرنى حقيقاً وهل أتاها ليل مظلماتى

أجبته يا حسن والله انى بألفين حرباً أكثر عداتى

إن كان الديب يصفى الغنايم يصفى لك على طول حياتى

أنا إن عانى رب البرايا لأفنيكم بضرب المرهفات

ولما قد سمع القول زمجر كسبع الغاب فى أرض الفلاتى

ونادى بصوت سياف أتانى بيده سيف سف الزعقاتى

ولما شفته استعملت مكرى وفوق أرض أنا رميت ذاتى

والسلطان حسن لما رآنى نادى شيل راسه عاجلاتى

أتى أبو زيد مثل الغول يرعى ويصوت مثل النـــايحات

وهجم بالسيف السياف لما رآنى على الثرى المواتى

وللسلطان نادى يا ابن شبيا فعال الغدر ليست صالحات

ونحن يا حسن لسنا نطاول بقتل دياب ابن المكرماتى

فالسلطان حسن بالحال نادى يشيلونى لأختى عاجلاتى

شالونى على الأيدى وساروا لقيت أختى وروحى رابياتى

لما نوفلة شـــافته أخوها بدل تبكى بدمع الساكباتى

ألدت على الثرى من الفرش سبع وفوق اللحف لحفت لى عباتى

ثلاث أيام أبقيت المنامة والنـار فى شـــاعلاتى

بنصف الليل قمت بكل عزمى وللسلطان قصدى بالمماتى

ذبحته ذبحة قد راح فيها وسكنته بدار الزايلاتى

سرت الليل أمشى بكل سرعة حتى وصلت أرضى مفرحات

هذا ما جرى يا أولاد عمى شدوا للرحيل الصافناتى

قال الراوى هذا ما كان من الأمير دياب وهو يقص ما جرى له على أولاد عمه فلما سمعوا ما قاله دياب أنه قتل الأمير حسن انقلبت أفراحهم إلى أكدار وأظلم فى وجوههم النهار وما منهم من أحد إلا أظهر الحزن والأسف وقالوا والله يا دياب

القدفعلت فعلا منكراً وركبت طريقاً ضيق المسالك والجناب وسديت فى وجوهنا الأبواب بقتلك الأمير حسن ابن عمنا فكيف تجاسرت على هذا العمل وهو صهرك وأمير بنى هلال وكاشف ضرك والآن قد أصبحنا عبرة عند العرب الذين يجهلون الزمان فسوف يصير بنا كما صار مع جساس بن مرة والأمير كليب ومن الآن أصبحت عداوة كبيرة بين عشائر بنى هلال وسوف يصلون إلينا واسم هذا ومازال بمثل هذا الكلام للأمير دياب كرهت نفسه الحياة وقال يا أبناء العم ورافعين همى وغمى لقد صار ما صار وسبق السيف العذل والندم لا ينفع من أشد الحسرات والأوفق لنا أن نرحل من هذا المكان ونوسع البر والقيعان قبل أن تدركنا جميع بنى هلال وقامت بيننا وبينهم السيوف الصقال والرماح الطوال فلما سمعوا كلامه وفهموا مرامه قالوا إن هذا هو الأمر الأحسن لنا لئلا تدركنا جيوش بنى هلال ويقع سابق بيننا القنا فبالساعة هدموا الأطناب وأودعوهم ظهور الجمال وأركبوا النساء والأطفال وصاروا بعاجل الحال وكانوا يجدون بقطع الروابى والبطاح ويوسعون بالبر بتلك النواح هذا ما كان من أمر الأمير دياب وأولاد عمه وأما ما كان من آل قيس وآل عامر عطور الحيد فنهت من رقادها وشاهدت الأمير حسن قتيل وبدمه جديل فصاحت بأصوات البكاء ومزقت ثيابها على البلاء وناحت وولولت بما يذيب الأكباد ويفتت حجر الجماد فتراكضت جموع بنى هلال على بكاها وأسرعوا لينظروا ماقدهاها فوجدوا أن الأمير حسن مطروح على الأرض قتيل وفى دمه جديل فعلت منهم الأصوات وسكبوا العبرات وأكثروا من التنهدات فسمع أبو زيد الصراخ فوثب فى الحال وخرج يستقصى الخبر فنظر جموع بنى هلال مزدحمة على صيوان الأمير حسن فصاح صياح البكاء ومزق ثيابه ورمى شاشه عن رأسه ووضع عليه التراب وأخذ ينتف لحيته وتقدم إلى الأمير حسن ووقع مغشيا عليه من عظم مااعتراه فتراكض الناس وأخذوا يرشونه بالماء الخزام ويطيبوا خاطره بالكلام وهو يئن من قلب جريح وينوح ويصيح ومازالوا على مثل هذا الحال حتى جرح القلب فوق جراحها فتقدم إليه أولاد الامارة وأخرجوه إلى خارج الصيوان وأخذوا بخاطره من هذا الشأن وقالوا له يا أمير أبو زيد

إن بقيت على هذا الحال تفقد حياتك بدون محال فيتم على فقدك الرجال وبمثل هذا الكلام كانوا يخاطبوه حتى سكن روعه فالتفت إلى النافلة وقال لها يا نافلة أين كنت لما فعل أخوك هذا الفعال وحين قتل سيد الابطال وسلطان العرب والعجم والترك والديلم فزادت النحيب والعويل وأقبلت أخته الجازية وهي تصيح من قلب وتبكي دمع منهمل كل قصاها وتنتف شعرها وتمزق ثيابها تضرب برأسها الحصى وهي تئن أنات المسقام وتندب أخاها الامير حسن وتقاسي لاجله المحن تقدمت ووقعت عليه تقبل قدميه من عظم ما اعتراها اندرجت على الارض كالاموات حتى ظهر أنها فارقت الحياة فتراكضت النساء ورشوها بالماء وقاموا لها على الثرى وهي تولول وتصيح حتى دعت منها كل قلب جريح قال الراوي عند ذلك طفف الارض بما شيد عليها من الدموع واجتمعت الاصوات ساير عربان تلك الضواحي والربوع فكان يوم حزن بالله من يوم اظلمت الشمس فيه وكثر البكاء والنواح والجازية تزيد بكاها وتندب أخاها وأشارت تقول :

تقول فتاة الحي أم محمد	دمعي جرى فوق الخدود وساح
في طي قلبي النار زادت لهايبها	كوى الحشى ولد عليها بجراح
يا لوعتي من ترى قد ذاقها	يا اوح قلبي من كنوحي ناح
أبكي على أخ تركني غدا	يا حسرتي ما عاد لجسمي جناح
يا حيف سلطان حسن فوق الثرى	تبقى بجندل بالدماء سياح
يا حيف سبع الغاو عنا سار	لاجل بعد السبع عقلي راح
يا دمعتي ما ظن من عيني نزول	والله تنقضي العمر بالاتراح
عامود ركبتي قد هبط يا نكبتي	طول المدى ما أنظر الافراح
طير العرب يصيح في صوت قبيح	واليوم فرق قداني في صباح
من بعد عزي صرت أبكي دمعتي	زادت على وما لها أفراح
الله يجازي من سعى بفراقنا	من السلطان حسن داح
شلت أيادي دياب الواغدين	ولى وخلى دمعنا طفــاح
يدعي عليه ما طار طايح الفلا	يدعي عليه ما الغصن فيه الريح راح
ابكي معي يا آل قيس يا كرام	زيدوا معي يا آل عامر النواح

يا جميع هلال سافر سيدكم ... ما عاد يرجع فصفرا الارماح

سيوف الهنا أكسروها بالعجل ... أدعوا الخيول تروح الاسراح

هاتوا العمايم اصبغوها اليوم سود ... بحر الاسف موج الحزن قد لاح

حاكم الاقطار سلطان العرب ... ومدير الفرسان يوم البعد راح

يا بين ماهذا العمل فينا رميت ... سهر النوايا ياحيف اطلقت الجناح

ياسامعين صوتى معى اندبوا ... ظهرى انقطع ذهب فكرى كداح

قد قل حيلى انهد جسمى ياترى ... مثلى بكل الناس صابته جراح

تسعين فى تسعين وألف مثلها ... قد كنت حاكم ياحسن قوم ملاح

واليوم فارق المنازل والربوع ... خلقت كثر الهم بعدك والكفاح

(قال الراوى) فلما فرغت الجازية من رثائها وجموع بنى هلال ناظرين ما فقدوها ومن الهم والغم قد اعتراها صاحوا على فرد لسان النكبة التى بها نكباو ماهذه البلية التى كاس مرارتها شربنا (قال الراوى) وكنت تشاهد جموع بنى هلال الحزن الشديد الذى ماعليه من مزيد الكل شاخصون ناظرون إلى جثة الأمير حسن ودموعهم تهطل على الارض كالأمطار ولما هم فيه من الكرب والحزن وما كان إلا وتقدمت مريم ابنة زهرة البان الافرنجية زوجة أبو العوف ووقفت فوق رأس الأمير حسن. وأشارت تقول :

دمعى جرى فوق خدى وانسكب ... والنار فى قلبى تزيد اللهب

يا بين شمت العدا فينا وما ... كان العهد سيف الغدر قد يتسبب

شمس المعارف أظلمت أنوارها ... الليل أصبح بالمخاوف والكرب

يده العلى ياحيف من فوق الثرى ... يبقى طريحا والغراب فينا نعب

يا كوكب الاقبال يا أمير حسن ... ياعزنا يافخر يا منتسب

ياحيف هذا الوجه ملء الكدر ... ياحيف هذا البدر يغشيه الترب

فارقتنـــا ما حل يوم فراقنا ... ماذا جرى بفراقنا ماهو السبب

صبحوا جموع هلال شخطك خاسرين ... صبحوا بنا مافى العنا أكثر التعب

الله يجازى دياب فى حال العمى ... الله يجازى دياب فى هم وتعب

أرمى قلوب هلال فى نار الظلى ... ادعى الدموع تسيل من حر الحروب
والله اقضى الليل فى أمر النحيب ... وساهر المرور فى قول العذب
ياصور مانع كان ظنى لاما يغيب ... واليوم أضحى الصور فقرا انقلب
يامشبع الجوعان يامهرى الحزين ... ياسيد المكروب يامولى العرب
آواه نارى بالحشا ماتنطفى ... يا نكبتى ياحسرتى تركتنى ذهب
الله يلق البين شتت شملنا ... الله سالب عمر من عمرك سالب
غاديا عما معك خلد القلوب ... أرواحنا تفديك ياحاوى الأدب

فلما فرغت مريم من قصيدها والكل يسمعون تعديدها هطلت من عيونهم الدموع كالمطر وكل منهم علاه الاصفرار وأصبحوا كالأموات لما سمعوا من مريم هذه العبارات وداموا فى البكاء والنحيب والولولة والصراخ يومين يبكون على جثة الأمير حسن ويرثوها بالقصائد العربية ويقصفون لفراقه الرماح الردينية ويكسرون السيوف له وفى اليوم الرابع اجتمع مشايخ زحلان ودريد وتقدموا إلى الأمير ابو زيد وقالوا له اعلم أيها الأمير أن ماقد صار كفى بكاء لان بقيتم على هذا الحال لاشك يموتون كل جموع بنى هلال فالاحسن رفع جثة الأمير حسن ودفنها الآن كرامة الميت مأواه وبذلك أمر رب الأرباب فأجابهم أبو زيد الى ما طلبوا ووافقهم على مارغبوا وتقدموا الامارة بكل احترام ورفعوا جثة الأمير وغسلوها وبروايح المسك والطيب رشوها وتحت التراب وضعوها وذبحوا على قبره من الجزور والاغنام مايكل من وصفه اللسان ثم أقاموا على قبة القبر وزينوها بكل زينة وكتبوا بماء الذهب اسم الله الأعظم وتحته اسم الأمير حسن ثم رجعوا أكل العربان وعملوا مناحة لم يجر مثلها فى سالف الزمان .

(قال الراوى) وكانوا يندبون ليلا ونهارا ويقومون المراثى أشعارا وكنت ترى العربان تأتيهم من كل مكان ويعزوهم على فقد الأمير حسن هذا ما كان بهذا الشأن بعد ما انقضت أيام المناحه وسكن روعهم بتلك الساعة فاجتمعوا فى صيوان الأمير أبوزيد وقالوا له ياأمير هلال ماذا تأمر أن نصير بأخذ ثار الأمير حسن فاننا والله لانرتاح ولانكف عن البكاء والنياح ولا نبرد قلوبنا الجراح لاتجمع نساءنا فى الاطناب إلى أن تأخذلهم

الثأر وتكشف عنهم الذلة والعار وتقل دياب بن غانم ومن معه ويجعل آل غانم مشتتين في كل الاقطار لا يقر لهم قرار وتذبح فيهم كبار وصغار حتى لا يبقى منهم من ينفخ نار وتيتم الحريم والاولاد ونجعلهم عبرة نسل الأوغاد فاجابهم أبو زيد إلى ماطلبوه ووافقهم على مارغبوه وقال لهم وحق الركن والحجر والبيت المطهر أنكم لو علمتم ما بقلبي لرثيتم لكربي فاني أول من يتقدم لأخذ الثأر وكشف العار واني والله أنزل في آل غانم الفنا ولا أبقي لهم بقاء وسوف أصلب دياب على رؤوس الجبال وأبقيه باوشم حال وأجعله عبرة لمن اعتبر بين سائر البشر ولا تحسبوا سكوتي التأخر بل كنت صابر لتأخذوا راحتكم من البكاء والتحسر والآن صار الاولى بنا أن نستعد للرحيل أثر آل غانم. وتوقع يوم المآتم في هذه الليلة أدار بين البيوت بهذا الشأن وأخبر البنات والنسوان أن يستعدوا للرحيل ويبادروا السفر بكل تعجيل فاننا بعد ثلاثة أيام نقصد آل غانم إلى ما ساروا ونتبع أثرهم ولو طاروا هذا ما كان من الأمير أبو زيد فعند ذلك طاف الرجال بين الاطناب وأخبروا القوم بهذا الأمر بدون ارتياب وما مضت الثلاث أيام إلا وكنت ترى النساء على ظهور الجمال والاطفال راكبون فوق الجمال والرجال على الخيول والسوابق متقلدون بالرماح الطوال والسيوف الرواسق وفي مقدمة الجيش الأمير أبو زيد حامي جيوش بني هلال وهو أمامهم كالأسد الرئبال وتحته أشهب وعليه سرج مرصع بالذهب وهو فوقه يموج ببحر السرج كأنه قلة من القلال أو قطعة فصلت من جبل بيده رمح ماضي السنان وعلى جنبه سيف يمان وقد أفرغ على صدره درعا من البولاد محبوك بالزرد هذا وقد انتشرت البيارق والرايات ودقت الطبول فسمع لها رجات وأخذت الخيل تتسابق والركاب مع النساء والاولاد تتلاحق وكانوا جمع كبير وعدد غفير فعند ذلك أخذ أبو زيد يقول :

يقول أبو زيد الهلالي سلامه	والنار في قلبي تزيد شعال
والخيل تعرف انني ماركبتها	إلا جعلت القوم بأوشم حال
لي سيف ماضي الحد قطاع الرقاب	لو صاب الصخر الصم فيه قلت مال
والرمح في يدي أنه يوم اللقا	يروي دم الفرسان والأبطال

بالله اسمعوا بالله افهموا يا قومنا وكونوا سباعاً اللقا يا هلال
اليوم أخذ الثار من زغبي دياب ذاك الذى أرمى حسن شكال
عدوا العزايم يا هلال تجردوا للحرب ما تكونوا به أنذال
وتذكر السلطان حسن كيف اقتضنا وكيف قد غدا والدم منه سال
عاداتكم بالحرب ترموا العدا فوق الثرى وتقطعوا الأوصال
من عجال الطعن يلوى وينهزم هذا عندى من بنى الأرزال
بالله يا قبر الذى فيه اتوضع أين المكارم يا أسد ريبال
أهدى سلام القلب للسلطان حسن وكرور الأشواق المفضال
واهدى له بلسان حال من الزعل وخبره ان هلال اليوم شال
وحيات عينك يا حسن لازم أكيد نأخذ لثارك بالقنا نصال
لازم أقطع رأس هذا اللئيم دياب ولد غانم من بنا احتال
وادعى اقومه بالضيق طول المدى وادعى للنسا بالضيق والأهوال
ما قال أبو زيد الهلال المنتسب فى يوم سوق الحرب أنا والدلال

فلما فرغ أبو زيد من كلامه وجموع بنى هلال يسمعون نظامه وصاحوا عن مفرد لسان والله يا أبو زيد إننا نفديك بأرواحنا لأنك مضمد جراحنا وما فينا ولا أحد إلا وقلبه نار وجميعا نشتاق لأخذ الثار وكشف العار فعند ذلك ساروا من ساعتهم الى طلب بغيتهم وما زالوا سائرين ليلا ونهاراً حتى دخلوا تونس الغرب وتلك الديار فلاقتهم أهل تونس وقدموا لهم الخضوع والطاعة وما كان فى تونس إلا القليل من آل زغبي فأتوا الملاقاة واضعين على أعناقهم المحارم وأظهروا للامير أبو زيد الحزن والاسف على فقد حسن وما كان منهم إلا وكان يلعن دياب بالشفة واللسان فسألهم أبو زيد عن دياب فأخبروه من مدة أيام رحل إلى بلاد الحبش هو وبعض قومه فلما سمع أبو زيد هذا الكلام صار النور لديه ظلام وأمر الجيش أن يبقوا على ظهور الخيل فاندفعوا فى ذلك البر كالسيل وكانوا بالعدد ثلاثمائة ألف فارس وكل منهم بالحديد غاطس فجدوا فى السير لأثر دياب وما زالوا يكاشفون عنه إلى أن ضاق بهم الحال ولم يعلموا أين رحل فكادوا يهلكون من الجوع والعطش فى ذلك البر المقفر فرجعوا

على الأعقاب وقلوبهم من دياب فيها نار الالتهاب ولما وصلوا إلى الاطلال نصبوا أبو زيد سلطان عليهم وعلى جميع بلاد الغرب هذا ما كان من أمرهم وأما ما كان من أمر دياب فما زال يقطع الروابى والقفار ويوغل على الحراش والاوعار إلى أن وصل إلى بلاد الحبش وتلك الأقطار فسمع به ملك تلك البلاد فخرج لملاقاته بكل استعداد وكان راكب على جواد أشهب عليه سرج مرصع بالجواهر والذهب ومعه الاحشام والاعوان والعبيد والغلمان والنساء بالدفوف والمزامير وفى أياديهم من خاص الخناجر المملوءة بالمسك الزافر فلما التقت الرجال بالرجال نزل الملك عن جواده وترجل هو وكل من معه وحيوا دياب تحيات الأصحاب وقالوا لهم أنتم أعز الاحباب فتقدمت الاحباب وأخذوا يرشوا عليهم الطيوب التى تشفى الكروب وعند ذلك أرسل بهم الملك إلى المضارب والخيام وذبح لهم الجذور والأغنام وأعطاهم أحسن مجلس ومقام وقال لهم أنتم السادات ونحن العبيد وكلما تأمرون به عندنا وأخذ يقول :

يقول سلطان جوهر من ضمير	ألا يا مرحبا بابن غانم
لقد شرفتنا وجملت أرضنا	بها حلت ركاب بالغنايم
ركوب سعدنا أوفى الينا	وصار الوقت منك اليوم باسم
تلاعب المفاخر منذ أتيتم	إلى أوطاننا يا ابن الاكارم
فنحن عبيدكم للدهر نيفا	ألا يا معشرا الخير قائم
سمعنا بذكركم فى كل أرض	عربها وتركها ثم الأعاجم
تولعنا بكم عن طول بعد	محبتكم لنـــا اضحت تلازم
وهذا اليوم قد شاهدنا فيكم	ليوث والأسد القشاعم
فقد طاعتكم الدنيا جميعا	لكم أصلى أهل السعد خادم
لقد طمتموا عرب البوادى	ملوك الأرض تهديكم نعائم
قتلتون الزناتى وقد شفيتم	لمن عاداكم من المآثم
فعلتم فينا أمر مستحقا	له نفديكم فى كل أمر سالم
وقد كنا الجزية كل يوم	لنحو الزناتى بالوجه قائم

ولكن صيرنا أحراراً بهذا وما أنا إلا بكم يا آل غانم
فرحنا فى قدومكم جميعا فرحنا زايدا والله عالم

هذا ما كان من جوهر صاحب التاج الجوهر وأما دياب فانه شكره على ما ابداه وزاد فى مدحه عن كلما أداه وقال له اعلم يا ملك جوهر أننا قد أتينا ضيوف لنقيم عندك مدة الزمان وبعد ذلك نرحل فقال أهلا وسهلا بكم ثم نزل دياب فى أحد قصوره وفرش لهم مكان واسع وأعد لهم محلا يرعون فيه المواشى وبقى دياب مع جوهر فى عز وإكرام وبسط وانشراح مدة من الزمان يبقى له كلام نرجع إلى أبو زيد فانه ذات يوم جالس وحده فى بيته تذكر أرض نجد وعزها وما لاقى فيها من الهنا والراحة أيام الصبا ثم تذكر الأهوال التى لاقوها فى الطريق حتى وصلوا إلى بلاد الغرب وتذكر زيدان والخفاجى عامر والقاضى بدير بن فايد ونصر وبدر بن غانم فجعل يبكى عليهم وعلى أولاده وأولاد حسن الذين قتلهم العلام فصار يبكى وينوح ثم تشوق إلى رؤية دياب وحنت جوارحه إلى القيادة وقال هذا رفيق عمرى وحامل الشدات معى وإن كان معى قتل حسن قتل بيومه ثم خطر بباله أن يرسل يستعطف بخاطر دياب ويطلب منه أن يرجع إلى بلاده فكتب له جواب بهذا المعنى وختمه بختمه أرسله إلى دياب مع النجاب فأخذه وسار يطوى الفيافى والقفار حتى وصل إلى بلاد الحبش تلك الديار فسأل عن المكان الذى نزل فيه دياب فأهدوه عليه وسار اليه قبل الأرض بين يديه وأعطاه الكتاب أخذه منه وفضه وقرأه وعرف رموزه ومعناه وبعد ذلك أخذ قلم وقرطاس ودواية من الذهب الخالص وأشار يرد على أبو زيد ويقول :

يقول الفتى الزغبى ولد غانم	أنا ترانى فى الأيام عريف
أعرف فرسان الحرب جميعهم	خبيرات شدات الزمان عنيف
ترى كل مستغنى عيوبه قليلة	ولو كان أصله بالأيام خسيفه
عبث الفتى الممتاز للناس ظاهرا	ولو كان أصله بالانام خسيف
لو كان عنتر عبس فى حومة الوغا	ولو كان مقرى الوحشى أمير مخيف
ومن كان خالى المال زمانه	عليه الانام مع الزمان حنيف

نزلنا على قوم كرام بلاخلا ... وقمنا وكان الدهر وهو ظريف
وإذا نامت الرعيان باتوا بنعمة ... ينادوا ولا يخشوا كلام مخيف
ولكن بلاد الشناعة والبلا ... ذقنا بها الشـــدات والتقريف
وأما الحبش كفانا الله شرهم ... نرى مواضعهم بلا ترصيف
عقدى من البيض الملاح مليحة ... كنور يلالى فى ظلام كثيف
فلا يلقون الضعفان بوجه باسم ... ولايسمح منهم كلام لطيف
عليها من اللبس الحرير كوامل ... أساورا وحجول بالذهب ترصيف
بنات البدو سود العيون قوامهم ... إذا ما مشوا حسبتهم ريح ثقيف
ولكن نسوان الحبش كعجينة ... والوجه منه كالحا ولشيف
ترى الواحدة كالفرق منه أشنعا ... قبيحة وخيمة ما بها تنظيف
بأسنان صفر والعيون مفتخرة ... لها معصم يابس كحبل الليف
ترخى كرادين لها فوق صدرها ... وبالاكل مثل الكلب عند الجيف
إذا شافت البياع تبقى مشمرة ... تقول ذبالا خرج من كنيف
يا غدايا من ضهر مضاهر ... تجد الثرى من نقلها وخفيف
جيت نحو ابن رزق سلامة ... مربى اليتامى والزمان حنيف
ســــلم عليه اثم جبينه ... وقول له قولا بلا تعنيف
من كان فى قومه ويرحل لغيرهم ... فذاك مجنون وعقله خسيف
لولا حسن يا أمير ما كان هانى ... حبسنى بحبس مظلم ومخيف
فقاسيت شدات وهما ولوعة ... أبكى وانعى والدموع رديف
ويهيننى بالقتل فى كل ساعة ... وأندب لحالى مثل ندب ضعيف
أولادى قتلهم مع عمامى وغيرهم ... نسانا حزانا مالهن وليف
حلفت انى اقتله ولو كان ولدى ... وأمر إلهى ما به تـــكليف
مضى ما مضى ابن عمى وصاحبى ... والكاتبة ربى ما به تحريف
فان كان ترضى أن نعيش سويا ... فسامح ياأمير وكون عفيف
مقال الفتى الزغبى دياب المنتخب ... فلست جبان ولا أنا خويف

فلما فرغ الأمير دياب من كلامه طوى الكتاب وختمه وأعطاه إلى رسول الامير أبو زيد وقال ان كان مراده رحل ابلادى وتجتمع سوى الجواب من طرفة بعض الأمارة يكون قلبه عب وكلامه عن ودادفأخذ يرسل إلى الرسول وسار وجد يقطع الروابى والقفار حتى وصل إلى بلاد الغرب فدخل على الأمير أبو زيد أعطاه الكتاب وبلغه عن دياب فأخذ الكتاب وقرأه وبعد ذلك استدعى بعشرة أمارة من أولادعمه وأولادعم الأمير حسن وأرسلهم ليصالحوا الأمير دياب وما زالوا يجدوا القفار إلى أن وصلوا لعند دياب ودخلوا عليه فلاقاهم وسلموا على بعض وسألهم عن أبو زيد فقالوا ارسلنا لترجع الصلح بينكم وتعودوا كما كنتم فى الحال القديم فعند ذلك سار الامير دياب إلى الملك جوهر وودعه وركب بقومه ورجاله والعشرة الامارة معه إلى أن دخلوا بلاد الغرب فخرج الأمير أبو زيد ولاقاهم وتصالحوا ورجعوا إلى الأوطان وعمل أبو زيد وليمة فاخرة ذبح الذبائح فاطعم الغادى والرائح وصار الامير أبو زيد والامير دياب فى محبة زايدة ولكن أبو زيد ما أرجع الامير دياب ملكه وبقى هو الحاكم فما هان على الأمير دياب وسار يقول متى ان يرجع لى البلاد التى اخذوها منى وأبو زيد لواطى قدما فاغتاظ الامير دياب وكتم السر لابو زيد وقال فى نفسه أنا صنعت دبوس وسكين السين للامير حسن والدبوس خلصنا من واحد وبقى علينا الآخر وصار من ذلك الوقت يحمل الدبوس وكان بسبع فراشات من تحت العناية حتى لا يلحظ عليه أبو زيد إلى ان كان ذات يوم خرجوا للصيد والقنص وكان مع الامير أبو زيد جماعة من قومه ومع الامير دياب جماعة من قومه فصاروا إلى البر وخرجت الفهود والصقور وتفرق الفرسان تطارد الغزلان وبقى الامير دياب وأبو زيد فى جهة وصار الامير دياب يطارد الشهبا ويلعب كأنه فى الميدان فصار يعمل مثله أبو زيد فدار نصف ساعة وبعد ذلك دياب خلى أبو زيد سار أمامه فصاح فيه وقال خذها من يد دياب فالتفت أبو زيد مرعوب فوجد فى يد الامير دياب سنبلة قمح فضحك دياب وعمل هذا الامر ثلاث مرات ورابع مرة صاح دياب خذها من يد دياب فما التفت أبو زيد وظن انها ضحكة مثل العادة عند ذلك لكن الشهبا طلعت كالريح حتى قربت من أبو زيد وصار جنبيه فسحب الدبوس

وضربه على رأسه فطلع برز مخه فرأى الدبوس فوقع أبو زيد على الارض حيان فوقع الامير دياب ولد أخذته الشفقة فصار اليه يبكى ويامن الحق مدة من الزمان فتح أبوزيد بعينه وجد دياب واقف فقال له ما كان ظنى فيك يا دياب ثم تنفس الصعداء وأشار يقول :

قال ابوزيد الحزين الهايم ... دمعى على خدى سجايم
أيا دياب الخيل يا ولد غانم ... أيا صاحب الافعال بين العوالم
ما كان ظنى يا دياب الخيل تخوننى ... وتدعى صحبتك فوق الردايم
آلمتنى يا دياب بضربتك ... أيا حيفا كنا يا أمير لزايم
ضيعت معروفى كسرت بخطرى ... كم مرة خلك بتضرب الصوارم
كم مرة شلتك من حبوس ضيقة ... كم مرة شلتك من حبوس ظلايم
كم مرة ارادوا قتلك وشنقك ... واكون أنا لهم حقا مخاصم
أوصيك وصايا يا دياب احفظها ... كرامة الى ربك إله العوالم
أول وصية فى أولاد أبو على ... حسن سلطاننا من زمان قدايم
ثانى وصية فى أولادى جميعهم ... رزق وريا وكل المحارم
وثالث وصية يا دياب أم محمد ... صبرا وشهلا راخيات الكمايم
فاحمى حريمى يا دياب من العدا ... إذا جاء طارق بليل الظلايم
والجازية يا دياب أم محمد ... دعها على قبرى تقيم العلايم
ياما تقضى بيننا عز وهنا ... عجلت فى قتلى يا ولد غانم
اذكر ايام الحرب الى مضت ... لما أصبح يا دياب بن غانم
تجيئ على الخضرا كالريح حربها ... يدع دما الابطال ع الارض عايم
ولما تصبح يا هلال سلامة ... القيلك فى عزم متين القوايم
يا ما شربنا الكاس والسعد داير ... ولحسادنا فى قلوبهم منا سمايم
مقال الحزين ابن رزق سلامه ... لقد سلمت روحى لرب العوالم

فلما فرغ أبو زيد من كلامه والأمير دياب يسمع نظامه دمعت عيناه ونزل اليه وضمه إلى صدره وأشار يقول :

يقول الفتى الرشي دياب الماجد ... ودمع على الخدود جار
عليها بغيتم يا هلالى سلامة ... فعليك عندى لها أسفار
لما أتينا الغرب نحو خليفة ... تركنا لنجد والفؤاد بنار
فقمتم ضربتم الشور ياأبو عمير ... أنت والجازية وأبو المكارم
قايم دياب الخيل يرعى جمالنا ... فى سهلها وحرشها وقفار
اخذت أنا البوش سرت معجلا ... وقبلت على الفسى وسموم النار
جانى خربية راح من صارمى ... ومكحول منى ذاق كل بوار
لما طردتم عن حروب خليفة ... قمتم ضربتم على الزغابى شوار
عماتم عليهم قرعة يا سلامة ... وأنا غايب عنهم بعيد الدار
واحوا جميعاً واحزنتمونى ... وراحوا الامارة بالتراب دمار
زيدان أخويا كان شيخ شبابكم ... وأولاد أخويا الاثنين كا لاقمار
نصر وعقل أولادهم لارميتوهم ... أيا حيف أعمار الجياد قصار
ولا عاد فيكم يا هلال مقاوم ... ولا عاد فيكم فارس جبار
ألتكم سعدة مثل شمس منيرة ... بنت الزناتى تشبه الاقمار
قالت لكم أبويا يهوى جموعكم ... لأن أبويا فارس مغوار
فلا يقتله إلا دياب بن غانم ... لأنه صميدع فارس جبار
أتانى أبو غانم الشيخ ع العصا ... وخبرنى عما بالامارة صار
وقال قم خذ ثار اخوتك ... أجارك إلهى من عذاب النار
وقلت لابوى رد وارتجع ... أناما عدت المب مع أولاد صغار
الزم حسن وأبو زيد يرسل مكاتبه ... أجيهم على الخضرا كشعلة نار
قصيتم شمور بناتكم سلامه ... وخطك بيدى يا سلامة جهار
تقولوا الوحايالولد غانم تعالنا ... ترانا بضيقة والهموم كثار
واعرف عيوبك ألا تريد ترانى ... وهذا كلامك واضحا وجهار
مع كل هذا جيت من فوق خضرا ... ا جرى سبق هوى التيار
فشمت لسوق الحرب مع ولد جبل ... ثلاثين يوماً ليلها ونهار

وراحت الخضرا طريحة على الوطا ... وعقلى وحق ربى طار
كفنتها بعشرين شقة ثمينة ... ودفنتها دفن الكرام بوقار
من بعدها قد جيت نحو خليفة ... أصليت أنا الشر مثل النار
يجينى على أشقر مضمور وخواصره ... فى درع دارى بعشر أزرار
جانى وجيته فوق شهبا أصيلة ... بيضة حامى مثل ضوء نهار
من فوقه قرم عنيد ملاطم ... له طعن فى صدر الرجال شرار
دزّيته حربا كالصبر طعمه ... فراح يكتب لى جواب مستجار
يقول دياب الخيل بالله خبرنى ... وخد إلى رزق أبا مغوار
فلما سمعت قوله ولاوردت صالحة ... زيدان فتح لى جروح كبار
طعنت الزناتى طعنة فى عينه ... فراح أبو سعدة وراح دمار
اخذنا إلى تونس وكل بلادها ... وطاعت لنا صغارها وكبار
قسمتوا بلاد الغرب مثلثه ... وكل واحد بقسمته قد صار
صنعتم على حيلة يا سلامه ... رميتم دياب الخيل بالاكدار
ومن بعدها عمر يقتلنى عاجلا ... صديقه فى شرعنا المختار
قاضى العرب حكم بحبسى مخافة ... فى حبس مظلم يظلم يقصف الاعمار
اتوه امارة لاجل يرجعوا فكاك ... لكن حسن أمر بكثر زيار
وانت مغمض لعيونك راضى ... كل ما الك بذى الامور خيار
سبعة سنين كاملة فى حبوسكم ... اقاسى عذاب الذل والاكدار
حتى سمح ربى باطلاق عبده ... سبحان ربى كاشف الأسرار
جيت إلى نصره وجدته مكنسا ... اخذتم إلى مالى وكل الأحرار
فنويت إنى سوف افنى جموعكم ... وافنى عبيدكم مع الأحرار
واقتل حسن وكل من يطاوعه ... واملك بلاد الغرب با ابتار
وقد عانى ربى ونلت لبغيتى ... وأجريت كل الذى قد صار
فأوصيك يا ابوزيد منى وصية ... سلم على زيدان عز الجار
وسلم على اولاد اختى وابوهم ... عقل وانصر وعمهم انصار

وسلم على خالى بدر بن فايد وسلم على الامارا والاخيار
فودعت بالله ياهلال سلامه غدا نلتقى فى آخر الاعمار

فلما فرغ الأمير دياب من كلامه ركب جواده وترك أبو زيد على الأرض وسار بقومه فنظروه مرتبك وغضبان وسألوه عن حاله فقال لهم انى قتلت أبو زيد وغضبت عليه ولكن ما بقى لنا إلا أن نسرح ونملك بلاد الغرب واصير أنا سلطان عليهم لأنه ما بقى أحد يخاصمنى ثم أن الأمير دياب سار إلى تونس ودخل إلى سراية الأحكام ونادى باسمه وأخبر أنه قتل الأمير أبو زيد وهو الحاكم والأمير على البلاد فصار من يعانده يقتله ومن يطيعه ويلوذ اليه ينعم عليه ما بقى كلام يرجع الكلام إلى جماعة الأمير أبو زيد لما وصلوا اليه وجدوه مطروح على الأرض فصاحوا وناحوا وحملوه تارة يغشى عليه وتارة يوعى حتى وصلوا إلى القبر فعرفته الحريم وخرجوا بلا براقع وهم يمزقون ثيابهم ويضعون التراب على رأسهم وكان يوما شليما على بنى هلال ما نظروا مثله مدى الاجيال واجتمعت العربان من كل ناحية ومكان وأما الجازية فانها عملت أكثر من الجميع وأرخت شعورها ونقفته خدودها ومزقت ثيابها وأشارت تقول :

تقول فتاة الحى أم محمد ودمعى جرى فوق الخدود يسيل
أيا ليتنى قد مت من عام أولا ولاشفت الأمير أبو زيد قتيل
ألا يادياب السوء ياخاين الوحا يا باقى الاصحاب وأنت هبيل
ضربت سلامة يا دياب بضربة وهدمت ركنا من هلال طويل
فلا سالما منها الأمير سلامة فتبكى عيون والدموع تسيل
دعونى أملا العين منه بنظرة من قبل بعدى بالجود جديل
أيا هل ترى الايام تخاف كلامه إذا مضى جيل بعد جيل
أيا دياب كيف يا دياب سلامه وقد كان لك هون الأيام خليل
ياحسرتى ياكسرتى بعد حياتى وظنى أن له بالأنام مثيل
محمد وحمدان قد نسيت فراقهم جانى حسن زاد الفؤاد شعيل
وقد زاد بى حزن الهلالى سلامة فياليت عمرى لايكون طويل

ما قالت فتاة الحى أم محمد ونيران قلبي زايدات شعيل

فلما فرغت الجازية من كلامها اغمى عليها برهة من الزمن ثم تقدمت بعدها عليا وهى تنتف شعرها وتمزق ثيابها وقد زادت بكاها وانتحابها ثم تقدمت اليه وقبلت عينيه وقالت له سلامتك يا أبا الأبطال ويازينة الرجال وجعلت ترثيه بهذه الأبيات :

تقول فتاة الحى عليا التى بكت نيران قلبي احرقتنى شعيلها

وعبرات عينى كالبحور الزاخرة ترى إلى عشت الملا وتقيلها

ودارت نواعير الفراق ياعينى كا أرض مصر عند فيضان نيلها

وكم جهد عينى ماتقيش من البكا وأن البكا يطفى ويشعل عليلها

على فارس الهيجا الامير سلامه سياج بنى هلال وحامى نزيلها

أيا حيف والله يا أمير سلامه ليالى الهنا راحت وجانى بديلها

أيا ناس ما الكتمان إلا فضيحة إذا كانت الشكوى لمن لا يزيلها

من اشتكى شكواه لغير مسعف كمن صب الماء فى وسط غرابيلها

وما أشتكى إلا لربى وخالقى واين تنفع الشكوى لمن لا يزيلها

ومن باح بالسر الذى فى ضميره يشابه نار حالقة فى نحيلها

ترى الجيد جيد ولو تمزق ثوبه والنذل نذل ولو لبس من جميلها

بالله ياذا البنات نوحوا واندبوا على قامه انحط منها طويلها

ودار خلت من كل قوم مجرب ومن جبره قد جانا يوم رحيلها

سكن دارهم من لا يقوم مقامهم فلا دامت الدنيا ولادام ميلها

وخيل دياب تبقى اليوم جائله وخيل الهلالى زاد جفيلها

ورايات أبو وطفه تعود مرفعه ورايات أبو زيد تخفض تمديلها

مقالات فتاة الحى عليا الحزينة مضى زمان العز وجانى بديلها

قال الراوى فلما فرغت عليا من كلامها بكت النسوان من قولها وصاروا فى ضجة وأبوزيد عيان ولما أفاق من غشوته وتأسف على نفسه وكيف باقى فيه دياب وراح يخبر قومه ويودع أهله وعشيرته وأشار يقول :

يقول أبوزيد الهلالى سلامه ... ولى شيمة شاعت فى كل البلاد
ولا وقعت الاوسطى بوسطها ... ولا معركة إلا ولى تنقاد
ولا ظالم بالحب ظلمته ... ولا طاغيا إلا وزاد الجهاد
ولا كل رجل يكشف مهمة ... ولا كل من طالب المعانى ساد
زوجت جميلا ضاع مع ولد غانم ... كما ضاعت الجوده مع الحداد
زوجت جميلا طالبا استغله ... نفانى وباق أقوام بالميعاد
خرجنا إلى الصيد نطالب الفلا ... ومعنا دياب فوق ظهر جواد
ولا شفت أنامعه سلاح وعدة ... ولا عرفت مافعل له الحداد
ضربنى بدبوس عريض فرشة ... وعلى فوق رأسى رفعت المهاد
ولو كان غيره ما وقعت بضربته ... ضربات دياب كخيل طراد
فعند غيبته من دياب بن غانم ... والآسى من يتحصر بمداد
جاد الغيبة ياهلال وعامر ... ياأهل دريد وجملة الأجواد
ولكن أخذنى برقه ياعمومتى ... ضربنى وخلانى طريح وساد
ولى ثلاثة أيام أقاسى نزاعة ... أثارى سكرات الموت شداد
إذا بات الهجاع فى جنح ليلهم ... أبات كانى فوق شوك قتاد
ياحسرتى شوفى المنايا تجينى ... وأنا أودعكم وداع آخر الميعاد
تأسف على أميرين قتانى ... عزيز ومرعى مع سبات حداد
فنادوا لى الاولاد حتى أشوفهم ... نادوا على أهلنا كل الأولاد
ونادوا إلى خيمر والامير بريقع ... وشيبان نادروا إلى أجواد
ونادوا اهليا كى أراها بناظرى ... ونادوا إلى أم وأم سهاد
ونادوا عزيزة القوم افعل جالها ... ترى حزنها ذاك المطى قد عاد
ونادوا إلى الجازية أم محمد ... حتى أوصيها بسائر الاولاد
ترى ظهر منكم دياب غانم ... يفنى أصاغركم مع الاولاد
ويقطع جداركم ويرفى جيادكم ... ويحكم كما النمرود بن شداد
قتل حسن بن سرحان أبو على ... وخلى حريمه لابسات سواد

أنا أوصيك يا آل عزى ودواتى ... فغيبوا عن الزغبى لأقصى بلاد
فروحوا للاكراد أرض فارس ... فيها دياب ماينال مراد
وأبقوا بها حين ماهون عمرها ... واغزوا دياب بالثقال الحداد
ترى أهلكم فرسان مع أجدادكم ... وأنتم سباع الحى والاقتاد
هنا مخيمر ينطح الخيل بالوغا ... مايدعوا الزغابه بالفلا أشراد
أوصيكم بالحرب يا آل عامر ... ولو عليهم ميله الاسياد
وادعوا دياب عالوطا منفخا ... وذيقوه ماذاقه من الانكاد
ومن طلب منكم زمام وجيره ... جيروه منكم جيرة الأجواد
وادعوهم عونا لكم فى أموركم ... وأنتم عليهم ياكرام أسياد
جميع كراسى الغرب ملككم ... وأنتم ملوكا من أب وأجداد
وأفرح فى قلبى وانسر مهجتى ... وانه إله العرش بالمرصاد
أنا ودعتكم لله ربى وخالقى ... الله تعالى أجود الأجواد
جيبوا الكفن فصلوه أمامى ... وهاتوا الى الكافور وحق زياد
وجيبوا نعشا مايحا من شر ... ودقوا مساميره بدق شداد
بجنب خالتى ياحسن اقبرونى ... وصلوا على قبرى صلاة عباد
وقولوا رحمك الله ياأبا مخيمر ... أيا مطعم الجيعان والقصاد
وهاتوا مغانيق وهاتوا دفوفكم ... وقيموا معادات لنا رقاد
فيشيع الخبر والعلم للناس كلها ... يقول دياب إلى سلامة كاد
وتوصلوا إلى نجد العريضة أخبا ... رنا يقول أبوزيد الأمير انكاد
توصل اخبارى نحو عمى وقومه ... يخبرونه العذال والحساد
سألتك يارحمن ياسامع الدعا ... تنجى أولادى من الأوغاد
سألتك يارحمن ياخالق الورى ... تعين أولادى بيوم جلاد
لكى ياخدوا تارى من أولاد ... غانم ويشفوا قلوبهم من الاكباد
وسألتك يارب استر عيوبنا ... عيوبنا أهم واضحات جداد
واغفر لنا ما سلف من ذنوبنا ... علينا ذنوب مالها عداد

واوصيك ياآل عزى ودواتى لاتسلكوا أبداً طريق فساد
وإن عادت الايام اليكم بعدنا ابنو لقبرى قبة وعماد
مقالات أبو زيد الحزين المفارق غداً ادخل القبر العميق وأكاد

فلما فرغ أبو زيد من كلامه شهق شهقة واحدة فاضت روحه عندذلك كثر البكاء والنواح وصاركل واحد يأتى ويقبل أياديه مرة ثانية وأشارت الجازية بدفنه بجوار الأمير حسن هذا ماكان من هؤلاء وأما ماكان من دياب فبلغه أن الامير أبو زيد مات وشرب كاس الآفات ودفنوه فجمعوا استين الف من قومه وسار الى بلاد القيروان ليجرى حكمه ويعمل كا يعمل ولما سمعوا بنى زحلان ودريد هذا الخبر اجتمعوا وتشاوروا مع بعضهم فاتفقوا أن يطيعوا دياب وينادوا باسمه لان مالهم على حربه طاقة ولما قرب منهم دياب وعرب الجازية وأتت اليهم وصارت تنخيهم فما ردوا عليهم فبكت وقالت ما فيكم أحد يخاصم دياب وأنتم شبان وهو كبير وخرفان وأشارت تقول :

تقول فتاة الحى أم محمد أنا اليوم جانى الهم والنكبات
على فارس الهيجا الأمير حسن أمير هلال حاكم الزيغات
أيا ذل قوم راح منهم سلامة وياشئمهم لما يقولوا مات
أبو زيد بالعربان ليس مثاله بالجود والمعروف وحسن ثبات
حوى حكمة لقمان وجود حاتم وصبر أيوب وكل صفات
وحاز خصال الخيرين جميعهم أمير ابن أمير سيد السادات
أبوزيد انظر حالنا وما جرى لنا وفينا دياب حاكم الأوقات
واصبح على تخت ابن سرحان جالسا وحاش بيده المال والصهوات
وعادت خيوله غابره نحو أرضنا وله مقام يرفع الشدات
أحيف حط الباب من الجو للوطا وعادت عصافير الشجر عاديات
عاد الضبع ياناس للسبع طارده وعادت عدانا بالهنا فارحات
الا يادريد اليوم ياآل عامر ويامن لكم يوم الوغا عادات
تذلوا من دياب وسطوته وأنتم ملوكا وأنتم السادات

فلا خير فى أيديكم ولا فى رماحكم ولا فى سيوفنا تفلق الهامات
أناديكم الحرب ما تسمعون أيا فاقدين العزم والنخوات
فابكى يا عينى لفقد سلامة ويا قلب نوح ع الأمير وهات
خلت سروج العامرات وقدها والنساء تعود والرجال أموات
فلابد بعد الزناتى مذلة ويأتى العنا من عالى الدرجات
مقالات فتاة الحى أم محمد وحزن أبوزيد دايم الاوقات

فلما انتهت أم محمد ما حدد عليها إلى أن بنى دريد وزحلان وعامر وضعوا المناديل فى رقابهم علامة الامان وخرجوا ينادون يا دياب أنت ملكنا والحاكم علينا ولا حد منا يعصى لك أمر ولما نظروه وتقدموا وقبلوا أياديه ورجليه وقالوا له أنت السلطان ومثلك يليق أن يكون سلطان لانك فارس جبار ثم دخل الامير دياب وجلس على كرسى الامير حسن وصارت تأتى اليه الامارة واحد بعد واحد يهنوه ويدعون له بطول العمر وأما الجازية والنافلة والحريم والأولاد فانهم اختلفوا وعند الليل ركبوا وساروا وسبقتهم كثير من قومهم وتسلطن دياب على كل بلاد الغرب وأمر أن ينادى باسمه وأنه هو الملك حاكم بلاد الغرب وسيد فرسان الطعن والضرب وصارت تأتيه الهدايا والتحف ورتب الحكام وعزل ولما راق باله سأل عن أولاد حسن وأبو زيد فأخبروه أن الجازية هربت فيهم مع بقية النسوان وتبعهم ثلاثون الف نفس من بنى دريد وزحلان فتكدر خاطره وقالوا حيث ظنوا السوء وما آمنوا إلى فانا لابد لى أن أذلهم وأقهرهم لأنه كان بفكرى أن أرتب لهم معاش وأقوم بوصية الأمير أبو زيد ثم ركب وتبعهم فما لحقهم فرجع وهو متكدر ويبقى له كلام يرجع الكلام إلى بلاد الكوع كان يحكمها سلطان يهودى إسمه شمعون وكان له وزير اسمه أبو الجواد فسلم فلما قتل الزناتى وملكوا بلاد الغرب اجتمع بوزيره وقال له كيف الشور عندك ان بنى هلال وصلوا الى نواحى بلادنا وهم فرسان لا يوجد مثلهم فى هذا الزمان سيما فيهم فارس اسمه أبو زيد من الأبطال العظام وفارس اسمه دياب ابن غانم كل جبار يعمد على بنى

هلال يقتله وأنا أخاف أن يصل شرهم الينا فى نصف العمل فقال الوزير أنا الرأى عندى أن تأخذ هدايا من بلادك والجواهر وتسير إلى الامير حسن وتقدمه له وتهنيه بالنصر ويصير بينك وبينه مودة وصحبة فاستحسن شمعون هذا الرأى ومن وقته وساعته حمل الهدايا على الجمال وصار بألف فارس من أعيان قومه وأكابرهم إلى القيروان ودخل على الأمير حسن وقدم له وسلم عليه فترحب به وعملت الولائم ووقعت المحبة والمودة ثم عاد إلى بلاده وبقى فى أمان والمراسلة بينه وبين الأمير حسن بسنين وأيام إلى أن قتل الامير حسن فتكدر وبعد ذلك بلغه خبر بقتل أبو زيد فعظم الأمر وقال لوزيره أنا مرادى أن أجمع العساكر وأذهب إلى بنى هلال لأنهم لابد أن يكونوا افترقوا فى بعض فن الموافق أن نكون حاضرين ونساعد الحرب القوى ونملك نحن البلاد وتكون قد ساعدتنا المقادير وقتلنا الامير دياب لأنه صار شيخ كبير ثم جمع العساكر وصار قاصدا بنى هلال وبقى سائر حتى دخل حدود الغرب فنظر الغبار قد علا وطار حتى سد منافذ الاقطار ثم انكشف عن ثلاثين الف فارس ومعهم حريم ونسوان فسأل ما الخبر فأخبروه هؤلاء حريم حسن وأبو زيد وأولادهم اليتامى هاربين من وجه دياب خوفاً على أنفسهم فاستدعاهم لحضرت الجازية فسألها عن الحاصل فأشارت الجازية تقول وعمر السامعين يطول .

(تمت هذه القصة وتليها قصة قتل الأمير دياب)

قصة قتل الأمير دياب

وتسلطن بريقع ابن الأمير حسن وقتله مع أولاد أبو زيد.
من نصر الدين الزغبي بن دياب وتسلطنه على بلاد الغرب.
عموماً وما حصل من الحروب الهائلة التى تشيب الأطفال.
وفى هذا الكتاب تغريبة بنى هلال بالتمام والكمال والحمد لله
على كل حال

تقول فتاة الحى أم محمد بدمع جرى فوق الخدود غزار
ألا ياملك شمعون اسمع قصتى واصغى لقولى ياحماة الجار
أنا بنت سرحان أخت أبو على وهؤلاء ياملك عبيد وجوار
كنا فى نجد فى سرور وفى هنا نمرح فيها ليلا مع نهار
رحنا لأرض القيروان وقابس أتانى الزناتى مثل شعلة نار
فقتل منا تسعين قتيلا مجربا برأس رمحه المرهف البتار.
قتله أبو وطفا دياب بن غانم بعزم شديد يفلك الاحجار
بقتله ملك سائر الغر ياملك ملكنا مداينها ودوار
أراد دياب يملك القصر وحده ويقعد به سلطان يامغوار
حبسه أخى سبع سنين كوامل سبع سنين فى بلاء واكدار
وأطلقه أبو زيد الهلالى غصيبة وهذه حيلة معموم عليه دار
مرض حسن والفراجه منه متهم وعلى وجهه بعض البياض سوار
وجانا دياب مع أكابر قومه وقلبه أسود خائنا غدار
دياب ذبح حسن فوق عالى فراشه وخلاه يختبط ميمنه ويسار
وراح هرب هو وكل بجموعه دخل بلاد الزنج والاقفار
جابه أبو زيد طيب بخاطره وأرسل له مكتوب بالاحضار
وبعده أتوا الصيد فى عز وهنا ولعبوا بالجريد كم مشوار
دياب ضرب سلامة أرماه على الثرا ضربات دياب ماعليها غبار.

ماقال أبو زيد روحوا بأهلكم إلى الملك شمعون عز الجار
وجينا إلى عندك طالبين مكارمك يا برمكى يامحكرم الزوار
هذا ماجرى فينا وهذا ماأصابنا والدهر دولاب علينا دار

فلما فرغ من كلامها أشار الملك شمعون يرد عليها ويقول :

يقول الملك شمعون والقول صادق نيران قلبى زايدات سعار
ألا فابشرى بالخير ياأم محمد لقد زال عنكم سائر الاكدار
وقلبى على حسن الهلالى مرجفا وأبوزيد خلا الدموع غزار
ولكن اهم أولاد يخافونهم ويسقوا دياب علقما ومرار
أنا كنت سائر نحوكم لاعينكم وأنظر ما بين قد صار
ولكن انتم سالمين بأهلكم فابقوا واصبروا فالفلك دوار
وارعوا أراضينا واجنوا ثمارها فأنتم والله أكرم الخطار
لكم عندنا الأسرار والخير والهنا والعز والناموس والاوقار

فلما فرغ شمعون من كلامه والجازية تسمع نظامه قالت ارجع فما الآن وقت ذهاب لأن دياب له سطوة فى بنى هلال والقى الرعب فى قلوب الجميع وما أحد من رجاله ولا فى الزمان له مقارن لأنه قتل فى زمانه فرسان لا تعد وقاتل أعظم أبطال عصره فالاوفق نصبر إلى ان يأتى الفرج وهو قريب لأن دياب كبير السن وماله سوى ولد صغير يرضع اسمه نصر الدين تأخذ الثار إن شاء الله قريب .

(قال الراوى) وكان دياب تزوج امرأة من قومه اسمها اسرين لأنه ما بقى له أولاد سوى وصفه فأتاها ولد فسماه نصر الدين يبقى له كلام يرجع الكلام إلى الجازية أنها رجعت باليتامى إلى عند الملك شمعون فدين اهم أرض وصاروا يرعون المراعى وما عاد للجازية هم إلا تربية اليتامى وتعليمهم الحرب والقتال وبقوا عند الملك شمعون إلى أن وصل خبرهم إلى الأمير دياب فأراد يجمع العساكر ويذهب اليهم فقالوا بنى زغبة الاوفق أن لا تذهب وراءهم لأن بلاد شمعون حارة إذا طال بنا الحرب ونهلك ونعطش وربما بنى دريد وزحلان اتفقوا مع الأولاد فيطول علينا الحال فقال دياب أنا خايف تنتظرون حتى أموت أو أعجز يأتوا ويملكوا البلاد

ويذلوا ابنى ويذلوكم فقالوا له الأوفق أن تكتب مكتوب إلى الملك شمعون وتوعده بالمال بقتالهم ولا تهدده لأنه جبان ولا يخاف من باسك فاستصوب هذا وتوسل إلى شمعون يقول :

يقول الفتى الزغبى دياب الماجد ونيران قلبى زايدات سعير
يا أيها الغادى على متن ضامر تسبق هبوب الريح عنه مسير
إذا جئت للكوع فانزل بربعها وعقل جوادك بالزمام وعير
عواطفى للسلطان شمعون ورقى وسلم عليـــه وشيد كثير
أريد ياشمعون تقتل اليتامى وتدعيهم على وجه التراب دقير
وخذ أموال دريد وجمالهم وأبقى أنا لك بالحرب نصير
ما قال الزغبى دياب الماجد كلامى أكيد ما به تزوير

فلما فرغ دياب من الكتاب سلمه إلى رسوله راشد بن نبهان ليوصله إلى الملك شمعون ويطلب منه الردفسار حتى دخل بلاد الكوع فصادفه الوزير أبو الجود وكان مسلم وأخذ الكتاب فضه وقرأه وعرف رموزه ومعناه فادخل الرسول الضيافة وأوعده بالرد وأخذ الخطاب واستدعى الأولاد وقال لهم اقرأوا هذا الكتاب فلما قرأوه خافوا ووقعت الرعبة قلوبهم وقالوا نحن واقعين عليك يا وزير فقال لاتخافوا لأن الملك إذا نظر ذلك الكتاب اقتلكم لانه طماع ويخاف من دياب وما لكم إلا أن ترسلوا الجازية إلى عنده وتداعوا عليه وأنا أعرف أنه واقع فى هواها وعند ذلك لايقتلكم فقالوا نحن لايليق أن نكلم الجازية هذا الكلام فقال لهم أنا أحضرها إلى عندى وفى الحال بعث وراها فجاءت اعنده وقرأ المكتوب أمامها فتكدرت وقالت ما كفى دياب ماعمل حتى أنه لاحقنا إلى هنا ولكن ما الرأى عندك فقال الرأى عندى أن تذهبى إلى الملك شمعون وتدخل عليه فانه لايضركم فقالت له أنا امرأة مسلمة بنت مسلمة ومن اسل الملوك وزوجى شريف النسب فكيف توقع على واحد مسلم مثلنا ونبينا صلى الله عليه وسلم أوصانا بمساعدة بعضنا البعض فلما سمع أبو الجود كلامها قال فى باله هذه امرأة تكرم دينها أكثر منى فالأوفق أن أساعدها كثير ثم قال لها أنتم معكم ثلاثين الف فارس وأنا عندى أكثر من

الفى عشر فارس فالجملة إثنين وأربعين الفا فخلوا الجميع مستعدين للحرب وابعثوا أولاد أخيك إلى السلطان ويقولوا له مرادنا نزوجك عمتنا فيفرح بذلك لأنه وقع بهواك فتى دخلت عليه يدخل شيبان ويذبحه وقد حل على اليهود فنقتل الأمير ونملك البلاد ونقيم حكم من أولاد أخوك وأنا أتزوج بك وتصير البلاد فى يدنا فاتفقوا على ذلك وذهبوا بأولاد السلطان حسن إلى قصر الملك شمعون وعرضوا عليهم ففرح وقام قبلهم وقال مهما شئتم فاطلبوا فقالوا له لا نريد إلا سلامتك ثم جابوا الحاخام ككتب الجازية على الملك شمعون ودخلت فى دين اليهود فى ذلك اليوم بعد تمام الفرح دخلت على شمعون فوجدته منتظرها فى قاعة النوم وعليه الملابس الخفيفة ودخل عليها شيبان بن أبو زيد وبيده الخنجر فضربه أرماه قتيلا وقطع رأسه ووقف فى القصر وقال قد قضى الغرض وكانت الامارة والوزير منتظرين تحت القصر فخاروا على اليهود وأبلوهم بالذل والنكود وقتلوا أعيانهم وفكوا القلاع وأهلكوا رؤساء العساكر وما أصبح الصباح حتى انتهوا من الأعمال ودخلوا سراية الحكومة وأجلسوا الأمير بريقع ابن السلطان حسن ملكا على بلاد السكوع وصارت المنادية باسمه وفرق العساكر فى جميع الجهات وراق له الحال وما قام فى البلاد مخاصم فهذا ما كان من رسول دياب بن غانم فانه لما شاهد ما صار خاف على نفسه فصار يجتهد حتى وصل إلى عند سيده فأخبره الخبر فقال له أحد الأمارة أنت قتلت الحية وتركت رأسها هذه الأولاد لا بد ما يقوموا ويأخذوا منك بثأرهم فضحك دياب وأخذ يكاتب اليتامى ويقول :

هبت بوارقها وطاب هواها	ولاح ما بين النجوم سناها
وعرفت ملوك الشرق والغرب	انى عبيد رجال العرب عند وغاها
قتلت أنا حسن الهلالى أبو على	وأبو زيد الفتى كان أعلاها
ملكت أنا كل البلاد بهمتى	وأنا ابن غانم الناس جاها
طاعت لحكمى سائر العرب	وضربات سيفى بالبلاد اقاها
وما عاد له بعد الأيام مخاصماً	إلا اليتامى من خاف دهاها
فلا بد ما ألقى اليتامى جميعهم	والحقهم فى أبوزيد تاها
ألا يا يتامى ارحلوا نحو ربعنا	وحيوا لرجلى وبوسوا يداها

عليكم سلام الله كراما لأبوكم حسن وابو زيد بها أوصاها
وإن تشمخوا ارحل إليكم أذلكم وأنتم تعرفوا عزمى بسوء وغاها
مقال الفتى الوغى دياب بن غانم والنار فى قلبى تزيد لظاهـــا

فلما فرغ دياب من كلامه طوى الكتاب وبعثه إلى اليتامى فلما وصل إليهم وقرءوه أعطوه الجازية فقالت لهم إن دياب قلبه دليله والذى له عدو لا ينام الليل ثم كتبت إلى دياب وأشارت تقول :

برق يلمع من خلاف اليمانى وهيج بالقلب وجد بعد ماهان
الريح هبت فى ضميرى وخاطرى وتقول الله يعكس باطلا كل خوان
دياب يا أمير ترسل تهددنا كنا لكم يا أمير بالوغى إخوان
والله عوض أبا دياب بغيركم فصرنا ملوكا وعاد الدهر كما كان

فلما فرغت الجازية من كلامها طوت الكتاب وأعطته الرسول أخذه وسار يقطع الفيافى والقفار حتى وصل إلى عند دياب فناوله الكتاب ففضه وقرأه وعرف رموزه ومعناه فقال فى باله لابد لى ما أركب وأدهمهم فى بلادهم وفى ذات الأيام أتوا شعارا إلى الغرب مدحوا السلطان دياب ووصفوا له بنت الأمير الهدهاد فسأل دياب عنها فأخبروه أنها لم يوجد مثلها فى الدنيا فقال أحد الأمارة الحاضرين هذه خاطبها السلطان حسن لابنه بريقع وكان مراده يزفه عليها فعند ذلك قال دياب والله نحن أحق بها من الغير ثم كتب مكتوب إلى الأمير ماجد يطلب بنته وبعث المكتوب مع الأمير فأخذه وصار حتى دخل على ماجد أعطاه الكتاب ففضه وقرأه وترحب فى عرندس ثم جمع الأمارة راغبا قومه واطلعهم عليه فقالوا ابعث وقول له بنتى مخطوبة إلى الأمير بريقع ولا يليق بى أن أفسخ الخطبة والأمير بريقع مراده أن يزف عليها وهو ابن عمك ثم بعد ذلك كتب إلى دياب وارسل المكتوب مع عرندس وبعد ذلك استدعى بقومه وأعلمهم بما كتب إلى دياب وقال لهم هلموا بنا إلى نجع الأمير لئلا يأتى دياب فيقتلنا ويقتل أولادنا فهدموا اقومه البيوت وحملوا حريمهم وصاروا يقطعوا الفيافى والقفار قاصدين بلاد الكوع يبقى لهم كلام يرجع الكلام إلى عرندس دخل على دياب وأعطاه الكتاب ففضه وقرأه وعرف معناه فغضب غضبا شديدا ومن ساعته

وركب الفرسان والأبطال قاصداً أماجد ومازال سائراً حتى وصل إلى بلاده وبعد الأرض قفرة فى سبعة أيام فلما وقف على خبر فتكدر ورجع وأرسل الجواسيس تفتش عليه إلى أين سار واورجع هو ومن معه إلى بلاده والأوطان وكان عند دياب بنت أخته بنت الأمير حسن وكان اسمها أمينة وكان لها ربت الجازية وأختها بقيت فأخذها دياب إلى عنده وكانت بنت دياب تشتم لها اخوتها واولاد أبو زيد وتقول لها أبى لابد ما يقتلهم فقالت يوم كانوا مجتمعين قالت لها بنت دياب أنا سمعت أن أبى أمر بجيب اخوتك ويقدمهم عنده وإن ما قبلوا يسير اليهم فقالت إن اخوتى صاروا ملوك ولابد ما يجوا ويأخذوا الثار من أبيك فغضبت منها وقامت اليها وضربتها فعند ذلك تركتها وراحت إلى قبر أبوها وصارت تبكى عليه وهى قاعدة وإذا برجلين مقبلين عليها واحد أبيض والثانى عبد فوصلوا الى قبر الأمير أبو زيد وصاروا يبكون فالتفتت اليهم وقالت لهم من تكونوا وعلى من تبكوا فقال الأبيض نبكى على موالينا وأسيادنا أنا بدر بن قاشع وهذا عبد أخوك كنا عائشين بنعمتكم غدر بنا الزمان ورحلنا مع اخوتك وصرنا نسافر مثل المكاربة من بلد إلى بلد فقالت لهم والآن إلى أين ذاهبين قالوا إلى بلاد الكوخ فإن كان لك غرض أو وصية نوصلها لك فقالت احضروا إلى دواية وقرطاس فأحضروا لها فأشارت تكتب إلى اخواتها تقول:

تقول أمينه بنت من ساد ذكرها ... بدمع جرى من مقالة العين عايم
ونيران قلبى كلما أقول تنطفى ... يهب لها جوا ضلوعى ضرايم
تعاندنى الأيام والدهر هاتف ... وصرت حزينة والعقل هايم
اداری على روحى واكتم خاطرى ... ولا أعرف الراحات والرب عالم
يا أيها الغادى على متن ضامر ... تشق فلاة الأرض مثل النسايم
فاهدى سلامى ثم أعطى رسالتى ... رسالة محزونة تذوق العدايم
إلى إخوتى هم الملوك إذا علوا ... وسلم على أولاد عمى اللزايم
يجونى على الخيل كما الريح جريها ... عليها شباب كالليوث الضراغم
بكل مهندى والردينى بكفه ... لسان الحنش مسقى بسم الأراقم
ويكثر بالجمين وضرب البواتر ... بطعن العوالى قد يزيل العظايم

معى يأخذون الثار من والد غانم ويدعوه فوق الأرض مرمى نايم
تبقى بلاد الغرب طوعا بيدكم وتحكموها مثل أبوكم حاكم
مقالات فتاة الحى أمينة الحزينة ونيران قلبى زايدات ضرايم

(قال الراوى) فلما فرغت أمينة من كلامها طوت الكتاب وأعطته إلى بدر واخذه وصار هو والعبد أيام وليالى حتى وصل الى بلاد السكوع ودخل على الأمير بريقع وقبل الأرض بين يديه فقال ماعندك من الأخبار قال معى كتاب من أختك امينة وهى تقاسى العذاب والآلام مع بنى زغبة وبنت خالك فى كل صباح تخدمها وتهددها فقال له اين الكتاب قال له أوصتنى أن لا اعطيك الكتاب إلا بوجود عمتكم الجازية فلما حضرت اعطاه الكتاب وخصلة شعر من شعر أمينة فلما نظروا الشعر وقرأوا المكتوب هاجوا وماجوا وضاجوا وصاحوا ووقع فيهم البكاء والنحيب واجتمعت عليهم النساء والاولاد والرجال وكان لهم ساعة يا لها من ساعة وجددوا حزن أبو زيد والأمير حسن فعند ذلك نهض شيبان وقال لهم ما لنا ولهذا البكاء قوموا حتى نركب ونسير إلى حرب دياب فاما ان نموت أو نأخذ ثارنا ونخلص حريمنا ورجالنا من ذل دياب فقال بريقع هو الصواب ثم أنهم أمروا بالركوب فاشتدت العساكر وامتدت وركبت معهم الجازية وساروا بستين الف فارس ما بين مدرع ولابس واليتامى أمام الجميع وعند ما أمسى المساء نزلوا يريدوا بتلك النواحى ليرتاحوا وما استقر بهم النزول سمعوا صوت عرب نازلين بالقرب منهم ثم شاهدوا نيرانهم فاجتمعوا اليتامى وقالوا من أثر النازلين فى هذا المكان فقال بريقع اظن هذا دياب أتى ليقاتلنا فا الشور عندكم إذا وقعنا وهو فى هذه الأرض يهفينا لاننا نحن ماشمين على أولاد عمنا الباقين فى بنى هلال فانهم لا يساعدوننا ودياب لا يجيب معه إلا أولاد عمه وكلهم أبطال وبقوا فى حساب وأمور صعاب فقال الأمير بريقع ما لنا لا نرسل من يكشف لنا الخبر فقالت الجازية أسير واكشف لكم الخبر ثم قلعت ثياب النساء ولبست ملابس الرجال وتقلدت بالسلاح وأخذت معها شيبان وبريقع واوصت ألا أحد يشعل نار ويبدى حركة قبل ان يحضروا ثم ساروا تحت الظلام حتى قربوا من العرب فسمعوا بكاء الاطفال وصراخ النساء

ونبح الكلاب فعلموا أنهم عرب راحلين بعيالهم قاصدين النقلة فقالت الجازية للامارة ان صدقنى حذرى هؤلاء عربان هاربين من وجه دياب قاصدين بلادنا فقالوا يلزمنا نكشف خبرهم فقالت الجازية سيروا لنقصد النار الاكثر اشتعالا لانه هناك يكون اميرهم ثم رحلوا بين العرب فنظرهم بعض الناس فذهب لعند الامير ماجد واخبره انى نظرت ثلاث خيالة غرباء دخلوا فى قبالة واظنهم من بنى هلال وشرح لهم صفاتهم وبينما هم فى الكلام الا ودخلوا الامارة والجازية عليه فقام لهم واقفا على الاقدام وترحب بهم واجلسهم وقدم لهم الطعام فأكلوا ثم قدم لهم القهوة فشربوا وبعد ذلك قالت له الجازية كثر الله خيرك يا ابن عمى ماجد فقال أراك عرفتنى أيها الشاب الظريف وأنا ما عرفتك فمن تكون فقالت له صدق المثل الذى يقول من غاب من العين سلاه القلب فقال بالله عليكم أخبرونى من أنتم فقالت له الجازية أخت السلطان أتينا نأخذ بثارنا من دياب فوصلنا الى هذا البر فى هذه الساعة فسمعناكم وقصدنا نكشف خبركم فلما سمع كلامها ماجد صفق على يديه من الفرح وقال أهلا وسهلا بحضورى ثم قام واقفا على الاقدام وصار يقبل الامارة وهو لا يصدق من عظم فرحه ثم حكى قصته مع دياب وكيف بعث طلب بنته مع هرندس وكيف غلظ عليه الجواب وقال إن بنتى مخطوبة إلى بريقع ثم شاع الخبر فصارت تحضر امارة ماجد وتسلم عليهم وبقوا مدة ثم بعد ذلك قال ماجد الحمد لله صادفنا بعضنا فى هذا المكان فما دلنا الا المسير لأخذ الثار وأنا بلغنى أن دياب صار خرفان وما عاد عزمه كالاول وهو عمال يظلم فى الرعية من قلة عقله وصار الكل يكرهونه فقالت الجازية فى غد إن شاء الله نكتب مكتوب إلى بنى دريد ونحركهم ليقوموا معنا يساعدونا لأخذ الثار فقالوا هذا هو الصواب ثم دعوا الأمير ماجد وساروا واخبروا بقية الامارة ففرحوا الجميع وفى ثانى الصباح ركب ماجد وأتى إلى الامارة وسلم عليهم جميعا فترحبوا به وقدموا له مزيد الاكرام ثم بعد ذلك أخذت الجازية تكتب إلى الأمير طوى وتلجى قومه لحرب دياب وتقول :

تقول فتاة الحى أم محمد ... وقلبى قبل اليوم قد كان مغبون

وقد كنت محزونة من الهم ... على فقد ابن سرحان والقيدوم

أبو زيد أتى والشئ ماتسيئه   وكان أمير إلى الأسرار كتوم
أميرين والله ايس يوجد مثلهم   وكان ابم سعد قوى مخدوم
قتلهم أبو وطفا دياب عداوة   يجازيه ربى الواحد القيوم
يا أيها الغادى على متن ضامر   تسبق هبوب الريح وكل اسوم
لوجئت لأرض القيروان قابس   تلاقى بها الزغبى أمير حكوم
فسلم على طوى خليفة عمنا   أمير كريم خليفة المرحوم
وسلم على أهل دريد جميعهم   أمارة ايوثا مابهم غيشوم
وقولوا له أن الجازية أم محمد   تنبيــكم الاخبار ثم علوم
ان كان أنتم تحضروا وتوافقوا   فتحضروا حالا اقضى معلوم
ولاتنسوا فضل أبو زيد وحسن   ولا تتركوا تاراتهم يا يوم
فردوا لنـــا منكم بالعجل   ياخليفة المبرور والمرحوم

فلما فرغت الجازية من كلامها أوسلت الكتاب إلى ابن مالك فأخذه النجاب وسار فلما وصل اليه الكتاب أخذه وقرأه ففرح فرحا لايوصف وسار وعرض على بقية أمارة بنى دريد ففرحوا جميعا وقصوا الجواب فعند ذلك أشار يكتب ويقول:

يقول طوى والدموع غزارى   والنار فى قلبى تزيد سعارى
الله أكبر زال عنـا همنا   وقلوبنا فرحت بذى الاخبار
من ١٥ عام فى أسر العدا   وفى القلب منهم دوم شعلة نار
لما سمعت أخباركم يا جازية   أضاء علينا الحى والديار
ففرحوا بكم أهل الديار جميعهم   نسوانهن فرحوا بأخذ الثار
اقرأوا سلامى للأمير بريقع   أيضاً شيبان وكل أمارى
ياجازية هاتى للقروم اسرعى   لعند أبو وطفا لأخذ الثار
دياب غدا خرفان وحيله انقطع   ما أعاد له عزم البارى
ماقال طوى خليفة مالك   لاخير فى قوم يكون فشارى

فلما فرغ طوى بن مالك من كلامه طوى الكتاب وختمه بختمه وقال للرسول سلم على الجازية والامارة وقولوا انهم نحن قادمين ومقتولين معهم فأخذ الرسول الكتاب

وسار يقطع الفيافى حتى وصل لعند الجازيه أعطاها هذا الكتاب فقرأته بحضور الأمارة ثم قالت والله العظيم أنا قلبى قال والله العظيم أنا قلبى يقول أن دياب لابد ما يغدر بقومنا لأن هذا الخبر لا يختفى ثم كتبت مكتوب إلى طوى بن مالك تقول له خذوا حذركم بنهار غدا العيد إذا حضرتم لعند دياب فالبسوا دروعكم واسلحتكم تحت ثيابكم ونحن نعمل لعندكم يوم العيد فانقسموا فرقتين النصف يجلسوا على المائدة والنصف يقوا راكبين خيولهم فسار الرسول حتى وصل إلى عند طوى بن مالك فقرأ الرسالة وقال هذا الصواب فاهدهم من السلام والفكر الذى افتكرته الجازيه لأن بنى زغبة أخذوا الخبر ونظروا إلى بنى دريد يختفى حالهم دائماً فى اجتماعات وأسرار فأخبروا دياب واطلعوه على حالهم فقالوا له كيف الرأى ونحن خائفين من غدرهم وغدر أولاد حسن وأبو زيد فقال لهم ان الرأى عندى ان نعمل وليمة على العيد وعندما تجتمعوا أوهموهم واقتلوهم ولا تدعوا من أكابرهم أحد .

(قال الراوى) وكان ثانى يوم عيد الضحية فعمل دياب الوليمة ومد السماط وكان شىء يدهش العقول وعزم بنى دريد وأكابرهم فحضروا ودخل نصفهم وجلسوا على الطعام وبقى النصف الآخر على ظهور الخيل وفى تلك الساعة ارتفع الصياح وعلا من كل ناحية ورفع الصوت فى بنى هلال وارتجت الأرض من كل مكان ووقعت الضحية الصحيحة وإذا بالطبول دقت والرايات ظهرت وانتشرت والرماح انعكفت والأصوات ارتفعت والنساء زغرطت فعند ذلك سأل عن الخبر فأخبروه بما جرى من اليتامى وانهم نهبوا البوش وقتلوا الرعيان وطافوا على البلد من كل مكان فعند ذلك ارسل دياب إلى ابن اخته بريقع جوابا يهدده بالقتل وبعثه مع نجاب فأخذه وسار إلى بريقع فاعطاه الكتاب ففضه وقرأه وعرف رمزه ومعناه وقال الله يعلم إن خالى خرفان ومراده أن ارد له البوش ونحن لا نرضى بالبوش ولا بغيره إلا أخذ روحه العزيزة عليه ثم أشار الأمير بريقع يقول :

يقول ابن حسن الأمير بريقع وعلقت بقلبى والحشا نيران
على ما جرى فينا وما قد اصابنا من ابن غانم راجح الميزان
دبيع المصايب خالنا ولد غانم وهو خالنا بالسر والاعلان

وإن عابنا نرى ما نعيبه ولا يحكى بحقه نقصان
علمنا بأنك يا ابن غانم فارساً ويوم الوقائع راجح الميزان
ولكن ما للخال إلا ابن أخته فانهض ولاقونى إلى الميدان
إما تقتلنى وتملك اسعدتى إما بصدك أطلق العيدان
أنا ابن القرم سلطان عامر أمير الملا حسن ولد سرحان
لنا دين عندك وجينا اريده فأخذه أن قدر الرحمن
ونأخذ منك الثار ونشفى غليلنا ويزيل عنا الهم والاحزان
ونبقى بعدك فى سرور وفى هنا وتطيب لنا الاوقات والازمان

فلما فرغ بريقع من كلامه طوى الكتاب وأرسله إلى دياب فقرأه وعرف رموزه ومعناه فتكدر وأشار يكتب إلى بريقع :

يقول الفتى الزغبى دياب بن غانم وأجفان عينى تهمل العبراته
على زمان تقضى راح وانقضى وكنا بطيب العيش واللذاته
ذكرت أنا نجد قبل رحيلنا وكنا بها فى أحسن النعمات
فقالوا الامارة من بريح مغربا ويكشف لنا أرضا بها الخيراته
قالوا جميعاً مالنا إلا سلامة أمير ابن أمير صاحب الهمات
أبو زيد العريان ليس مثاله خبيراً ويعرف سائر اللغات
فقمنا جميعاً كلنا لحالنا وقلنا له يا صاحب الهمات
أبوزيد يروح يكشف الأرض وانظر لنا أرضا بها الخيراته
فقال سمعاً لكم يا أعمامنا أبو زيد ثلاث لألف لازمات
بسرعة اتوا ثم ساروا جميعهم قطعوا جميع الأرض والفلواته
مرعى ويحيى ويونس أبعدهم اختارهم دون الملا وفقات
وجانا أبوزيد من العرب وحده وأخبرنا ماصار بالعيبات
ونادى ابن سرحان خلوا ولا عاق نجد سوى الحشراته
وامتد اضغان الهلالى مغربا كالبحر فى الأمواج متلاطماته
قتل منا تسعين أميراً أكارمة قروما أمارة كلهم ساداته

وجيت لميدان الزناتي خليفة ... لقيس له ما بين منقلات
وجاب في الميدان ساعة وعاد ... حزينا وقد جاء الروع والنوعات
وقال لي ما اسمك قلت غانم ... أنا القرم وأنا المذعور للشدات
فقال دياب احقن الدم بيننا ... وخذ لنصف الملك والدائرات
فقلت ماجاءك الموت عاجلا ... وصح القضاء ماعاد فيه نجات
طعنته بحربة من يمين ابن غانم ... فأضحى قتيلا قائد الجيشات
وملكتهم للقيروان وقابس ... وجمعتهم من بعد كدر شتات
أخذت أنا ثلث البلاد بهمتي ... وأبوزيد أخذ الثلث بالقسمات
والثلث أخذه ابن سرحان حسن ... وعندنا يطيب العيش واللذات
تعاون حسن أبوزيد بعداوتي ... ونسيوا ليالي الهنا والماضيات
قلت أنا حسن الهلالي قربي وقال ... لت أبقى مع أبوزيد مصاحبات
بملك ملكه ابن رزق سلامة ... ثلاث سنين حكى كاملات
وصالحني والقلب منه أسود ... فطيرت إلى رأسه ثلاث شنقات
وهجموا الامارة بعده من بلادهم ... وراحوا الأرض الكوع مع العمات
وجيتوا إلينا تطلبوا التار عاجلا ... مساكين عقلكم راح شتات
أنا فارس الهيجا دياب بن غانم ... بقتل سباع الغاب لي عادات
حسن وسلامه وزناتي خليفة ... لقد سكنوا في عامق الحفرات

فلما فرغ دياب من كلامه طوى الكتاب وختمه وأرسله الى بريقع فضه وقرأه وعرف رموزه ومعناه فأمر بالركوب فركبوا اليتامى ودقوا طبول الحرب وتقلدوا بسلاحهم ونشرت بيارقهم وزغرطت لهم النساء وانضم لهم قومهم بنى دريد وبنى زحلان ونزلت بنى زغبه إلى الميدان يتقدمهم دياب فرخ العقاب وأسد الغاب وحداف الرقاب وهو من الكبر صار شعره أبيض كالثلج وظهره محنى كالقوس فاصطف ميدان الحرب وقاد كل فارس قبال فارس فعند ذلك برز إلى الميدان فارس من بني زغبة اسمه الدعام وطلب مبارزة الفرسان فقالت الجازية ماأحد ينزل إلى هذا الفارس غيري فقالوا لها الأمارة هذا علينا إذا نزلتي نخاف عليك لئلا تقتل

فيصير علينا العار أكثر ولا تظنى أن الحرب مثل لعب الجريدة فقالت لهم وذمة العرب والرب إذا طالب غاب والنبى المنتسب ما ينزل إلى هذا الفارس غيرى فعند ذلك قال الأمير شيبان يا أمارة اتركوها تبرز إلى هذا الفارس ونحن نقف بالقرب منها فان رأيناها مغلوبة ساعدناها وإن رأيناها غالبة تركناها فعند ذلك برزت الجازية إلى الميدان وهى متقلدة بالسلاح هى والأمير دهام وصار بينهم كر وفر وطعن يقصف العمر فاستلت السيف وضربته على هامه أرمت رأسه فوقع قتيل وفى دمه جديل فاغتاظ دياب وقال من يكون هذا الفارس الذى قتل فارسنا واليتامى ما فيهم فارس إلا الخيمر بن زيد وخيمر مات فى بلاد الكوع وبينما هو فى الكلام برز من بنى زغبة فارس اسمه حمزة بن الأقرع صدم الجازية وضربها بالرمح فراحت الضربة خائبة بعد ما كانت صائبة فاعتدلت وضربته بالرمح فى صدره طلع من ظهره فوقع قتيل فقالت بنى زغبة ما لهذا الفارس يا أمير سواك فعند ذلك برز الأمير دياب إلى الميدان وقال إلى الجازية من تكون أيها الفارس المفتخر على أبناء جنسه فقالت له أنا ابن هذا الميدان فما لك والسؤال فقال لها لا اقاتل إلى من كان حسبه من حسبى ونسبه من نسبى فقالت له انا اكثر منك حسباً ونسباً أنا الجازية أخت الأمير حسن وصديقة الأمير أبو زيد وقد جئت لآخذ الثار فضحك دياب حتى استلقى على قفاه وقال لها متى تعلمت الفروسية وأنا ان قتلتينى لا أقاتلك لأنه عار أن أقتل امرأة مثلك لأنه لا يليق بى هذا الأمر وإذا قتلتك يقول الناس دياب عامر ملوك الأرض بالطول والعرض يبرز لحرب امرأة روحى ارسلى الأمارة فقالت له ما اروح من هنا حتى آخذ ثارى يا خائن يا غدار فقال يا جازية بطلى كلامك الفشار وارجعى إلى أولاد الأمارة أتنعم بآبائهم فقالت ما بالك ولهذا الكلام انزل الميدان حتى أذيقك الموت لأنك شئ خائن وما جزاك إلا قطع رأسك فلما سمع دياب كلامها لعبت برأسه نخوة الرجال فرفع رجله وضربها على جبينها بقوة عزمه رفعها عن الحصان ٨ أذرع فوقعت على الأرض ميتة فقال أولاد الأمارة موت عمتكم لانها قد تطاولت فنالت جزاها رجع دياب حزين عليها وقال فى باله الله يلعن الشيطان ما كان لازم هذا أمره وأما الأمارة أخذوا الجازية كفنوها وعملوا عليها مناحة عظيمة وبكى

عليها القريب والبعيد وفى ثانى يوم برز بريقع إلى الميدان فبرز إليه دياب والتقوا البطلين كأنهم جبلين وحان عليهم الحين وغنى فوق رؤوسهم غراب البين مقدار ساعتين من النهار وبعد ذلك قام دياب بعزم الركاب وضرب بريقع بقفا يده أرماه إلى الأرض وصاح أولاد الامارة قدموا أخذوه قبل أن تصيبه مصيبة ثم صار يضحك عليهم ويقول فى نفسه لولا وصية أبو زيد لى كنت أفنيهم على آخرهم ولكن خليهم يعرفوا مقام أنفسهم وأما اليتامى فانهم وقعوا عند ماجد يتشاورون فقال لهم ماجد هذا دياب ما على الأرض أفرس منه فان مرادكم أن تقاتلوه واحد بعد واحد يفنيكم عن آخركم والرأى عندى أن تهجموا عليه هجمة واحدة حطوه بالوسط ولا بد ما تصيبه ضربة ايقع على الأرض فلا تتركوه حتى يموت فقالوا هذا هو الرأى الصواب والامر الذى لا يعاب وباتوا تلك الليلة وفى الصباح برزوا يطلبون الحرب والكفاح ودقوا الطبول وتقدم أمام الجميع بريقع فلما نظرهم دياب ضحك وقال والله مرادى أقاتلهم بلا درع وعلى كديشة عرجا فمنعوه قومه وقالوا له أنت رجلا كبير فما السلم معك على ذلك فبرز دياب بلا درع وما معه إلا السيف والترس فالتقاه الأمير بريقع ووقع القتال وانحدفوا اليتامى مرة واحدة فالتقاهم وصاح فيهم صيحة ارتجت منها الجبال وأراد أن يضرب بريقع بالسيف يقطعه قطعتين فطرحه شيبان بالرمح من بعيد وقع فى جنبه دياب على الارض من عظم الألم فعند ذلك تقدموا الامارة وقال له بريقع كيف حالك الآن ثم تنفس دياب وقال أنا شبعت من الدنيا وهذه مقدار كل موتة ولها سبب وأشكر الله الذى مت قتيل أولاد حسن وأبو زيد ولا قتلنى أحد غريب فلما فرغ دياب من كلامه غاب عن الوجود مقدار ساعة ثم أفاق وصار يودع الدنيا ويستغفر من ربه يقول :

يقول الزغبى دياب ولد غانم سبحان ربى مالك الملكوت
سبحان رب العرش جل جلاله له الحمد والإحسان والثبوت
سبحان من أنشأ من الطين آدم وجرت له الافلاك بعد سموت
سبحان من خلق الخلائق جميعها وعلمهم بالخلق والثبوت

خلقهم وتكفل تقسيم رزقهم ... وكل له أجل ورزق وقوت
يا أولاد العم قولوا سلامتى ... أنا اليوم فى كاس الممات بلوت
هلال وعامر مع دريد وزغبى ... إذا شافهم إنسان غدا مبهوت
لهم جيش مثل البحر إذا كان زاخر ... وموكبهم عظيم يخوت
فكم من ملك جاهم وكم قبيلة ... وراحوا من يد هلال شتوت
قدمت على فعل بهم اداءتى ... على ما جرالى وفات القوت
قتلت أمارتهم وأخذت بلادهم ... أرض وقابس إلى مرج الغالوت
بلاد السودان والغرب كلها تخوت ... ومن بعد التخوت تخوت
وعشرون تخت منهم ملكتها ... مرصعة بالدر والياقوت
هجموا أهاليها وخافوا من اللقا ... وعادوا جميعاً بالبلاد شتوت
أيا نار قلبى على فراق أبو على ... وأبو زيد يخلى كالمياه شتوت
أنا مفارق الدنيا وذاهب لغيرها ... هناك حاضر ليس يموت
مقال الزغبى دياب المفارق ... أيا موت الله زرتنا ثم دنوت

فلما فرغ دياب من كلامه أسلم روحه فرحمة الله على الامارة أجمعين وبعد أن مات قال بريقع أحضروا السكين التى ذبح بها أبى فأحضروها فاقتطع بها راس دياب وفصله عن جسده وتركه ورجع فاتوا قوم دياب فأخذوه وكثروا عليه البكاء والعويل ومزقوا ثيابهم وناحوا وصاحوا وسرجوا الخيول سود ورفعوا البيارق السود ودقت طبول الحزن واجتمعت الأمارة من كل ناحية وعند ذلك دفنوه بعد أن بكوا عليه وعادوا الى بنى زغبة فوجدوهم طائعين سامعين وجلس بريقع ملك على بلاد الغرب ورالت له الأحوال ورتب الملك بحسب الشهادة وأقام شيبان ورزق وزرائه عنده وانتهى فى وسع ملكه وما سأل عن أولاد خاله وهذا ما كان من نسرين زوجة دياب فإنها لما قتل زوجها قالت لابنها لا بد من أن أولاد عمك يعملون حيلة عليك ويقتلوك ويرتاحوا من دياب ويخافون منك لئلا تأخذ ثارك منهم فقم بنا اركب الشهبا وسير عند أحد من أصحاب أبوك فيبينا يصير وقت مناسب لأخذ الثار فعند ذلك ركب نصر الدين على الشهبا وأخذ أمه وراه وخرجوا من

البلاد تحت جنح الظلام ولما أصبح الصباح وطلع ضوء النهار كانوا بعيدين جدا وما زالوا سائرين تارة يجلسوا ليرتاحوا وتارة يسيروا حتى وصلوا إلى غدير وجبل وعليه رعيان تسقى جمالها والبنات والنسوان تلعب حواليه فحول نصر الدين بوالدته فأكلوا وشربوا وقاموا لمدة حين وأووا وكان بالنصر وورد إلى ذلك المنهل صبية كأنها شمس منيرة طول الزوائب بعينين زرق وحاجبين مقوسين شفتاها كالعناب وفمها خريم الأحباب تسلب من رآها بحسنها ودلالها وقدها واعتدالها فلما قربت منه أخرجت اللثام وسبقت في طرح السلام وأما نصر الدين لما نظرها طار عقله وأخذت قلبه وقال أهلا وسهلا ومرحبا وتقدم وخاطبها وصار يسألها عن حسبها ونسبها تقول :

يقول نصر الدين بن غانم	يا مرحبا في نجمة المصباح
أهلا وسهلا ثم الفين مرحبا	فالعقل يا مليحة راح
بالله أخبريني يامليحة بأصلك	وأين منازلـــكم مع الابراح
وعن اسم أبوك يامليحه واسمك	وعن قومك إن كانوا قوما ملاح
لأن قلبي يا مليحة انكوى	وجسمي انضنى والقلب مني راح
وان سألتي يا مليحة نسبتي	أسمي نصر الدين الفارس الوطاح
أبوي دياب الماجد المستحب	جرى صيته في برها وبطاح
حالوا علينا أهلنا يا مليحة	قتلوا أبوي كان عزه لاح
وأنا يتيم الأب يابنت افهمي	غالي مساعد في العنا ونواح
صرنا ضيوف الخيرين بأرضكم	حتى ألهى بحسن الأتراح
ردي جوابي يامليحة بالعجل	أخذت جسمي مع الأرواح

فلما فرغ نصر الدين من كلامه والصبية تسمع نظامه انسحب قلبها من كلامه وبكت لحاله وطار عقلها معها لما عرفت أنه أكبر الفرسان وزادت محبته عندها ثم أشارت تجاوبه وتقول :

قالت فتاة الحي باني التي شكت	جرى الهوى خلى الفؤاد شمال
حبك أيا نصر والله أضناني	وأدعى لقلبي فوق نار خيال
أنا بنت صالح يا أمير بلا خفا	أبوي أمير فارس قتال

أبوى أمير ابن أمير وأميرة حاكم على المكناس بالأحمال
أنا وحيـــده ناصر عند أبى وبيت فى قومى بعز دلال
إن كنت فاصبر يا أمير بوطننا اهلا وسهلا بيك يا مفضال
هيا بنا يا أمير نحو نجوعنا وحبك بقلبى ليس منه زوال
وراحم فتاة الحى يا ولد غانم تعا قت بالحب وهى تمد كالأطفال
ونقضى بقامعنا العمر سوية ونعيش بخير وصفوة بال
مقالة فتاة الحى بانى التى شكت نار الهوى جات عظامى حلال

فلما فرغت الست بانى من كلامها ونصر يسمع نظامها كاد عقله يطير من شدة الفرح وأما أمه تقدمت إلى بانى وقبلتها بين عينيها وقال لها اذهبى إلى أبيك واخبريه بحالنا فان أراد يرسل يأخذنا الآن ذهبا بنا معك يشين بعرضك ولا يليق بحقنا فودعتهم وسارت وعند وصولها إلى عند أبوها وقعت عليه وصارت تقبل يديه وقالت له يا أبى لقيت على الغدير امرأة غريبة ومعها ولدها شاب قد نظرت منهم عز القامب وهم قاصدينك من بلاد بعيدة وأخذت تفهمه عن حالهم فلما سمع الأمير صالح كلام ابنته أخذه العجب وانبهر من الاتفاق العجيب لأن دياب كان خلص له امرأة من بعض أمراء العرب وقتل له خصمه وبقى حافظ لهذا المعروف ولما سمع من بنته أن دياب قتل وابنه على الغدير ففرح جدا ووثب واقف على الأقدام وأمر العبيد أن ينصبوا صيوان الحريم أمام صيوانه وركب فى مائة فارس وسار إلى الغدير وتقدم اليه الأمير نصر الدين وقبل أياديه وقبله صالح بين الأعيان وقال أهلا وسهلا يا ابن الأمير دياب وصاحب المعروف وفارس الأرض الذى صوته يرعب الاطفال فى المهود ويرجف الاسود وكانت الشمس قاربت الزوال فرفعوا نصر الدين على هودج وصار نصر الدين على شهبا وصار بين الامارة والامير صالح لا يرفع عينيه منه لانه رآه جميلا جداً ورأى قطعته كقطعة الفيل وعلامة الفروسية تشهد له لا تشهد عليه ولما وصل إلى الخيام لاقتهم البنات وامراء العشيرة فدخلوا بالصيوان الذى نصبوه ولما دخلوا وجدوه مفروش بالحرير ومزركش ومزخرف ولما استقروا الراحة حضر لعندهم الطعام والمدام وباتوا تلك الليلة منشرحين مسرورين وفى ثانيه

يوم اجتمعوا الامراء والاعيان عند الامير صالح فأتى بهم إلى صيوان نصر الدين فقام لهم على الاقدام ولاقاهم بالترحيب والإكرام وبعد أن جلسوا وأخبرهم نصر الدين بقصة والده فبكى صالح عليه وجمع رجال قومه وتأسفوا عليه وصاروا يعزوا نصر الدين وقال له الامير صالح لا تتكدر ياولدى فمن خلف مثلك ما مات واصبر على حكم الله لانه قادر على أن ينولك مرادك والآن حيث كبرت وما عاد لى اقتدار فرادى أن أنصبك مكانى حاكم على العشيرة وقد زوجتك ابنتى بلا مهر صداق فتعجب الامير نصر الدين من كرم الامير صالح ووثب وقبل يديه وشكره على معروفه (قال الراوى) ثم انصرفوا وصار الامير صالح يهيء لوازم العرس وأرسل إلى جميع القبائل يدعوهم إلى عرس ابنته فتواردت العربان من كل جانب ومكان وقاموا الافراح والليالى الملاح ودقت الطبول وانفخت الزمور وصارت الارض تموج مثل أيام يأجوج ومأجوج وعين الامير صالح مدة العرس أربعين يوما فنحروا النوق والاغنام ودارت ليالى الافراح ونهار الاربعين بنوا صيوان الامير نصر الدين وألبسوه حلة من الحرير وأجلسوه على كرسى من العاج وصارت الفرسان تتوارد اليه وتتصف حواليه وقام الميدان ولعب الجريد بين الابطال وعند المساء خرجوا العروس من عند أبوها وهى كالشمس المنيرة وعليها من الجواهر ما يهيج الانظار وركبوها على هودج عالى من الحرير المقصب وبعد أن طافوا بها أدخلوها إلى صيوان نصر الدين وأتى القاضى والشهود وعملوا الفروض الدينية ثم انصرف الجميع وبات مع العروس فى هناء وسرور وأصبح ثانى يوم منشرح الصدر مسرور الخاطر وبقوا مدة أيام فى مثل هذا الحال وبعد ذلك جلس نصر الدين حاكما على القبيلة عوضاً عن الامير صالح وباركت له فى ذلك الامراء والاعيان وصار يتعاطى على الاحكام ويعدل فى الرعية ويوهب ويعطى الشعراء والفقراء حتى أحبه القريب والبعيد وصارت تنقل ذكره الشعراء من مكان إلى مكان ويوصفوا جوده وكرمه وصار هو أيضاً يركب إلى الغابات ويصطاد الاسود والفهود وبسط كل على عاصى ونمرود حتى طاعت لحكمه كل القبائل وصار له اسم وهيبة أعظم من أبوه .

(قال الراوى) هذا ما كان من نصر الدين وأما ما كان من أمر الامير بريقع ملك

تونس فانه بعد قتل الامير دياب كثر ظلمه وطغى وبغى وتحكم ولا عاد يفرق بين الامير والفقير وأكثر جوره على بنى زغبة وانعكف على معاشرة النسوان واللهو واللعب حتى كره العربب والأكثر بنى زغبه ولما أعيام الامر اجتمعوا عند الامير خطير أكبر أمراء بنى زغبة وقالوا إنا أتينا لنشيرك فى أمورنا الآن ما عاد لنا طاقة على ظلم أعدائنا وهم دائماً يتسلطون على أموالنا وحريمنا فلما سمع كلامهم الامير خطير أطرق راسه إلى الارض برهة ثم رفع راسه وقال ياقوم انتم عملتم بحالكم هذا العمل لانكم تهاونتم وما أحد منكم شهر سيف فروحه اليتامى وقتل الامير دياب وانتهيتم لقتله ولكن أنتم تعرفون أن لا يفرجكم من هذا الضيق إلا الأمير نصر الدين لانه فارس مغوار فالاوفق نستخبر عنه فى أى أرض ونرسل نستدعيه يستلم قيادة الفرسان فقالوا افعل مرادك فنحن لا نعرف تدبير هذا الامر إلا منك فعند ذلك ارسل الامير خطار استدعى الامير شاعر خبير بالبلاد والقبائل ذلك وقال اعطونى رفيقين فاعطوه واحد اسمه حامد والثانى اسمه منصور فلبسوا ثياب الشعار وكذا الرباب على اكتفاهم ومضوا فى ذلك اليوم وصاروا يطوفوا البلدان ويمدحون العباد وبقوا على هذا الحال مدة شهرين حتى وصلوا إلى غدير ماء فى بلاد الفاس المكناس فجلسوا على الغدير ليرتاحوا فوجدوا جماعة من الرعيان إذا كان قصدكم العطا فاقصدوا البحر الغزير الفارس الخطير والسيد الشهير نصر الدين فقال ناصر من هذا قال هو أمير حجازى أتى إلى بلادنا الآن قومه بنى هلال قتلوا أبوه وتزوج بنعو أميرنا وصار الآن حاكم على بلاد الفاس والمكناس ولا أظن يوجد أفرس منه على وجه الارض وقد سمعنا أنه أبوه كان فارس مشهور وبطل صنديد قهر الملوك والابطال واسمه الأمير دياب فلما سمع الشاعر ناصر هذا الكلام كاد يطير من الفرح وقال بالله عليك يا ابن العم دلنا على هذا الأمير فنحن من عربه ويصير لك عنده المقام الاكبر لانه ينسر منا ويحب أن ينظرنا ومعنا له أخبار من أهله فسار كبير الرعيان أمامهم حتى وصلوا فوجدوا المجلس محبوك فجلسوا فى الخارج فالتفت نصر الدين وجد شعار خارج الباب فقال تفضلوا يا شعار وشرفونا فدخلوا فأمر أن يأتوا بالزاد فأكلوا وأحضروا لهم القهوة وبعد ذلك قال

لهم الأمير نصر الدين هاتوا سمعونا ياشعر او ماعندكم من الأشعار فعند ذلك أخذ ناصر ربابته وأشار يمدح نصر الدين يقول :

يقول الفتى ناصر على ماجرى له ... ودمع عينى على الخدود ذروف
يا ملك اسمع كلامى وقصتى ... وافهم إلى قولى وكن انصوف
نحن قرانا أشعار بالارض كلها ... وقصد أبواب الجوين نطوف
طفنا بلاد السرور والكريج واليمن ... وزرنا المداين كلها وحروف
يدعى ويقع بوله الهلالى أبو على ... له صيت أشنع من حريق الصوف
دخلنا لعنده ياملك فى قصره ... مدحناه فى قول مليح يتوف
من بعد قول ياملك جاد بالعطا ... وهب لنا عنزة ومعها خروف
قالت له بريقع ما تخشى بالعطا ... ماهى إلى أبوك أبو على الموصوف
وأمر بضربى ثم ضرب رفاق ... قمنا هربنا والعقل صار حقوف
جينا إلى ختار يا أمير بجربا ... والد ناصر السيد الموصوف
أمر لنا فى الف دينار أحمرا ... ومائة ناقة والف رأس خروف
ودرنا على كل الرغابى جميعهم ... تراهم كما زهر الربيع هفوف
ولكن ترى سلطانهم بريقع منكدا ... له وجه معتم أغبر منكسوف
لما دياب الخيل راح وارتحل ... ذهب عزمهم والعقل زاد خطوفه
لما أردت وداعهم قد وقفونى ... يوصونى وصاية كاملة الوصوف
يقولون لى بالله ياشاعر استمع ... لنا فاقد بالعطا موصوف
يدعى نصر الدين من نسل غانم ... وأبوه دياب الفارس الموصوف
أن كنت توجده لنا يا شاعر ... اعطيك كل ملاكنا وحروفه
وقول له يركب الينا وينحدر ... فوق شهبة شبهه بحرف يطوف
عسى يعود السعد الينا بريقع ... وتعود لنا أيام الهنا وتشوف
فرحنا ندور فى البلاد كلها ... اهل نلاقى الفارس المكاوف
وناخذ البقشيش من آل زغبى ... ويزول عنهم الهم والمتلوف
سمعنا بصيتك قبل أن ندخل الحما ... بأنك صيدع فارس معروف

قصدنا اعتابك ياملك جود بالعطا   واجبر فؤادى لا تكون مخوف

فلما فرغ ناصر من كلامه فزز الشعار على أقدامهم وكشفوا عن وجوههم اللثام وقالوا له والله نحن أولاد عمك وقد أتينا بصفة شعار اندور عليك فى البلدان حتى نجىء ونخلصنا من ظلم بنى هلال والحمد لله الذى وجدناك فى هذا العز فلما عرفهم ناصر الدين وثب اليهم وجعل يقبلهم ويسلم عليهم وسألهم عن الامارة واحد بعد واحد وقال لهم يلزم أن تبقوا عندنا ثلاثة أيام وبعد ذلك ترحلوا تبشروا قومى انى بعد ثلاثين يوما اركب من هنا بقومى وبعد ستون يوما اكون عندهم وأفرج عنهم العار ويعود لهم الزمان كما كان فأقاموا عنده ثلاثة أيام خلع كل منهم خلعة ملوكية وأن تساق امامهم الانعام فارادوا ان يستعفوا فقال لهم لابد أن تأخذوه الا انى سمعت لكم فينا حيث كنتم شعارو وانا لا يمكن ارجع بما أعطيت وبعده ركبوا وحضر لهم كل ما وهبهم وساروا يقطعون البرارى والقفار حتى وصلوا الى بيوتهم وأخذوا لانفسهم الراحة فعرفت بنو زغبة بقدومهم فأتوا وسلموا عليهم ومنهم الأمير خطار وبعد أن شربوا القهوة قال لهم الأمير خطار ما توا بالذى رأيتموه فصار يخبرهم ناصر يقول :

يقول الفتى ناصر عما جرى له   ياقوم اصغى للحديث الذى جرى

درنا بلاد الغرب والديار كلها   حتى بلاد الفرس وأرض كوجرا

رحنا إلى مكناس فى عشرا رجب   لهم ملك والله سبع غضنفرا

أشقر طريف القد حلو المبسمة   يشبه دياب الخيل يا أهل الورى

ما شفت مثله بالكرم يا أهل الكرم   يجرى عطاه مثل فيض الابحرا

له صيوانا وميتين اميرا حوله   والفين عبداً واقفة متشورا

وميتين ملوكة امامه تخدمه   مثل الكواكب حسنهم متقمرا

يقضى ويمضى والأيام تطيعه   ومن خالف كلامه يقهرا

دخلنا عنده بالمسا وقت العشا   وانا بصفة شاعراً حوالى منكرا

بعد أن أكلنا وشربنا الشراب   عدلت أنا بابى يا أهل الورى

وأخبرته عن قصتى وعن سفرتى   وعن حاليا يا قوم الذى جرى

وثب إلينا وقال اهلا وسهلا   انتم عمامى أولاد عمى الانصرا

وقال لى روحوا لأهلى وبشروا ⁂ إلى أعمامنا وأخوالنا والاصهرا
لازم أجيبهم فوق شهبا مبرشمة ⁂ تشبه إلى ريح الشمال إذا جرى
واقتل عدوى واشتفى من قتله ⁂ وافنى أكابرهم كذالك الاصغرا
أنا ناصر الدين ما فى خفـــا ⁂ ادعى الفوارس بالحرب مقهقرا
أوهب لنا هذه الأموال جميعها ⁂ لعجز ملوك الأرض وتقصرا
يا آل زغبى ابشروا فى سعدكم ⁂ قد غاب نجم النحس عنك والدرا
من بعد شهر كامل يأتى لكم ⁂ شبه سبع لو قلته من موكرا
شدوا حزام خيولكم يا قومنا ⁂ جانا مفرج من عند رب مقدرا
ما قال ناشر راح عقلى والشرد ⁂ مما نظرنا فى عيون المبصرا

فلما فرغ ناصر من كلامه والزغبى يسمع نظامه طاروا من شدة الفرح وما أحد إلا وتقدم ناصر وأدوا له الشكر الجزيل ودارت الأفراح فى الحى وأخذوا من ذلك الوقت يهيئوا حالهم إلى الملتقى وعند فروغ اليوم المعين خرجت الأمارة إلى خارج البلد وطلعوا إلى تل عالى ونظروا إلى البرساعة فنظروا من غبار فصبروا عليه فانجلى على فارس راكب شقرا كأنها البرق ووصل اليهم فقالوا له من أى موضع قادم قال من عند سيدى حاكم فارس والمكناس الأمير نصر الدين وسبب قدومى هو لابشر بنى زغبة بتشريفه فى هذا النهار فعند ذلك أعطوا الخبر لجميع بنو زغبة فخرجوا تسعين الف فارس فى الحديد غواطس ومعهم الراية البيضاء التى كان ينشرها دياب فخرجت مشيخة الشباب ستين الف فارس وخرجوا قوم بنى قايد تسعين الف فارس وما بقى فى تواس إلا بنى دريد وبنى زحلان وجملتهم مائة وثمانون الف فارس وأما جملة الذين خرجوا الملتقى مائتين وأربعين ألف فارس من كل مدرع ولابس فى الحديد غاطس وأما من العبيد والأولاد والنساء لا يعلم عددهم غير رب العباد ولما تكامل خروج الفرسان مشوا جميعهم مقدار ساعتين فوصلوا إلى مكان واسع جميل المنظر وذلك المكان يدعى برشان فحلوا هناك وما أخذوا لأنفسهم راحة إلا والغبار ثار والجو بعد الصفا تكدر وثار ذلك الغبار حتى لحق عنان السماء وبعد ساعة انجلى ذلك الغبار فبان عن بيارق مغربية وخيول شامية فرسان عنكاسية ورماح خطية وسيوف هندية ودروع

داودية وخوذ سليمانية وطوارق هندية وفي أول تلك الخيل فارس طويل القامة عريض الاكتاف أشقر اللون أزرق العينين عليه درع داودى مطبع فى الزرد وعلى رأسه خوذة من عمل الهند وعلى كتفيه رمح طويل مكعب وعلى يساره سيف مسطب ورا كب حجرية عربية كأنها الحمامة الشهبا بنعل الخضر الاصلية وهو فى ظهرها كأنه نمر جارح وليث فاضح وهو الأسد المهاب والفرخ العقاب مشعل النيران فى الهضاب السبع الاروع والبطل الصميدع الملك نصر الدين ابن الملك دياب الذى خضعت له صناديد الرجال وعلى يمينه عمه الملك الصالح النمر الجارح وعلى شماله الامير صالح الأمير المجازم والليث الحازم ومن وراءه عشرين رايه وتحت كل راية خمسة آلاف فارس ديوث عوابس فلما وصلوا ابعضهم البعض حول نصر الدين على أعين برشان واحد يسلم على كافة الفرسان كل واحد بمفرده وبعدها أمر بنصب الخيام فى ساعة وكان كل شىء متم ونصبوا للملك نشر الدين والى عمه صيوان على خمسمائة عامود من النحاس الاصفر وعشرون الف طنب وذلك الصيوان من الحرير الاخضر فى أعلاه تفاحة من الذهب الأحمر ومن داخله منقوش من تواريخ الاولين وعليه صور ملوك سالفين فجلس نصر الدين على كرسى من الذهب وجلس عمه عن يمينه وابن عمه عن شماله وسحب السيوف وقعدوا أمامه والخادم بين يديه والشاويش ينادى العزلله هذا ما كان من هؤلاء وأما ما كان من بريقع بن حسن اجتمع مع وزيره شيبان وقال له أرى اليوم بنى زغبة خرجت خارج البلد هم فى ضجة عظيمة فما يكون فى ذلك فقال ليس لى علم بشىء وهم فى الحديث دخل عليهم عبد وقال اعلم ياملك أن الفرسان قد سدوا الارض وأتى من بلاد العرب فارس عظيم وخرجت بنى زغبة إلى لقاه واجتمعوا على عين برشان وسلموا عليه سلام الاخوان فلما سمع بريقع ذلك الكلام صار الضياء فى وجهه ظلام والتفت إلى شيبان وقال له من يكشف لنا خبرهم فأرسلوا جاسوس فسار ودخل بنى زغبة وعرف الأمير وعاد فأخبر بريقع فعند ذلك صرخ من علو رأسه وحق من خلق السماء ورفعها من غير عمد وبسط الأرض لأخليهم عبرة لمن اعتبر فوحق من كون الأكوان لادعى سنان رمحى فى صدره وسيفى فى عنقه وأمر بدق الطبول ونادى على الفرسان تعتلى فوق الخيل وتمت الفرسان وركب الشجعان وأما بريقع

لبس درع أباه وتقلد السلاح وركب بنت الحيصا وشيبان عمل مثله وخرجوا من تونس فى ٢٨٠ الف فارس أسود عرابس ولما قربوا الى عين برشان نظرتهم الأعيان فركبت الفرسان الخيول ووقعت العين على العين واصطفت المعسكرين أما الملك نصر الدين لم يتحرك من مكانه ولما دق طبل البراز برز شيبان بن أبو زيد إلى الميدان وطلب مبارزة الفرسان وقال لا ينزل لى كسلان ولا بليد إلا السادات الأماجيد فلما نظره نصر الدين قال من هذا الفارس قال هو شيبان بن أبو زيد فعزم أن ينزل اليه فسبقه الأمير الجازم ابن أخو الأمير صالح وصدمه صدمة جبار فتلقاه شيبان فتلاطما وتراجما حتى طلع من الاثنين ضربتين قاطعتين فكان السبق فى الضربة الأمير جازم فطعنه بين البرز بن طلع الروح بين اللوحين فوقع إلى الأرض يختبط بدمه فلما رأى بريقع شيبان قتيل نزل إلى الميدان وطلب مبارزة الأبطال وقال لا أريد ينزل إلى حربى غير أميركم فما تم كلامه حتى صار نصر الدين أمامه وقال له اسكت يا ردى لو كان فيكم فارس ينزل الى حربى فالتقوا كما تلتقى الأرض العطشانة أوائل المطر وصار الأمير نصر الدين يقتل حول بريقع فى الهوا مثل حجر الطاحون وأما بريقع وجد حاله مع خصمه مغلوب وصار يستغنم فرصة ليفر من أمامه ولكن نصر لم يمكنه من ذلك بل هجم عليه وصرخ وقال إلى أين يا كليب العرب وأنا وراك فى الطلب وجذب سيفه الضامى وقال الله أكبر ونزل به على بريقع قسمه على الجواد أربع قطع وأشار بيده إلى قومه فانطبقوا على بنى زحلان مثل القضاء المنزل فما كانت ترى إلا رؤوس طائرة ودماء فائرة وفرسان عاثرة والخيار غطى العنان فلا سلم فى تلك الواقعة سوى أربعة واحد من قوم زحلان فعندها دخل نصر الدين إلى تونس وطلع فى قصر أبوه وتسلطن على كل الغرب وصفيت له الأحكام وطاعته كل الأنام وبقى فى بسط وانشراح مرتاحين فى غاية السرور حتى أتاهم هازم اللذات ومفرق الجماعات

تمت قصة تغريبة بنى هلال

بالتمام والكمال والحمد لله على كل حال


Bibliotheca Alexandrina
06955234